وظيفةٌ قد زيد فيها ، وأطعمة قد احتشد مشتريها ، اتَّبعها إلى المَقْصِد بها ، وشيعها إلى المنزل الحاوى لها ، واستعلم ميقاتَ الدعوة . . وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنين ، فإذا أتاه خبر لجمع يضمهم ، ومأدُبةٍ تعمُّهم . . حَمل عليها حَمْلة الحوت الملتقم ، والثعبان الملتهم ، واللَّيْث الهاصر ، والعُقاب الكاسر . وأمره أن يَرُوضَ نفسه ، ويغالط حِسَّه ، ويضرب عن كثير مما يلحقه صَفْحاً ، ويَطْوِىَ دونه كَشْحاً ، فإن أتته اللَّكْزَة فى حلقه ، صَبَر عليها فى الوصول إلى حقه ، وإن وقعت به الصَّفْعة فى راسه ، صَبر عليها لموقع أضراسه ، وإن لقيه لاق بالجفاء ، قابله باللطف والصفاء » .

والعهد بديع ، وهو يصور حياة المتطفلين المتسكعين ببغداد ، وكانت قد نشأت منهم طبقة كبيرة احترفت الأدب واتخذته وسيلة للشحاذة الأدبية ، وهم أهل الكُدْية ، وقد تحدثنا عنهم فى غير هذا الموضع مصورين كيف كانوا يتخذون الشعر الفكه لتصوير إفلاسهم وبؤسهم تصويراً يبعث السرور فى نفوس سامعيهم . ولا ريب فى أن أهل بغداد ظلوا يضحكون طويلاً كلما قرءوا عهد أبى إسحق الصابئ السالف أو تذكروه ، وسجعه فيه مكتمل الأداء الموسيقى ، سواء قصَّره أو طوَّله ، إذ يبغى به دائماً أن يلذَّ الآذان ، حين تنصت إليه لذة موسيقية بديعة .

العلاء [1] بن الموصَلاَيَا

هو أمين الدولة أبوسعد العلاء بن الحسن بن وهب بن الموصَلايا البغدادى ، ولد سنة ٤١٢ ببغداد وبها كان منشؤه ومرباه ، ونشأ نصرانيًّا ، وأقبل على دراسة الأدب وحفظ نصوصه من الشعر والنثر ، كما أقبل على حفظ القرآن الكريم حتى يعدَّ نفسه مثل أبى إسحاق الصابئ ليكون موظفاً بالدواوين ، وسرعان ما بهر الناس بأدبه ، ولم يلبث الخليفة القائم (٤٢٢–٤٦٧ هـ) أن جعله كاتب الإنشاء بدار الخلافة سنة ٤٣٢ وظلت له هذه الوظيفة فى عهد المقتدى (٤٦٧–٤٨٧ هـ) والمستظهر (٤٨٧–٥١٢ هـ) حتى توفى سنة ٤٩٧ وبذلك شغلها خمسا وستين سنة . وأتم الله عليه فى أثناء ذلك نعمته ، فأسلم وحَسُنَ إسلامه ، واختلف من ترجموا له فى زمن إسلامه ، فالعماد الأصبهانى يقول إنه كان فى زمن القائم ، ويقول ابن خلكان إنه كان فى زمن المقتدى ويعين السنة بأنها كانت سنة ٤٨٤ .

---

(١) انظر فى ترجمته وما استشهدنا به من نصوصه الخريدة (قسم العراق) ١/١٢٣ والمنتظم ٩/١٤١ ونكت الهميان ص ٢٠١ والنجوم الزاهرة ٥/١٨٩ وابن خلكان ٣/٤٨٠ وصبح الأعشى ٦/٤٠٤، ٤١٥، ٤٥٣ ، ١٠/٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٩٤ .

ونميل إلى الأخذ برأى العماد لأنه ظل طويلاً ببغداد . وقد كُفَّ بصر العلاء فى آخر حياته فكان ابن أخته هبة الله بن الحسن يكتب الرسائل عنه . وظل جاهه يزيد عند المقتدى كل يوم حتى ضَمَّ إلى رياسته لديوان الرسائل النيابة فى الوزارة وظل يضمها فى عهد المستظهر . ويقول العماد عنه : «كان بليغ الإنشاء ، سديد الآراء ، رسائله تعبرُ عن غزارة فضله ووفور علمه» ويقول الصفدى : «أحد الكتاب المعروفين الذين يُضْرَب بهم المثل» .

وقد احتفظ كتابُ صبح الأعشى للعلاء فى جزئه السادس بثلاث رسائل : رسالة بشارة بالنصر على البساسيرى فى منتصف القرن الخامس حين قضى عليه طُغْرُلْبك ، وهى موجهة من الخليفة القائم إلى صاحب غَزْنَة ، ورسالة ثانية موجهة من الخليفة القائم أيضاً إلى شخص عيَّنه وزيراً له ورسالة ثالثة موجهة منه إلى أتسز . وبالمثل احتفظ صبح الأعشى فى جزئه العاشر بثلاث رسائل أخرى ، أولاها عهد ليوسف بن تاشفين بسلطنة الأندلس وبلاد المغرب ، وهو موجه إليه من الخليفة القائم ، ومعروف أن يوسف ابن تاشفين إنما تسلطن على الأندلس فى سنة ٤٨٥ بعد وفاة القائم بنحو ثمانية عشر عاماً ، فإما أن يكون العهد خاصاً بسلطنته على بلاد المغرب ، وإما أن يكون موجهاً إلى يوسف من الخليفة المقتدى الذى تسلطن يوسف على الأندلس فى عهده أو من الخليفة المستظهر تاليه فى الخلافة منذ سنة ٤٨٧ والعهد طويل ، إذ يقع فى نحو أربع عشرة صفحة ، ويشتمل على عشرين آية قرآنية ، مما يدل بوضوح على حفظ ابن الموصلايا للقرآن وأنه كان يَقْبس من أضوائه فى رسائله مثل الصابئ . والرسالة الثانية موجهة من القائم إلى ابن جهير حين استوزره وأرَّخ القلقشندى الرسالة بسنة ٤٧٢ وكان القائم قد توفى منذ خمس سنوات ، ومعروف أن القائم استوزر ابن جهير مرتين : مرة سنة ٤٥٥ ومرة سنة ٤٦١ وظل فى الوزارة حتى توفى القائم ، وأقره الخليفة المقتدى على الوزارة سنين ، ثم عزله . وبذلك يكون التاريخ الذى أرخ به القلشندى هذه الرسالة الثانية غير دقيق . والرسالة الثالثة موجهة من القائم إلى جاثليق النصارى النسطوريين فى صورة عهد بحياطته هو وأهل ملته فى نفوسهم وأموالهم وبِيَعهم وديارهم ومقارّ صلاتهم ، على أن تؤخذ الجزية – وكانت أشبه بضريبة دفاع – من رجالهم ذوى القدرة دون النساء ومَنْ لم يبلغ الحُلم ، ولا تؤخذ إلا مرة واحدة فى السنة . والعهد يجعل الجاثليق النسطورى لا رئيساً للنساطرة المسيحيين الشرقيين فحسب ، بل أيضاً للروم واليعاقبة فى بغداد وسائر البلدان الإسلامية ، فهو بَطْرك النصارى العام . ويلفتنا فى العهد لابن تاشفين وفى الرسالة الموجهة إلى ابن جهير وكذلك فى الرسالة التى تبشر بالنصر على البساسيرى أن ابن الموصلايا يطيل

فى الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ﷺ ، وتجرى الصلاة فى رسالة البساسيرى على هذا النمط :

« الحمد لله الذى اختص محمداً ﷺ برسالته وحَباه ، وأولاه من كرامته ما حاز له به الفضل وحَواه ، وبعثه على حين فَتْرة من الرسل ، وخَلاء من واضح السبل ، فجاهد بمن أطاعه مَنْ عصاه ، وبلغ فى الإرشاد أقصى غايته ومداه . . إلى أن دخل الناس فى الدين أفواجاً ، وسلكوا فى نُصْرته جَدَداً (طريقاً) واضحاً ومنهاجاً ، وغدتْ أنوار الشرع ضاحكة المباسم ، وآثار الشرك واهية الدعائم ، ومناهل الهدى عذبة صافية ، فصلَّى الله عليه وعلى آله الطاهرين وأصحابه المنتخَبين ، وخلفائه الأئمة الراشدين ، وسلَّم تسليماً » .

ولعلى لا أخطئ إذا قلت إنه أسلم مبكراً على الأقل فى منتصف القرن الخامس حين كُتبت هذه الصلاة فى رسالة البساسيرى لا كما ذهب ابن خلكان إلى أنه أسلم سنة ٤٨٤ . وواضح أن السجع كان يسيل على قلمه ، وكان يعنى فيه باصطفاء ألفاظه وأن تروع بجرسها الأسماع على نحو ما نرى فى الفقرة التالية من عهد يوسف بن تاشفين :

« وأمره الخليفة أن يعدل فى الرَّعايا قِبَله ، ويُحِلّهم من الأمن هِضابه وقُلَله ، ويمنحهم من الاشتمال ، ما يحمى به أمورهم من الاختلال . . ويُضفى على المسلم منهم والمعاهَد (الذمىّ) من ظل رعايته ما يساوى فيه بين القوى والضعيف ، ويُلحق التليدَ منهم بالطريف ، ليكون الكل وادعين فى كنف الصَّوْن ، راجعين إلى الله تعالى فى إمدادهم بالتوفيق وحُسْن الطاعة والعَوْن ، وأن ينظر فى مظالمهم نظراً ينصر الحق فيه ، وينشر عَلَمَ العدل فى مطاويه . . مُلِيناً لهم فى ذلك جانبه ، ومُبِيناً ما يظل به كاسبَ الأجر وجالبَه ، جامعاً لهم بين العدل والإحسان ، وجاعلا أمر الله تعالى فى ذلك متلقًّى بالطاعة الواضحةِ الدليلِ والبرهان ، قال الله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاءِ ذى القُرْبى وينْهَى عن الفحشاء والمنكر والبَغْى يعظكم لعلكم تذكَّرون) .

وهو يلتزم السجع على هذا النحو فى رسائله ، محاولاً بكل ما استطاع أن يصفِّى ألفاظه من الشوائب ، ويخليها من جميع الأدران حتى تروق السامع ، وحتى يبلغ من التأثير فيه كل ما يريد ، وهو يستتم تأثيره بما يختم به فقره فى هذا العهد وفى غيره من رسائله بما يورد من آيات الذكر الحكيم التى تضىء بأشعتها الكلام وتجذب إليه القلوب والأفئدة .

ضياء[1] الدين بن الأثير

هو ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى ، ولد بجزيرة ابن عمر شمالى العراق سنة ٥٥٨ لأسرة تُعْنَى بعلوم الشريعة واللغة ، ووجهه أبوه لحفظ القرآن الكريم ، وفرَّغه للدراسة كما فرَّغ أخويه : المبارك وعز الدين صاحب كتاب الكامل فى التاريخ . وانتقل ضياء الدين مع أبيه إلى الموصل سنة ٥٧٩ وفيها أتمَّ دراسته للعلوم الإسلامية واللغوية والبلاغية ، وأكبَّ على حفظ الأحاديث النبوية والأشعار القديمة والحديثة وخاصة أشعار أبى تمام والبحترى والمتنبى . ولما أحسّ أنه كملت له أدواته فى الكتابة قصد صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٧ ووصله به القاضى الفاضل وزيره ، فعمل فى دواوينه نحو أربعة أشهر ، ثم طلبه الأفضل نور الدين من أبيه صلاح الدين ، ولبَّى طلب ابنه ، فانتقل إلى العمل معه بنفس راتبه ، واتخذه لنفسه مستشاراً ووزيراً . وتوفِّى صلاح الدين ، فصارت دمشق للأفضل ، وكلَّف ضياء الدين بتدبير شئونها ، فأساء التدبير والمعاملة مع أهلها ، حتى هَمُّوا بقتله . وتتطور الظروف ويصبح الأفضل سلطانا على مصر ، فيلحق به سرًّا فى صندوق مقفل عليه خوفاً من الدمشقيين أن يقتلوه . ويظل نور الدين فى مصر عاماً ويأخذها منه عمه العادل ويعوِّضه منها قلعة على الفرات تسمى سُمَيْسَاط . ويخرج ضياء الدين وراءه مستتراً إلى ولايته الجديدة ، ويقيم عنده مدة ، ثم يفارقه إلى غير مآب فى سنة ٦٠٧ ويرحل إلى أخيه السلطان الظاهر صاحب حلب ، ولا يطول مقامه عنده ، فيولى وجهه نحو الموصل ، ولا تستقيم حاله ، ويفارقها إلى إربل سنة ٦١١ ولا يستقر بها ، بل سرعان ما يخرج منها إلى الموصل ، وبها يلقى عصاه منذ سنة ٦١٨ إذ يصبح كاتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود حتى نهاية حياته ، ويحدث أن يرسله فى سنة ٦٣٧ إلى بغداد فى بعض المهام ، فيدركه بها الموت .

وحَظِىَ ضياء الدين عند الأسلاف بشهرة عظيمة لروعة أسلوبه فى رسائله ويقول ابن خلكان إنها كانت تشغل مجلدات ، والمختار منها — كما يقول — مجلد واحد . وربما كان أهم منها فى سبب شهرته كتابه : «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر» وفيه صوَّر الصناعة اللفظية وما يتصل بها من المحسنات البديعية ، والصناعةَ المعنوية وما يتصل بها من

---

(١) انظر فى ضياء الدين وترجمته ابن خلكان ٥/ ٣٨٩ والحوادث الجامعة (طبع بغداد) ١٣٦ وعبر الذهبى ٥ / ١٥٦ ومرآة الجنان ٤ / ٩٧ والنجوم الزاهرة ٦ / ٣١٨ والشذرات ٥ / ١٨٧ وانظر كتابنا : البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٣٢٣ .

صور البيان ، موضحاً توضيحاً تامًّا ما يحتاج الكاتب إلى العكوف عليه واستيعابه وتمثله من العلوم اللغوية والبلاغية والأشعار وأمثال العرب وحفظ القرآن الكريم والحديث النبوى مع معرفة الأحكام السلطانية وخاصة أحكام الخلافة والولايات وما يتصل بذلك من الفقه . وبلغ من إعجاب بعض الأسلاف بالكتاب أن قالوا : «إن المثل السائر للنظم والنثر بمنزلة أصول الفقه لاستنباط أدلة الأحكام» . وله بجانبه كتب أخرى ، منها كتاب الوشى المرقوم فى حَلِّ المنظوم ، وقد أفرد فيه فصلين لبيان الاستعانة بآيات القرآن الكريم والحديث النبوى فى الرسائل .

وكتاب المثل السائر يضع تحت أعيننا طريقته وخصائصه فى رسائله الديوانية ، وهو يُعْنَى فيها قبل كل شىء بالسجع وتوشيته بالصور البيانية والمحسنات البديعية ، مع نثر ألفاظ القرآن الكريم والحديث النبوى فيها وَحلِّ أبيات الشعر . وعادة يسوق فى الكتاب أمثلة كثيرة من كتاباته يصور بها جوانب من صناعته فى رسائله ، من ذلك استيحاؤه آيات سور الرعد والذاريات والصافات ، وهى : (اللهُ الذى رفَع السَّموات بغير عَمَدٍ ترونها) (وفى السماءِ رِزْقُكم وماتوعدون) (وحفظاً من كل شيطان ماردٍ لا يَسَّمَّعون إلى الملأ الأعلى ويُقْذَفون من كل جانب) إذ يقول فى إحدى رسائله واصفاً غبار الحرب :

«وعَقد العَجاجُ[1] شَفقاً فانعقد ، وأرانا كيف رَفْعُ السماء بغير عَمد ، غير أنها سماء بُنيت بسنابك الجياد ، وزُيِّنت بنجوم الصِّعاد[2] ، ففيها ما يُوعَدُ من المنايا لا ما يوعد من الأرزاق ، ومنها تُقْذَفَ شياطين الحرب لا شياطين الاستراق» .

ويعرض علينا أمثلة مِن اقتباسه للحديث النبوى وألفاظه فى رسائله ، فمن ذلك ما رُوى عن الرسول عليه السلام من أنه فى غزوة حُنَيْن أخذ قَبْضة من التراب وألقاها فى وجوه الكفار قائلاً : «شاهت الوجوه» . ونقل ذلك ابن الأثير إلى إحدى رسائله واصفاً الانتصار على العدو وسحق جنوده قائلاً :«أخذنا بسنة رسول الله ﷺ فى النصر الذى نرجوه ، ونبذنا فى وجه العدو كفًّا من التراب ، وقلنا : شاهت الوجوه» . ويورد ضياء الدين أمثلة كثيرة من حله للأشعار ، من ذلك بيت المتنبى الذى يصف فيه استنقاذ سيف الدولة لقلعة الحَدث من الروم وتجديد بنائها وتمزيق العدو شر ممزَّق ، إذ يقول :

وكانَ بها مثلُ الجنونِ فأصبحتْ ومِنْ جُثَثِ القَتْلَى عليها تَمائِمُ

وقد نثره ضياء الدين فى وصف معركة مماثلة قائلا : «وكأنما كان بالبلدة جنون ، فبعث لها من عزائمه عزائم ، وعلَّق عليها من رءوس القتلى تمائم» . ومن ذلك بيت البحترى :

(١) العجاج : الغبار. (٢) الصعاد : الرماح .

سُلبوا وأشرقتِ الدماءُ عليهمُ محمَّرةً فكأنهم لم يُسْلَبُوا

فقد نثره فى فصل من جملة رسالة تتضمن البشرى بهزيمة الكفار ومحقهم محقاً لم يُبْق منهم ولم يَذر . والفصل يجرى على هذا النمط :

« سُلبوا وعاضتهم الدماءُ عن اللِّباس ، فهم فى صورة عارٍ وزِيُّهم زِىُّ كاس ، وما أسرع ما خيط لهم لباسُها المحمّر ، غير أنه لم يُجَيَّبْ[١] عليهم ولم يُزَرّ ، وما لبسوه حتى لبس الإسلام شعار النصر ، الباقى على الدهر ، وهو شعار نسجه السِّنان الخارق ، لا الصَّنَعُ الحاذق ، ولم يَغِب عن لابسه إلا ريثما غابت البِيض[٢] فى الطُّلَى والهام[٣] ، وألَّف الطَّعْنُ بين ألف الخط واللام » .

والفصل يدل على مهارة ضياء الدين فى السجع ، وهى مهارة كتب بها مجلدات ، كما أسلفنا من الرسائل الديوانية . ونراه فى المثل السائر يحمل على الأسجاع الغثة التى تحيل الكلام رصفاً لألفاظ وحَشْداً لكلمات دون أن تحمل شيئاً من المعانى الطريفة المبتكرة ، بحيث لا يلذ السجع الفكر كما لا يلذ السمع .

وينوه ابن خلكان ببعض صوره واستعاراته فى أسجاعه ، ويضرب لذلك بعض الأمثلة ، منها قوله فى وصف النيل وقت زيادته وفيضانه فى رسالة من رسائله : « وعَذُبَ رُضَابُه فضاهى جَنَا النَّحْل[٤] ، واحمرَّ صَفيحه فعلمتُ أنه قتَل المَحْل[٥] » . ويقول ابن خلكان : « وهذا بديع غريب نهاية فى الحسن ، ولم أقف لغيره على أسلوبه » . وضياء الدين يشير به إلى طمى النيل ، وكأنه فى رأيه دماء الجدب ، وهى حقاً صورة رائعة . وجعلته عنايته بالمعانى والصور المبتكرة يؤلف كتابه « المعانى المخترعة فى صناعة الإنشاء » كما جعلته عنايته بحل الشعر والاقتباس من آيات القرآن والأحاديث النبوية يؤلف كتابه : « الوشى المرقوم » .

وفى الحق أن ضياء الدين بن الأثير كان من الكتاب المجيدين ، ولم تحظ العراق بعده بكاتب ديوانى على مثاله أو مثال أنداده السابقين . وحرى بنا أن نترك كتاب الدواوين إلى أدباء العصر النابهين : أبى حيان التوحيدى ، وابن مسكويه ، والحريرى .

---

(١) جيب الثوب : جعل له جيباً وهو فتحته العليا .

(٢) البيض : السيوف .

(٣) الطلى : الأعناق ، والهام : الرءوس .

(٤) الرضاب : الريق ورغوة العسل . جنا النحل : عسله .

(٥) المحل : الجدب .

٣

أبو حيان [1] التَّوْحِيدىّ

هو أبو حيان على بن محمد بن العباس التَّوْحِيدىّ ، وقد اختُلف فى مسقط رأسه وتاريخ مولده ووفاته ، فقيل مسقط رأسه شيراز بفارس ، وقيل نيسابور بخراسان ، وقيل واسط بجنوبى العراق ، وقيل بغداد ، وهو القول الراجح فى رأينا ، إذ ذكر كثير من مترجميه أن أباه كان يبيع نوعا من التمر ببغداد يعرف باسم التوحيدِ ، وعليه حَمل شُرّاح المتنبى قوله :

يترشَّفن من فمى رشفاتٍ هنَّ فيه أَحْلَى من التوحيدِ

وكأنه هو وأباه نُسبا إلى هذا التمر . وخطأ ما ذهب إليه ابن حجَر وغيره ممن ترجموا له من أن نسبته إلى التوحيد تعنى أنه من أهل العدل والتوحيد أى من المعتزلة ، إذ القدماء لا ينْسُبون إليهم هذه النسبة ، وإنما يقولون هذا معتزلى وذاك غير معتزلى ، وسنرى عما قليل أبا حيان من ألد خصومهم وخصوم المتكلمين عامة ، فليس بصحيح أنه منهم ولا أنه منسوب إليهم ، إنما هو ابن بائع متجول ببغداد كان يبيع تمر التوحيد . وفى هذا ما يشير بوضوح إلى أنه كان بغداديا ومن أسرة متواضعة . وتاريخ مولده بالدقة غير معروف ، إنما يعرف بالتقريب ، إذ روى ياقوت رسالة له مؤرخة بشهر رمضان سنة ٤٠٠ ذكر فيها أنه فى عشر التسعين ، وإذن فيغلب أن يكون مولده فى العقد الثانى من القرن الرابع بين سنتى ٣١٠ و ٣٢٠ . ويقال إنه فى السنة المذكورة كان قد ألقى عصاه فى شيراز وظل بها حتى توفى ، ويتأخر بعض مترجميه بوفاته إلى سنة ٤١٤ . وليس فى المصادر القديمة نص على جنسيته أو على أصله ، واختلف المعاصرون من قائل إنه فارسى ، ومن قائل إنه عربى ، ويرجح عروبته اعترافه – كما جاء فى ترجمه ياقوت له – بأنه لم يكن يعرف الفارسية ، وكرَّر ما يشير

---

(١) انظر فى أبى حيان وترجمته معجم الأدباء ١٥/٥ وابن خلكان ٥/ ١١٢ وشد الإزار لمعين الدين الشيرازى ٥٣ والمنتظم ٨/ ١٨٥ والسبكى ٥/ ٢٨٦ وتهذيب الأسماء واللغات ٢/ ٢٢٣ وميزان الاعتدال للذهبى ٢ /٣٥٥ ، ٤/ ٥١٨ ولسان الميزان لابن حجر ٦/ ٣٦٩ وروضات الجنات ٧١٤ وكتبت عنه فى العصر الحاضر مؤلفات وبحوث كثيرة لعبد الرزاق محيى الدين وإحسان عباس وزكريا إبراهيم ومحمد كرد على فى الجزء الثامن من مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق وأحمد أمين فى تقديمه لكتاب الهوامل والشوامل وزكى مبارك فى كتابه النثر الفنى وإبراهيم الكيلانى فى مقدمتيه لثلاث رسائل ولكتاب مثالب الوزيرين ومحمد توفيق حسين فى تقديمه لكتاب المقايسات وبروكلمان ٤/ ٣٣٥ ودائرة المعارف الإسلامية .

إلى ذلك فى المقابسة الثانية من كتابه «المقابسات» وفى المسألة الرابعة والثلاثين من كتابه «الهوامل والشوامل» . وأيضاً فإنه يدافع عن العرب بقوة – دفاع العربى الأصيل – ضد الشعوبيين من معاصريه أمثال الجَيْهانى ، ويرفعهم مكاناً عَليًّا ، كما يرفع لغتهم على كل اللغات لبيانها الرائع على نحو ما يلقانا فى الليلة السادسة من ليالى كتاب الإمتاع والمؤانسة .

وليس بين أيدينا شىء واضح عن طفولة أبى حيان ومَرْباه ومنشئه ، وطبيعى أن تكون طفولته عادية وأن يختلف إلى الكتَّاب مثل لداته يحفظ القرآن الكريم والشعر ويتعلم الخط والحساب ، وأكبر الظن أن أباه لاحظ فيه مخايل ذكاء منذ نعومة أظفاره ، مما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء فى المساجد ، وكانت مفتوحة ومهيَّأة لكل من أراد لونا من ألوان المعرفة . ويذكر أبو حيان طائفة كبيرة من أساتذته فى كتاباته ، منهم فى النحو واللغة أبو سعيد السيرافى المتوفى سنة ٣٦٨ وفى البلاغة والبيان على بن عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٦ وفى الفقه أبو حامد المرو رُّوذى المتوفى سنة ٣٦٢ وفى الحديث أبو بكر الشافعى صاحب الغيلانيات المتوفى سنة ٣٥٤ ، وفى التصوف جعفر الخُلْدى تلميذ الجنيد المتوفى سنة ٣٤٨ وفى الفلسفة وعلوم الأوائل يحيى بن عدى تلميذ الفارابى المتوفى سنة ٣٦٣ وأبو سليمان المنطقى السجتانى الذى مرَّ ذكره ، وقد تعرَّف به فى مجلس يحيى بن عدى وانعقدت بينهما صداقة وثيقة ، حتى إذا استقل أبو سليمان بندوة أو مجلس كمجلس يحيى بن عدى أصبح أبو حيان من رُوَّاده ، بل من ملازميه ومسجِّلى ما يدور بحضرته . وكان من أكبر الأسباب فى اتساع ثقافته وأنها شملت كل علم وفن احترافه الوراقة أو نَسْخ الكتب بالأجرة للناس ، فقد قرأ وكتب بيده كثيراً من الكتب فى كل فن وفى كل علم ، وانطبع كثير مما كتبه فى ذهنه وحافظته سواء أكان نثراً أو شعراً . واشتهر بشغفه بكتب الجاحظ وتوفره على تصحيحها وخاصة كتاب الحيوان ، فكان ما يكتبه منه يُعَدّ نسخاً نفيسة فى عصره ويُدِرُّ عليه مكافأة جزيلة ، كما جاء فى مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة ، بل لا شك فى أن كل ماكان يكتبه كان يُجزَى عليه الجزاء الحسن .

وتظل حياة أبى حيان مجهولة لنا حتى أوائل العقد السادس من القرن ، إلا ما نعرفه عنه من أنه كان ورَّاقا ، يعيش من نسخ الكتب ، ونراه يذهب إلى الحج فى سنة ٣٥٣ ويتعرف فى مكة على جماعة من الصوفية ، منهم ابن الجلاَّء والحرَّانى ، وفى كتاباته روايات وأخبار نسبها إليهما . وعاد إلى بغداد فى سنة ٣٥٤ والتقى فيها ببعض المتصوفة . ويبدو أنه أنس فى نفسه شيئا من القدرة الأدبية ، فرأى أن يقصد إلى ابن العميد فى الـرَّىّ لعله يجد لنفسه عملا عنده ، أو لعله يوصى به أولى الأمر فى خراسان . ويظل بعيداً عن بغداد منذ سنة

٣٥٥ حتى سنة٣٥٨ إذ عاد إليها خالى الوفاض بعد أن طال وقوفه بباب ابن العميد . وكان تعرَّف فى هذه الرحلة الطويلة إلى ابن مسكويه وبعلم من أعلام الهندسة والرياضة هو أبو الوفاء المهندس . وطبيعى أن يعود أبو حيان إلى عمله فى الوراقة ونسخ الكتب .

ويحدث فى سنة ٣٦٣ أن تشتد مظالم الدولة للرعية بما ترهقها به من الضرائب وأن تثور الطبقات البائسة المحرومة ، واستفحل أمر العيَّارين وسيطروا على بغداد ونهبوا كثيرا من الدور خاصة دور الأغنياء ، وكان مما نهبوه دار التوحيدىّ ، فقد أخذوا كل ما كان بها من ذهب وثياب وأثاث وكل ما كان جمعه منذ أيام صباه كما يقول هو نفسه فى الجزء الثالث من كتابه الإمتاع . ولعل هذا ما جعله يهاجم العيَّارين لا فى هذا الكتاب وحده ، بل أيضا فى كتاب الصداقة والصديق ، بل إنه يهاجم العامة جميعا حتى يقول فى الليلة السادسة عشرة من كتاب الإمتاع : « طلب الرفعة بينهم ضَعَةٌ والتشبه بهم نقيصة » . وهو استعلاء غريب على العامة من رجل أُسْرته منهم ونشأ بينهم . وأهم من ذلك أنه يعترف بما أكسبته الوراقة من ذهب وثياب وأثاث ، ومع ذلك نراه هاجيا لهذه المهنة أشد الهجاء ثالبا لها أشد الثلب حتى ليسميها « حرفة الشؤم » . وهو يضيف إلى ذلك شكوى مرة من البؤس ، مما جعل كل من كتبوا عنه فى هذا العصر يَرْثون لبؤسه وفقره ، معللين ذلك بأنه كان يعيش على الوراقة ، مع أنه كان يعيش منها فى عصره بعض كبار العلماء دون شعور بالبؤس ، بل كان منهم من يكتفى بالقليل مما ينسخ فى حدود حاجته على نحو ما يَرْوِى ياقوت فى ترجمته للسيرافى أستاذ أبى حيان فى النحو واللغة من أنه كان لا يخرج إلى مجلسه فى القضاء بين الناس أو فى محاضرة طلابه حتى ينسخ عشر ورقات بعشرة دراهم بقدر مئونته يوميا . وطبعا لم يكن أبو حيان وأمثاله من المحترفين للوراقة يكتفى بمثل هذه الورقات القليلة . وكان يحيى بن عدى أستاذه فى علوم الأوائل وما يتصل بها من الفلسفة يحترف الوراقة على نحو ما يروى القفطى فى ترجمته ، كما مر بنا ، وكان يكتب فى اليوم والليلة مائة ورقة . فالوراقة لم تكن مهنة بائسة كل هذا البؤس الذى تصوَّره المعاصرون من شكوى أبى حيان المستمرة من الضنك وضيق العيش . وفى رأينا أن بؤسه كان بؤسا نفسيًّا أكثر منه بؤسا ماديا ، فقد كان يرى كثيرين ارتفعوا فى الحياة وهم دونه فى الثقافة والمعرفة والأدب والكتابة ، فكان يشعر بضجر شديد وبشقاء لا حد له يملأ قلبه حسرة ولوعة ، وظل هذا الشعور يلازمه حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

على كل حال لم تمنحه الوراقة راحة ولا رضا ولا طمأنينة ، ولعله من أجل ذلك فكر أن يضيف إليها بعض مؤلفات يكتبها أو يهديها باسم بعض الأعيان أو بعض ذوى المناصب

الكبرى ، وأيضا فإن ذلك لم يَعُدْ عليه بشيء من طمأنينة النفس وراحة الفؤاد فظل يشعر بالتعاسة والقلق المضنى . . ومن أوائل ما ألفه كتابه « البصائر والذخائر » الذى نشره الدكتور إبراهيم كيلانى بدمشق فى ستة أجزاء ، ويقول التوحيدى فى مقدمته إنه ابتدأ فيه سنة ٣٥٠ وانتهى منه فى سنة ٣٦٥ كما يقول إنه استقاه من كتابات الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وغيرهم من أعلام الأدب فى القرن الثالث الهجرى . والكتاب على طريقة الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، ويحمل كثيرا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال النساك وأشعار الشعراء وكلام حكماء الفرس واليونان والهند ، مما قرأه أبو حيان فى أثناء نسخه للكتب من كل لون وللدواوين القديمة والحديثة وفيه كثير مما سمعه من أساتذته ومعاصريه . وليس له فيه إلا جودة الاختيار وإلا مقدمته التى يدعو فيها إلى الزهد فى الحياة الدنيا الزائلة . وهى نزعة كانت تمس نفسه فى الأربعينيات على ما يظهر ، وكذلك فى الخمسينيات من عمره وبعد ذلك ، وهى التى دفعته إلى الحج ، غير أنها لم تكن تتعمقه ، ولذلك نراه يطلب الدنيا فيذهب إلى الرَّىِّ وأرَّجان وافدا على أبى الفضل بن العميد ، ويرجع بخفى حنين . ويدور الزمن ويتولى الوزارة ابنه أبو الفتح ، ويزور بغداد ويتناقل الناس أخبار عطاياه للعلماء وفى مقدمتهم السيرافى وأبو سليمان المنطقى ، ويشد أبو حيان الرحال إليه فى الرىّ سنة ٣٦٦ راجيا أن يعوضه ما نهبه منه العيَّارون منذ ثلاث سنوات ، ويقدم إليه رسالة رواها ياقوت تكتظ بملق مسرف غاية الإسراف وإلحاح شديد فى السؤال وطلب النوال ، حتى لكأنه من أهل الكُدية والشحاذة الأدبية . وما كان أغناه عنها ، فإن أبا الفتح قابلها بالإعراض ، وكان أبو حيان يسرع دائما إلى الهجاء والذم ، فربما بلغه عنه شىء منهما على الأقل يتصل بأبيه أبى الفضل بن العميد الذى ازورَّ عنه . وتتطور الحوادث سريعا ، ويفتك مؤيد الدولة البويهى بأبى الفتح ويخلفه الصاحب بن عباد ، فيعرض عليه أبو حيان خدماته ، ويكلفه بالوراقة له والنسخ ، ويظل ناسخا له مدة ثلاث سنوات حتى سنة ٣٧٠ . وكان يُحضره مجالسه وعلى موائده ، فيتدخَّل فيما يكون من حديث ببجاحة وزهو وتعالم مما ملأ نفس الصاحب عليه حَنَقاً وموجدة ، فبرم به الصاحب برما شديدا ، وأبو حيان لا يتراجع ، بل يزداد وقاحة . ولا يبعد أن يكون أبو حيان قد أخذ يسلُّ عليه لسانه ، وأن شيئا من ذمه نُقل إليه . على كل حال فسد ما بينهما فسادا من الصعب إصلاحه أو رَتْقه . وأخذ الصاحب يجفوه ويصدُّه عن مجالسه صداقبيحا . وليس ذلك فحسب فقد حرمه من مكافأته على ما ينسخ ، إذحبس عنه أجرته ، وكلما لقيه تجهَّم له ، مما اضطر أبا حيان أن يرحل عنه بعد عمل متواصل لمدة ثلاث سنين دون أن يأخذ منه كما قال درهما

أوما قيمته درهم . وبمجرد أن عاد أبو حيان إلى بغداد انتقم منه ومن أبي الفضل بن العميد شر انتقام بتأليفه فيهما كتابه « مثالب الوزيرين » الذى نشره بدمشق الدكتور إبراهيم الكيلانى ، وهى صحف هجاء لاذعة أشد اللذع للوزيرين الكاتبين المشهورين ، إذ تحامل عليهما تحاملا مسرفا وتجنى عليهما تجنيا قبيحا ، محاولا بكل ما استطاع أن يسلبهما ما اشتهرا به فى الناس من الفضائل . ونصيب الصاحب فى هذا الهجاء المقذع أكثر من نصيب أبى الفضل بن العميد ، لأن جرح أبى حيان منه كان أبعد غَوْراً وأشدَّ إيلاما .

ويعود أبو حيان جريحا كسيرا إلى بغداد وإلى حرفته فى الوراقة ، ويشفق عليه ابن مسكويه وصديقه أبو الوفاء المهندس ، لما تجرَّع من حرمان مرير ، ومدَّ إليه يدَ العون أبو الوفاء . أما ابن مسكويه فإنه ارتضى منه أن يؤلف معه كتابه « الهوامل والشوامل » والهوامل أسئلة لأبى حيان فى الفلسفة والطبيعة والسلوك واللغة ، والشوامل إجابات بديعة لابن مسكويه ، وقد نشره أحمد أمين والسيد صقر فى القاهرة ومعروف أن ابن مسكويه كان يلازم عضد الدولة ، فلابد أن يكون قد نزل معه بغداد حين استولى عليها من ابن عمه بختيار سنة ٣٦٧ وكان أبو حيان غائبا فى الرَّىّ ، حتى إذا عاد وجد ابن مسكويه وكان قد تعرف به قديما حين نزل الرىَّ زمن أبى الفضل بن العميد . والمظنون أن حوار الهوامل والشوامل لم ينعقد بينهما حينئذ ، وإنما انعقد فى بغداد بعد مجىء أبى حيان من لدن الصاحب كاسف البال مقروح الكبد ، يؤكد ذلك أننا نجد ابن مسكويه يحاول أن يفرِّج عنه الغم الذى ملأ قلبه وما انطوى عليه من الإحساس بالبؤس واليأس المرير من الزمان والإخوان ، إذ لاحظ مَساربَ ذلك فى حنايا نفسه وجوانب أسئلته ، فقال له فى مطلع أجوبته : « انظر حفظك الله إلى كثرة الباكين حولك وتأسَّ ، أو إلى الصابرين معك وتسلَّ ، فلعمر أبيك إنما تشكو إلى شاك وتبكى على باك ، ففى كل حلق شجىً وفى كل عين قَذًى » . فالناس كلهم شاكون باكون مثل أبى حيان ، وكلهم يعترض فى حلقه ما يكاد يغصُّ به ، وحسبه أن يكون له فى الناس قدوة وأسوة . وكأن ابن مسكويه أراد بالكتاب أن يكون فيه سلوان لأبى حيانٌ ، ينسيه همومه ولو إلى حين . ومع تقديمه هذه الهدية الفكرية لأبى حيان نجده يهاجمه فى الليلة الثانية من كتابه الإمتاع ، ويبدو أن سبب تهجمه عليه ما نعته به أبو حيان من أنه كان شحيحاً شُحًّا شديدا ، وكأن أبا حيان لم يجد عنده ما كان يأمله من العون على ما كان يتجرَّعه من الصاب والعلقم .

أما أبو الوفاء المهندس فكان نعم الصديق لأبى حيان ، وكان قد تعرف عليه قديما ووعده بالسعى فى صلاح حاله ، وحين لقيه بعد عودته من لدن الصاحب أرعاه بصره كما يقول أبو

حيان وأعاره سمعه ، وبدأ فتوسط له عند القائمين على بيمارستان بغداد ، فعيَّنوه راعيا لبعض شئونه . وأهم من ذلك أنه قرَّبه من ابن سَعْدان أحد كبار رجال الدولة البويهية ، فكلَّفه بنسخ كتاب الحيوان للجاحظ ، وأخبره زيد بن رفاعة فى سنة ٣٧١ أن أبا حيان يفكر فى صنع رسالة عن الصداقة والصديق ، فشجع ابن سعدان أبا حيان على إنجازها غير أنه لم ينجزها توا ، بل ظل يراجعها ويزيد فيها حتى نشرها سنة أربعمائة ، وهى أقوال وأشعار مجموعة على طريقته فى كتابه البصائر والذخائر ، ولا يكاد يكون له فيها سوى المقدمة وحديث عن ندماء ابن سعدان وحسن اختياره للمادة التى كوَّن منها الموضوع ، والرسالة طُبعت بإستانبول والقاهرة . ويبتسم الزمن فترة لابن سعدان من سنة ٣٧٢ حتى سنة ٣٧٥ إذ يصبح وزيرا لصمصام الدولة البويهى ويتخذ له مجلسا علميا فلسفيا أدبيا للحوار ليلا فى كل ما يتصل بالإلهيات والطبيعيات والأخلاق وعلم الكلام واللغة والشعر وقد ذكر أبو حيان العلماء والمتفلسفة الذين كانوا يتحاورون فى هذا المجلس بكتابه « الإمتاع والمؤانسة » وقد نشره أحمد أمين وأحمد الزين فى ثلاث مجلدات بالقاهرة . وجعل ابن سَعْدان أبا حيان واسطة عقد هذا المجلس ، فأزال من نفسه غشاوات الكآبة التى كانت قد تراكمت فيها طوال سنوات وقوفه بأبواب الوزراء : أبى الفضل بن العميد وابنه أبى الفتح والصاحب بن عباد ، وسأله صديقه أبو الوفاء أن يسجل فى كتاب أطرف المسائل التى تناولها حواره مع ابن سعدان ، فألف له كتاب الإمتاع مقتصرا فيه على مادار فى سبع وثلاثين ليلة ، وعادة يعرض الوزير سؤالا ويأخذ أبو حيان فى الإجابة ، وقد يطلب إليه فى موضوع أن يكتب فيه رسالة حتى يوفيه حقه ، وقد ينقل إليه مناظرة طويلة دارت فى سوق الوراقين أو دارت فى عهد وزير آخر مثل مناظرة السيرافى ومتى بن يونس فى النحو والمنطق بمجلس الوزير ابن الفرات سنة ست وعشرين وثلثمائة ، وقد رواها أبو حيان كاملة فى الليلة الثامنة . وعرض الحوار جوانب من حياة البغداديين كجانب الغناء واللهو . وليس فى الكتاب ما يدل على أنه ألَّف بعد فتك صمصام الدولة البويهى بابن سعدان سنة ٣٧٥ ويغلب أن يكون أبو حيان ابتدأ تأليفه فى حياة الوزير ، وأتمه بعد وفاته ، ذكرى عزيزة له ولمجلسه العلمى الفلسفى الرائع الذى لم يبلغ مبلغه مجلس أى وزير أو حاكم بويهى فى زمنه .

وعلى نحو ما سجل أبو حيان حواره مع ابن سعدان فى الإمتاع والمؤانسة سجَّل فى كتاب المقابسات أطرف ما دار من حوار فى ندوة أبى سليمان المنطقى السجستانى ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع حديث طويل عن المقابسات وعن أبى سليمان ، ونرى أبا حيان يصرِّح

فى المقابسة الخامسة والثلاثين أنه يكتبها ووراءه خمسون عاما ويذكر فى المقابسة الحادية والستين أنه قرأ على أبى سليمان كتاب النفس ببغداد سنة ٣٧١ ، ويتحدث فى المقابسة الثانية والخمسين عن شخص توفى سنة ٣٨٦ وهناك مقابسة هى المقابسة الثانية والثمانون اختلفت المخطوطات فى تاريخ إملاء أبى سليمان لها على تلاميذه ، هل هى سنة إحدى وسبعين أو هى سنة إحدى وتسعين . وإن صح التاريخ الأخير كان زمن المقابسات وإلقائها يمتد طويلا من نحو سنة ٣٧٠ حتى سنة ٣٩١ وإلا فقد أمتد يقينا حتى سنة ٣٨٦ .

وليست المقابسات جميعها من إملاء أبى سليمان فكثير منها من إملاء من كانوا يحضرون ندوته من المتفلسفة ورجال الفكر . ويذكر أبو حيان فى المقابسات الثانية والرابعة والواحدة والتسعين أنه حرَّر كلام أبى سليمان وغيره من أهل الندوة فأخلاه مما كان فيه من اضطراب اللفظ وزيْغ التأليف ، ويقول إنه استنفد الطاقة فى تنقية الألفاظ من الشوائب ، حتى يسلم التعبير . وجعل ذلك بعض المعاصرين يتسع فى الظن ، فيقول إن صياغة المقابسات وغيرها من النصوص التى يحكيها أبو حيان عن المتفلسفة إنما هى من صنيعه ، وإن أبا سليمان وغيره من جُلسائه إنما لهم المعنى وحده . وقد يؤكِّد ذلك بالقياس إلى أبى سليمان خاصة ما وصفه به أبو حيان فى الليلة الثانية من كتابه « الإمتاع » بأن فى لسانه لُكْنة ناشئة عن عجمته وما ذكره عنه من أن فى عبارته تقطعا فى السياق ، غير أن ما نعرفه عن أبى حيان من أن أحدا لم يسلم من لسانه يجعلنا نشك فيما قاله عن أستاذه . ولعلى لا أجاوز الحق إذا قلت إن المقابسات فى جملتها من كلام أبى سليمان ورفاقه نَصًّا ولَفْظاً . ومما يؤكد ذلك أن من يرجع إلى المقابسة السابعة عشرة المنسوبة لابن سوار المشهور باسم ابن الخمّار المتفلسف يجدها بنَصِّها ولفظها فى كتاب صوان الحكمة لأبى سليمان المنطقى ص ٣٣٥ ومثلها المقابسة الثانية والأربعون المنسوبة إلى نفس المتفلسف فإنها بنفس اللفظ والنص فى صوان الحكمة ص ٣٥٣ . والمقابسة التاسعة والعشرون المنسوبة إلى النوشجانى موجودة بلفظها ونصها فى صوان الحكمة ص ٣٤١ . ونفس أبى سليمان فى كتابه صوان الحكمة وفى رسائله التى ألحقها به الدكتور بدوى يملك بوضوح زمام العربية ويصدر عن ملكة بيانية جيدة . ونحن لا ننفى عن أبى حيان جهده فى تنسيق المقابسات وتصحيحه أو إصلاحه بعض عباراتها ، ولكن هذا لا يعنى ما قيل من أن اللفظ أو الصياغة فى المقابسات له ، والمعنى لأبى سليمان وصحبه ، فصياغتها ولفظها أيضاً لهم إلا ما أدخله أبو حيان فى بعض التغييرات وبعض الحذف أو الزيادات أحياناً . وقد طُبع كتاب المقابسات طبعات مختلفة فى بومباى والقاهرة وبغداد .

ونمضى مع أبى حيان بعد وفاة ابن سعدان ، ويبدو أنه عاد بعده إلى عملين : الوراقة وتأليف بعض الكتب والرسائل وأهم كتاب أخرجه بأخرة من حياته كتاب الإشارات الإلهية المطبوع فى القاهرة وبيروت ، وأكثره مكتوب فى صورة رسائل موجهة إلى بعض الضالين عن طريق الهداية الإلهية وإلى بعض السالكين وإلى مجموعة من المتصوفة . وتتخلَّلُ ذلك مناجيات وأدعية وابتهالات تصوِّر استشرافه إلى الملأ الأعلى . وقد يهبط من هذا الملكوت إلى تصوير ما استشعره سنوات طوالا من الضياع والحرمان والشكوى من الناس شكوى مريرة حتى ليتجه إلى ربه فى رسالته رقم « يه » قائلا : « اللهم إليك أشكو ما نزل بى منك ، وإياك أسأل أن تعطف علىّ برحمتك ، فقد – وحقِّك – شددتَ الوَثاق ، وضيَّقت الخِناق ، وأقمت الحرب بينى وبينك » . ومثل هذا الإحساس بالتمرد على الخالق إنما بلغ ذروته ، حتى أصبح إحساسا بالحرب كما يقول ، فى عهود وقوفه بأبواب الوزراء : أبى الفضل بن العميد وابنه أبى الفتح والصاحب بن عباد . ولذلك نظن ظنا أن الإشارات الإلهية مثلها مثل كثرة كتبه لم تؤلف فى عام واحد ولا فى أعوام قليلة ، فبعضها يرجع إلى الستينيات من حياته إن لم يكن إلى الخمسينيات ، وبعضها متأخر فى السبعينيات من حياته وبعد السبعينيات يدل على ذلك ما يجرى فى كلامه من هجر للدنيا وترهاتها وتعلق بالله ووقوف طويل ببابه فى طلب العفو والرجاء فى نعيمه ، وعيناه تعتصرها الدموع ، وقلبه يتحرق شوقاً لاكتحال بصره بنور ربه .

وحاول الدكتور عبد الرحمن بدوى فى تقديمه للكتاب أن يربط بين مناجيات أبى حيان فى الإشارات وبين مزامير داود وبعض آيات الأناجيل وأولى من ذلك فى رأينا الربط بين مناجياته والمناجيات المبثوثة فى عيون الأخبار لابن قتيبة ، فمصادرها عنده مصادر إسلامية لا أجنبية . وهى تدل بقوة على تعمق الدين الحنيف فى فؤاده وصفاء جوهره الروحى . أما ما ردده ابن الجوزى والذهبى وغيرهما – ونقله عنهم السبكى فى طبقاته – من أنه كان زنديقا كبيرا ، فهو بهتان عليه أى بهتان ، وقد دافع عنه السبكى ، وقال إن الذهبى حَمل عليه ، كما حمل على المتصوفة جميعاً ، وهى حملة ظالمة .

والحق أنه كان سنيا شديد التمسك بالسنة ولعل هذا هو السبب المهم الذى جعله يهاجم المعتزلة والأشاعرة والمتكلمين مهاجمة عنيفة ، حتى ليقول فيهم عامة فى الليلة الثامنة من كتابه الإمتاع : « لم أر متكلماً فى مدة عمره بكى خشية أو دمعت عينه خوفاً أو أقلع عن كبيرة رغبة . . جَذَّ الله عروقهم واستأصل شأفتهم » ويفضِّل الأميين عليهم ويقول إنهم أتقى لله عز وجل وأذكر للمعاد وأيقن بالثواب والعقاب ، ويَسْلُقُ الباقلانى الأشعرى العظيم

بلسان حاد . وهى طبيعةُ أبى حيان حين يهجو يُسِفُّ فى هجائه إسفافاً شديداً ، حتى لنراه يصف الباقلانى بأنه على طرائق الملحدة . وربما كان من أسباب حملته على المتكلمين - بجانب أنه سنى - ما أشرنا إليه فى غير هذا الموضع من أنهم كانوا يصلون بين الفلسفة والدين ، وكان هو وأستاذه أبو سليمان يرون الفصل بينهما ، حتى لا يتسلل الإسماعيلية وغيرهم عن طريق هذا الوصل ، كما مرَّ بنا ، إلى مذاهبهم ونحلهم الباطلة . وكان يهاجم الشيعة كما هاجم المتكلمين وكانت الدولة البويهية الحاكمة لبغداد شيعية ، فلم يجاهرهم بالهجوم ، بل اتبع طريقة أخرى : أن يكتب رسالته التى سماها رسالة السقيفة ، وينسبها إلى أبى بكر وعمر زاعما أنهما وجَّها بها إلى على بن أبى طالب لبيان أنه دون أبى بكر منزلة فى استحقاق الخلافة . وقد نشرها بدمشق إبراهيم الكيلانى مع رسالتين أخريين : أولاهما فى علم الكتابة والثانية فى بيان أنواع الحياة على نحو ما كان يتصورها المتفلسفة فى عصر أبى حيان . وله رسالة فى بيان ثمرات العلوم نشرت ملحقة بكتاب الصداقة والصديق المطبوع فى القاهرة وبها تعريفات للعلوم المختلفة .

ووراء كل ما قدمنا لأبى حيان كتب ورسائل أخرى سقطت من يد الزمن ، فلم تصلنا ، منها رسالة سماها «الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى» وأكبر الظن أنه يقصد بها - إن صحت نسبتها إليه - النسك والعبادة لمن لا يستطيعون إلى الحج سبيلا . وذكر ياقوت رسالة له كتبها إلى أحد أصدقائه سنة أربعمائة وفيها يذكر أنه أحرق كتبه ، لما فقد من الولد النجيب والصديق والحبيب والتابع الأديب ، ونظن ظنا أنه لم يحرق جميع كتبه ، وإنما أحرق طائفة منها يريد أن ينشرها فى الناس ، ولعله لم يرتض أن تنسب إليه . وعلى كل حال كتبه المهمة كانت قد ذاعت وشاعت نُسَخُها فى الناس ، فلم يؤثر إحراقه لها - إن كان قد أحرقها - شيئاً . وكأن هذا الإحراق كان مَعْلَماً قوياً على طريق حياته التى أخذ يمضيها فى شيراز منذ هذا التاريخ متجها بكيانه وروحه إلى بارئه ، مناجياً له وداعياً ، مع اتخاذه لنفسه حلقة يروى فيها الناسُ عنه - كما ذكر السبكى - الحديثَ النبوى حتى وفاته .

وأبو حيان يُعَدُّ أكبر أدباء العراق فى هذا العصر من القرن الرابع الهجرى إلى القرن الثالث عشر ، ويمتاز أدبه بتنوع موضوعاته ، إذ تناول فيه - كما فى كتابه الإمتاع والمؤانسة - كثيرا من جوانب التفلسف والفكر العميق فى الإلهيات والطبيعيات والإنسان والأخلاق والنفس ، فأدبه ليس لفظيا ، قَعْقعة ولاطِحْن ، بل هو أدب يحمل زادا كبيرا من المعانى ، وقد أشار مراراً فى الإمتاع وغيره من كتبه إلى أن واجب الكاتب أن يعنى بالمعانى كما يُعْنَى بالألفاظ ، وهو شىء طبيعى لمن تمثل مثله ثقافة زمنه على اختلاف ألوانها ، فقد

استوعبها استيعاباً رائعاً ، وصدر عنها فى كتاباته صدوراً طبيعيًّا ، كما يصدر الضوء عن الشمس . وأداه ذلك إلى أن ينفصل عن موجة السجع التى سادت الكتابات الأدبية فى أيامه ، إذ رأى فيها طلبا للفظ أو الألفاظ واستعلاء لها على المعانى ، بل قل تحيُّفا وانتقاصا ، فازورَّ عنها . وكانت المكتبة العربية قد ألقت بكنوزها بين يديه فى أثناء وِراقته ونَسْخه ، فراعه أسلوب الجاحظ وأدبه ، إذ رآه يوازن موازنة دقيقة بين الأداء الصوتى والمعانى ، مستخدما أسلوب الازدواج الذى عُرِف به ، وقد يتخلله فى الحين البعيد بعد الحين السجعُ ، ولكن دون التزامه ودون الإكثار منه ، فاستقر هذا الأسلوب فى نفس أبى حيان وأصبح جزءاً لا يتجزأ من أدبه وكتاباته . ويبلغ فيه ذروة من الجمال الصوتى لعلها لا تقل جمالاً وروعة عن نظيرتها عند الجاحظ . وهو يتسع اتساعاً واضحاً فى أسلوبه بالترادف وما يتبعه من التقطيع الصوتى ، ولْنقرأ هذه الفقرة فى فاتحة الرسالة التى توسل بها إلى أبى الفتح بن العميد .

« اللهم هيِّئْ لى من أمرى رشدا ، ووفِّقنى لمرضاتك أبدا ، ولا تجعل الحِرْمان علىَّ رَصَداً ، أقول وخير القول ما انعقد بالصواب ، وخير الصواب ما تضمن الصدق ، وخير الصدق ما جلب النفع ، وخير النفع ما تعلق بالمزيد ، وخير المزيد ما بدا عن شكر ، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص ، وخير الإخلاص ما نشأ عن اتفاق ، وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق » .

وقد بدأ أبو حيان الرسالة بالسجع وسرعان ما انصرف عنه إلى أسلوب الازدواج ، معادلا بين كل عبارة وتاليتها معادلة صوتية دقيقة ، وليس ذلك فحسب ، فإنه يستغل قدرته الفكرية فى تفريع الجمل بعضها من بعض ، إذ بدأ بالصواب وجعله ينتهى بالتوفيق . ونحس كثيرا إزاء ازدواجات أبى حيان وتفريعاته كأنما يريد أن يكتسح بها قارئه اكتساحا ، دون أن يستطيع تخلصا أو إفلاتا . وكان عجبا له أن هذه الرسالة التى كتبها لأبى الفتح لقيت منه إعراضا ، وعرف أن السبب فى ذلك أنها لم تكتب بلغة السجع لغة معاصريه ، إنما كتبت بأسلوب الجاحظ ، فرأى أن يدافع عن هذا الأسلوب بقوة مما جعله يكتب رسالة فى تقريظ الجاحظ يشيد فيها به وبفنه . ولايروعنا عنده ظاهر هذا الأسلوب وما يتخلله من السجع أحيانا إنما يروعنا فيه أيضا ما شفعه به من تلوينات عقلية تتداخل فى جميع أوعيته الصوتية ، ونقصد الشراب السائغ الذى تحمله هذه الأوعية من المعانى الغزيرة حين يتحدث عن موضوع من الموضوعات ، فإذا هو يستقصيه من جميع أطرافه ، ولا يكاد يترك فيه فكرة ولا خاطرة . ويكفى لبيان ذلك كتابه « مثالب الوزيرين » الذى

يقع فى نحو ثلثمائه وستين صحيفة ، إذ لم يترك جانبا فيهما إلا مزقه تمزيقا ، وخاصة الصاحب بن عباد ، وإنه ليعتذر عن ثلبه وذمه بمثل قوله فى الكتاب :

« رمانى عن قوسه مُعْترقا[١] فأفرغت ما كان عندى على رأسه مغيظا ، وحرمنى فازدريته ، وحقرنى فأخزيته ، وخصَّنى بالخيبة التى نالت منى ، فخصصته بالغِيبة التى أحرقته ، والبادى أظلم ، والمنتصف أعذر ، وكنت كما قال الأول :

وإن لسانى شَهْدُهُ يُشْتَفَى بهِ ... أَجَلْ وعلى مَنْ صَبَّهُ اللهُ عَلْقَمُ

ولئن كان منعنى ماله الذى لم يبق له ، فما حَظر علىّ عِرْضه الذى بقى بعده ، ولئن كنت انصرفتُ عنه بِخُفَّىْ حُنَيْن ، لقد لصق به من لسانى وقلمى كل عار وشَنار[٢] وشَيْن ، ولئن لم يرنى أهلاً لنائله[٣] وبِرِّه ، إنى لأراه أهلاً بقول الحق فيه ، ونثِّ[٤] ما كان اشتمل عليه من مخازيه ، ولئن كان ظن أن ما يصير إلىّ من ماله ضائع ، إنى لأوقن الآن أن ما يتصل بعرضه من قولى شائع . والمنصف فى الحكم يَعْذر المظلوم ،ويلوم الظالم » .

وواضح فى الفقرة أن أبا حيان يعتمد فى أسلوبه المزدوج على المقابلات ، فهو يقابل بين صنيع الصاحب به وصنيعه بالصاحب فى كل عبارتين متواليتين . وهو يتسع فى ذلك هنا وفى كثير من جوانب كتاباته ، يرفده فى ذلك ذهن خصب حافل بالمعانى المتقابلة فلا يكاد المعنى يدوِّنه قلمه حتى يسيل معه مقابله . وشىء من ذلك كان عند الجاحظ وقد صورناه فى حديثنا عنه بكتابنا «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» ولكن الجاحظ لا يبلغ فيه هذا المبلغ الذى نجده عند أبى حيان فقد كانت ثقافته ، وخاصة الثقافة الفلسفية ، أوسع بحكم تقدم العصر ، فغزر فكره إلى أقصى حد ، وكان لسانه يطاوعه ولا يتأبى عليه شىء من التعبير ، فاتسعت المقابلات عنده واتسع توليد المعانى بل فيضانها من نبع متدفق لا يتوقف رِفْدُه ولا مدده .

ونراه فى الإشارات يصور إحساسه فى أواخر حياته بالغربة التى طالما أمضته والتى وصفها فى مقدمة رسالته : الصداقة والصديق ، إذ لم يبق له مؤنس ولا صاحب ولا مشفق إلا الوحشة والوحدة ، وكادت شمس الحياة تغرب ، وماء الحياة ينضب . وإنه ليطيل فى الإشارات فى وصفه للغريب إذ يمتّد فى ست صفحات لَبَّتْه فيها الألفاظ ولَبَّتْه المعانى بمثل قوله :

« قد قيل الغريب مَنْ جفاه الحبيب ، وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب ،

---

(١) معترقاً : أى حتى نفذ السهم من اللحم إلى العظم .

(٢) شنار : شنعة .

(٣) نائل : عطاء .

(٤) نث : نشر .

بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حاباه الشَّريب[١] ، بل الغريب من نودى من قريب ، بل الغريب من هو فى غربته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب . . والغريب من غربت شمس جماله ، واغترب عن حبيبه وعذّاله . . والغريب مَنْ إن حضَر كان غائبا ، وإن غاب كان حاضرا . . والغريب من إذا ذُكر الحق هُجر ، وإذا دعا إلى الحق زُجر ، وإذا قعد لم يُزَرْ . . الغريب مَنْ إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوه لم يدوروا حوله . . الغريب من إذا أقبل لم يوسَّع له ، وإذا مرض لم يُسْأَلْ عنه . . الغريب من إن زار أُغلق دونه الباب ، وإن استأذن لم يُرْفع له الحجاب . . الغريب ليله أسَف ، ونهاره لَهف ، وغَداؤه حزَن ، وعَشاؤه شَجَن ، وسِره عَلَن ، وخوفه وطن » .

وهى كلمات من سيل الغربة الذى تدفق فى صفحات الإشارات ، وكأنما هو سيل ليس له آخر من المعانى التى صيغت فى أسلوب الازدواج . وغَلَبَ السجع فى هذه الكلمات ، وهو يَكثُر فى الإشارات كثرة لا نراها فى كتبه الأخرى ، مما يدل على أنها حقا آخر كتاباته . ونجد فيها نفس الحرارة التى لا تغيب أبدا عن كتابات أبى حيان لا فى شبابه ولا فى هرمه . وارجع إلى فكر أبى حيان الخصب فى هذه الكلمات وما يصوره من ضروب الغربة ، حتى لتشمل الغربة النفسية لمن لم يغترب ، بل لمن يواصله الحبيب وينعم بوصله . وبذلك بَثَّ فى كلامه معانى إنسانية عميقة ، وهى تجرى فى كتاباته ، وقد ختم حديثه عن الغريب بقوله :

« دع هذا كله . الغريبُ من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعيا إليه ، بل الغريب من تهالك فى ذكر الله متوكلا عليه ، بل الغريب من توجه إلى الله قاليا لكل من سواه ، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرِّضا لجَدْواه » . فحتى الصوفى غريب ، ولعله أولى بالشفقة والعطف من جميع الغرباء حوله . ومن أروع الأشياء حقا أَدْعيته ومناجياته لربه فى الإشارات من مثل قوله :

« اللهم رَوِّح صدورنا بنسيم وُدِّك ، واغمُرْ أرجاء قلوبنا بغوامر من رِفْدك ، وأَذِقْنا حلاوة بِرِّك ، وجُدْ علينا بك ، وخَلِّ بيننا وبينك ، وجَلِّ أبصارنا إليك . . واجعل أرواحنا مغارس معرفتك ، وألسنتنا قواطف وصفك ونعتك ، فى قدرتك وحكمتك ، وإذا عَطِشْنا فَروِّنا ، وإذا ضعفنا فقوِّنا ، وإذا اعْوَجَجْنا فسوِّنا ، وإذا اعتللنا فداونا ، وإذا كَدِرنا فصَفِّنا ، وإذا دَنِسْنا فنَقِّنا . . وإذا بنَّا منك فصِلْنا بك » .

وخصائصه التى صورناها واضحة فى هذا الدعاء ، فهو يعتمد فيه على الازدواج

---

(١) الشريب : المشارك فى الشرب .

ومعادلاته الموسيقية ، هو وما قد يلتحم معه من السجع ، كما يعتمد على التفريعات فى المعانى والتوليدات والمقابلات والاستعارات مما يروع قارئه روعة شديدة ، بل مما يمتع سمعه وعقله وقلبه متعة هنيئة .

٤

ابن[١] مسكويه

هو أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ، واضطربت المصادر القديمة فى مسكويه هل هو اسم جده أو هو اسمه ، فذكر ياقوت فى ترجمته وكذلك القفطى فى تاريخ الحكماء أن مسكويه اسمه ، وقال ابن خلكان فى ترجمة ظهير الدين الروذراورى إنه أبو على أحمد بن محمد المعروف بمسكويه . وجعلت المصادر الأخرى لترجمته مسكويه اسم جده ، وهو الذى يتبادر من اتفاق المصادر على أن اسمه أحمد بن محمد ، وكأن اسم جده غلب عليه أحياناً . ويقول ياقوت إن مسكويه كان مجوسيا وأسلم وكان عارفا بعلوم الأوائل معرفة جيدة ، وكأنه خلط بين الحفيد والجد ، فالمجوسية للجد والمعرفة بعلوم الأوائل للحفيد .

وليس بين أيدينا شىء واضح عن نشأة ابن مسكويه ومَرْباه فضلا عن مولده ومسقط رأسه ، وأكبر الظن أنه ولد حوالى سنة ٣٢٠ للهجرة لا سنة ٣٣٠ كما ظن مرجليوث فى مقدمته لكتاب تجارب الأمم ، إذ نراه يعمل مع المهلبى وزير معز الدولة البويهى منذ سنة ٣٤٥ حتى وفاته سنة ٣٥٢ والمعقول أن يلتحق بالعمل فى دواوينه وهو فى نحو العشرين على الأقل . ونسبه بعض من ترجموا له إلى الرَّىِّ ، وقد تكون مسقط رأسه وموطن آبائه . ويبدو من صلته المبكرة بالمهلبى وعمله معه ببغداد أنه إما أن يكون منشؤه ومرباه فيها بحيث أتيحت له فرصة تعرفه على المهلبى ، وإما أن يكون قد نزلها فى شبابه لاستكمال ثقافته . وتدل كتبه ومؤلفاته على أنه كان فيه نزوع للاطلاع على كتب الأدب والتاريخ وعلوم الأوائل ، ولابد أنه اختلف فى بغداد إلى كثير من أساتذة هذه العلوم . ونظن ظنا أنه

---

(١) انظر فى ابن مسكويه وترجمته تتمة اليتيمة ١/٩٦ ومعجم الأدباء ٥/٥ وابن خلكان ٥/١٣٧ وروضات الجنات للخوانسارى ٣٦ وتاريخ الحكماء للقفطى ٣٣١ وابن أبى أصيبعة ٣٣٠ ورسائل الخوارزمى وصوان الحكمة ص ٣٤٦ وما بعدها والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ١/٣٥ ومقدمة أحمد أمين للهوامل والشوامل وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بورص ١٥٨ ومقدمة مرجليوث لكتاب تجارب الأمم والتراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ترجمة د. بدوى ص ٩٠ ودائرة المعارف الإسلامية فى مادة ابن مسكوية وكتاب ابن مسكويه : فلسفته الأخلاقية ومصادرها لعبد العزيز عزت (طبع القاهرة) ومقدمة د. عبد الرحمن بدوى لكتابه الحكمة الخالدة .

اختلف مع لداته إلى يحيى بن عدىّ ومجالسه التى كان يحاضر فيها تلاميذه فى تلك العلوم ، كما اختلف إلى حلقات شيوخ مختلفين فى اللغة والتاريخ ، ثم التحق بالعمل مع المهلبى ، ونراه فى كتابه تهذيب الأخلاق يصرح بأنه مرت عليه فترة كان يعكف فيها على اللذات الجسمانية ويستكثر من المطاعم والملابس والزينة وأنه تدرج إلى فطام نفسه بعد الكبر واستحكام العادة وأنه جاهد نفسه جهادا عظيما حتى استخلصها من مطالب النفس الشهوانية وارتقى بها إلى مطالب النفس الناطقة أو العاقلة من الفضائل . وأغلب الظن أن هذا الاسترسال فى اللذات إنما كان فى عهد المهلبى الذى مرَّ بنا انهماكه فى الغناء والقصف وشرب الخمر وأنه كان يعقد بقصره لذلك ليلتين فى كل أسبوع . ولابد أن ابن مسكويه كان يحضر هذا المجلس من حين إلى آخر ، واندفع فيما اندفع فيه المهلبى من اللهو ، حتى إذا توفى وصادر معز الدولة أمواله وقبض على بعض حواشيه ولّى ابن مسكويه وجهه نحو الرَّىِّ ووزير ركن الدولة هناك أبى الفضل بن العميد ، فأقامه خازنا على مكتبته . وربما كان فى ذلك ما يدل على أنه عُرف بثقافة واسعة تشمل كل علم وكل فن ، ولذلك اتخذه ابن العميد مشرفاً عل مكتبته ينظِّمها ويضيف إليها روائع الكتب لزمنه فى مختلف العلوم والفنون . وتعرَّف عليه أبو حيان التوحيدى حين وفوده على ابن العميد . وقال إنه رآه يهتم بعلم الكيمياء دون غيره من علوم الأوائل . وأكبر الظن أن أبا حيان بالغ فى قوله ، فقد كان ابن مسكويه يهتم بعلوم الأوائل جميعاً كما يتضح من مديحه لأبى الفضل بن العميد فى الجزء السادس من كتابه تجارب الأمم ، إذ يقول عن شغفه بهذه العلوم : « فأما علم المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد فى زمانه أن يدعيها بحضرته » وطبيعى وابن مسكويه خازن كتبه أن يكون له بها نفس اهتمامه . وكان يعهد إليه بتربية ابنه أبى الفتح وتعليمه . ولما توفى أبو الفضل سنة ٣٦٠ وتحولت مقاليد الوزارة إلى أبى الفتح ظل خازنا لكتبه وأعلى منزلته . ويُقْبَضُ على أبى الفتح سنة ٣٦٦ ويتحول ابن مسكويه إلى عضد الدولة البويهى ، مؤملا العمل عنده فيتخذه خازنا لكتبه ، ويجعله من ندمائه المقربين إليه ، حتى إذا استولى على بغداد سنة ٣٦٧ تحوَّل معه إليها . وأخذ يُعْنَى – منذ هذا التاريخ على الأقل – بمجالس المتفلسفة ومصاحبتهم ، فكان لا يكاد يفترق عن ابن الخمَّار المتفلسف الذى مرَّ ذكره ، كما كان يلم أحياناً بمجلس أبى سليمان المنطقى السجستانى ويستمع إلى ما فيه من محاورات بين متفلسفة عصره . أما زعم أبى حيان بأنه أعطاه شرحاً لإيساغوجى وقاطيغورياس لأبى القاسم غلام أبى الحسن العامرى سنة ٣٧٢ فلا يغض من شأنه كما أراد ، بل لعله يدل على رغبته فى الاطلاع على كتب الفلسفة . وظل بعد وفاة عضد الدولة

فى السنة المذكورة يعمل مع ابنه صمصام الدولة (٣٧٢ – ٣٧٦ هـ) ثم مع ابنه الثانى بهاء الدولة (٣٧٩ – ٤٠٣ هـ) ويبدو أنه تحول مع صديقه ابن الخمار إلى بلاط خوارزم شاه مأمون بن مأمون إذ يُذْكَر أنهما خدماه مع جملة من الأطباء منهم ابن سينا ، ويغلب أن يكون ذلك فى أوائل القرن الخامس الهجرى . وحدث بينه وبين ابن سينا شىء من الجفوة ، حتى ليذكر القفطى أن ابن سينا قال إنه حاضره فى مسألة فاستعادها كرات دون أن يفهمها ، ويصفه بأنه كان عسر الفهم . وفى رأينا أن ابن سينا تجنَّى عليه ، كما تجنَّى عليه أيضاً أبو حيان فى كلمته عنه بكتابه الإمتاع إذ قال إنه «عَيِىّ بين أَبْيناء» . وكتبه تشهد بفصاحته وذكائه . وبأخرة من حياته ترك خوارزم إلى أصفهان وعاش حتى بطلت حركته وبلغ من الكبر عِتِيًّا ، فقد توفى عن نحو مائة عام سنة ٤٢١ . وكان شيعيًّا إماميًّا يعتقد بعصمة الإمام على نحو ما ذكر ذلك فى خواتيم كتابه الفوز الأصغر .

وابن مسكويه يُعَدّ فى الصفوة من فضلاء عصره وأجلاّئه ، يقول الثعالبى فى وصفه : «إنه فى الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر» ويذكر له طائفة من أشعاره تدل على براعته الشعرية وإحسانه فى صنع الشعر ونظمه ، غير أنه لم يتفرغ له ولم يجعله وَكْده وهمَّه . وكان ناثراً بليغاً كما يتضح من تراسله مع الخوارزمى وبديع الزمان . وفى رسائل الخوارزمى رسالة يعزيه فيها عن زواج أمه بعد وفاة أبيه ، مما يؤكد أن صداقة كانت ناشبة بينهما ، وربما رجعت إلى أيام شبابه . وفى ترجمة ياقوت له رسالتان متبادلتان بينه وبين بديع الزمان ، يتنصَّل البديع فى أولاهما من شىء بلغ ابن مسكويه عنه بعد مودة وثيقة كانت بينهما ، وردَّ عليه ابن مسكوية فاسحاً فى تنصله ومشيداً ببلاغته . ولم يجعل ابن مسكويه التراسل الأدبى صناعته ، إذ كان يهتم بالتأليف وبرسالة خلقية كبرى جرَّد نفسه لها فى معظم كتاباته وتأليفاته ، ويَذْكر له القفطى من كتبه المتصلة بالطب كتاباً فى الأدوية المفردة ، وذكر له كتاباً فى الأطعمة .

وأول ما نقف عنده من كتبه كتابه « تجارب الأمم » وهو فى التاريخ العام من الطوفان حتى سنة ٣٦٩ مع أنه عاش بعد ذلك طويلاً كما مرَّ بنا ، ويقال إنه وصل به حتى وفاة عضد الدولة صاحبه سنة ٣٧٢ . ويبدو من مقدمة الكتاب ومن نفس اسمه أنه أراد به أن يتخذه الناس وخاصة الملوك والحكام والقواد عظة وعبرة ، مما يرون فيه من أحداث التاريخ وتجاربه ، فمقصده مقصد أخلاقى ، وهو المقصد الأسمى الذى ابتغاه فى تآليفه على نحو ما سنرى عما قليل . وللكتاب أهمية تاريخية بعيدة ، وقد سقط من يد الزمن أكثر أجزائه ، ونُشر منه القسم الأخير الخاص بالقرن الرابع الهجرى وهو فيه يعرض تاريخ البويهيين الذين خدم فى

دولتهم عرضا عادلا منصفا دون تحيز ، ومما يدل على ذلك موقفه من صديقه أبي الفضل ابن العميد حين كَفَّ يده عن مساعدة المتطوعين لجهاد الروم الذين أقبلوا من خراسان فى حماسة بالغة حين جاءهم النبأ المشئوم باستيلاء الروم على ثغرى المِصِّيصة وَطَرَسوس فى شمالى الشام ، إذ وفدوا على أبى الفضل بن العميد فى الرىّ سنة ٣٥٤ يطلبون المال للميرة والسلاح ، فردَّهم ردًّا منكرا ، وكأنه خشى منهم مكيدة فسلَّط عليهم جنوده ، ففرَّقوا جموعهم ، ويأسى لذلك ابن مسكويه قائلاً : « لو أن هؤلاء المتطوعين لجهاد الروم — وكانوا يبلغون نحو عشرين ألفاً — أعطاهم ابن العميد المال الذى طلبوه لانضمت إليهم فى الطريق أعداد ضخمة من الغزاة المجاهدين ولنكَّلوا بالروم نكالاً شديداً ، لكن لله أمراً هو بالغه » . فصداقته لأبى الفضل بن العميد لم تمنعه من تسجيله عليه هذه الوَصْمة فى تاريخه ، و يبدو أن ابن مسكو يه فرغ من تأليفه لهذا الكتاب التاريخى الذى كان يقع فى ست مجلدات إما فى حياة عضد الدولة وإما بعد وفاته مباشرة لأنه لم يذكر فيه شيئاً عن خلفائه من أبنائه .

وهذا المقصد الأخلاقى من العبرة والعظة الذى دفعه إلى تأليف هذا الكتاب التاريخى الضخم دفعه أيضاً إلى تأليف كتابه « جاويدان خرد » أى العقل الأزلى ، وقد اختار له اسماً فارسياً ، مما يدل على أنه ألف مبكراً ، وهو لا يزال فى الرىّ بخدمة أبى الفضل بن العميد وابنه ، وربما كان أول مصنفاته ، وقد نشره الدكتور عبد الرحمن بدوى باسم الحكمة الخالدة ، وهو يصوِّر فى ابن مسكويه منزعاً إنسانياً واضحاً ، إذ يجعل العقل الإنسانى وما ينتجه من الحكم فوق كل جنس وكل أمة ، بدليل ما جمعه فى الكتاب من حكم الفرس والهند والعرب والروم الشرقيين ، مما يثبت أن العقل الإنسانى واحد مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة بالإنسان ، ومهما اختلفت الظروف الطبيعية والاجتماعية .

وقد شغل ابن مسكويه نفسه بالأخلاق حتى عُدَّ من أئمة نظرياتها ومباحثها ، وهو يعرض لها فى ثلاثة كتب ، هى الفوز الأصغر وتهذيب الأخلاق والهوامل والشوامل . أما الفوز الأصغر فقد تناول فيه ثلاث مسائل كبرى ، وجعل كل مسألة فى عشرة فصول ، والمسألة الأولى تتصل بالإلهيات ، وهى فى إثبات الصانع وأنه واحد أزلى ليس بجسم وأنه واجب الوجود ليس بمتركب ولا متكثر ولا متحرك مما يؤكد أنه إنما يُعْرَفُ بطريق السلب دون الإيجاب ، وأيضاً فإن الله أبدع الأشياء لا من شىء . والمسألة الثانية تتصل بالنفس وأحوالها وأنها ليست بجسم ولا عرض وأنها تدرك المحسوسات والمعقولات وأنها ليست الحياة بل هى التى تعطى الحياة ، وهى لا تبطل ولا تموت ، ولها حال من الكمال تكون بها سعادة

الإنسان عن طريق الحكمة النظرية والأخرى العملية التى تحصل بها الهيئة الفاضلة التى تصدر عنها الأفعال الجميلة . وإذا عاق هذه الحكمة عائق فإنه يتدنَّى فى حال من النقص يكون فيها شقاؤه . ويوضح هنا توضيحاً رائعاً كيف أن الإنسان خلق مدنيًّا بالطبع ، إذ لم يخلق خَلْقَ مَنْ يعيش وحده من الوحش والبهائم والطيور وحيوان الماء ، فكلها تتم لها حياتها خِلْقة وإلهاماً ، أما الإنسان فلا تتم له حياته إلا بالتعاون والتعاضد فى كل ما يتعلق به من المطعوم والملبوس والمشروب . ويحمل على الزهاد الذين يحرِّمون المكاسب لأنهم يعتمدون على الناس فى ضرورات أبدانهم ويطلبون معونتهم ولا يعاونونهم بشىء ، وهم بذلك — فى رأيه — جائرون ظالمون . والمسألة الثالثة فى النبوات ، وقد بدأ فصولها بالحديث عن مراتب الموجودات فى العالم التى تسرى فيها الحكمة ويظهر التدبير المتقن ، وهى النبات والحيوان والإنسان . وكل نوع فى هذه الموجودات الثلاثة لا يزال يترقى حتى يصل إلى صورة النوع الذى يليه ، فالنبات لا يزال يرقى حتى نرى أرفعه يقبل صورة الحيوان على نحو ما يُرَى فى أشجار النخيل ففيها المذكر والمؤنث وتحتاج إلى التلقيح كالسِّفاد فى الحيوان ، والحيوان لا يزال يرقى حتى يقبل صورة الإنسان فى القرود وما يماثلها فى الخلقة الإنسانية . وهى تقترب فى التمييز وقبول المعارف من الزنج وأشباههم . وبالمثل لا يزال يرقى الإنسان حتى يبلغ وجوداً أعلى من الوجود الإنسانى وهو وجود الملائكة . ومن هنا أو فى هذه الدائرة يظهر الأنبياء . وواضح أن فكرة ترقى الموجودات عند ابن مسكويه تشبه نظرية أهل النشوء والارتقاء ، مما يدل على روعة تفكيره وأصالته .

وخَصَّ ابن مسكويه نظريته الأخلاقية بكتاب مفرد هو تهذيب الأخلاق ، وهو كتاب نفيس إلى أقصى حد ونظريته فيه تقوم على المزج بين الروح الإسلامية كما يمثلها القرآن الكريم والسنة النبوية وبين آراء فلاسفة اليونان : أرسطو وجالينوس وأفلاطون وكذلك آراء الكندى والفارابى وما قرأه من حكم الفرس والهنود والعرب وما تلقفه من تجارب الحياة . وهو يستهله بتعريف النفس وأنها ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عرضاً ، ويستدل على أنها ليست جسماً بأنها تقبل صور الأشياء المتناقضة بينما الأجسام لا تقبل إلا صورة واحدة كالطول والعرض والبياض والسواد ، ثم هى تدرك المحسوسات والمعقولات وتميز المدركات الحسية والعقلية الصحيحة والخاطئة . ويلاحظ — كما لاحظ الفلاسفة قبله — أن للنفس ثلاث قوى : قوة شهوانية وقوة غضبية وقوة عقلية . ويقول إن الغرض من كتابه إصابة الخلق الشريف الذاتى لا العَرَضى عن طريق المال أو السلطان أو المكاثرة والمغالبة . ويمضى فيما وُضع الكتاب من أجله وهو بيان نظريته الخلقية عن الخير

وكيف أنه غاية الإنسان من وجوده حتى يحصل على الفضائل ، وهو لا يحصل عليها إلا إذا طَهُرَتْ نفسه من الشهوات الجسمانية والنزوات البهيمية ويفرق بين الخير والسعادة ، فالخير عام للبشر جميعاً والسعادة خاصة بكل إنسان حسب ما يحقق لنفسه من المآرب العقلية وغير العقلية . ولما كان الخير كثيراً ولم يكن فى طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعه وجب أن تنهض به جماعة كثيرة ، حتى يتوزعوه ، ولذلك يجب على الناس أن يحب بعضهم بعضا لأن كلا منهم لا يتحقق كماله إلا بغيره . ويرى أن الأجناس الكبيرة للفضائل أربعة هى الحكمة والعفة والشجاعة والعدل ، ويأخذ فى بيان أنواع كل جنس من هذه الأجناس ملاحظاً نظرية الأوساط الأخلاقية عند أرسطو ، وهى أن الفضيلة دائماً تقع بين رذيلتين . ويأخذ برأى جالينوس القائل بأن الناس أقسام ثلاثة : أخيار بالطبع وهم قلة ، وأشرار بالطبع لا يمكن أن يتحولوا أخياراوهم كثرة ، ووسط بين الطرفين ، وهم قابلون لأن يكونوا أخياراً بالتأديب أو أشرارا أيضاً بالتعليم ، وقد ينتقلون إلى الخير بمصاحبة الأخيار وبالمثل إلى الشر بمصاحبة الأشرار . وينقل عن أرسطو أن الشرِّير قد ينتقل إلى الخير بالتأديب . ويعرض للشريعة وأنها هى التى تقوِّم الناشئة وتعوِّدهم الأفعال الخيرة ، ويقول إن كمال الإنسان فى اللذات المعنوية لا فى اللذات الحسية ، وإن من الواجب أن تُرَبَّى الناشئة على أحكام الشريعة ثم تنظر فى كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الأحكام والآداب فى أنفسها . ويُدْلى بفصل طويل فى تأديب الناشئة والصبيان يقتبس أكثره من بروسن ويتحدث عن طائفة من الآداب فى المطاعم وغيرها ، ويطيل فى الحديث عن الخير والسعادة وفرق ما بينهما مما أشار إليه . ويفيض فى بيان الفضائل . ثم يتحدث عن التعاون والاتحاد ، وفى رأيه أنه لا يمكن أن تقوم جماعة بدون المحبة ، وأن علم الأخلاق إنما هو علم الإنسان بما يجب عليه فى الجماعة ، وبها تفسَّر الأخلاق ، فليس هناك خلق فاضل لا يكون محوره الجماعة ، ومن هنا كانت الأفعال الدينية لا توصف بأنها خلقية وكانت العبادة تخرج عن علم الأخلاق . ومن آرائه الطريفة أن أحكام الدين الحنيف تؤلِّف مذهباً خلقيا يقوم على محبة الإنسان للإنسان ، ولذلك كانت العبادات دائماً تتطلب الجماعة على نحو ماهو معروف عن الندب لصلاة الجماعة وفرض صلاة الجمعة واشتراك الناس فى أداء فريضة الحج . وهكذاتقوم شريعتنا على الأنس والمحبة ، وفى الذروة من المحبة محبة الله وتليها محبة التلاميذ لأساتذتهم ثم محبة الأبناء لآبائهم . ويقف عند الصداقة طويلاً مبيناً آدابها ، ثم يتحدث أحاديث طريفة عن أمراض النفس وأسبابها وعلاجها وكيف أن الإنسان فى حاجة إلى أن يعرف عيوب نفسه ، ويعرض طائفة من الرذائل كالتهور والغدر والغضب .

وكان هذا الكتاب النفيس يُدْرَسُ للناشئة فى كثير من البلدان العربية فى هذا العصر وشطر من العصر الحديث ، وحرى بنا أن نعود إلى دراسته لهم فى المدارس الثانوية ، حتى نمدهم بخير زاد لتقويم سلوكهم وتربيتهم تربية خلقية سديدة . وكثيرون يظنون أن قوام نثرنا الرسائل الرسمية والشخصية !

وحسبنا هذا الكتاب لنرى منه خطأ هذه الفكرة وأن فى العربية كتباً نثرية نفيسة لا تمتد صفحاتها فى أسجاع قلما تحوى غذاء فكريًّا ، بل تمتد فى أسلوب مرسل وتشتمل على زاد من غذاء خلقى تربوى رائع .

ومر بنا أننا نظن ظناً أن ابن مسكويه ألف هذا الكتاب قبل أن يعرض عليه أبو حيان أسئلته الكثيرة التى أجاب عنها فى الهوامل والشوامل ، وظننا أن ابن مسكويه أجاب أبا حيان عن أسئلته الكثيرة بعد رجوعه بخفى حنين من لدن الصاحب ترويحاً عن نفسه الجريح ، ونقول الآن إن كتاب تهذيب الأخلاق هو الذى دفع أبا حيان إلى أن يعرض أسئلته الكثيرة على عالم الأخلاق وفيلسوفها كما اتضح فى هذا الكتاب ، وأيضاً كما اتضح فى الفوز الأصغر ، فقد ألفه ابن مسكويه هو الآخر قبل الهوامل والشوامل بدليل أنه ذكره فى بعض صحفه .

ويكمل كتاب الهوامل والشوامل نظرات ابن مسكويه الأخلاقية . والكتاب مجموعة من المسائل الهوامل التى تحتاج إلى إجابة ، جمعها أبو حيان ، وقد بلغت مائة وخمسا وسبعين مسألة ، وجَّهها إلى الفيلسوف الأخلاقى ابن مسكويه ، فأجاب عليها إجابات شوامل ، وهى موزَّعة بين مسائل خلقية ولغوية وأدبية وعلمية. وإجابات ابن مسكويه تصوره حقاً متفلسفاً ومفكراً كبيراً ، وقد أعجب الأستاذ أحمد أمين فى تقديمه للكتاب بإجابة بديعة من إجاباته رد بها على سؤال أبى حيان هل تأتى الشريعة بما يخالف العقل ويأباه كذبح الذبائح مثلاً ؟ فقد ردَّ على هذا السؤال قائلاً :

«ليس يجوز أن تَرِدَ الشريعة من قِبَل الله تعالى بما يأباه العقل ويخالفه ، ولكن الشاكَّ فى [مثل] هذه المواضع لا يعرف شرائط العقل وما يأباه ، فهو أبداً يخلطه بالعادات ، ويظن أن تأبِّى الطباع من شىء هو مخالفة للعقل . والعقل إذا أبى شيئاً فهو أبدىّ الإباء له لا يجوز أن يتغير فى وقت . . وأمر العادة قد يتغير بتغير الأحوال والأسباب والزمان . . وذبح الحيوان ليس من الأشياء التى يأباها العقل وينكرها بل هو من الأشياء التى تأباها بعض الطباع والعادة» .

ويذكر ابن مسكويه أن ما يعرض للإنسان من كراهية ذبح الحيوان إنما هو لمشاركته له

فى الحيوانية وأنه يخطر بباله أنه ربما أصابه نفس المكروه بجامع الحيوانية بينه وبين الحيوان . ولا يزال ابن مسكويه يتعمق فى الإجابة موضحاً أن الشريعة لا تخرج عن مقتضى العقل بحال . ونذكر طرفاً من إجابة ابن مسكويه عن مسألة خلقية سألها أبو حيان ، وهى إذاعة الأسرار مهما ضُرب عليها من حُجب الكتمان ، يقول :

« قد تبيَّن فى المباحث الفلسفية أن للنفس قوتين إحداهما معطية والأخرى آخذة . فهى بالقوة الآخذة تستثيب (تسترجع) المعارف وتشتاق إلى تعرف الأخبار ، وبها يوجد الصبيان أول نشوئهم محبِّين لسماع الخرافات ، فإذا اكتهلوا أحبوا معرفة الحقائق . وهذه القوة هى انفعال وشوق إلى الكمال الذى يخصُّ النفس . وهى بالقوة المعطية تُفيض على غيرها ما عندها من المعارف ، وتفيده العلوم الحاصلة لها ، وهذه القوة ليست انفعالاً بل فاعلة . وهاتان القوتان موجودتان للنفس بالذات لا بالعرض . فكل إنسان يحرص بإحدى قوتيه على الفعل ، وهو الإعلام ، وبالأخرى على الانفعال ، وهو الاستعلام . . فقد ظهر السبب الداعى إلى إخراج السر ، وهو أن النفس لما كانت واحدة واشتاقت بإحدى قوتيها إلى الاستعلام ، واشتاقت بالأخرى إلى الإعلام لم ينكتم سِرٌّ بَتَّةً . وهذا تدبير إلهى عجيب ، ومن أجله نُقلت الأخبار القديمة وحُفظت قصص الأمم ، وعُنى المتقدمون بتدوين ذلك وحرص المتأخرون على نقله وقراءته » .

ويمضى ابن مسكويه فيذكر أن صاحب السر ينبغى أن لا يستودع إلا القادر على نفسه والقاهر لنزواتها ، وأن إخراجه من جملة شهوات النفس وأن حفظه لذلك يحتاج مجاهدة شديدة . وهذه الإجابة توضح كيف كان عقل ابن مسكويه خصباً وكيف كان حافلاً بالآراء الطريفة ، وهو يعرضها فى أسلوب جزل مصقول ليس فيه أى صعوبة ولا أى عوج أو التواء . وقد روى ياقوت فى ترجمته نسخة وصية له طريفة يعاهد فيه الله على العفة والشجاعة والحكمة وما يتفرع عن ذلك من شيم نبيلة رفيعة .

٥

الحريرى (١)

هو أبو محمد القاسم بن على الحريرى ، كان أبوه من أثرياء « المشَان » ، وهى قرية قريبة

---

(١) انظر فى الحريرى وترجمته الأنساب للسمعانى ١٦٥ ب وخريدة القصر (قسم العراق) ٢/٥٩٩ ومعجم الأدباء ١٦/٢٦١ وابن خلكان ٤/٦٣ وإنباه الرواة ٣/٢٣ وتذكرة الحفاظ والسبكى ٧/٢٦٦ وشذرات الذهب ٤/٥٠ واللباب ١/٢٩٥ ومرآة الجنان ٣/٢١٣ والعبر فى خير من عبر ٤/٣٨ والنجوم الزاهرة ٥/٢٢٥ وروضات الجنات ٥٢٧ ونزهة الألباء لابن الأنبارى ص ٣٧٩ وشرح الشريشى على المقامات=

من البصرة ، وقد ولد له سنة ٤٤٦ وبها كان منشؤه ومَرْباه . ثم سكن البصرة فى حى بنى حَرام الفَزارِيِّين ، وأخذ يختلف إلى علماء عصره ، يأخذ عنهم الحديث والفقه والأدب ، ويسميهم ، ويعدِّدهم ، السبكى فى طبقاته . ويذكر مترجموه أنه تولى وظيفة الخبر فى ديوان الخلافة بالبصرة ، وهى وظيفة تشبه وظيفة مصلحة الاستعلامات فى عصرنا ، ولا يعرف بالضبط متى تقلَّدها ولا متى عُهد إليه بها ، وظل فى هذه الوظيفة إلى وفاته سنة ٥١٦ وظلت بعده فى أبنائه حتى آخر عهد المتقى بالله (٥٣٠ — ٥٥٥ هـ) . ولم تمنعه الوظيفة من أن يعكف على الأدب واللغة ، بل أن يفرغ لهما ، فيكتب مجموعة من الرسائل ، وآيته الرائعة : المقامات ، وينظم من الشعر ما يتيح له أن يكون من أصحاب الدواوين ، ويؤلف كتابه المعروف «درَّة الغوَّاص فى أوهام الخواص» وهو مطبوع مراراً وواضح من عنوانه أنه فيه يسجل أغلاط المتأدبين مما يشيع على ألسنة العامة ، وإن كان قد بالغ فى ذلك حتى عَدَّ بعض الكلمات الفصيحة غير صحيحة . ولشهاب الدين الخفاجى شرح عليه طُبع فى إستانبول ، ومرَّ بنا فى غير هذا الموضع أن لتلميذه الجواليقى تكملة ألحقها بالكتاب وهى مطبوعة . ويؤلف الحريرى أيضاً مُلْحة الإعراب ، وهى منظومة فى النحو شرحها شرحا جيداً ، وهى مطبوعة فى القاهرة مراراً . وكان لا يزال يختلف بين عمله فى البصرة وضياعه فى المشان وبين بغداد دار الخلافة وملتقى العلماء والأدباء . ومما يدل على أنه كان يختلف إلى بغداد منذ أواخر القرن الخامس ما أنشده له العماد الأصبهانى فى مديح سعد الملك وزير السلطان محمد شاه السلجوقى الذى صلبه وقتله سنة ٥٠٠ للهجرة . ويقول السبكى إنه حدَّث فى بغداد بجزء من حديثه وبمقاماته .

وكان الحريرى لا يبارَى فى الأدب والبلاغة والفصاحة ، وتُعَدُّ مقاماته آية براعته التى ليس لها لاحقة مماثلة وكأنما أغلق الأبواب بكلتا يديه بعده ، فلم يستطع أحد أن يجاريه أو يبلغ مبلغه فى تلك المقامات ، ويشهد بذلك الزمخشرى قائلاً :

أقسم بـالله وآيـاتـهِ ومَشْعَرِ الحج وميقاتِهِ
إن الحريرىّ حرىٌّ بأن نكتب بالتِّبْر مقاماتِه

ويقول السمعانى عنه : «لم يكن له فى فنه نظير فى عصره ، ولو قلت إن مفتتح الإحسان فى شعره كما أن مختتم الإبداع فى نثره ، وأن مسير الحسن تحت لواء كلامه ، كما أن

= الحريرية ، وهو مطبوع فى مصر مراراً ، وهو شرح نفيس وتكتظ رفوف المكتبات بشروح للمقامات لا تزال مخطوطة . وراجع فيه وفى مقاماته كتابنا (المقامة) طبع دار المعارف ص ٤٤ والفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٩٢ .

مخيَّم السحر عند أقلامه ، لما زَلَقْتُ من شاهق الإنصاف ، إلى حضيض الاعتساف» . ويقول العماد الأصبهانى : «طلعت ذُكاء [1] ذكائه فى المغرب والمشرق ، وامتلأت ببضائع فوائده ، ونواصع فرائده ، حقائبُ المشئِم والمعرق . . حريرىّ الوَشْى ، عراقىّ الوَشْم [2] ، لؤلؤى النظم ، كلامه يتيمة البحر ، وتميمة النَّحْر ، ودُرَّة الصَّدَف ، ودُرِّى السُّدَف [3] . . قد أعجز الفصحاء بصناعته ، وأبَرَّ [4] على البلغاء ببراعته» . ويقول الرواة إنه كان بخيلاً دميم الخلقة والهيئة ، تقتحمه العين ، وكان يعتاد نتف لحيته ، والناس على الرغم من ذلك يزدحمون عليه لسماع مقاماته وإجازتهم بروايتها . ويقال إنه أجاز لسبعمائة طالب أن يرووها عنه ، وفى ذلك ما يدل على ما كان يحظى به هو ومقاماته فى عصره من منزلة أدبية رفيعة .

والمقامات أقاصيص قصيرة تصور مواقف متنوعة لأديب متسول يحتال ببيانه وفصاحة لسانه على الناس ، فيلقون إليه بالدراهم والدنانير . وهى تزخر بحركة تمثيلية ، غير أنها لا تتسع لتصوير حياة مجتمعها ، فقد كانت غاية الحريرى منها غاية بيانية بلاغية فحسب ، واستطاع أن يحقق هذه الغاية إلى أبعد مدى . ويزعم الرواة أن سبب صَوْغه لها ما حكاه عن نفسه من أنه كان جالساً فى مسجد بنى حَرام فى البصرة فدخل شيخ رَثّ الهيئة ، كان شحاذاً أديباً فسلَّم ثم سأل ، فأعجبت الحاضرين فصاحتُه وحسن بيانه ، فسألوه عن كنيته فقال أبو زيد ، وسألوه عن موطنه ، فقال من سَروج ، وهى بلدة قرب حرَّان شمالى العراق ، فعمل الحريرى المقامة المعروفة باسم الحرامية ، وهى المقامة الثامنة والأربعون ، ونسبها إلى أبى زيد السَّروجى المذكور ، واشتهرت فبلغ خبرها – فيما يقال – أنو شروان ابن خالد وزير الخليفة المسترشد (٥١٢–٥٢٩ هـ) . فأشار عليه أن يضم إليها غيرها ، فأتمها خمسين مقامة . ويقال بل إنه حين عاد إلى البصرة صنع أربعين مقامة ، ورجع إلى بغداد ، فأعجب بها الأدباء ، وطلبوا إليه أن يؤلف على غرارها مقامة امتحاناً له ، فظل أربعين يوماً لا يُفْتَحُ عليه بشىء ، فعاد إلى البصرة ، وألف عشر مقامات ، وأصعد بها إلى بغداد فعرف الأدباء فضله . وقال بعض حساده إنها من صناعة شخص كان استضافه ، فمات عنده . وقال حساد آخرون إن البدو أخذوا جراباً لمغربى من بعض القوافل كانت به هذه المقامات ، وتصادف أن اشتراه منهم الحريرى فنسبها إلى نفسه ! .

وكل ما قدمنا قِصَصٌ غير صحيحة ، وفى مقدمتها قصة تشجيع أنوشروان بن خالد له

(١) ذكاء : شمس .
(٢) الوشم : النقش .
(٣) السدف : الظلم .
(٤) أبر : غلب .

وبعثه على تأليفها ، فإنه تولى وزارة المسترشد بعد وفاة الحريرى ، وكذَّبها ابن خلكان بطريق آخر إذ قال إنه رأى نسخة من المقامات بخط الحريرى نفسه كَتب بخطه على ظهرها إنه صنفها للوزير جلال الدين بن صدقة وزير المسترشد وقد وزر له فى أول خلافته سنة ٥١٢ وكأنه هو الذى أشار إليه فى مقدمة المقدمات بقوله : «فأشار مَنْ إشارته حكم وطاعته غنم إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع» يريد البديع الهمذانى ومقاماته. وتوقف الشريشى فى شرحه إزاء هذه العبارة ، وكأنه أراد أن يدحض كل ما قيل من أن المقامات ألفت فى عهد المسترشد بإشارة أحد وزيريه : ابن صدقة أو ابن خالد ، فقال إنها إنما ألفت بإشارة الخليفة المستظهر (٤٨٧ – ٥١٢ هـ) وبدأ الحريرى تأليفها سنة ٤٩٥ واستغرقت منه نحو عشر سنوات حتى سنة ٥٠٤ .

واتسعت الأسطورة بأبى زيد ، أديب المقامات الشحاذ ، فقيل إنه نحوى يسمى المطهّر ابن سَلار ، ونرى كتب تراجم النحاة تترجم له ذاكرة أنه صاحب الحريرى الذى أنشأ المقامات على لسانه ، وتقول إنه روى عنه أرجوزته «ملحة الإعراب» وربما كان المطهر شخصية حقيقية ، ودخل الوهم منه على النحاة ، فظنوا أنه أبو زيد السَّروجى . ومن المؤكد أن أبا زيد فى المقامات شخصية خيالية اخترعها خيال الحريرى ليحوك من حولها حِيَلَ أديب متسول . وقد سمى راويته الحارث بن هَمَّام يعنى به نفسه أخذا من الحديث النبوى : «كلكم حارث وكلكم همام» أى كاسب كثير الاهتمام . ومن المؤكد أيضاً أنها بناء متكامل ، لم يُعَدَّ مجزَّأ ولا قطعة تلو قطعة ، ويتضح ذلك من طريقة الحريرى فى عرضه المقامة الأولى ، إذ جعلها لتعريف أبى زيد براويته ، بينما جعل الأخيرة ، وهى ذات الرقم الخمسين ، لتوبة أبى زيد من حرفة الشحاذة وحيلها الكاذبة وندمه على ما تقدم من ذنوبه ، ويغيب عن راويته ، ولا يزال يبحث عنه حتى يجده فى بلدته سَروج وقد تحول ناسكاً متصوفاً مستغرقاً فى عبادة ربه . وسمى المقامات فيما عدا ثلاثا منها باسم البلدان التى تنقل فيها أبو زيد من مشرق العالم الإسلامى إلى مغربه . ونرى الحريرى يذكر فى مقدمتها مقصده منها إذ يقول : «أنشأت خمسين مقامة تحتوى على جِدِّ القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغُرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، إلى ماوشَّحتها به من الآيات ، ومحاسن الكنايات ورصَّعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المبتكرة ، والخطب المحبَّرة ، والمواعظ المبكية ، والأضاحيك الملهية» . ومعنى ذلك أنه لم يقصد فيها إلى القَصص لذاته ، وإنما قصد فيها إلى أفانين من النثر فضلاً عما التزمه من السجع . وكان ذوق التصنع عَمَّ فى الكتابة ، فلم يقف الكتَّاب عند السجع

والمحسنات البديعية ، بل أخذوا يضيفون إلى ذلك عُقَداً غريبة يصعِّبون بها المرور إلى السجع ، حتى يثبتوا براعتهم الأدبية ، وما نكاد نلمُّ بالمقامة السادسة ، حتى نراه يخلب ألباب الناس برسالة تتوالى كلماتها : كلمة حروفها منقوطة وكلمة حروفها غير منقوطة ، حتى إذا كانت المقامة المغربية السادسة عشرة عرض عقدة أو لُعْبة غاية فى العسر تسمى مالا يستحيل بالانعكاس كقوله . «لُمْ أخا ملَّ» فإن العبارة تُقْرأ طرداً وعكساً فلا تتغير حروفها ، ومضى يعرض طائفة كبيرة من مثل هذه العبارة نثراً وشعراً ، مما ملأ الحاضرين به إعجاباً شديداً . وفى المقامة القهقرية التالية جاء بطائفة كبيرة من الحكم تُقْرَأ الألفاظ فيها لا الحروف طرداً وعكساً مثل «مع اللجاجة تُلْغَى الحاجة» فإنها يمكن أن تُقْرَأ «الحاجة تلغى مع اللجاجة» . ويسمى المقامة السادسة والعشرين باسم الرَّقطاء لأنها تتألف من كلمات تتوالى حروفها بالتبادل بين النقط وعدمه مثل «نائل يديه فاض ، وشُحُّ قلبه غاض» . وفى المقامة الثامنة والعشرين نرى أبا زيد يخطب خطبة كل كلماتها غير منقوطة ، ويعود إلى نفس اللعبة فى المقامة التالية . وكل هذه عقد غريبة كان يمكن أن تخنق المقامات خنقاً لولا ما امتاز به نسج الحريرى من عذوبة ورشاقة . وكانت لُعْبَة الألغاز شاعت فى العصر ، فأفرد لها مقاماته : السادسة والثلاثين والثانية والأربعين والرابعة والأربعين . وخصَّ النحو بالمقامة الرابعة والعشرين ، إذ عرض فيها اثنتى عشرة مسألة نحوية ، وأفرد للفقه مقامتين : الخامسة عشرة والثانية والثلاثين . وقلما يُعْنَى بعرض شئون عصره السياسية والاجتماعية إلا أشياء طفيفة هنا وهناك ، فقد كان مشغولاً بعرض الأمثال والكنايات وألفاظ اللغة الغريبة ، على أن تكون مقبولة لا تَصُكُّ الأسماع ولا تستثقلها الأفواه . وهو يُكثر فى مقاماته من الآيات القرآنية ومن أشعاره الجيدة ومن المحسِّنات البديعية وخاصة الجناس . وطبيعى أن تتعدد فيها المواقف ويتنوع معها وصفه ، فتارة يصف روضة أوفلاة أو بحراً أو سوقاً ، وتارة ثانية هو زاهد متعبد يكثر من وعظه بمثل قوله :

«ابْنَ آدم ما أغراك بما يغرُّك ، وأضْراك (أجرأك) بما يضرُّك ، وألهجك بما يُطْغيك ، وأبهجك بمن يُطْريك . . لا بالكفاف تقتنع ، ولا من الحرام تمتنع ، ولا للعظات تستمع ، ولا بالوعيد ترتدع . . يعجبك التكاثر بما لديك ، ولا تذكر ما بين يديك . . أتظن أن سَتُتْرَكُ سُدًى ، وأن لا تحاسَب غداً . . كلا والله لن يدفع المنون ، مالٌ ولا بَنون ، ولا ينفع أهلَ القبور ، سوى العمل المبرور ، فطُوبى لمن سمع ووَعَى ، وحقق ما ادَّعى (ونهى النَّفْسَ عن الهوى) وعلم أن الفائز من ارعَوَى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعَى وأن سَعْيَه سوف يُرَى) » .

والمواعظ والأدعية الإلهية كثيرة فى المقامات ، ودائماً تُعْرَض فى مثل هذه الأسجاع الخفيفة التى تطير عن الأفواه فى عذوبة ورشاقة . وبينما يلقانا أبو زيد فى بعض النوادى واعظاً إذا هو يتحول من حين إلى حين ماجنا مع ندامى يَحْتسى العُقار ويخلع الوقار . ولكن من الحق أن ذلك قليل فى المقامات ، وقد أراد به الحريرى إلى الفكاهة والدعابة ، وهما واضحتان عنده فى مقامات عدَّة ، وخاصة حين يظهر أبو زيد مع ابنه أو مع زوجته مختصمين إلى أحد القضاة أو الحكّام على نحو ما نرى فى المقامة الإسكندرانية ، إذ تنكَّر فى زى شيخ هرم خبيث تجرُّه بعنف امرأة معها طفل نحيل ضئيل ، وتقدما إلى القاضى وكانا قد عرفا أنه أحضر مال الصدقات ليوزعه على الفقراء وذوى الحاجات ، ولم تلبث المرأة أن بادرت إليه قائلة :

«أيَّد الله القاضى ، وأدام به التراضى ، إنى امرأة من أكرم جُرْثومة ، وأطهر أَرومة ، مِيسَمى الصَّوْن . وخلقى نعم العَوْن ، وبينى وبين جاراتى بَوْن ، وكان أبى إذا خطبنى بُناة المجد ، وأرباب الجِدِّ ، سكَّتهم وبكَّتهم ، وعاف وُصْلَتَهم وصِلَتَهم ، واحتجَّ بأنه عاهد الله تعالى بِحِلْفة ، أن لا يصاهر غير ذى حِرْفة ، فقيَّض القدر لنَصَبى ووَصَبى ، أن حضر هذا الخُدَعة نادىَ أبى ، فَأقسم بين رَهْطه ، أنه وَفْق شرطه ، وادَّعى أنه طالما نظم دُرَّةَ إلى درَّة ، فباعها ببَدْرة (مال كثير) فاغترَّ أبى بزخرفة مِحاله (كيده) وزوَّجنيه قبل اختبار حاله ، فلما استخرجنى من كِناسى (بيتى) ورحَّلنى عن أناسى ، ونقلنى إلى كِسْره (بيته) وحصَّلنى تحت أسره ، وجدته قُعَدة جُثَمة (لا يفارق البيت) وألفيته ضُجَعة (عاجزاً) نُومة . . . ومزَّق مالى بأسره ، وأنفق مالى فى عسره . . ولى منه سُلالة ، كأنه خلالة ، وكلانا ما ينال منه شَبْعَة ، ولاترقأ له من الطَّوى (الجوع) دَمْعة ، وقد قُدْته إليك ، وأحضرته لديك ، لتَعْجُم (لتختبر) عُودَ دعواه ، وتحكم بيننا بما أراك الله» .

وتمضى المقامة على هذا النمط الفكه ، ويردّ الشيخ بقصيدة طويلة يدعى فيها أنه لا يُشَقُّ غُباره فى العلم والشعر ، وأنه طالما اكتسب الأموال بدرر كلامه ، غير أن سوق الأدب كسدت ، لانقراض جِيل الكرام ، مما اضطره إلى بَيْع كل ما يملك هو وزوجته ، حتى لقد باع - كارهاً والدموع تترقرق فى عينيه - جِهَازها وكل ما دخلت به من أثاث ورياش أو ثياب فاخرة . وتنتهى المقامة بعطف القاضى على الشيخ وزوجته وفرضه لهما فى الصدقات حِصَّة .

والمقامات يشيع فيها الجناس والمحسنات البديعية ، كما تشيع فيها العذوبة ، ويخيل إلى قارئ الحريرى فى مقاماته كأنما جمع العربية كلها فى كِنانة أو حقيبة ثم نثر ألفاظها بين

يديه ، وأخذ يختار منها وينتخب أروع ما عرفت لغتنا من أساليب مسجوعة ، وكأنما كان يعزفها على قيثارة عَزْفَ ملحن مبدع ، مما جعل معاصريه ومن جاء بعدهم يتخذونها النموذج النثرى الذى لا يجارَى فى غَرْس ذوق العربية فى نفوس الناشئة وكل ما يُطْوَى فى هذا الذوق من إحساس بجمال الصياغة الأدبية النثرية . ومرَّ بنا فى الفصل الثانى من هذا القسم الخاص بالعراق أن لابن الخشاب البغدادى المتوفى سنة ٥٦٧ مبحثاً لغوياً فيما زعمه من أغلاط الحريرى فى مقاماته وأن لابن بَرِّىّ اللغوى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ ردًّا عليه انتصر فيه للحريرى .

وكان للحريرى بجانب مقاماته مجموع رسائل ، لم تحتفظ به يد الزمن ، غير أن العماد فى خريدته وياقوت فى معجمه احتفظا ببعض رسائله ، وأطال العماد الأصبهانى فى قطف منتخبات كثيرة من هذه الرسائل شغلت منه فى ترجمته له نحو أربعين صحيفة ، وقد سجل منها هو وياقوت رسالتين اشتهرتا فى عصر الحريرى وبعد عصره ، اختار كلمات الأولى منها من ذوات السين ولذلك سميت السينية ، واختار كلمات الثانية من ذوات الشين ، ولذلك سميت الشينية . والتكلف فيهما واضح لالتزام كلمات بعينها ، وكأنه فيهما يحجل فى قيود ثقيلة . غير أن ما وراءهما من رسائل يشهد له بسلاسة سجعه وحسن رصفه فى رسائله شأنه فى مقاماته ، كقوله فى وصف جواب أو رسالة من أحد أصدقائه :

« وصل الجواب . . وخلتُه كتاب الأمان ، من الزمان ، فتلقيته كما تتلقى يَدُ الإنسان ، صحفَ الإحسان ، وصِكاكَ العطايا الحسان . لا : بل كما تتلقى أناملُ الرَّاح (الكف) كاسات الرَّاح (الخمر) من أيدى الصِّباح (الفاتنات) فى نسمات الصَّباح ، ومازلت أتمتع بحُلِيٍّ ودُرَر ، ووَشْيٍ وحِبَر (حرير) ومُلَح وزَهَر . . فلله ما جمع فيه من أنوار ونُوَّار (زهر) ونضير (جميل) ونُضَار (ذهب) وتحسين وإحسان ، ومَعين (ماء عذب) ومَعان » .

وواضح ما فى هذا السجع من خفة ورشاقة بما يحتويه من مهارة فى انتخاب ألفاظه وتقصير عباراته بحيث يمتع الألسنة كلامه حين يجرى عليها متدفقاً فى عذوبة ، كما يمتع الآذان حين تستمع إلى جرسه ونبراته ، حتى ليشعر قارؤه أن متاعاً موسيقيًّا خلاباً يصبّ فى حنايا سجعه ، متاعاً يلذ الآذان والقلوب والأفئدة .

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

دول متقابلة

أخذت تنشأ فى إيران منذ القرن الثالث الهجرى دول متقابلة ، كانت أولاها دولة الطاهريين بخراسان التى أنشأها طاهر بن الحسين قائد المأمون ، وخلفه عليها أبناؤه حتى سنة ٢٥٩ للهجرة ، وكانوا تابعين للخلافة ببغداد ، فكانوا يرسلون لها بالجبايات والضرائب . وفى سنة ٢٤٧ أقام يعقوب بن الليث الصفَّار الدولة الصفَّارية فى إقليم بلوخستان شرقىّ إيران ، ومدَّ حدودها حتى شملت كرْمان جنوبى إيران ، وأفغاستان ، واستولى على خراسان التى كانت بيد الطاهريين . وخلفه أخوه عمرو حتى سنة ٢٨٦ إذ قضى عليه السامانيون قضاء مبرماً . ويغلب الحسن بن زيد العلوى علَى طَبرِسْتان منذ سنة ٢٥٠ ويقيم بها دولة علوية يخلفها عليها أخوه محمد لسنة ٢٧٠ حتى إذا كانت سنة ٢٨٧ هاجمه السامانيون ولم يلبثوا أن أسروه على أبواب جرجان ، وبذلك أجهزوا على تلك الدولة العلوية ، كما أجهزوا من قبل على الدولة الصَّفارية . وكُتب للسامانيين أن تظل دولتهم قائمة حتى سنة ٣٨٩ وبذلك تشغل شطراً من العصر العباسى الثانى إذ بدأت فى سنة ٢٦١ وظلت فترة طويلة فى عصر الدول والإمارات ، متقابلة مع الدولة البويهية التى سيطرت منذ فواتح هذا العصر على الأقاليم الجنوبية والجنوبية الغربية من إيران ، ومدَّت ذراعها إلى بغداد فسيطرت عليها وعلى العراق ، وكانت تقابلها الدولة الزيارية التى سيطرت على طبرستان بعد زوال الدولة العلوية منها ، وقد مدّت سلطانها أحياناً على جرجان وبلاد الجبل . ولا يكاد القرن الرابع ينتهى حتى يبزغ نجم الدولة الغَزْنوية . وبذلك كانت تتقابل فى أوائل عصر الدول والإمارات دول السامانيين والبويهيين والزِّياريين والغزنويين .

الدولة السامانية [1]

يرجع نسب السامانيين – فيما يذكر البيرونى وغيره – إلى بهرام جوبين الذى كان مَرْزُبَاناً لِخسْرُو أَبْرَوِيز (٥٩٠ – ٦٢٧ م) على ولاية أَذرِبيجان الفارسية ، وقد أسلم جدهم سامان خوداه أى سيد قرية سامان الواقعة فى إقليم بَلْخ بخراسان زمن خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٤ هـ) ولم يلبث اسمه أن لمع بين أصحاب أبى مسلم الخراسانى حين نهض بالدعوة للعباسيين فى أواخر العصر الأموى ، وتوفِّى ، فحلَّ ابنه أسد مكانه فى خدمة العباسيين حتى توفِّى لعصر الرشيد . ويصطنع المأمون أبناءه ، ويأمر عبد الله بن طاهر أمير خراسان أن يوليهم على ما وراء النهر ، فيولِّى أحمد فرغانة ونوحا سمرْقند ويحيى الشّاش وأُشْروسنة ، كما يولى أخاهم إلياس هَرَاة فى أفغاستان . ويغلب أحمد على أخويه نوح ويحيى ويصبح له أمر ما وراء النهر جميعه . ويتوفَّى سنة ٢٦١ ويخلفه ابنه نصر على ما بيده ، ويفزع إليه أهل بُخارى ، فيُرسل إليهم أخاه إسماعيل ، ويصبح نائباً له عليها . وتفسد الأمور بين الأخوين ، وتكون الغلبة لإسماعيل ، فيجرد أخاه من كل سلطان . وهو يُعَدّ المؤسس الحقيقى للدولة السامانية .

وتلتقى جيوش إسماعيل فى سنة ٢٨٦ للهجرة مع جيوش عمرو بن الليث الصفار صاحب كَرْمان والرىّ وبُلوخستان ، وتدور الدوائر على عمرو ، ويصير ما بيده من البلدان إلى إسماعيل ، ويُرْسل إليه الخليفة المعتضد بخلعة السلطنة . ولا يكاد يدور عام حتى تنشب الحرب بين إسماعيل ومحمد بن زيد العلوى صاحب طبرستان ، ويؤسر محمد بعد أن أصابته ضربات قاتلة ، ويموت متأثراً بجراحه ، ويستولى إسماعيل على إمارته . وبذلك تتسع الدولة السامانية سعة كبيرة ، مما جعل السامانيين يقيمون على ولاياتها نُوَّاباً عديدين ، وبينما كانوا يقيمون فى بُخارى حاضرتهم كان قائد جيشهم يقيم فى نَيْسابور حاضرة الدولة الطاهرية القديمة . وتكلّل انتصارات إسماعيل بانتصار حاسم له على الترك سنة ٢٩١ للهجرة فقد زحفوا فى جيش جرار ، فنادى إسماعيل فى خراسان وبقية إمارته

---

(١) انظر فى الدولة السامانية الآثار الباقية للبيرونى وتجارب الأمم لابن مسكويه وابن الأثير وابن تغرى بردى فى مواضع متفرقة وتاريخ ابن خلدون (طبع دار الكتاب اللبنانى) ٤/٧١٢ وكتاب تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى وإيران ماضيها وحاضرها لدونالدولبر (الترجمة العربية – طبع القاهرة) ص ٥٢ وتاريخ الأدب العباسى لنيكلسن ترجمة صفاء خلوصى (طبع بغداد) ص ٣٥ والحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم ميتز (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٢٤ وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (نشر دار العلم للملايين ببيروت) ص ٢٦٢ .

بالنفير ، وجاءت الجنود من كل فَجٍّ ، وهجم بهم على الترك فى السَّحَر ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وفرَّ الباقون لا يَلْوون . وإسماعيل أعظم أمراء هذه الدولة ، فهو الذى نظَّم علاقتها بالخلافة العباسية فى بغداد ، فلم يكن يؤدِّى لها ضرائب مالية ، بل كان يكتفى بإرسال بعض الهدايا ، ويقال إن هديته لسنة ٢٩٢ اشتملت على ثلثمائة بعير كانت تحمل صناديق المسك والعنبر والثياب وتحفاً كثيرة . وقد منحه الخليفة حقَّ ذكر اسمه معه فى خطبة الجمعة وحق نَقْش اسمه على الدنانير. وظل ذلك تقليداً للأمراء السامانيين ، وهو رمز واضح لاستقلالهم السياسى عن الخلافة ، ومع ذلك كانوا يفتقرون دائماً إلى عهود تولية من الخلفاء العباسيين حتى يكون حكمهم شرعيًّا ، وكانوا تبعاً لذلك سنيين مما جعلهم دائماً خصوماً للشيعة .

وخلف إسماعيل ابنه أحمد (٢٩٥–٣٠١ هـ .) وكان شجاعا ، فاستولى على سِجسْتان ، غير أن غلمانه لم يلبثوا أن قتلوه ، فولى بعده ابنه نصر (٣٠١– ٣٣٢ هـ .) ومنه اقتطع مرداويج الزِّيارى طَبرستان سنة ٣١٦ واتُّهم باعتناقه للمذهب الإسماعيلى الشيعى ، فاضطره حرسه إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح (٣٣٢–٣٤٣ هـ .) وهو أول سلاطين الدولة فى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، وكانت فيه شدة وعنف ، فلما خرج عليه أخواه وعمه إبراهيم سَمَلَ عيونهم جميعا . وخلفه ابنه عبد الملك (٣٤٣– ٣٥٠ هـ .) وكان ضعيفا . وولى بعده أخوه منصور (٣٥٠– ٣٦٦ هـ .) وأرسل إليه الخليفة المطيع لله بالخلع والتقليد . وأخذ البويهيون منذ ظهورهم يقتطعون من السامانيين كثيرا من أطراف دولتهم فى إيران ، فاستولوا على كَرْمان . غير أن خراسان ظلت فى أيدى السامانيين هى وما وراء النهر ، وظل سلطانهم قويا فيها حتى عهد منصور . وكانوا يمتازون بنشر العدل والأمن فى ربوع بلادهم . ويحكى ذلك ابن حوقل قائلاً : « ليس بأرض المشرق ملك أمنع جانبا ، ولا أوفر عِدَّة ، ولا أكمل عُدَّة ، ولا أنظم أسبابا ، ولا أكثر أعطية ، ولا أدرَّ طعاما ، ولا أدْوَمَ حسن نيات من السامانيين ، مع قلة جباياتهم ونُزور أخرجتهم ، وقلة الأموال فى خزائنهم ، وذلك أن جباية خراسان وما وراء النهر لأبى صالح منصور بن نوح فى وقتنا هذا ، لكل خراج يُقْبَض وضمان يُحْمَل فى كل ستة أشهر ، عشرون ألف ألف درهم . وعليه أربعة أطعمة فى كل سنة دارَّة ، غير مقطوعة ولا ممنوعة ، وكل طُعْم منها فى رأس تسعين يوما ، يُخْرج منه إلى غلمانه وقواده ولسائر المتصرِّفين خمسة آلاف ألف درهم ، وتستوعب أطعمتهم نصف جباياته المذكورة ، وهى عشرون ألف ألف درهم ، عن نفس طيبة ومسرة ظاهرة ، وغبطة بقيام المعدلة فيهم تامة . ولهذه الحال أعمالهم مشحونة

بالقضاة والجُباة والكفاة والولاة متزَّلين على أرزاق تتساوى ، وأحوال فى المراتب تتدانى ، وذلك أن رزق القاضى وصاحب البريد والعامل على جباية الأموال من البنادرة (المدن) ووالى الصلاة والمعونة وراتبهم واحد بقدر كل ناحية وحسب كل كورة ، وليس ينقص بعضهم عن بعض » . وهى شهادة قيمة من شاهد عيان غير متحيز ، إذ كان ابن حوقل شيعيا إسماعيليا ، وكان السامانيون سنيين ، خصوماً لشيعته ، ومع ذلك يشهد لهم شهادة صدق بالعدل الذى لا تصلح حياة الرعية بدونه ، كما يشهد لهم بحسن الإدارة وتنظيم الدولة وتسويتهم بين موظفيها فى الأرزاق والرواتب ، مما جمعهم لهم على الإخلاص والتفانى فى خدمتهم .

وخلف منصورا ابنه نوح الثانى (٣٦٦ - ٣٨٧هـ .) وكان صغيرا لا يتجاوز عمره ثلاث عشرة سنة ، وكأنما كان ذلك نذيرا بتضعضع شئون الدولة ، فقد أخذ القرخانيون حكام الترك بين فَرْغانة وحدود الصين ينازلون السامانيين فيما وراء النهر ، وكانوا قد أبلوا فى حربهم قبل ذاك طويلا ، وبنوا على حدودهم معهم رُبُطا كثيرة ، حتى إذا ولى نوح وهو غلام استفحل خطر الترك وأخذوا يكثرون من الإغارة على السامانيين ، وكان عبد الملك أبوه قد ولّى ألبتكين قائد جيوشه أمر غَزْنة ، فاستعان بمملوكه سُبُكْتِكين ، ولم يلبث أن خلفه على ولايته وأدارها إدارة حسنة ، فولَّى نوح الثانى ابنه محمودا الغَزْنوى خراسان ، وتوفِّى نوح ، واضطربت الأمور بعد وفاته ، بين ابنيه منصور وعبد الملك ، وعلت كفة الأخير ، غير أن إيلك خان حاكم الترك القرخانيين أغار على بخارى وأخذ عبد الملك أسيرا ، فخلا الجو لمحمود الغزنوى ، وضم خراسان إلى ممتلكاته سنة ٣٨٩ وبذلك انتهت الدولة السامانية .

الدولة البُوَيْهِيَّة (١)

لما خرج فرسان الديلم وبعض قوادهم لامتلاك البلاد لم يخرجوا إلى جنوبى بحر قَزْوين موطنهم فقط ، بل تغلغلوا فى إيران ، وكان فى مقدمة من خرجوا على بن بُوَيْه وأخواه الحسن وأحمد ، وعملوا أولا - كما مر بنا فى قسم العراق - مع القائد الديلمى ماكان بن كاكى ، حتى إذا هزمه مَرْداويج الزِّيارى حاكم طَبَرِسْتان وجُرْجان تركوه إلى خصمه قائلين له - كما روى ابن مسكويه - « الأصلح لك مفارقتنا إياك لتخفَّ عنك مئونتنا ، ويقع كلُّنا (عبئنا) على غيرك ، فإذا تمكنتَ عاودناك » . ووقع على بن بويه من مرداويج موقعا حسنا

---

(١) انظر فى الدولة البويهية المصادر المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق

فولاه على الكَرَج إلى الجنوب الشرقى من هَمذان سنة ٣٢٠ للهجرة ، ولم يلبث أن استولى فى السنة التالية على أرَّجان وفى تاليتها على فارس . وقُتل مرداويج فى سنة ٣٢٣ فانتهز على وأخوه الحسن الفرصة واستوليا على أصفهان والرَّىّ اللتين كانتا بيده . وكان أخوهما — كما مرّ بنا فى قسم العراق — قد استولى على كَرْمان جنوبى إيران فى سنة ٣٢٢ ومنها استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ وتآمر معه عامل واسط على اقتحامه بغداد ، وكانت تعانى من فوضى شديدة ، فدخل أحمد — كما مر بنا فى قسم العراق — بغداد دون مقاومة سنة ٣٣٤ وخلع عليه الخليفة المستكفى ولقبه معزّ الدولة ، ولقَّب أخاه عليا صاحب فارس عماد الدولة ولقَّب أخاهما الحسن صاحب بلدان الجبل والرى ركن الدولة .

وبذلك أصبح الشطر الأكبر من إيران والعراق فى قبضة البويهيين ، وأخذوا يزعمون أنهم من سُلالة الملوك الساسانيين ، ويذكر البيرونى أنهم انتسبوا إلى الملك الساسانى بهرام جور ، بينما ينسبهم ابن الجوزى فى كتابه المنتظم إلى سابور بن أرد شير . ويُرْوى أن بُوَيْه أباهم كان صَيَّادا بائسا على بحر قزوين لا يكاد يجد ما يتبلَّغ به . ويغلب أن يكون هذا النسب الشريف صنعه لهم بعض المتملقين من المؤرخين إرضاء لهم . وبلغ الإخوة الثلاثة من السلطان مبلغا عظيما ، حتى كانت السِّكَّة تُضْرَبُ بأسمائهم ، وحتى كانت أسماؤهم تُذْكَرُ مع الخليفة فى خطبة الجمعة .

وكانوا شيعة ويذهب ابن حَسْول إلى أنهم كانوا يعتنقون المذهب الزيدى[١] ، ولعله تأثر فى هذا الحكم بأن أصلهم من الديلم وكان المذهب الزيدى قد شاع هناك منذ خروج الحسن بن زيد فى أواسط القرن الثالث بتلك الديار ، ونمىَّ المذهب بعده هناك أخوه محمد ، ثم الحسن الأطروش . والحق أن البويهيين كانوا إمامية اثنى عشرية على نحو ما سنوضح ذلك فى حديثنا عن التشيع ويقال إن معز الدولة فكر فى نقل الخلافة إلى العلويين ، فخوَّفه بعض أصحابه مغبة ذلك قائلا له : «متى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه» فانصرف عما كان عزم عليه . وظل الخلفاء العباسيون فى يده وأيدى البويهيين بعده كأنهم أسرى .

وكانت رياسة البيت البويهى للأخ الأكبر عماد الدولة ، فلما توفى سنة ٣٣٨ للهجرة ولم يترك عقبا انتقلت الرياسة إلى أخيه ركن الدولة ، كما انتقلت إليه ولاية عماد الدولة على فارس ، وجعلها ركن الدولة لابنه عضد الدولة ، حتى إذا حانت وفاته سنة ٣٦٥ قسم

(١) تفضيل الأتراك على سائر الأجناد لابن حسول (طبعة إستانبول) ص ٣٢ .

ملكه بين أولاده ، فجعل – كما مرَّ بنا فى قسم العراق – لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأرَّجان ولأخيه مؤيد الدولة الرىّ وأصفهان ولأخيهما فخر الدولة هَمذان والدِّينَور . وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه ، وصدَعا لأمره ، فكانا لا يجلسان فى حضرته ويقبِّلان الأرض بين يديه على عادة الديالمة ، ويخدمانه بالريحان . ولم تلبث الأمور أن فسدت بين عضد الدولة وبين ابن عمه بَخْتيار بن معز الدولة صاحب بغداد والعراق ، ونشبت بينهما الحرب وسقط فى ميادينها بختيار ، فاستولى عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧ . ووضع فى سنة ٣٧١ أخوه فخر الدولة يده فى يد قابوس بن وشمكير صاحب طبرستان ضده ، فوجه إليهما أخاه مؤيد الدولة فاستولى على بلادهما .

ومرَّ بنا فى قسم العراق أن عضد الدولة المتوفى سنة ٣٧٢ أعظم الحكام البويهيين ، فقد اتسعت دولته حتى شملت كَرْمان وإقليم فارس والأهواز وبغداد والعراق وطبرستان ، وأنه أول من خوطب بالملك شاهنشاه (ملك الملوك) فى الإسلام . وبلغ من شعوره بأمجاده واعتداده بنفسه أن فكر يوما فى أن يتقلد خلافة المسلمين ، فقد ذكر ابن حزم فى كتابه «نقط العروس فى تواريخ الخلفاء» أنه أمر لذلك الحسن بن على البصرى المعروف باسم الجُعَل أن يؤلف كتابا فى تقليد الخلافة فى غير قريش أملا منه فى أن يتسمَّى بها ، وألَّف الجُعَل الكتاب ، وانتشر الخبر إلى خراسان ، فصاح الناس فى مجالس الفقهاء : واإسلاماه ! وامحمداه ! . وبلغ ذلك عضد الدولة ، فخشى الثورة عليه ، وسَمَّ الجُعَل ، وقنع الناس بموته وسكن الأمر[1] . وكانت فيه قسوة شديدة جعلت قائده المطهر بن عبد الله يقتل نفسه حين هزمه بعض الثوار خوفا ورعبا ، وبلغ من قسوته أنه خشى على ملكه من تدلهه بفتاة ، فأمر بتغريقها فى غير شفقة ولا رحمة . وكان يضبط أمور دولته ضبطا دقيقا ، فطهَّر الطرق من اللصوص – كما مرَّ بنا فى قسم العراق – ورفع الجباية عن قوافل الحجاج ، واحتفر لهم الآبار فى الطريق إلى الحرمين ، وبنى كثيرا من المساجد الجامعة فى مملكته وعُنى بالعمران وزَرْع البساتين عناية واسعة .

ويتوفى ويخلفه – كما مر بنا فى قسم العراق – ابنه صمصام الدولة ، وتتوالى الأحداث ، فيتوفى سنة ٣٧٣ مؤيد الدولة دون عقب ، فيستدعى وزيره الصاحب بن عباد أخاه فخر الدولة من نيسابور ، ويسلمه أمور الجبل وطبرستان وكل مقاليد دولة مؤيد الدولة وبلاده . ويخرج فى سنة ٣٧٦ على صمصام الدولة أخوه شرف الدولة ، ويصبح له الأمر

(١) انظر نشرتنا لنقط العروس فى مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة الجزء الثانى من المجلد الثالث عشر ، عدد ديسمبر ١٩٥١ ص ٧٦ .

من دونه حتى يتوفى سنة ٣٧٩ فيخلفه أخوه أبو نصر الملقب ببهاء الدولة وضياء الملة (٣٧٩- ٤٠٣ هـ .) . وكان البويهيون يستكثرون من الألقاب ، ولم يكتفوا بتلقيب أنفسهم ، فقد أكثروا من تلقيب وزرائهم بمثل كافى الكفاة وأوحد الكفاة إلى غير ذلك . ومعروف أن السامانيين لم يكونوا يعنون بتلقيب أنفسهم ، ولكنهم تفنّنوا فى تلقيب قواد جيوشهم . وبلغ من شيوع ذلك بين حكام إيران أن نجد بغراخان التركى حين يثور على الدولة فى سنة ٣٨٢ يلقب نفسه شهاب الدولة .

وكان بهاء الدولة -كما مر بنا فى قسم العراق- ظالما سفاكا للدماء ، وهو أقبح ملوك بنى بويه سيرة ، وولى بعده ابنه سلطان الدولة (٤٠٣- ٤١٥ هـ .) وانتزع الملك منه أخوه مشرف الدولة صاحب كرْمان إلى أن توفى سنة ٤١٦ فخلفه أخوه جلال الدولة (٤١٦- ٤٣٥ هـ .) . ولا يلبث محمود الغزنوى أن يستولى من يد مجد الدولة بن فخر الدولة على الرىّ وأصفهان وبلاد الجبل . وتعظم الفوضى فى عهد جلال الدولة ، ويخلفه أبوكاليجار محيى الدولة (٤٣٥- ٤٤٠ هـ .) ويعظم فى عصره شأن السلاجقة ، ويستولون على كثير من إيران ، ويتوفى أبوكاليجار غمًّا ، ويخلفه الملك الرَّحيم ، ويدخل طغرلبك بغداد سنة ٤٤٧ للهجرة ، كما مرَّ بنا فى قسم العراق ، وبذلك يتقوَّض سلطان البويهيين فى العراق وإيران نهائياً .

الدولة الزِّياريَّة[1]

زعم البيرونى فى كتابه الآثار الباقية أن هذه الدولة تُنْسبُ إلى الملك الساسانى قُباذ الذى حكم من سنة ٤٤٨ إلى سنة ٥٣١ للميلاد ، وسواء أكان هذا النسب صحيحاً أوغير صحيح ، فإنها ترجع إلى أصل إيرانى ، وكان مؤسسها مَرْداويج بن زِيار الديلمى (٣١٦- ٣٢٣هـ) أحد قواد الجبل الذين ظهروا فى شمالى إيران لذلك العهد ، وقد انتظم فى سلك القواد الذين عملوا تحت لواء أسْفار بن شيرويه الديلمى المتغلب على قَزْوين وديارها ، ولم يلبث أن وثب على أسفار وقتله ، وملك البلاد ، مؤسسا لأسرته إمارة فى طَبَرستان وجُرْجان جنوبى بحر قزوين أوكما يسمى بحر الخزَر ، ومَدَّ أطراف إمارته

---

(١) راجع فى الدولة الزيارية الآثار الباقية للبيرونى وتكملة تاريخ الطبرى للهمدانى (طبع بيروت) وتاريخ ابن مسكويه وابن الأثير وابن خلدون وابن تغرى بردى فى مواضع متفرقة ومروج الذهب للمسعودى (طبعة دار الأندلس ببيروت) ٤/٨٢ وما بعدها ، وإيران ماضيها وحاضرها ص ٥٣ وآدم ميتز ص ٢٦ وبراون فى مواضع متفرقة من كتابه : **تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى ترجمة الشوارب** .

جنوبا وغربا ، حتى الريّ وأصفهان وهَمذان وأرمينية وأذْربيجان وخُوزِستان ، واتخذ أصفهان حاضرة لإمارته ، وكان فيه عتو شديد ، وكان شعوبيا شديد الكراهية للعروبة ، فزعم – فيما زعم – أنه سيستعيد مجد دولة العجم ويبطل دولة العرب فلا تقوم لها قائمة ، ووعد شيعته بالمسير إلى بغداد والقبض على الخليفة وتوليتهم ديار الإسلام ومدنه . وسأل عن تيجان الفرس فمُثِّلت له هيئتها ، فاختار هيئة تاج كسرى أنو شروان ،وأمر بأن يصنع له على مثاله تاج من الذهب محلًّى بالجواهر ، وصُنع له عرش من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة . وكان يبطن المجوسية ، ولعله من أجل ذلك كان يحتفل بأعيادها احتفالات عظيمة ، واشتهر احتفال له بعيد ليلة الوقود المسمى بعيد السَّذَق ، وفيها كانوا يوقدون ناراً كثيرة . وقد أمر فى تلك الليلة بأن تُجْمَع الأحطاب من أنحاء إمارته إلى حاضرته أصفهان ، ونَصبها على التلال والجبال حولها وأشعلها وأشعل معها شموعا عظيمة اتُّخذت لها تماثيل وأساطين ضخمة . وتمادى فى بغيه وعتوه تماديا شديدا ، حتى أوغر صدور بعض غلمانه ، ففتكوا به فى الحمام سنة ٣٢٣ للهجرة ، ونهبوا خزائنه وأمواله . ويقال إن الديلم حزنوا عليه حزنا شديدا ، جعلهم يمشون حفاة أربعة فراسخ وراء تابوته .

ومرَّ بنا فى حديثنا عن الدولة البويهية أن قائده على بن بُوَيْه استولى عقب وفاته على أصبهان والرى وأن بلدانا كثيرة أخذت تسقط فى يده ويد أخويه إلا ما كان من طبرستان وجُرْجان ، فإنهما ظلتا فى يد خلفاء مرداويج الزياريين ، وقد خلفه أخوه وشمكير (٣٢٣– ٣٥٦ هـ .) ويقال إنه ركب فرسا وشبَّ وهو غافل عنه ، فسقط ميتا . وخلفه ابنه قابوس (٣٥٦– ٤٠٣ هـ .) وكان كاتبا وشاعرا ، ومازال البويهيون يُغيرون عليه حتى فرَّ من إمارته عام ٣٧١ إلى السامانيين ، وعاش عندهم مكرَّما حتى عام ٣٨٨ وفيه استرد ملكه . ويقال إنه عَتَا وبغى ، واشتد بغيه وعتوه ، فأجمعت حاشيته على خلعه ، واضطرت ابنه منُوجهر (٤٠٣– ٤٢٦ هـ .) أن ينزل على إرادتها ،وحُبس قابوس فى إحدى القلاع حتى مات من شدة البرد . وظل منوجهر يرسل بالأموال إلى محمود الغزنوى استرضاء له ، وطلبه سنة ٤٢٠ فأوغل فى البلاد متحصنا منه بجبال وعرة ، وتركه محمود ولم يلبث أن توفى فخلفه ابنه أنو شروان (٤٢٦– ٤٣٠ هـ .) ومن يده استولى مسعود بن محمود الغزنوى على الإمارة ، كأن لم تكن شيئا مذكورا .

الدولة الغزْنويه [1]

كانت الدولة السامانية تستعين فى جيوشها بكثير من الترك وبذلك هيأت لهم - كما هيأ العباسيون من قبل - أن يصبح كثير من الوظائف المدنية بأيديهم ، وأن يصلوا إلى رتب القيادة فى الجيش ، وأن يقوِّضوها نهائيا بحيث تصبح أثرا بعد عين . وكان من آثار ذلك قيام الدولة الغزنوية ، فإن عبد الملك بن نوح السامانى (٣٤٣- ٣٥٠هـ.) كان قد عيَّن مملوكه التركى : ألبتكين قائدا عاما ، حتى إذا توفى عبد الملك مضى إلى غَزْنة بأفغانستان ، وأعلن نفسه أميرا عليها ، وعاجلته المنية ، فخلفه ابنه إسحق ، غير أنه لم يلبث أن توفى فقام عليها مملوك أبيه سُبُكْتِكين (٣٦٦- ٣٨٧هـ.) وهو المؤسس الأول للدولة الغزنوية ، وقد بدأ أعماله بالاستيلاء على مدينة بُسْت فى أفغانستان بمنطقة سِجسْتان القديمة ، وغنم فيما غنم منها الكاتب الفذَّ أبا الفتح البستى ، وكان يكتب لأميرها المغلوب ، فأصبح كاتبا للدولة الجديدة. وأخذ سُبُكْتِكين يغزو الهند. وسقط كثير من قلاعها فى يده ، وجرَّد حملتين كبيرتين لحرب ملك البنْجاب المسمى جَيْبال ، وأرغمه على الطاعة والصلح على أموال طائلة ، وأن يتخلَّى له عن إقليم كابُل فى شرقى أفغانستان ، وكان يُشْرف على الطرق المؤدية إلى السهل الهندى الخصيب . واستغاث به نوح بن منصور فى سنة ٣٨٤ ضد الثائرين عليه ، فنكَّل بهم ، مما جعله يلقِّبه بناصر الدولة ، ويولى ابنه محمودا على خراسان ويلقبه بسيف الدولة .

وتوفى سُبُكْتِكِين ، فخلفه ابنه إسماعيل بعهد منه ، وكان ضعيفا ، فطلب إليه أخوه محمود أن يتنازل له عن الحكم لتلك الدولة المترامية الأطراف ، وكان محمود لايزال واليا للسامانيين على خراسان ، وأبى إسماعيل ذلك إباء شديدا ، فسار محمود على رأس جيش إلى غَزْنه وهزم أخاه واضطره إلى إعلان تنازله . ومحمود الغزنوى (٣٨٧- ٤٢١ هـ.) أكبر أمراء هذه الدولة وأبعدهم صيتا لمدِّه أطْنابَها شرقا وغربا وشمالا ، ولنهضته بالعلوم والآداب فى عصره نهضة واسعة . وكان مثل أبيه وأسرته والأتراك جميعا سُنِّيًّا ، ولعل ذلك ما جعله يضطهد الشيعة ، وخاصة الغلاة منهم ، واضطهد أيضا المعتزلة لأنه كان

---

(١) انظر فى الدولة الغزنوية الآثار الباقية للبيرونى وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون وابن تغرى بردى وكتاب تاريخ اليمينى للعتبى مع شرح المنينى (طبعة القاهرة) فى مواضع متفرقة وكذلك تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربى فى أماكن متعددة وإيران ماضيها وحاضرها ص ٥٤ ، وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٦٦ .

على مذهب أهل السنة[1] . وكان الأمير منصور بن نوح الثانى السامانى قد انتهز فرصة مبارحته لخراسان لحرب أخيه ، فولىَّ عليها أحد أتباعه ، وتطورت الأمور ، كما مرَّ بنا فى حديثنا عن السامانيين ، بسقوطهم واستيلاء محمود على ديارهم ، واعترف محمود اعترافا كاملا بالسلطة الروحية للخليفة العباسى ، مما جعله يخلع عليه لقب : « يمين الدولة وأمين الملة » . ويذهب براون إلى أنه لقب نفسه بلقب « ظل الله فى أرضه » وكان يتلقب بلقب السلطان وهو أول من تلقب بهذا اللقب فى الإسلام . واتسع سلطانه حتى شمل إمارة خُوارزم الصغيرة والكَرج (جورجيا) وما وراء النهر وايران الوسطى والشرقية غير مبق للبويهيين سوى كَرْمان وفارس .

ويشتهر محمود بكثرة حروبه وفتوحه فى الهند وتمكينه للدين الحنيف فى ديارها . وهو يُعَدّ فاتحها الحقيقى ، أما فتح محمد بن القاسم الثقفى لها فى عهد الوليد بن عبد الملك فيُعَدّ غزوا أكثر منه فتحا حقيقيا ، ومما فتحه فى الهند المُلْتان وكَشْمير والبَنْجاب . وكان يبتغى بفتوحه هناك نشر الإسلام وإعلاء كلمة الله لا طلب المغانم ، كما يزعم بعض المستشرقين . واستغل أموال هذه الفتوح الطائلة فى عمارة غزنة ومدن سلطنته وبناء المساجد الفخمة وفى إحداث نهضة كبيرة علمية وأدبية ، وفيه يقول الفردوسى مصورا استئثاره بقلوب شعبه وعظمة شأنه وملكه : «عند ما يُفْطم الصبى ويتوقف جريان لبن أمه على شفتيه يكون أول ما ينطق به ويجرى على الشفتين لفظ محمود . إنه كالفيل بجسده ومثل جبريل بروحه ، أما كفه فمزن هاطل ، وأما قلبه فنهر النيل بخيراته . إنه السلطان والملك الكبير الشان ، الذى جعل الشاة تَنْهَل مع الذئب من حوض واحد فى أمان» .

وعهد محمود من بعده لابنه محمد . وكان ابنه الأكبر مسعود غائبا بأصفهان ، فأحفظه هذا العهد بعد وفاة أبيه ، واشتبك مع أخيه فى حروب كُتب له فيها النصر ، وأصبح هو صاحب الدولة (٤٢١ — ٤٣٢ هـ .) وفتح — كما مر بنا — جُرْجان وَطَبرستان ، وقضى على الدولة الزيارية . وكانت أمواج السلاجقة بدأت فى مَدِّها ، ولم يستطع وَقْفها ، فقد هُزم أمامها فى عام ٤٣١ مما جعل رجال الدولة يعزلونه ويولون أخاه محمدا مكانه ثانية ، وسرعان ما قتلوه وولوا مسعودا مكانه ، وقتلوه بدوره ، وولوا مكانه ابنه مودوداً . ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى هزمه فى إثرها السلاجقة بخراسان هزيمة ساحقة فتركها لهم ولقائدهم «طُغْرُلْبك» . وأخذ نجم هذه الدولة فى الأفول ، فانسحب سلاطينها من إيران مكتفين بغزنة وبما وراءها من ديار الهند ، ومن أهمهم إبراهيم المتوفى سنة ٤٩٣ وكان حازما

(١) فى المنتظم ٨/ ٤٠ أنه أمر بحرق كتب المعتزلة والفلاسفة والروافض .

عادلا بعيد الهمة ، وخلفه ابنه مسعود الثالث (٤٩٣ – ٥٠٨ هـ .) وتولى بعده ثلاثة من أولاده متعاقبين هم شيرزاد المتوفى سنة ٥٠٩ وأرسلان المتوفى سنة ٥١٢ وبهرامشاه (٥١٢–٥٤٧ هـ .) واضطره السلطان السلجوقى سنجر سنة ٥٣٠ إلى الدخول فى طاعته ، ودفَع إتاوة له صاغرا . وفى سنة ٥٤٢ رأى بهرامشاه بسوء تدبيره أن يقتل صهره الأمير الغورى قطب الدين محمد ، وكان ذلك نذير شؤم باندلاع الحروب بين الغوريين والدولة الغزنوية ، ومازالوا يعصفون بهم حتى اضطروهم فى سنة ٥٥٧ إلى الانسحاب نهائيا إلى عاصمتهم فى الهند «لاهور» وتعقبوهم هناك حتى قضوا عليهم بتلك الديار سنة ٥٨٢ للهجرة .

٢

دول متعاقبة

انتهى حوالى منتصف القرن الخامس للهجرة عصر الدول المتقابلة فى إيران التى كانت تتوزعها فيما بينها والتى كثيرا ما تحاربت وعاشت فى خصام ، وقد أخذت تحل محلها دول متعاقبة ، كانت كل منها تجمع شمل إيران وتنشر على بلدانها لواءً واحداً ، وكان لكل دولة من هذه الدول عصرها التاريخى ، وجدير بنا أن نلم بها فى إيجاز .

دولة السلاجقة (١)

السلاجقة طائفة من قبائل الترك المعروفين باسم الأوغوز ، ويسميهم مؤرخو العرب الغُزّ تخفيفا ، ونرى اسمهم يتردد بين هؤلاء المؤرخين منذ أواخر القرن الرابع الهجرى ، وهم ينسبون إلى رئيسهم سَلْجوق وقد نزل بهم قريبا من بحر الخزر (بحر قزوين) فى الهضاب المتصلة بنهرى سَيْحون وجَيْحون متخذا مدينة «جَنْد» حاضرة له . وأخذت بعض جموعه تنزل فيما وراء النهر وتمتد إلى القرب من بخارى فى خراسان . وكانوا يعتنقون المذهب السنى ، وكانوا بَدْوًا فاعتمدوا على الوزراء فى حكمهم ، وأخذ شأنهم يعظم ، مما جعل محمودا الغزنوى يتنبه لهم ، خوفا من استيلائهم على بعض دياره فى خراسان . وكان سلجوق قد توفى وخلفه ابنه إسراءيل ، فكاتبه محمود وزين له أن يقدم عليه ، وما كاد يلقاه حتى قبض عليه وزجَّ به فى غياهب السجون ، وظل سجينا بإحدى قلاع الهند حتى

(١) انظر فى السلاجقة المصادر المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق .

توفى سنة ٤٢٢ . وكان محمود قد توفى قبله ، وصمم السلاجقة بقيادة طُغْرُلْبَك على الانتقام ، فاشتبكوا مع مسعود الغزنوى فى سلسلة حروب انتهت باستيلائهم على خراسان فى سنة ٤٢٩ وحاول مسعود أن يسترجعها ، ولكنه هُزم هزائم متوالية فى السنتين التاليتين ، وأعلن طغرلبك نفسه ملكا على البلاد ، كما مرَّ فى قسم العراق . ومضى يستولى على ما كان بيد الغزنويين من إيران الوسطى والجنوبية ، واستولى على طبرستان وجرجان وبلاد الجبل . واعترف الخليفة « القائم بأمر الله » بتلك الدولة السنية الناشئة وأمر بأن يذكر اسم طُغْرلبك فى الخطبة وأن يُضْرَب اسمه على النقود . وقضى طغرلبك على البويهيين نهائيا — كما مر بنا فى قسم العراق — ودخل بغداد فى سنة ٤٤٧ فى موكب رسمى ، وأجلسه الخليفة معه على العرش — كما مر بنا — وخلع عليه الخلع السنية وكان يقوم بالترجمة بينهما وزير طغرلبك محمد بن منصور الكُنْدُرِىّ . واتخذ طغرلبك مدينة الرىِّ حاضرَة له ، وولى على البلدان إخوته وأبناءهم ، ودانت له العراق كما دانت له إيران ، وكان وزيره الكندرى هو الذى يصرِّف الأمور فى دولته الواسعة وكان أديبا شاعرا ، وكان يظهر التسنن غير أنه كان فى حقيقته مُعْتزلياً .

وتوفى طُغْرُلْبَك سنة ٤٥٥ وخلفه — كما مر بنا فى قسم العراق — ابن أخيه « أَلْب أَرْسلان » وكان له أخ يسمى سليمان ، حاول الوزير الكندرى أن ينصبه على العرش من دونه ، فلما استولى ألب أرسلان على صولجان السلطنة قبض على الكندرى ، وأرسل به إلى مَرْو ، واستبقاه بها سنة ثم أمر بقتله . وكان أَلْب أَرْسلان (٤٥٥ — ٤٦٥ هـ .) بطلا مغوار قضى على كل من ثاروا عليه ، سواء فى هَرَاة أو فيما وراء النهر أو فى فارس وكَرْمان . وخَضَد شوكة الفاطميين مستوليا منهم على حلب ودمشق ومكة والمدينة . وأعد الروم له جيشا كثيفا قوامه مائتا ألف رجل يتقدمهم الإمبراطور البيزنطى « ديوجينس رومانوس » فأسرع إليهم فى خمسة عشر ألفا من صفوة جنوده ، والتقى بهم بالقرب من مدينة خلاط فى أرمينية ، وعصفت جنوده — كما مرَّ بنا فى قسم العراق — بهذا الجيش الضخم مُنْزلة به هزيمة ساحقة ، استسلم على إثرها الإمبراطور خاسئا ذليلا ، ونزل على الشروط التى طلبها أَلْب أَرْسلان ومنها أداء مليون دينار فدية لنفسه وعَقْد معاهدة لمدة خمسين عاما يتعهد فيها الإمبراطور أن تكون جيوشه على استعداد دائم لمعونة أَلْب أَرْسلان وأن يحرِّر جميع أسرى المسلمين . وبينما كان يحارب الترك عند نهرجيحون منزلا بهم هزائم متوالية وافاه القدر . وكان يدبِّر له هذه السلطنة المترامية الأطراف وزيره نظام الملك ، وكان من أعظم رجال الإدارة والسياسة ، وكان عدوا للرافضة والإسماعيلية سنى العقيدة ، واشتهر — كما مرَّ

بنا فى قسم العراق - بتأسيسه للمدرسة النظامية ببغداد التى أحدثت بها نهضة علمية واسعة ، وأسس على غرارها مدارس اشتهرت باسمها فى أصفهان ومَرْو ونيسابور وبَلْخ وهَراة وَطَبرستان ، وعمل على تشجيع الشعراء والأدباء وألغى كثيرا من الضرائب التى كانت ترهق الشعب ، وكان أشعريا شافعيا ، فازدهر المذهبان الشافعى والأشعرى لعهده .

وخلف ألب أرسلان - كما مرَّ فى قسم العراق - ابنه مَلِكْشاه (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) وكان فى الثامنة عشرة من عمره فأدار له دولته الوزير نظام الملك إدارة حسنة ، وكان ملكشاه يُعْجب بأصفهان ويقيم فيها أكثر أيامه ، وخرج عليه بعضِ أقربائه ، ولكنه انتصر عليهم جميعا . وأمر فى سنة ٤٦٧ ببناء المرصد العظيم الذى وضع فيه عمر الخيام وجماعة من العلماء التقويم الجلالى ويرجع تاريخه إلى عيد النَّيْروز فى سنة ٤٧٢ . وكانت جيوشه ماتنى غادية رائحة ، واستولت على كثير من مدن ما وراء النهر وفى مقدمتها سَمَرْقند ، وبلغ من خوف إمبراطور بيزنطة منه أن أرسل إليه وهو فى مدينة «كاشغر» النائية الجزية المفروضة على بلاده . ومما يدل على ما وصلت إليه إمبراطوريته الواسعة من علو الشأن أن أصحاب السفن الصغيرة الذين عبروا به وبجيشه إلى الضفة المقابلة لهم من نهر جَيْجون أخذوا أجرتهم صُكوكا تدفع لهم فى أنطاكية بديار الشام حتى يروا مَدَى اتساع السلطنة . ويقال إنه ركب جواده على شاطئ اللاذقية ، وخاض به البحر شاكراً ربَّه على ما أنعم به عليه من هذا الملك الواسع الذى امتدَّ من بلاد التتار والصِّين إلى ديار الشام على البحر المتوسط ، وعُنى بحفر الآبار فى طريق الحجاج وتخفيف الضرائب عنهم . ودسَّ خصوم نظام الملك له عنده ، فأعفاه من الوزارة ، ولم تلبث أن امتدت إليه يد أحد الإسماعيليين أعدائه فى الظلام ، فطعنته طعنة نجلاء كانت سببا فى وفاته سنة ٤٨٥ ولم يلبث ملكشاه أن توفى بعده بشهر واحد . وبذلك ينتهى - كما مرَّ بنا فى قسم العراق - عهد السلاجقة العظام .

وقام بالسلطنة بعد ملكشاه ابنه بَرْكياروق أكبر أولاده (٤٨٥ - ٤٩٨ هـ .) ولُقِّب بركن الدولة ، وخالفه عمه تُتُش صاحب دمشق وأخوه محمد صاحب أذْربيجان ، وله معهما وقائع كُتب له فيها النصر ، وكان يتعقب الباطنية الإسماعيلية - كما أسلفنا فى قسم العراق - وقتل منهم فى بعض السنوات مئات ، وخلفه أخوه محمد (٤٩٨ - ٥١١ هـ .) ومضى مثله يتعقب الإسماعيلية ويستولى على حصونهم ، وتولى السلطنة بعده ابنه محمود (٥١١ - ٥٢٥ هـ .) وكان شديد الحمق ، فحارب عمه سِنْجَر أمير خراسان المغوار ودارت عليه الدوائر ، غير أن عمه عفا عنه وولاه العراق . وامتد حكم سنجر أربعين سنة (٥١٣ - ٥٥١ هـ .) واستقل عنه فى سنة ٥٣٥ ملك خوارزم أَتْسِز ، وحاربه الترك فى سنة

٥٣٦ واستولوا منه على مرو ونيسابور وَسَرَخْس ، وحاربه الغُزّ فى سنة ٥٤٨ وأسروه ، وظل فى أيديهم إلى أن هرب سنة ٥٥١ ولم يلبث أن قَضى نَحْبه . واشتهر فى هذه الدولة أربعة من سلاجقة كرْمان هم تُورانشاه المتوفى سنة ٤٩١ وابنه إيرانشاه المتوفى سنة ٤٩٥ وأرسلانشاه المتوفى سنة ٥٣٧ وابنه مغيث الدين محمد المتوفى سنة ٥٥١ وقد تجزأت الإمبراطورية السلجوقية فى سرعة شديدة ، حتى فقد الأمراء سلطانهم ، وحتى استبدَّ بهم فى كل بلد نوابهم المسمون باسم الأتابكة .

الدولة الخوارزمية (١)

مؤسس هذه الدولة أحد مماليك السلطان ملكشاه ، وهو أنوشتكين ، حين جعله هذا السلطان واليا على خوارزم سنة ٤٧٠ فأسس بها دولة ملوك خوارزم أو خوارزمشاه ، واستطاع خلفاؤه أن يتخلصوا من كل صلة تربطهم بالسلاجقة ، ومن أهم ملوكهم أَتْسِز (٥٢١ – ٥٥١ هـ .) وله وقائع مع سِنْجر السلجوقى ، وتمكن أحيانا من الاستيلاء على مَرْو ونيسابور ، ويقترن باسمه كاتبه المشهور رشيد الدين الوَطْواط . وقد تمكن من جاءوا بعده من القضاء على سلطان السلاجقة فى إيران وفرض سيطرتهم عليها ، وخاصة الأجزاء الشمالية ، وكان آخرهم جلال الدين مَنْكُبرتى الذى صمد صمودا باهرا للغزو التتارى من سنة ٦١٧ إلى سنة ٦٢٩ حين استسلم ولكن بعد نضال عظيم .

الدولة المغولية

المغول قبائل رحل كانت تنزل فى قلب آسيا على حدود الصين فى الإقليم المسمى منغوليا ، وكانت تعيش على الرعى والصيد ، واستطاع جِنكزخان أن يجمع شمل هذه القبائل ويفتح بها بلاد الصين – كما مر فى القسم الخاص بالعراق – ثم يغير بها على مملكة خوارزم ويقوِّض هذه المملكة ، كما أغار بها على خراسان ، وامتدت سيولها تجرف كل ما أمامها حتى الرَّىِّ وهمذان ، منزلة فظائع وحشية ، وبحقٍّ يقول ابن الأثير فى حوادث سنة ٦١٧ إن فتوح التتار فى بلاد الإسلام أعظم مصيبة حلَّت بالعالم . وامتدت أيام جنكِزْخان فى إيران

(١) انظر فى الدولة الخوارزمية ابن الأثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى وزبدة النصرة للبندارى (مختصر تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهانى) وذيل الروضتين لأبى شامة فى مواضع متفرقة وسيرة السلطان جلال الدين منكبرتى للنسوى . وراجع تاريخ العراق فى العصر العباسى الأخير للدكتور بدرى محمد فهد (طبع بغداد) والشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى لحافظ حمدى (طبع القاهرة) وتاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى لبراون .

من سنة ٦١٦ إلى سنة ٦٢٥ وهى السنة التى قضى نحبه فيها بالصين بعد أن حكم المغول اثنين وعشرين عاما . واجتمع أمراء المغول بعد وفاته من البلاد الشاسعة التى افتتحوها فى الصين وما وراء النهر وخراسان وإيران وخوارزم ، واتفقوا جميعا على أن يتولى بعده ابنه أوكدى (أوكتاى) (٦٢٥ – ٦٣٩ هـ) . واتخذ عاصمة له قراقورم وأخضع لحكمه – كما مرّ بنا فى قسم العراق – أوربا الشرقية : روسيا وبولندا ، ونكلت جيوشه بالناس فيهما تنكيلا شديداً على نحو ما نكلت جيوش أبيه بالإيرانيين والصينيين ، ويقال إن آذان ضحاياه فى بولنده بلغت مائتين وسبعين ألفا . وحين توفى خلفه ابنه كيوك وظل يدير هذه الدولة المترامية الأطراف حتى وفاته سنة ٦٤٦ وخلفه ابن عمه منكو سنة ٦٤٩ فأرسل أخاه هولاكو إلى إيران فعمل على الاستقلال بها مع تبعيته لأخيه هو وأبنائه ، وأخذ يوطد حكمه بها منذ سنة ٦٥٤ بادئا باستنزال الإسماعيلية الملقَّبين بالحشاشين من معاقلهم فى «ألموت» وغيرها والقضاء عليهم قضاء نهائيا . ولم يلبث أن أرسل إنذارا إلى الخليفة «المستعصم بالله» أن يسلم نفسه إليه ويعطيه مفاتيح مدينة بغداد . وتقدم إليها فى سنة ٦٥٦ فاكتسحها كما مر بنا فى الحديث عن العراق ، بعد حصار دام نحو شهر وقَتَلَ فيه هو وجنوده – كما يقول المؤرخون – نحو مليون من سكانها ، وقتلوا الخليفة وأكثر أهله – كما مر بنا فى قسم العراق – وحرقوا قصوره ، ونُهبت البلدة وما كان بها من الكتب ، وكان ذلك إيذانا بدمار الحركة العلمية فيها وأفول نَجْمها .

الدلة المغولية[1] الإيلخانية

اتخذ هولاكو لقب إيل خان (تابع الخان) وهو اللقب الذى ورثه عنه خلفاؤه من بيته على إيران والعراق مما جعل دولتهم فيهما – تسمى دولة الإيلخانيين ، وأرسل فى سنة ٦٥٨ جيشا كثيفا للاستيلاء على سوريا ومصر – كما مر بنا فى قسم العراق – واستولى على أكثر البلاد السورية ، غير أن جيش مصر الباسل بقيادة قُطُز والظاهر بِيبَرْس تصدى للمغول فى عين جالوت بفلسطين وهزمهم هزيمة ساحقة ، وتعقبهم فى سوريا حتى ردهم عنها إلى العراق وما وراءه . وتوفى هولاكو فى عام ٦٦٤ للهجرة ، فخلفه ابنه أَبْغا (٦٦٦–٦٨٠ هـ.) وقد وجه إلى سوريا حملات باءت كلها بالإخفاق الذريع أمام الجيوش المصرية ، إذ كانت دائما تنزل بها ضربات قاصمة . وأخذت من حينئذ تنفصم الصلات التى كانت تربط الإيلخانيين فى إيران بأباطرة المغول فى (قراقورم) . وبموت أَبغا ينتهى العهد الوثنى للمغول

(١) راجع فى الدولة المغولية الإيلخانية المصادر المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق .

وحكامهم فإن خلفه بوكدار أخاه اعتنق الدين الحنيف ، ولم يُمْض فى الحكم سوى عام واحد ، إذ قتلته يد آثمة . وولى بعده أخوه أرغون (٦٨١ – ٦٩٢) وفى عهده حظى المسيحيون النسطوريون بعطف واسع ، وخلفه أخوه كَيْخَتُو لمدة سنتين ، ثم بَيْدو وقُتل سريعا . وولى بعده – كما مرَّ فى قسم العراق – غازان (٦٩٣ – ٧٠٣) الذى أتاح لدولة الإيلخانيين فى إيران والعراق عهدا ذهبيا عظيما ، إذ اعتنق الإسلام وعمل على نشره بين المغول نشرا واسعا ، وعُنى بأن تصبح تبريز عاصمته من أجمل المدن الإسلامية ، وقد بنى فيها رباطا وبيمارستانا ومدارس دينية ومرصدا كبيرا ومكتبة فخمة ، وأقام لأصحاب العلوم والفنون ضاحية مؤلفة من ثلاثين ألف بيت لعلماء الدين والفقهاء والمحدثين والقراء والأساتذة والطلاب . وخلفه أخوه خُدابَنْدا سنة ٧٠٣ واهتم مثله بنهضة العلوم والفنون ، واتخذ عاصمة له مدينة بناها بالقرب من قزوين سماها السلطانية ، واحتفل فى بنائها والاهتمام بها احتفالاً واسعاً . وتوفى سنة ٧١٦ وتولى بعده ابنه بوسعيد حتى سنة ٧٣٦ للهجرة ، وكان فى الثانية عشرة من عمره ، فلم يستطع ضبط البلاد ، وأخذ أبناء عمومته يتناحرون على الولايات والبلدان ، وكونوا دويلات صغيرة ، كان من أقواها الدولة المظفرية فى كَرْمان التى استطاعت أن تبسط نفوذها على فارس والجزء الجنوبى من إيران . وتظل البلاد فى فوضى نحو نصف قرن من الزمان ، إلى أن يغزو تيمورلنك إيران والبلاد العربية .

الدولة المغولية التيمورية(١) وما تلاها من الدول

مؤسس هذه الدولة تيمورلنك المولود – كما مر فى قسم العراق – فى كَش من أعمال ما وراء النهر بالقرب من سَمَرْقند سنة ٧٣٦ للهجرة ، وهو من سلالة جنكِزخان ، كان أبوه واليا لكش ونواحيها ، واستطاع تيمورلنك بذكائه وشجاعته أن يستميل حكام ما وراء النهر ، فيقربوه منهم ويستوزروه فى بعض الأحيان . ومازال يعمل على أن يجمع زمام السلطة فى يده – كما مر فى قسم العراق – حتى غدا الحاكم الوحيد لإقليم ماوراء النهر جميعه سنة ٧٧١ للهجرة ، ومدَّ سلطانه إلى خراسان فى سنة ٧٨٢ واستولى على مازندران وسِجِسْتان وجُرْجان فى سنة ٧٨٤ ولم يلبث فى سنة ٧٨٨ – كما مر فى قسم العراق – أن استولى على فارس وأذربيجان . وبدأ منذ سنة ٧٩٥ ما يعرف بحرب السنوات الخمس ، فأغار على

---

(١) انظر فى الدولة المغولية التيمورية المصادر المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق . وانظر فى الدول التالية تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٤٢٠ وفيليب حتى ٢ / ٨٢٥ وإيران ماضيها وحاضرها لدونالد ولبر ص ٧٦ وما بعدها .

أقاليم الخزر وآسية الصغرى واستولى على الرُّها وَتَكْريت وآمد وحاصر بغداد – كما مر فى قسم العراق – سنة ٧٩٥ ، وسار فى سنة ٨٠١ إلى الهند وعبر نهر السند واستولى على دِلْهى . ثم اتجه شرقا فى سنة ٨٠٣ فاستولى على سيواس ومَلَطْية فى آسية الصغرى ، ودخل ديار الشام ، واستولى على حَلَب وحَماة وحِمْص وبعلبك ودمشق . ولم يفكر فى متابعة حملاته إلى الجنوب حتى مصر ، وكأن ذكرى هزيمة أسلافه التتار فى عين جالوت أمام المصريين كانت لاتزال ماثلة نصب عينيه ، ويستولى على بغداد . ويتجه إلى آسية الصغرى فى سنة ٨٠٤ وتدور رحى حرب طاحنة بينه وبين العثمانيين بقيادة بايزيد ويُهْزَمُون هزيمة ساحقة . ويعود تيمورلنك إلى عاصمته سمرقند سنة ٨٠٧ ويعدّ حملة كبيرة على الصين ، وتسير الحملة فى وجهتها ، غير أن أجله يوافيه ، فيتوفَّى عن واحد وسبعين عاما بعد أن حكم هذه الإمبراطورية الضخمة ستا وثلاثين سنة . وقد ملأ سمرقند بالعمائر الفخمة ، وضريحه فيها آية من آيات العمارة الرائعة . وكانت فتوحاته أقل بقاء وأقصر عمرا من فتوحات جنكِزخان وخلفائه ، فبمجرد أن مات رجعت سوريا وآسية الصغرى إلى حكامها الأصليين .

وتوزع ابناه : شاه رخ وميران شاه إمبراطوريته – كما مر فى قسم العراق – فكان شطرها الشرقى الشامل لإيران من نصيب شاه رخ ، بينما كانت العراق وأذربيجان والقوقاز من نصيب ميران شاه . وتوفى سنة ٨١٠ فضم نصيبه شاه رخ إلى سلطانه ، وكان يتخذ هراة بأفغانستان عاصمة له إلى أن توفى سنة ٨٥١ للهجرة . وخلفه ابنه أُلُغ بك (٨٥١ – ٨٥٣ هـ) وكان راعيا كبيرا للفن والأدب الفارسيين . وولى بعده بو سعيد (٨٥٤ – ٨٧٤ هـ) وكان سلطانه وطيدا فى دياره إلى حدود الهند . وأعقبه حسين بايقرا (٨٧٤ – ٩٠٢ هـ) وفى عهده أصبحت سمرقند مركزا مهما من مراكز الثقافة الإسلامية . ولم تلبث هذه النهضة أن توقفت فإن قبيلة أوزبك التركمانية بقيادة زعيمها شيبانى قضت على التيموريين فى الشرق ، وفرَّ آخر حكامهم سنة ٩٠٦ إلى الهند وأسس هناك دولة المغول العظام .

وكانت قبيلة قرايوسف التركمانية قد استولت على غربى إيران ، واتخذت تبريز عاصمة لها . ولم يلبث قرايوسف أن استولى على العراق سنة ٨١٣ وظل التركمان يحكمونه هو وغربى إيران كما مر بنا فى قسم العراق حتى ظهر إسماعيل الصفوى (٩٠٧ – ٩٣٠ هـ) واستولى على إيران جميعها وأسس بها دولة جديدة هى الدولة الصفوية . وفى قسم العراق حديث عنه وعن دولته أكثر تفصيلاً ، وكانت تمتد شرقاً إلى هَرَاة وغربا حتى شملت العراق جميعه . وجعل دولته دولة إيرانية قومية ، متخذا العقيدة الإمامية الشيعية عقيدتها الرسمية ، مما دفعه هو وخلفاؤه إلى الاشتباك فى حروب متوالية مع الترك العثمانيين السنيين . وظل حكم الدولة

الصفوية فى إيران نحو مائة وأربعين عاما ، وخلفهم عليها الأفغانيون ، وجاء فى إثرهم الأفشاريون ثم الزنديون ، وخلفهم القاجاريون فى أواخر القرن الثانى عشر وظلوا نحو مائة وثلاثين عاما وفى كل هذه الحقب وخاصة منذ حكم الصفويين خمد النشاط الأدبى العربى فى إيران خموداً تاماً .

٣

المجتمع

كان يتكون المجتمع الإيرانى فى هذا العصر من ثلاث طبقات : طبقة عليا ، تتضمن الأمراء الحكَّام والوزراء والقادة والولاة على البلدان وكبار رجال الدولة والإقطاعيين ، وطبقة وسطى تتضمن موظفى الدواوين وأوساط التجار والصناع ورجال الحسبة والقضاء ، وطبقة دنيا تتضمن العامة من أصحاب الحرف ومن الزراع والخدم والرقيق ، ويدخل أهل الذمة فى الطبقتين الأخيرتين بحسب أعمالهم .

وكانت الطبقة الأولى منعمة مترفة ترفا واسعاً ، وكان فى أعلى درجاتها الأمراء الحكام الذين دانت لهم رقاب العباد ، وصُبَّت الأموال التى تُعَدّ بالملايين فى خزائنهم ، وكانت مصادرها متعددة ، إذ كانوا يجمعون الضرائب من الناس ، ضرائب الأرض ، وكان لها نظام خاص هو نظام الزكاة الإسلامى ، وكان لها فى كل مدينة ديوان هو ديوان الخراج ، وهو بمثابة خزانة مالية للدولة أو الإمارة ، وكانت أعْطيات الجند ونفقات البلدة تؤخذ منه ، ويُحْمَلُ ما يتبقَّى إلى ديوان الخراج أو بيت المال فى حاضرة الدولة ، وهناك ينفقه الأمير على الجيش وحاجات الإمارة . وما بقى منه يصبح رهن حياته المترفة فى القصر دون رقيب . وبجانب ضرائب الأرض كانت هناك ضرائب كثيرة على الصادرات وعلى بعض الواردات من الرقيق ومن عروض التجارة . ولابد أن نلاحظ كثرة الحروب فى العصر وأن إمارات بحالها كانت تكتسح أحياناً وتدخل فى سلطان هذا الحاكم البويهى مثلاً أو الحاكم الغزنوى أو السامانى أو السلجوقى ، وحينئذ تكتظ خزائن هذا المحارب المنتصر بالأموال الطائلة . وظل ذلك طوال العصر بل تفاقم فى عهـــــد التتار ومن تلاهم . وكان يتبع الإمارة عادة كثير من الضِّياع وكانت ثمارها جميعها تعود إلى الأمير وخزائنه . وكثرت فى تلك العصور مصادرة أموال الوزراء حين يُعْزَلون أو يموتون ، وكذلك الكتاب والعمال ، فكانت أموالهم وإقطاعاتهم وضياعهم تصبح ملكاً للدولة .

ولعل فى ذلك ما يوضح كيف أن الأموال فى خزائن الأمراء أو على الأقل فى خزائن

بعضهم كانت تُكال كيلاً ، وأيضاً ما يوضح النصوص التى نقرؤها فى كتب التاريخ عن تركات بعض هؤلاء الأمراء وما أنفقوه أحياناً فى أعراسهم أو أعراس أبنائهم وفى بناء قصورهم ، فمن ذلك ما يُرْوَى عن فخر الدولة البُوَيْهى صاحب همذان والجبل والدِّينور وجُرْجان من أنه خلَّف حين مات مليونى دينار وثمانمائة وخمسة وسبعين ألفاً ومائتين وأربعة وثمانين ، كما خلف من الجواهر واليواقيت واللآلئ ما قيمته ثلاثة ملايين دينار ، ومن الفضة ما وزنه ثلاثة ملايين ، ومن الثياب ثلاثة آلاف حمل[١] . أما أخوه مؤيد الدولة فيروى أنه أنفق فى عرس زواجه من ابنة عمه معز الدولة السيدة زبيدة سبعمائة ألف دينار[٢] . أموال كانت تسيل إلى خزائنه من إمارته الإيرانية فى الرَّىِّ وأصفهان لا يعرف لها قيمة ، ولذلك يبذِّرها ويتلفها حسب هواه . وعظم شأن أخيهما عضد الدولة ، فخضعت لسلطانه البلاد الممتدة من بحر قزوين إلى جنوبى إيران وحتى العراق وعُمان مما جَعله يتلقب بشاهنشاه (ملك الملوك) لأول مرة فى الإسلام ، وكان دخله — فيما يُرْوَى — ثلثمائة وخمسة وعشرين مليونا من الدراهم ، وقيل بل كان اثنين وثلاثين مليوناً من الدنانير ومائة ألف درهم[٣] . وكان عضد الدولة بدوره ينفق الملايين على بَذخه ، وخير ما يصور ذلك قصره الذى بناه بشيراز ، فقد رآه المقدسى بعد موته بفترة قليلة ، وبُهت حين رآه ، وفى ذلك يقول : «بنى عضد الدولة بشيراز داراً لم أر فى شرق ولا غرب مثلها ، ما دخلَها عامى إلا افتتن بها ، ولا عارف إلا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها . شقَّ فيها الأنهار ونصَب عليها القباب ، وأحاطها بالبساتين والأشجار ، وحفر فيها الحياض ، وجمع فيها المرافق والعُدد . وسمعت رئيس الفراشين يقول : فيها ثلثمائة وستون حجرة ، كان مجلسه كل يوم فى واحدة إلى الحول . . وطُفْتُ فيها ورأيت الأنهار تطَّرد فى البيوت والأروقة . وأظنه بناها على ما سمع من أخبار الجنة ، وبان بَوْنَا بعيداً وضَلَّ ضلالاً مبيناً»[٤] .

وهذا القصر صورة من صور الترف المفرط ، فالأمير لا يريد أن يجلس ببيته فى حجرة مهيَّأة لجلوسه كل يوم ، بل يريد أن تتغير ، بحيث لا يعود إليها إلا فى عام تال ، وكأن الحُجَر فى القصر أصبحت كأزيائه ، فهو يبدِّلها كل يوم ، وطبعاً لا يهمه الشعب الكادح وراء هذا القصر ولا تهمه مصالحه ، وإن كان عضد الدولة قد اشتهر بضبطه الأمن والنظام فى ربوع إمارته الواسعة ، كما اشتهر بعنايته بالثقافة والعلم والعلماء ، ولكن لاشك أنه كان

---

(١) النجوم الزاهرة ٤/١٩٧ والمنتظم ٧/١٩٨ .

(٢) المنتظم ٧/١٢٢ .

(٣) المنتظم ٧/١١٦ .

(٤) أحسن التقاسيم للمقدسى (طبع ليدن) ص ٤٤٩ وانظر فى قصر بناه فخر الدولة بجرجان اليتيمة ٣/ ٢٧١ .

يُغْرق نفسه فى الترف والنعيم .

وعلى شاكلة هؤلاء الأمراء البويهيين كان الأمراء السامانيون والزياريون ، فقد كان الأمير دائما يَعُدُّ الإمارة ضَيْعَةً له ، ولعل أميرا لم يَحُزْ من الأموال ما حازه محمود الغزنوى من غنائمه فى الهند ، فقد ظل ينازل الهنود مدة أربع وعشرين سنة ، وهو يمدّ حدود إمارته حتى شملت كشمير والشمال الغربى من الهند ، وفى أثناء ذلك غنم غنائم لا تحصى . ويكفى أن نذكر من غنائمه ما أخذه من معبد سومنات الذى كان يحج إليه الهنود الوثنيون ، وسومنات اسم الصنم الكبير فيه وكان مرصعاً بالجواهر والحجارة الكريمة ، وكان إلى جواره ست وخمسون سارية صفائحها من الذهب المرصع بالجواهر النفيسة ، وكان يحيط بهيكله ألوف من التماثيل الذهبية والفضية . ويُحْصى العُتْبى فى كتابه اليمينى هذه الذخائر وما يماثلها مما يخرج عن طوق الخيال [١] . وقد أتاحت لمحمود أن يشيد جامعه العظيم بغزنة وأن يحدث نهضة علمية وأدبية فى إمارته النائية ، كما أتاحت له ولأبنائه وأحفاده ثروة هائلة توارثتها الأجيال ، غير ماكان يُجْبَى لهم سنويا من تلك الديار .

وبالمثل كان السلاجقة يمتلكون فى خزائنهم الأموال الطائلة ، وقد اتسعت مملكتهم اتساعاً كبيراً ، حتى لقد كانت تمتد فى عهد أَلْب أَرْسلان من أقصى حدود ما وراء النهر إلى أقصى حدود الشام ، وكانت له حروب وفتوحات كثيرة غنم منها مغانم شتى ، من أهمها حروبه مع البيزنطيين فى آسيا الصغرى وقد وقع بإحدى المعارك فى أسره إمبراطورهم « ديوجينس رومانوس » وافتدى نفسه بمليون دينار – كما مر بنا – ودفع له الجزية صاغراً . ويذكر ابن الأثير أنه زوَّج ابنته من الخليفة المتق وهو لا يزال ولى عهد وأنه نثر على الناس ليلة زفافها جواهر كريمة كانوا يلتقطونها فى دهشة وعجب كبير [٢] ، ويقال إن خراج خَلَفه ملكشاه بلغ عشرين مليون دينار [٣] . ويُرْوى أنه حين غلب سنجر السلجوقى صاحب خراسان على غزنة عام ٥٠٨ وقعت فى أيديه وأيدى أصحابه أموال لا تعد ولا تحصى وكان فى جملة ما استولى عليه خمسة تيجان قيمة الواحد منها تزيد على مليونين من الدنانير ، واستولى أيضاً على ألف وثلثمائة قطعة مصاغ مرصَّعة وسبعة عشر سريراً من الذهب والفضة [٤] . وكان السلطان محمود السلجوقى مبذراً متلفاً ، وأتلف فيما أتلفه ما ورثه من

(١) اليمينى للعتبى ٢/ ٩٩ وانظر فى غنائمه من البويهيين البويهيات مائة ألف دينار (ابن الأثير ٩/ ١٠٥ ، ١٠/ ٤٧١) . المنتظم ٨/ ٤٠ .

(٢) ابن الأثير (تحقيق إحسان عباس – طبع دار صادر ببيروت) ١٠/ ٧٠ – ٧١ وكان صداق الأميرات

(٣) المنتظم ٩/ ٧ .

(٤) ابن الأثير ١٠/ ٥٠٧ .

أموال كانت محفوظة بخزائن الدولة ، وكانت ثمانية عشر مليوناً من الدنانير[١] . واحترقت له دار فى سنة ٥١٥ واحترق فيها لزوجته «مالا حد له من الجواهر والحلى والفرش والثياب ، وأقيم الغسالون يخلِّصون الذهب ما أمكن تخليصه ، وهلك الجوهر جميعه إلا الياقوت الأحمر[٢] » .

وهذه أخبار متناثرة فى كتب التاريخ تدل بوضوح على معيشة الأمراء الذين كانوا يحكمون إيران وكيف أنهم كانوا يغرقون إلى آذانهم فى الترف والنعيم ، غير حاسبين للشعب حساباً . ومثلهم كان الوزراء وقد تعلقوا فى هذا العصر بالألقاب وتعددها منذ أوائله حتى لنجد أبا بكر الخوارزمى المتوفى سنة ٣٨٣ يشكو من ذلك شكوى مرة [٣] . وكان الوزير يتولى الإشراف على مالية الإمارة ووجوه جَمْعها وإنفاقها ، وكان يقود الجيوش بنفسه ، على نحو ما كان وزيرا بنى بويه : ابن العميد والصاحب بن عباد ووزير السلاجقة نظام الملك ، واتخذ عضد الدولة البويهى وزيرين أحدهما كان نصرانيا هو نصر بن هرون وكان له النظر فى شئون فارس . وكان الوزير يتقاضى مرتباً ضخماً ، جعله يحيط نفسه بمظاهر الفخامة التامة ، متخذاً لنفسه حرساً كبيراً كان يُعَدُّ بالعشرات وأحياناً بالآلاف[٤] ، فكان إذا سار برز للناس فى موكب باهر من الحراس . وكان أمراؤهم لا يكتفون بما يعطونهم من مرتبات جزيلة فقد كانوا يضيفون إليها كثيراً من الضياع والإقطاعات ، بحيث يعظم دخل الوزير ويعيش فى ترف بالغ . وهيأهم ذلك ليبنوا القصور الباذخة ، على نحو ما يحدثنا الثعالبى فى كتابه اليتيمة عن قصر بناه ابن العميد[٥] ، وقصر آخر بناه الصاحب بن عباد فى أصبهان تبارى شعراؤه فى وصفه بالقصائد الطوال[٦] ، وكانت داره لا تخلو فى كل ليلة من ليالى رمضان من ألف نفس تُفْطر فيها ، وكانت صلاته وصدقاته وقُرُباته فى هذا الشهر تبلغ مبلغ ما يُطْلَقُ منها فى جميع شهور السنة[٧] . وكان الوزراء يتأنقون فى ملابسهم ، ولم يقف تأنقهم عند أنفسهم ، فقد كانوا يطلبونه فى خدمهم وحواشيهم وكل ما يتصل بهم من ملابس ومطاعم ، ومن طريف ما يُرْوَى من ذلك ما ذكره الثعالبى عن الصاحب بن عباد من أنه كان يعجبه الخزّ (الحرير) ويأمر بالاستكثار منه فى داره ، وألمَّ به

(١) زبدة النصرة للبندارى مختصر تاريخ دولة آل سلجوق للعماد الأصبهانى (طبع ليدن) ص ١٤١ .

(٢) ابن الأثير ١٠/٥٩٤ .

(٣) اليتيمة للثعالبى (طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد) ٤/٢٣٠ .

(٤) ابن الأثير ١٠/١٣١ .

(٥) اليتيمة ٣/١٥٨ .

(٦) اليتيمة ٣/٢٠٣ وانظر وصفهم لقصر آخر له فى جرجان اليتيمة ٤/٣٦ .

(٧) اليتيمة ٣/١٩٣ .

أبو القاسم الزعفرانى الشاعر يوماً ، فرأى جميع من حوله من الخدم والحاشية يلبسون الخزوز الفاخرة الملونة ، فأنشده على البديهة[١] .

كسوتَ المقيمين والزائرين كُسًى لم يُخَلْ مثلُها ممكنا
وحاشيةُ الدار يمشون فى ضروبٍ من الخزِّ إلا أنا

وكان الصاحب يكثر من إهداء الخلع إلى زواره ، كما يشير أبو القاسم فما إن سمع بقوله ، حتى أمر له من الخزّ بجبَّة وقميص ودُرَّاعة وسراويل وعمامة ومنديل ومُطْرَف (ثوب) ورداء وجورب . وكان الولاة مثل الوزراء يحيطون أنفسهم بهذا الجو المترف ، فكانوا يبنون القصور ذات الأواوين الضخمة ، ويروى أن أبا جعفر والى سجستان تأنق فى قصر بناه لنفسه كان مكتوباً فى صدر إيوانه[٢] :

من سرَّه أن يرى الفردوس عاجلةً فلينْظُرِ اليوم فى بُنْيان إيوانى
أو سرَّه أن يرى رِضْوان عن كثَبٍ بملء عينيه فلينظرْ إلى البانى

وبالمثل كان كبار الموظفين فى الدواوين وغير الدواوين يعيشون معيشة مترفة كلها زينة وأناقة ، سواء أكانوا متصلين بأعمال الخراج وأموال الدولة أو غير متصلين . ويبدو أن الكتاب كانوا من أكثر هؤلاء الموظفين عناية بأناقتهم ، ويلاحظ ذلك على كتَّاب السامانيين العبدونىُّ الشاعر فينشد[٣] :

أكتَّابَ ديوانِ الرسائلِ ما لكم تجمَّلتمُ بل متُّمُ بالتجمُّلِ

وكان كبار القضاة يدخلون فى هذه الطبقة لما يتقاضون من رواتب عالية ومثلهم أصحاب المظالم . وكان للقواد مكانة كبيرة ، وكأنما كانوا يشركون الأمراء فى إماراتهم فأوسعوا عليهم فى الرواتب والأرزاق . ونستطيع أن نقول بصفة عامة إن كل المتصرفين فى أعمال الدولة كانوا يعيشون معيشة بذخ على حساب الشعب الكادح ، فلهم القصور ولديهم الأموال والخلع التى يهبونها للشعراء والناس ، وكان كثير منهم يشعر باستعلاء على أبناء الأمة ناسياً أنه يعيش من عرق جبينهم ، ويشكو شاعر من هذا الاستعلاء البغيض قائلاً[٤] :

أكُلُّ مَنْ كان له نعمةٌ أوسعُ من نعمة إخْوانهِ
أم كلُّ من كان له جَوْسَقٌ مشرّفٌ شِيد بأركانهِ[٥]

---

(١) يتيمة ٣/١٩١ .

(٢) يتيمة ٤/٣٣٨ .

(٣) يتيمة ٤/٧٧ .

(٤) يتيمة ٤/٩١ .

(٥) الجوسق : القصر.

أم كلُّ من كان له كسوةٌ يبذلها فى بعض أحيانِهِ
يُرى بها مستكبراً تائِهاً على أدانيه وخِلاَّنهِ

ويلحق بهذه الطبقة بل يأتى فى مقدمتها الإقطاعيون أصحاب الإقطاعات الواسعة التى كان يُغدقها الأمراء على الحواشى من الوزراء والقواد والقضاة والولاة وغيرهم من أفراد الأمة . وكان النظام الإقطاعى معروفاً فى إيران قبل الإسلام ، ومما ساعد عليه اختلاف أصقاعها وبقاعها بين قلاع صخرية وصحار وسهول . وأخذ هذا النظام يعود منذ عصر الرشيد ، حتى إذا كنا فى هذا العصر تفاقم أمره ، حتى ليقول المقدسى فى القرن الرابع إن أكثر الضياع بفارس مقتطعة [١] ، وظل ذلك بعد عصر بنى بويه ، بل لقد اتسع فى عصر السلاجقة وأيام نظام الملك وزيرهم ، فإنه لما اتسعت مملكة السلاجقة رأى أن يسلِّم القرى إلى مجموعة من الإقطاعيين : قرية أو أكثر أو أقل ، كل على قدر إقطاعه [٢] . وعُرف بجانب الإقطاع فى هذا العصر نظام الضمان ، وأعدَّ بدوره لظهور طبقة أخرى من الرأسماليين ، إذ كان يضمن خراج الضياع وأحياناً القُرى ، بل أحياناً الولايات ، شخصٌ يفرض على نفسه ما لا يؤديه عنها ، ويأخذ لنفسه أضعافه . وكثيراً ما كان هؤلاء الضامنون أصحاب الخراج أنفسهم ، إذ تحولوا بدورهم إلى إقطاعيين وأصحاب ضياع واسعة . وكل ذلك معناه أنه كانت هناك طبقة كبيرة تملك الإقطاعات والضياع الكثيرة معتصرة دماء الشعب ، وكان حَسْبُ الشخص ضيعة واحدة ليكون ثريا ؛ وصور ذلك المعافَى بن هُزَيْم شاعر أَبيوَرْد قائلاً [٣] .

كفَتْنِى ضَيْعَتِى مَدْحَ العبادِ وظَعْناً فى البلاد بغير زادِ
غدتْ سَكَنِى وخَادمتِى وظِئْرِى وفيها أسرتى وبها تِلادى
صديقُ المرء ضَيْعتهُ وكَم من صديقٍ فى الصداقة مستزادِ
يخونك فى المودَّة مَنْ تؤاخى ومالُك لا يخونك فى الودادِ

وكان الأبناء يتوارثون عن آبائهم هذه الضياع والإقطاعات ، مما أعدَّ لنشوء طبقة أرستقراطية واسعة ، كانت تنفق عن سعة ، وكان كثير منها جواداً ممدَّحاً ، ويلقانا ذلك

---

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٤٢١ .

(٢) طبقات الشافعية للسبكى (طبعة محمود الطناحى وعبد الفتاح الحلو نشر مكتبة عيسى البابى الحلبى) ٣١٧/٤ وبلغ من ثراء بعض الإقطاعيين فى العصر السلجوقى أن نرى فى همذان زيداً الحسنى العلوى يدفع إلى السلطان محمد السلجوقى سبعمائة ألف دينار دون أن يبيع من أجلها ملكاً أو يستدين ديناراً (ابن الأثير ٤٧٤/١٠) .

(٣) يتيمة ١٣٢/٤ والظئر : المرضعة .

بوضوح فى كتب تراجم الشعراء مثل اليتيمة ودمية القصر والخريدة ، إذ نجد عشرات الأسماء المجهولة تُمْدَحُ أمداحاً كثيرة ، وحقا قال بشار :

يسقط الطيرُ حيث يَنْتثر الحـ ـبُّ وتُغْشَى منازلُ الكرماءِ

وكان ذلك سبباً فى أن نلتقى بكثيرين من رعاة الشعر والشعراء فى كل بلدة .

وكانت الطبقة الوسطى تتألف من عناصر كثيرة ، فى مقدمتها القضاة والفقهاء وعلماء العربية وكان لكثيرين منهم رواتب يُقدِّرها الأمراء أو وزراؤهم . ويدخل فى هذه الطبقة عمال الحِسْبة والبريد ودواوين الجيش والشهود الذين كان القضاة يقيمونهم للشهادة ، فقد أصبح مثلهم مثل العمال الثابتين ، وكانوا دائماً موضعاً للشكوى وفيهم يقول أبو عبد الله الخوزى [١] :

وَيْلٌ لمن عَدَّله القاضى واللهُ عنه ليس بالراضى
تَمْضى القضايا بشهاداتهِ وهْو إلى النار غَداً ماضى

وينتظم فى هذه الطبقة الصناع وأوساط التجار أما كبارهم فكانوا ذوى رءوس أموالٍ ضخمة ، وعدادهم لذلك فى الطبقة السابقة . ومن العناصر المهمة فى هذه الطبقة الشعراء الذين كان يُغْدق عليهم أفراد الطبقة الرفيعة الأموال والعطايا ، ومثلهم المغنون والمغنيات ، ودائماً نلقاهم فى كل بلاط وفى كل قصر ، فقد كان الشعب من كبيره إلى صغيره مولعاً بالغناء .

وتأتى بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية ، وهى التى كانت تعمل فى الصناعات والتجارات الصغيرة وفى خدمة أرباب القصور ، وكانت أشبه بالعبيد وخاصة من كان منها يعمل فى فلاحة الأرض إذ لا يكاد يجد ما يسدُّ به رمقه ، وليست هناك مهنة إلا عملت فيها هذه الطبقة حتى أحقر المهن . وكانت حياتها كلها عرقاً وعنتاً ومشقة لكى تملأ الطبقة العليا فى الإمارات بطونها وتكتظ قصورها بأدوات الترف واللهو والطرب .

وكان وراء تلك الطبقات أهل الذمة من المجوس والنصارى واليهود ، وكان المجوس فى أوائل هذا العصر كثيرين فى إيران وخاصة فى قلاعها البعيدة ، ويروى أنه وقعت فى شيراز لسنة ٣٦٩ للهجرة فتنة بينهم وبين المسلمين [٢] ، ولم تكن الحكومات تتدخل فى شعائرهم ولا فى شعائر النصارى واليهود ، وكان لهم محاكمهم الخاصة التى تفصل بينهم فى خصوماتهم ، وكانوا يدفعون، نظير ما يتمتعون به من تسامح واسع ، الجزية ، وكانت أشبه بضريبة للدفاع الوطنى إذ لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح ، ولم تكن تؤديها

(١) يتيمة ٣/٤٢١ .

(٢) ابن الأثير فى سنة ٣٦٩ .

النساء ولا الرهبان ولا ذوو العاهات ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس. وكانت لا تتجاوز الدينار لعامتهم وديناربن لمتوسطى الثراء وثلاثة دنانير لأصحاب الثراء الطائل، وكانت تبلغ قيمة الدينار نحو اثنى عشر درهماً. وكانت أبواب العمل لهم مفتوحة، وكان أكثر الأطباء وكثير من الكتبة نصارى: وكان على بن بويه ركن الدولة يستخدم كاتباً نصرانيا[١]، بل لقد اتخذ عضد الدولة كما قدمنا وزيراً نصرانيا، وكان اليهود يعملون فى أحقر المهن، فكان منهم الصباغون والأساكفة والخرّازون.

وكانت تتفنن الطبقتان العليا والوسطى فى الملبس والمطعم، فكانوا يلبسون الدّراريع وهى ثياب مشقوقة من الصدر كما كانوا يلبسون الأقبية والسّراويل والحلل المطرزة. وكانوا يلبسون الخزَّ صيفاً والفِراء والصوف شتاء كما كانوا يلبسون الجوارب القطنية والصوفية والحريرية. وكانت النساء حرائر وجوارى أكثر تفنناً فى أناقتهن، فكن يلبسن الإستبرق والسُّنْدس والوَشْىَ، وكن يتحلين بالجواهر النفيسة من كل صنف، وكن يتعطرن بأنواع الطيب والمسك والغالية.

ومضوا يتفنون فى المطاعم، فكانوا يصنعون منها ألواناً كثيرة وخاصة فى بيوت الأمراء والوزراء، مما جعل كثيرين يُعْنَون بالتأليف فى كتب الأطعمة، مثل ابن مسكويه، الذى أحكم كتابه فيها غاية الإحكام وأتى منه بكل غريب حسن[٢]، ومثل ابن خلاد القاضى الذى أهدى إلى ابن العميد كتاباً فى الأطعمة، فأجابه بقصيدة طويلة عدَّد فيها كثيراً من أنواعها التى ذكرها فى كتابه[٣]. وعرفوا حينئذ توالى ألوان الطعام على المائدة بين وضع ورفع. وكانت تقدم أحياناً قبل الطعام وأحياناً بعده الفاكهة والحلوى من كل صنف.

وكانوا يمكثون بعد الطعام للسمر والشراب وسماع الغناء، وكانوا يستطيبون ذكر الفكاهات والنوادر والحكايات الدالة على اللباقة فى أثناء سمرهم ومنادمتهم على الشراب. ومن قديم تقترن الخمر بالغناء فى إيران، حتى ليروى صاحب الشهنامه فى تربية قورش الملك الإيرانى القديم صورة مجلس شراب وغناء كان قورش يشترك فيه بنفسه ساقيا، وكأنما كانت الخمر والغناء إحدى شعائر الفرس منذ أقدم العصور[٤]، وطبيعى أن يظل ذلك ديدنهم حتى هذا العصر، بحيث يشترك فى المتاع بهما الأمراء من مثل فخر الدولة[٥]

---

(١) ابن مسكويه ٥/٤٦٤.

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ٣٣٢.

(٣) يتيمة ٣/١٦٨.

(٤) انظر الشاهنامه نشر د. عزام ١/٣١٣ وتراث فارس (الترجمة العربية) ص ٢٦٣.

(٥) ابن مسكويه ٦/٣٨٦ وانظر فى عضد الدولة ومجالس شرابه اليتيمة ١/٢١٨ وابن الأثير (طبعة دار صادر - بيروت) ٩/٢٠.

والوزراء من مثل أبي الفتح بن العميد[١] والقضاة من مثل القاضي أبي أحمد منصور الهروى[٢] . وكانوا ينثرون الورود فى قاعات الشراب[٣] . وكان يحيِّى بعضهم بعضاً بالورود والرياحين والفواكه فى أثناء الشرب ، يقول عَبْدان الأصبهانى[٤] :

سُقِيتُ وفى كفِّ الحبيبة وردةٌ وأُتْرُجَّةٌ تُغْرى النفوسَ بِصَوْنها
مُداماً فلما قابلتْنى بوجهها شربتُ فحيَّتنى بلونى ولونها

وبلغ من تفشى الغناء والرقص فى فارس أن نجد عضد الدولة يفرض ضريبة فيها على المغنيات والراقصات[٥] . وأكبر الظن أن إيران جميعها كان يشيع فيها ذلك بصور مختلفة ، وكانت أكبر فرصة تتاح للناس كى يقصفوا ويمجنوا ما شاء لهم المجون والقصف هى الاحتفالات بالأعياد[٦] المسيحية من مثل عيد الميلاد وعيد الزيتونة وعيد الشَّعانين ، وفى العيد الأخير يقول أحمد بن المؤمل مشيراً إلى ماكان فيه من لهو وموسيقى وغناء[٧] :

سَقْياً لدهرٍ مضى إذ نحن فى شُغُلٍ بالعَزْفِ والقَصْفِ عن شُغْل السَّلاطينِ
إذ يومُنا يومُ عيدٍ طول مُدَّتنا ولَيْلُنا كلُّه لَيْلُ الشَّعانينِ

وكانوا يُطْلقون لأنفسهم العنان فى الأعياد المجوسية من مثل عيد السَّذق ، وهو عيد لاشتعال النيران ، وكان يقع فى شهر يناير من كل عام ، ويصوِّر البيهقى فى تاريخه الاحتفال به فى سنة ٤٢٦ ، فيقول : «اقترب عيد السَّذَق ، فأخذوا يجمعون له الطَّرفاء وعيدان الحطب ، حتى تراكمت وأصبحت كالقلعة ، وأقاموا عرائس من الخشب صارت كالجبل ارتفاعاً ، وأتوا بكثير من المعدّات والطيور ومايلزم هذا العيد من الحاجيات ، وحلَّ العيد وجلس السلطان فى مخيَّم له ، وجاء الندماء والمطربون وأشعلوا النيران ، وكانت تُرَى على بعد عشرة فراسخ ، وأطلقوا الطيور المبللة بالنفط وكذلك الوحوش ، فكانت تجرى وقد علقت بها النيران»[٨] . وكان أهم من هذا العيد عيد النَّيْروز فى أول الربيع ، وكان موسماً كبيراً للمجون والشراب . ومثله عيد المهرجان فى السادس والعشرين من أكتوبر كل عام . ويقول البيهقى : «كان السلطان يجلس له صباحاً للمعايدة . . ويجتمع أعيان الدولة

---

(١) ابن الأثير ٨/٦٧٦ .

(٢) دمية القصر (طبعة دار الفكر العربى بالقاهرة) ١٦٧/٢ .

(٣) يتيمة ٣/٢٤٤ .

(٤) يتيمة ٣/٣٠٠ .

(٥) المقدسى ص ٤٤١ وتحقيق ماللهند من مقولة للبيرونى ص ٢٧٩ .

(٦) انظر فى احتفالهم بالأعياد كتاب الآثار الباقية للبيرونى ص ٢١٥ .

(٧) اليتيمة ٤/١٤٩ .

(٨) تاريخ البيهقى (الترجمة العربية – نشر مكتبة الأنجلو) ص ٤٧٠ – ٤٧١ .

والأمراء ومجلس الندماء ، ويبادرون إلى اللهو ، وتدور أقداح الشراب ، وتعزف آلات الطرب ، ويأخذ المغنون فى الغناء»[١] .

وكانوا يخرجون مواكب وفرادى للصيد والطرد ، وكان فخر الدولة البويهى مولعاً بالصيد[٢] . ومثله ملكشاه السلجوقى ، ويقال إن صيده بلغ فى بعض الأيام سبعين غزالاً[٣] . وكان من أحب هواياتهم إليهم اللعب بالنَّرْد والشّطرنج ، وكانوا يُشْغَفون بلعب الصولجان والكرة وبسماع الغناء . ومما يدل على انتشار كل هذه الملاهى فى خراسان وإيران عامة أن نجد كيكاوس فى القرن الخامس الهجرى يفرد فى كتابه : «قابوسنامه[٤]» فصولاً مختلفة لكل هذه الألعاب والملاهى ، وظل ذلك ديدنهم طوال العصور التالية .

٤

التشيع [٥]

يقوم التشيع –كما مر بنا فى قسم العراق– على أساس نظرية يؤمن أصحابها بالوراثة الشرعية لولاية الحكم على المسلمين أوبعبارة أخرى للخلافة ، فهى ليست مفوّضة للأمة ، بل هى خاصة بمن اختارهم الله من آل البيت ، من الأئمة ، ويسمى كل منهم إماماً تفرقة بينه وبين اسم الخليفة للدلالة على مكانته الدينية . وتتفق الشيعة على أن الرسول ﷺ أوصى لعلى بن أبى طالب بالخلافة بالقرب من غديرخُمّ بين مكة والمدينة ، وهم فرق كثيرة ، أهمها ثلاثة : الزيدية والإمامية الاثنا عشرية والإسماعيلية .

والزيدية –كما مر بنا فى قسم العراق– أقربهم إلى أهل السنة ، وهم ينتسبون إلى إمامهم زيد بن على زين العابدين بن الحسين ، وكانوا يُقِرُّون ولاية الخلفاء من غير العلويين أخذاً بمبدئهم القائل بأنه تجوز ولاية المفضول على المسلمين مع وجود العلوى الأفضل ، وبذلك لم يطعنوا فى الصحابيين الجليلين : أبى بكر وعمر ولا فى ولايتهما أمور الأمة . وكانوا لا يأخذون بنظرية الإمام المختفى مثل الإمامية الاثنى عشرية ، ولا بنظرية

---

(١) البيهقى فى سنة ٤٢٧ ص ٥٣٩ .

(٢) ابن مسكويه ٦/٣٨٦ .

(٣) براون (ترجمة الشواربى) ص ٢٢٨ .

(٤) ترجم هذا الكتاب إلى العربية ونشرته مكتبة الأنجلو المصرية .

(٥) بجانب مصادر التشيع المذكورة فى الفصل الأول من قسم العراق انظر مقالات الإسلاميين للأشعرى والفرق بين الفرق للبغدادى والتبصير فى الدين للإسفراييني وفرق الشيعة للنوبختى ومقدمة ابن خلدون وفضائح الباطنية (الإسماعيلية) للغزالى واعتقادات فرق المسلمين والمشركين للفخر الرازى وبراون (ترجمة الشواربى) فى مواضع متفرقة .

الإمام المستور مثل الإسماعيلية ، وهم لا يأخذون بفكرة العصمة فى الإمام ولا بفكرة العلم الباطن ولا بفكرة أن الإمامة مقصورة على فرع الحسين وحده من العلويين دون فرع الحسن . وبذلك كانت الزيدية فرقة شيعية معتدلة .

ومرَّ بنا فى قسم العراق حديث مفصَّل عن فرقة الإمامية الاثنى عشرية وأنها تجعل الإمامة مقصورة على أبناء الحسين ، وترى أنها تتابعت بعد على فى الحسن ثم الحسين وذريته بادئة بابنه على زين العابدين ، فابنه محمد الباقر ، فابنه جعفر الصادق ، وتفترق بعد هذا الإمام السادس فرقة الإمامية عن فرقة الإسماعيلية كما مرَّ بنا فى العراق ، إذ ترى أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم ، وتوالت بعده فى أبنائه وأحفاده : على الرضا ، فمحمد الجواد ، فعلى الهادى ، فالحسن العسكرى ، فمحمد المهدى الذى اختفى ، وهو الإمام الثانى عشر ولذلك يسمون الاثنى عشرية ، ويؤمن الإمامية حتى اليوم بأنه سيعود ويملأ الأرض عدلاً وعلماً ، وهو بذلك الإمام المنتظر صاحب الزمان .

وعنصر أساسى ثان فى عقيدة الإمامية عرضنا له فى قسم العراق وهو ما يعتقدونه من أن الإمام معصوم ، وهى عصمة ترفعه درجات عن الطبيعة البشرية فى اعتقادهم إذ تجعله نقيا من الذنوب بريئاً من العيوب ، لا يعتريه خطأ . وعنصر أساسى ثالث هو علمه لا العلم الظاهر فحسب ، كما يؤمن الزيدية ، بل العلم الباطنى الإلهى الذى يتوارثه الأئمة عن النبى والذى ينتقل فيهم من إمام إلى إمام ، بحيث يصبحون هم وحدهم العالمين بالمعانى الحقيقية للقرآن الكريم ، وهو ما فسح عند الإمامية والإسماعيلية أيضاً للتأويل الواسع فى آيات الذكر الحكيم .

والإسماعيلية تختم سلسلة أئمتها الظاهرين بالإمام السابع إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكان قد توفى قبل أبيه فعدلت عنه الإمامية الاثنا عشرية إلى أخيه موسى الكاظم ، أما الإسماعيلية فتمسكت به لأنه الابن الأكبر لجعفر الصادق وعندهم أن النص على الإمام لا يتغير ، بل يرثه عنه ابنه الأكبر ، حتى لو توفى فى حياة أبيه كما توفى إسماعيل ، وتبعه خلفاؤه فى سلسلة متصلة ، وهم مستترون مختفون ، حتى آتت الدعوة السرية ثمرتها ، فظهر الإمام فى شخص عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية فى شمالى إفريقيا .

وتسمى هذه الفرقة باسم السبعية تمييزاً لها من الإمامية الاثنى عشرية ، لأنها تجعل أئمتها يتوالون فى حلقات أو أدوار سبعية ، والسابع أعلاهم درجة إذ هو الإمام الناطق المبعوث برسالة تفوق كل رسالة سبقتها ، حتى رسالة الرسول ﷺ ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم . وعندهم أن الإمام هو التجلِّى الأعظم للعقل الكلى ، وفى ذلك ما يؤكد نفوذ

الفلسفة الأفلاطونية إليهم وما يتصل بها من نظريتها المعروفة فى الفيض ، وهى النظرية التى بنى عليها إخوان الصفا البصريون فلسفتهم الدينية فى موسوعتهم المشهورة . ومن تتمة نظريتهم أن العقل الكلى الذى يتجلى فى أئمتهم تجلى منذ آدم فى الأنبياء ، وهو الذى يسيِّر الكون ويدبره ، وهو ما جعل الحاكم الخليفة الفاطمى الإسماعيلى يعتقد أن التجسد الإلهى تمثَّل فيه وأنه خليق بعبادته . ومات مقتولاً ، فادَّعى بعض الإسماعيلية حين ذاك أنه يعيش متخفياً ، وأنه سيرجع . وكأن نظرية الرجعة عند الإمامية الاثنى عشرية وجدت طريقها إلى الفرقة الإسماعيلية فى شخص الحاكم . وكان القرامطة إحدى شعب الإسماعيلية ظنوا من قبل أن محمد بن الإمام السابع إسماعيل سيرجع بعد موته ، وأنه الإمام الغائب المنتظر .وواضح أن الإسماعيلية غلت فى تشيعها غلوًّا بعيداً إذ رفعت الأئمة إلى مراتب الآلهة ، حتى لنجد كثيرين من علماء الإسلام ومفكريه يسمونهم دهرية زنادقة ، وقد حمل عليهم الغزالى حملات عنيفة فى كتابه « فضائح الباطنية » الذى سجل عليهم فيه ضلالهم وخروجهم عن جادَّة الإسلام ، ولابد أن نشير إلى أن تابعى هذه الفرقة كانوا يصعدون فى سبع مراتب : مرتبة للعامة ، ثم تعلوها مراتب حتى المرتبة السابعة ، وصاحبها خليق عندهم بأن يكون من الدعاة . ومن حق الإسماعيلى والإمامى جميعاً أن يُخْفيا عقيدتهما فى البلد الذى يسود فيه خصومهما وهو المذهب المعروف عندهما باسم التقية ، وقد طبع دعوتهما فى حقب وأماكن كثيرة بطابع السرية .

وهذه الفرق الشيعية المختلفة كانت على صلة وطيدة منذ أول الأمر بالاعتزال والمعتزلة ، فقد كان زيد بن على مؤسس فرقة الزيدية تلميذاً لواصل بن عطاء مؤسس مذهب الاعتزال . وتعانق منذ العصر العباسى الأول مذهب الإمامية مع الاعتزال فى أثناء الجدال الذى كان دائراً بين أعلامهما حتى لنجد النظَّام المعتزلى المشهور يؤمن بنظرية الإمامية الخاصة بعصمة الإمام ، وكان يعاصرهُ ثمامة بن أَشْرس الذى لعب دوراً كبيراً لعهد المأمون فى حمله على أن يكتب إلى الآفاق بتفضيل على بن أبى طالب على أبى بكر وعمر وجميع الصحابة . ومن يرجع إلى مصنفات الشيعة فى عقيدتهم يجدهم يفردون فصولاً طوالاً للحديث عن التوحيد والعدالة ، على غرار ما يصنع المعتزلة . وفى رأينا أن هذه الصلة الوثيقة بين الاعتزال والشيعة هى التى جعلت أهل السنة فى العصر ينفرون منه ، ويعتنقون المذهب الأشعرى .

وكانت إيران فى هذا العصر تُعَدّ أكبر مركز للتشيع ، وقد مرَّت بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى حركة زيدية قوية غلبت على طَبَرِسْتان وبلاد الديلم ، وعلى الرغم من إجهاز

الدولة السامانية عليها كما مر بنا فى أوائل هذا الفصل ظلت لها هناك بقية ، وظل هناك أئمة يقودونها مثل الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهارونى المتوفى سنة ٤١١ للهجرة . وكان تقلّدُ البويهيين الإماميين لإماراتهم المختلفة فى إيران إيذانا بأن يأخذ المذهب الإمامى طريقة إلى الانتشار ، واشتهرت مدينة «قُم» باعتناقة وقد ظل منتشرا بها واعتنقه كثيرون فى الحقب التالية ، وقُيِّضَ له كثير من العلماء يعملون على نشره مثل ابن بابويه القمى المتوفى سنة ٣٨١ وقد كان أبوه شيخ الشيعة فى مدينة « قم » وخلفه فى مشيخته ، وألّف كتبا كثيرة فى المذهب ، محتجاله ، داعيا إليه ، ومن كتبه المطبوعة فى طهران كتب العلل والأحكام وكتاب عقائد الشيعة الإمامية .

وقد نشطت الفرقة الإسماعيلية فى إيران منذ أوائل هذا العصر ، ويقال إنهم استطاعوا أن يدخلوا فى عقيدتهم نصر بن أحمد السامانى أمير خراسان (٣٠١ - ٣٣٢ هـ .) مما جعل حرسه يضطره إلى التنازل عن السلطان لابنه نوح ، ويقال أيضا إن أبا على بن سيمجور أحد رجالات الدولة فى خراسان لأواخر أيامها كان إسماعيليا ، مما جعل السلطان محموداً الغزنوى يفتك به . ويبدو أن الإسماعيليين جَدّوا حينئذ فى نشر دعوتهم بإيران ، حتى لنجد محموداً الغزنوى حين يستولى على الرىّ من البويهيين سنة ٤٢٠ يكتب إلى الخليفة العباسى ببغداد خطاباً طويلاً ، يقول فيه[١] :

«قد أزال الله عن هذه البُقْعَة أيدى الظلمة ، وطهَّرها من دعوة الباطنية الكفرة ، والمبتدعة الفجرة . وقد تناهت إلى الحضرة المقدسة حقيقة الحال فيما قصَر العبد عليه سعيه واجتهاده من غزو أهل الكفر والضلال وقَمْع من نَبَغ ببلاد خراسان من الفئة الباطنية الفجار . . وطلعت الرايات بسواد الرَّىِّ . . وخرج الديالمة معترفين بذنوبهم ، شاهدين بالكفر والرفض على نفوسهم ، فرجعنا إلى الفقهاء فى تعرُّف أحوالهم ، فاتفقوا على أنهم خارجون عن الطاعة وداخلون فى أهل الفساد ، فيجب عليهم القتل والقطع والنفى على مراتب جناياتهم . واعتقادهم فى مذاهبهم لا يعدو ثلاثة أوجة تسودّ بها الوجوه يوم القيامة : التشيع والرفض والباطن . وذكر هؤلاء الفقهاء أن أكثر القوم لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة ولا يعرفون شرائط الإسلام ، ولا يميزون بين الحلال والحرام ، بل يجاهرون بالقذف وشتم الصحابة ، ويعتقدون ذلك ديانة . . . ويعدون جميع الملل مخاريق الحكماء ، ويعتقدون مذهب الإباحة فى الأموال والفروج والدماء» .

والخطاب طويل ، وهو يصور مدى ما داخل العقيدة الإسماعيلية فى إيران من فساد ،

---

(١) المنتظم ٣٨/٨ .

حتى كان أصحابها لا يؤدُّون شعائر الإسلام ، بل كانوا ينكرونه هو وجميع الديانات السماوية جملة . وليس ذلك فحسب ، فقد اختلطت بعقيدتهم العقيدة المزدكية الفارسية القديمة التى أحلَّ صاحبها «مَزْدك» النساء وأباح الأموال وجعلها شركة للناس ، ودعا إلى العكوف على اللذات والشهوات (١) . ونمضى بعد عهد محمود الغزنوى ، فنجد الدعوة الإسماعيلية تنشط فى إيران طوال القرنين الخامس والسادس للهجرة ، إذ تعهدها هناك دعاة مختلفون ، كان يؤيدهم تأييداً قويا الخليفة الفاطمى المستنصر (٤٢٧ – ٤٨٧ هـ) وقد ظل الرئيس الأعلى للإسماعيليين طوال ستين عاماً ، واستطاع أن يبسط سلطانه على واسط وبغداد حاضرة الخلافة العباسية فى منتصف القرن الخامس . وقد حاربت الدولة السلجوقية العقيدة الإسماعيلية دون هوادة ، ولكن دعاتها ظلوا منبثِّين فى أنحاء إيران ، مثل ناصر خسْرو الأديب الرحالة ، الذى لقبه أتباعه بلقب «حجة خراسان» وقد زار القاهرة سنة ٤٣٧ وأقام بها سبع سنوات ، وعاد إلى وطنه خراسان ، وأخذ يدعو للفاطميين الإسماعيليين بمصر ، غير أن خصومه اضطروه إلى الفرار إلى مرتفعات «سِمِنْجان». وكان أخطر منه فى الدعوة للإسماعيليين الفاطميين أحمد بن عبد الملك بن العطاش الذى نهض بالدعوة فى أذْربيجان وأصْفهان ، وقد استولى بجانب المدينة الأخيرة على حصن منيع يسمى «شاه دز» جعله وكراً لأتباعه ودعوته . وكان أشد منه خطراً الحسن بن الصبَّاح ، وكان عالماً بالهندسة والحساب والنجوم والسحر ، وتلقن الدعوة عن بعض دعاتها الفاطميين والإيرانيين الذين صحبهم فى مدينة الرىّ ، ويقال إنه لقى بها فى رمضان سنة ٤٦٤ ابن العطاش وإنه نصحه بالمسير إلى القاهرة حاضرة الخلفاء الفاطميين ليتلقن الدعوة من أربابها وشيوخها المقدَّمين . ووصل القاهرة سنة ٤٧١ وأسبغ المستنصر عليه جوائزه . ويقال إنه سأله مَن الخليفة بعده ؟ فأجابه ابنى نزار الأكبر ، ورجع إلى إيران سنة ٤٧٣ يدعو إلى نزار ، وولَّى المصريون بعد المستنصر ابنه المستعلى ، مما كان سبباً فى انقسام الإسماعيلية إلى شعبتين : شعبة غربية تدعو إلى المستعلى وتشمل مصر والشام وشعبة شرقية تشمل إيران وتدعو إلى نزار .

واتسعت دعوة الحسن بن الصبَّاح ، حتى ضمت بين جناحيها كَرْمان وَطبَرستان والدَّامغان وقَزْوين ، واستطاع الاستيلاء على حصن فى غاية المناعة ، هو قلعة «ألموت» سنة ٤٨٣ ومعنى اسمها بلسان الديلم تعليم العُقاب ، كأنها ، لعلوها الشاهق ، وَكرٌ له . وجعله استيلاؤه على هذه القلعة يضع لأتباعه خطة محكمة أن يستولوا على مثيلها فى إيران ،

(١) انظر كتابنا العصر العباسى الأول ص ٨٠ .

فاستولوا على «خالنجان» بالقرب من أصفهان بالإضافة إلى ما كانوا استولوا عليه بجوارها من «شاه دز» واستولوا على «طَبَس» و«قاين» و«تون» و«رَوْزن» و«خور» و(خوسَف» فى قُهُسْتان وعلى «شَمْكوه» بجوار أبهر، وعلى «أَسْتُوناوَنْد» فى مازَنْدران، وعلى «أَرْدَهْن» و«كُردكوه» وقلعة الناظر فى خوزستان، وعلى «قلعة الطنبور» بجوار أرَّجان، وعلى قلعة «خلاَّدخان» فى فارس. وكان تملك الحسن بن الصبَّاح وأتباعه لهذه القلاع الحصينة سبباً فى أن يشعروا بأن لهم سلطاناً سياسيا، حتى إذا توفى المستنصر ظلوا يدينون لنزار منفصلين عن الدعوة الفاطمية بمصر، وكان يطلق عليهم اسم الإسماعيليين الباطينيين والحشاشين. وفى الاسم الأخير ما قد يدل على أن كبارهم – على الأقل – كانوا يعرفون المخدر المعروف باسم الحشيش. ومضوا يدعون سرًّا لعقيدتهم، وتحولوا إلى جماعات إرهابية تقتل كل من يقف فى سبيل دعوتها، وكان من أهم من قتلوه نظام الملك الوزير السلجوقى المصلح حين تصدى لهم وحاربهم وحاصر قلعتهم «ألموت» على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع. ونرى ابن الأثير يذكرهم ويذكر ما كانوا يسفكونه من دماء ويثيرونه من رعب على مر السنين، من مثل قتلهم لفخر الملك بن نظام الملك ولعبد الرحمن السميرامى الوزير السلجوقى وللفقيه عبد الواحد الرويانى فى طبرستان والقاضى سعد الهروى فى همذان. وكان السلاجقة يردون على هذه الاغتيالات بقتل بعض زعمائهم وأتباعهم، على نحو ما هو معروف عن قتل ابن عطاش وبعض أتباعه بأصبهان سنة ٤٩٩ وللسلطان سنجر مقتلة عظيمة فيهم سنة ٥٢١ ردا على قتلهم لوزيره معين الملك. وكان الحسن بن الصباح حيا فى أيام هذا السلطان، غير أنه لم يكن يبارح قلعة «ألموت» وبها توفى سنة ٥١٨ للهجرة. وخلفه فى رياسة الطائفة كيابزرك حميد ثم ابنه محمد، وتبعهما دورُ ظهور الأئمة من أحفاد نزار، إذ ظلت فى أيديهم مقاليد السلطان والدعوة. وظل نشاط هؤلاء الحشاشين أو الإسماعيليين الشرقيين، حتى استطاع المغول فى منتصف القرن السابع الهجرى دكَّ حصونهم وقتل آخر أئمتهم ركن الدين خورشاه (٦٥٣ – ٦٥٥ هـ.) وبقتله وتحطيم حصون أتباعه ينتهى عهد الإسماعيلية بإيران، ولا تبقى منهم إلا بقية لا وزن لها، ويعود هذا الفرع الإسماعيلى الشرقى إلى الظهور فى الهند، ويتخذ أصحابه «آغاخان» رئيساً روحيا لهم، وعادة يكون من أحفاد ركن الدين خورشاه الذى كان آخر أمراء قلعة «ألموت».

ومنذ قضاء المغول على إسماعيلية إيران تتحول تدريجا إلى قبضة الفرقة الإمامية الاثنى عشرية، ومع ذلك فقد ظل كثيرون يتبعون المذهب السنى، وينعكس ذلك على العلماء

والفقهاء والصوفية لا بين من كانوا يتخذون العربية لسانهم فحسب ، بل أيضاً بين من كانوا يتخذون الفارسية لساناً لهم ، مثل الشيخ سعدى الصوفى المشهور المتوفى سنة ٦٩١ وله شعر عربى قليل . ولا نصل إلى عصر إسماعيل الصفوى مؤسس الدولة الصفوية (٩٠٧ – ٩٣٠ هـ) حتى يصبح المذهب الإمامى الاثنى عشرى عاما فى إيران إذ أعلنه مذهباً رسميا للدولة . وبذلك غلب على مذهب أهل السنة هناك حتى اليوم .

ويحتفل الشيعة وفى مقدمتهم الإمامية من قديم – كما مرَّ فى العراق – بعيدين : عيد الغدير ، يريدون غدير خُمٍّ ، وموعده الثامن عشر من ذى الحجة ، وهو الغدير الذى يروون أن الرسول ﷺ أوصى عنده لعلى بالخلافة من بعده قائلاً له . أنت منى بمنزلة هرون من موسى ، وهو عندهم عيد سرور يظهرون فيه الفرح والزينة ، وكان أول احتفال لهم به فى عهد البويهيين ، وظل ذلك ثابتاً عندهم على مر السنين . أما العيد الثانى فكان مأتماً كبيراً ، يقيمونه يوم عاشوراء (العاشر من شهر المحرم) من كل عام حداداً على قتل الحسين وآله فيه بكربلاء ، تائبين إلى الله ومستغفرين من آثام هذه الكارثة المروعة . وهذا العيد الحزين أقدم من عيد الغدير بكثير ، حتى ليرجعه البيرونى إلى زمن بنى أمية ، قائلاً إن الناس كانوا يظهرون فيه السرور والفرح ، بينما كانت العامة (يقصد الشيعة) تكره فيه تجديد الأوانى والثياب [(١)] . وقد استحال منذ عهد البويهيين إلى يوم حداد كبير ، يتراءى فيه الشيعة بأجسام ضاوية وشفاه ظامئة وعيون ساهمة باكية ، ومن حولهم الشعراء يرثون الحسين رثاء حارًّا مصوِّرين بؤس العلويين وما احتملوا من آلام التقتيل والاضطهاد فى أيام الأمويين والعباسيين وما عانوا من صنوف البؤس والعذاب والشقاء ، وكيف كانت حياتهم كلها محناً وبلاء . وصبغ ذلك الحزن العميق فى تلك الذكرى الرهيبة شعر الشيعة بسواد لا آخر له ، فكله شكوى ممضة وعبرات وزفرات وأنّات .

وكان من آثار إجلال الإمامية الاثنى عشرية لأئمتهم أن أصبح حجهم إلى قبورهم فى العراق سُنَّةً متبعة ، وأصبح للأماكن والأضرحة التى دفنوا فيها قدسية خاصة عندهم ، مما جعل البويهيين يهتمون بها ، ولعل فى هذا الاهتمام منهم ما يدل على أنهم كانو إمامية دلالة قاطعة ، وكان أول من اهتم بذلك عضد الدولة فإنه شيد ضريحاً كبيراً لقبر على بن أبى طالب بالنجف ، وُنقل إليه جثمانه بعد وفاته فدُفن به ، كما دفن به أيضاً ابناه شرف الدولة وبهاء الدولة [(٢)] . واهتم عضد الدولة أيضاً بضريح الحسين ، وبنى حوله حضرة

---

(١) الآثار الباقية للبيرونى (طبعة أوربا) ص ٣٢٩ .   بيروت) ٩/١٨ ، ٦١ ، ٢٤١ .

(٢) انظر المنتظم ٧/ ١٢٠ وابن الأثير (طبعة دار صادر

جليلة [١]. ولا يزال عيد عاشوراء حتى اليوم مأتماً كبيراً يقام فى كل عام ، يقيمه إمامية إيران والعراق .

٥

الزهد والتصوف [٢]

ظلت نزعة الزهد التى تحدثنا عنها فى كتابى العصر العباسى الأول والثانى متغلغلة فى نفوس كثيرين من أهل إيران وفقهائهم ومحدِّثيهم ، وكانت المساجد بيوتاً مفتوحة للعبادة والنسك ، وكان الوعاظ لا يزالون يعظون فيها داعين الناسَ إلى الزهد فى متاع الحياة الفانية وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة . وأقبل كثيرون على حياة التقشف والنسك ، واقرأْ فى كتاب للمحدِّثين مثل تذكرة الحفاظ للذهبى أو فى كتاب للفقهاء مثل طبقات الشافعية للسُّبْكى فستجد صوراً قوية للزهد ، وسترى مَنْ ظل صائماً طول حياته ، ومن بلغ من نسكه أن لا يرفع رأسه إلى السماء داعياً ، ومن يدقق فى أحكام الشريعة مبالغاً تحرجاً وخوفاً من الله مثل أبى محمد عبد الله بن يوسف الجوينى المتوفى سنة ٤٣٨ فقد حكى السُّبْكى فى ترجمته أنه بلغ من ورعه وتحرجه أنه لم يكن يستند فى داره إلى الجدار المشترك بينه وبين جيرانه ولا يدقّ فيه وتداً وأن جارية أرضعت ابنه إمام الحرمين الفقيه المشهور لبنا وهو فى المهد ، فقلبه ، ليرده ، حتى لم يدع فى باطنه شيئاً ، قائلاً : هذه الجارية ليست لنا وليس من حقنا أن نتصرف فى شىء من لبنها . ولا ريب فى أن كثرة الوعاظ هى التى أعدت – من بعض الوجوه – لسريان هذه الروح المتحرجة الورعة ، ويتوقف السبكى مراراً فى طبقاته ليصور لنا وعظ الوعاظ فى نيسابور وغيرها ومدى تأثيره فى نفوس السامعين كقوله عن أحدهم : «صار مجلسه روضةَ الحقائق والدقائق ، وكلماته محرقة الأكباد والقلوب ، ومواجيده مقطِّرةَ الدماء من الجفون مكان الدموع ، ومفطِّرةَ الصدور

---

(١) المنتظم ٧/١٤٩ .

(٢) راجع فى الزهد والتصوف المنتظم وابن الأثير وطبقات الشافعية للسبكى فى مواضع متفرقة وكتاب طبقات الصوفية للسلمى وحلية الأولياء لأبى نعيم والفصل فى الملل والنحل لابن حزم ورسالة القشيرى وإحياء علوم الدين للغزالى وصفة الصفوة لابن الجوزى وقوت القلوب للمكى ومصارع العشاق للسراج وبستان العارفين وتنبيه الغافلين للسمرقندى وطبقات الشعرانى ، وانظر جولد تسيهر فى كتابه «العقيدة والشريعة فى الإسلام» ونيكلسون فى كتابه «فى التصوف الإسلامى وتاريخه» ترجمة **أبو العلا** عفيفى والملامتية والصوفية وأهل الفتوة لعفيفى وآدم ميتز فى كتابه الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى .

بالتخويف والتفزيع »[١] .

وأخذت موجة التصوف فى العصر تزداد حدة وقوة ، وكان من مظاهر ذلك كثرة الرُّبط المنظمة منذ القرن الرابع الهجرى ، وأصل معنى الرباط مكان مرابطة الخيل للجهاد والحرب ، وكأن زوايا المتصوفة كانت تُبْنَى لهم فى هذا التاريخ على حافة قواعد الحرب الأمامية لجهاد أعداء الإسلام . واتسع مدلول الكلمة فيما بعد فأخذت تطلق على زوايا المتصوفة عامة ، وكأنما أصبحت مكاناً لتجمع المجاهدين أينما وجدت . ويقول المقدسى فى أواخر القرن الرابع الهجرى إنه كان فى إسْبِيجاب فيما وراء النهر على حافة الحرب مع الترك ألف وسبعمائة رباط ، بينما كان فى بيكند ألف رباط[٢] ، وهى ثغر جليل بين بخارى ونهر جَيْحون . وإذا كان هذا العدد الضخم من الرباطات فى ثغرين من ثغور الحرب فيما وراء النهر فما بالنا بما كان ببقية الثغور . ويذكر الحجويرى الأفغانى أنه لقى ثلثمائة من مشايخ الصوفية بخراسان ولكل منهم طريقته[٣] .

ويشير المقدسى إلى كثرة الخانقاهات بإيران وما وراء النهر ، وهى بيوت للعبادة كان يتخذها المتصوفة للنسك والإقامة ، وهيأت هذه البيوت بسرعة لفكرة الشيخ ومريده ، إذ كان يلزم شيوخ التصوف تلاميذ يأخذون عنهم طريقتهم وينشرونها ، وكانوا يمنحون مريديهم خِرَقاً حين يتم قبولهم رمزاً إلى اعتزالهم متاع الحياة ، بل كل الحياة وزخارفها ، وكان ذلك يتم عن طريق مجاهدات كثيرة يقوم بها المريد قبل قبوله ، وفى مقدمتها التجرد الكامل عن ضرورات الحياة ورفض مباهجها ونَبْذ مُتَعها وتحمل آلام الفقر والجوع وكل ما يتعلق بالجسد ، حتى الزواج فكان كثير منهم لا يتزوجون ، بل قل إن كثرتهم الغالبة كانت لا تتزوج ، ويحثُّ أبو الليث السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٣ كل من يستطيع الاستغناء عن الزواج أن يظل أعزب[٤] حتى يتجرد لعبادة الله ويتفرغ تفرغاً كاملاً . وحتى المرض ينبغى أن لا يهتم به الصوفى فيعرض نفسه على الأطباء للتداوى ، فالطبيب هو الله ، وهو جانب من عقيدتهم فى التوكل على الله حق التوكل ، حتى ليهمل الصوفى كل تصرف شخصى ، ويترك نفسه لعناية الله وقضائه ، فلا يفكر فى رزقه ولا فى قوته ولا فى غده ثقة فى الله . ودائماً يرددون ذكر الله ، واتسع ذلك عندهم حتى كانوا يعقدون له اجتماعات تقف بها طائفة منهم فى صفين متقابلين ، وهى تذكر الله ، متحركة بجسدها دون أقدامها يميناً

---

(١) طبقات الشافعية للسبكى ٥/ ٦٩ .

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسى ٢٧٣ ، ٢٨٢ .

(٣) انظر كشف المحجوب للهجويرى – الترجمة العربية – للدكتورة إسعاد عبد الهادى (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة) ١/ ٣٩١ .

(٤) انظر كتابه بستان العارفين ص ١٩٧ – ١٩٨

ويسارا، ومنشد ينشد فى أعلى الصفين، وفى أثناء ذلك يهيم نفر منهم وينتشى، حتى ليحس كأنه غاب عن عالم حسه ، وهو ما يسمونه بالسكر وكأنما يَرْوَى رِيًّا مسكراً بجمال الذات الإلهية ، إذ تمتلىء بنور الله نفسه ويسلبها حواسها الجسدية ، فتشعر كأنما تتجرد ، عن كل إرادة ، لمحبوبها الربانى ، وهو ما يسمونه بالمحبة الإلهية ، وكأنما الذكر رحيقها المسكر الذى يذيب الصوفىَّ فى الجمال الربانى ويجعله يفنى فيه فى وجد لا يماثله وجد .

ومنذ الحلاج الذى تحدثنا عنه فى العصر العباسى الثانى أخذ بعض المتصوفة يؤمنون مثله بفكرة الاتحاد بالله ، معتقدين أنه يتجلَّى فيهم كما يتجلَّى فى خلقه ، وكأنهم يشاهدونه فى أنفسهم ، أو كأنما يحلُّ فيهم ، مما هيأ لظهور فكرة الحلول عند بعض الغلاة من المتصوفة ، وكانت هذه الأفكار سبباً فى أن يحدث شىء من الانفصام بين أهل السنة والمتصوفة ووسَّع الهوة بين الطرفين أمثال أبى سعيد بن أبى الخير (٣٥٧ - ٤٤١ هـ) . أكبر الصوفيين الإيرانيين المتفلسفين فى عصره ، وكان يُعلى عمل الصوفى بقلبه على أداء فرائض الإسلام وأحكامه ، وفى ذلك يقول ابن حزم : «إن من الصوفية من يقول إن من عرف الله سقطت عنه الشرائع . . وبلغنا أن بنيسابور اليوم فى عصرنا هذا رجلاً يكنى أبا سعيد بن أبى الخير من الصوفية مرة يلبس الصوف ، ومرة يلبس الحرير المحرم على الرجال ، ومرة يصلى فى اليوم ألف ركعة ، ومرة لا يصلى فريضة ولا نافلة ، وهذا كفر محض ، ونعوذ بالله من الضلال»[1] . وليس هذا كل ما أحدث الهوة بين المتصوفة وأهل السنة ، فقد أوغل بعضهم فى آراء ضالة ، حتى ليعتنق بعض آراء المزدكية فى العكوف على الخمر واستحلال المحرَّم ، وغلا بعضهم فى تقدير شيوخ الصوفية حتى قدَّمهم على الرسل والأنبياء ، يقول ابن حزم : وطائفة من الصوفية زعمت أن فى أولياء الله تعالى من هو أفضل من جميع الأنبياء والرسل ، وقالوا : من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه الشرائع كلها من الصلاة والصيام والزكاة وغير ذلك ، وحلَّت له المحرمات كلها . . وقالوا إننا نرى الله ونكلمه ، وكل ما قُذف فى نفوسنا فهو حق»[2] .

ولم تقف المسألة عند أفراد ، فقد أخذت بعض طوائف الصوفية فى إيران يضعف عندها الوازع الدينى ويشيع عنها اهمال فرائض الإسلام ، وسرعان ما تحولوا إلى طوائف من المتسولين ، نذكر منهم جماعة الكِرَامية بخراسان وماوراء النهر ، وكانوا ، أوقل تحولوا ، دراويش يطوفون فى البلدان لابسين أردية من الصوف ، ومدلِّين فوطا على رءوسهم تحيط

---

(١) الفصل لابن حزم ٤/١٨٨ .

(٢) الفصل ٤/٢٢٦ .

بها قلانس طويلة ، ويقول المقدسى إنهم لا يخلون من أربع خصال : التقى والعصبية والذل والكُدْية أى التسول [١] . ومثلهم الملامتية ، وكان مبدؤهم الأساسى الملامة ، فالصوفى الكامل فى رأيهم من يرتكب أشياء يلومه عليها الناس ، ومن أجل ذلك كانوا يقومون بأعمال ينكرها الشرع ، وقد ينتهكون فيها حرمته ، حتى يتم لهم مبدؤهم ، وأعدوا مثل الكرامية لظهور فكرة الدراويش الرحَّل الذين يعيشون على التسول ، ويتخذونه ذريعة للبطالة ، وكأنما أصبح الصوفى هو المتسول ، ولا بأس من أن يُسْقط عنه الفروض الدينية أحياناً .

ولم يكن التسول يغضب أهل السنة بمقدار ماكان يغضبهم إنكار فرائض الإسلام وسننه ، مما جعلهم يحملون على المتصوفة حملات شعواء ، متهمين لهم بالزندقة والكفر ، وزاد هذه الحملات اشتعالاً ما وجدوه يتردد على ألسنة المتصوفة وفى كتبهم من كلام عن السكر والفناء واتحاد الصوفى بالذات الإلهية . ومن الحق أنه كان هناك كثيرون من الصوفية لا يلوكون كلمات الاتحاد بالله ، ويرون أن الصوفى لا يبلغ مرتبة الكمال إلا إذا أدى الفرائض والسنن ، مخلصاً صادقاً . غير أن هؤلاء لم يكونوا موضع الخصومة مع أهل السنة إنما كان موضعها دراويش الملامتية والكرامية وأمثال أبى سعيد بن أبى الخير ، ممن أسقطوا فرائض الإسلام وشعائره .

وأخذ هذا الصدع بين الصوفية وأهل السنة يتفاقم ، وكان لابد أن يُرْأب ، حتى لا تنشق الأمة على نفسها انشقاقاً قد يؤول إلى عواقب وخيمة ، فقيَّض الله لها صوفيين عظاما ، تداركوا هذه الطامة الكبرى كان أولهم أبو نصر السرَّاج [٢] عبد الله بن على الطوسى الزاهد صاحب كتاب اللُّمع المتوفى سنة ٣٧٨ وفيه قال أبو عبد الرحمن السُّلَمِىّ تلميذه فى كتابه «طبقات الصوفية» : «كان المنظور إليه فى ناحيته فى الفتوة ولسان القوم مع الاستظهار بعلوم الشريعة» . فتصوفه لم يكن تصوفاً فلسفيا يتغلغل فى الحلول وما إليه ، بل كان تصوفاً سنيا يرتبط بأداء الفرائض الدينية . وكان رحالة تجوَّل فى العالم الإسلامى من نيسابور إلى القاهرة ، ووفد على بغداد فأُفردت له غرفة خاصة فى جامع الشونيزية وأُعطى رياسة الدراويش . ولا نغلو إذا ذهبنا إلى أنه يُعَدّ مؤسس مدرسة التصوف السنى فى عصره ، وهو تصوف يستمد من الكتاب والسنة ، وليس فيه حلول ولا شطحات .

---

(١) احسن التقاسيم ص ٤١ .

(٢) انظر فى أبى نصر السراج الطوسى طبقات الصوفية للسلمى وكشف المحجوب للهجويرى وشذرات الذهب ٣/٩١ وكتابه اللمع (نشره نيكلسون فى سلسلة جب التذكارية) .

ويوضح مذهبه الصوفى كتابه اللمع الذى أشرنا إليه ، وفيه يفيض فى الحديث عن حقيقة التصوف ومذهب الصوفية ومقاماتهم وأحوالهم . وتلقن عنه المذهب فى نيسابور تلميذه أبو عبد الرحمن السلمى ، ولقَّنه بدوره عبد الكريم [١] القُشَيْرى النَّيْسابورى ، وتتلمذ عبد الكريم أيضاً على أبى على الدقَّاق ، وكان متصوفاً سنيا ، فَوصل تلميذه بهذا التصوف ، بل ملأ قلبه به حماسةً كما ملأه نفوراً من التصوف الفلسفى وما دخل عليه من أفكار بوذية هندية كفكرة التسول والمسكنة ، وكذلك ما دخل عليه من أفكار الاتحاد بالذات العلية والحلول . وما تُوَافِى سنة ٤٣٧ للهجرة حتى يؤلف رسالته المشهورة التى طوَّفت الآفاق غرباً وشرقاً وقد وجهها إلى جماعات الصوفية فى البلدان الإسلامية ، ليصحح لهم أفكارهم عن التصوف بما رسمه فيها من مبادئ التصوف السنى الحقيقى وما سجله من سِيَر أعلام التصوف وأقوالهم ، مما يصل التصوف وصلاً وثيقاً بالشريعة ، وهو يستهلها بقوله :

« اندرست الطريقة بالحقيقة ، ومضى الشيوخ الذين كان بهم الاهتداء ، وقلَّ الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسننهم اقتداء ، وزال الورع وطُوِى بساطه ، واشتد الطمع وقوى رِباطه ، وارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة ، فعَدّوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا فى ميدان الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطى المحظورات. ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادَّعوا أنهم تحرَّروا من رِقِّ الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه ، وهم مَحْوٌ ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه عَتْب ولا لوم ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختُطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية » .

وبهذه الرسالة العظيمة التى شرقت وغربت وطارت كل مطار رفع القشيرى الحواجز التى كانت قد استحكمت بين أهل السنة والمتصوفة بل لقد أثبت أنها أقواس وهمية ، فالتصوف ليس خصماً للشريعة ، بل هى قوامه وصِراطه الموصِّل إليه وأساسه وعماده . ولم يلبث متصوف كبير أن أحكم هذه الصلة إحكاماً وثيقاً ، وهو أيضاً نَيْسابورى ، أصله طوسى حقا ولكنه تلقن التصوف السنى فى نيسابور حيث مدرسته الكبرى : مدرسة أبى نصر السراج والقشيرى ، ونقصد أبا حامد [٢] الغزالى المتوفَّى سنة ٥٠٥ وقد لزم فقهاء

---

(١) انظر مصادر ترجمة القشيرى فى الفصل الرابع من هذا القسم.

(٢) انظر فى الغزالى المنتظم ٩/ ١٦٨ واللباب ٢/ ١٧٠ والوافى بالوافيات ١/ ٢٧٤ وابن خلكان (طبعة دار =

نيسابور وأخذ عنهم كل ما عندهم ، وسرعان ما أصبح شيخاً يُشار إليه بالبنان ، وأكبَّ الطلاب على دروسه . وأخذت شهرته تطبّق الآفاق . وقدم على نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقى ، فعيَّنه أستاذاً للفقه الشافعى فى مدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٨٤ ولم يلبث أن اعترته أزمة نفسية سنة ٤٨٨ فبارح بغداد إلى أداء فريضة الحج ، وولّى وجهه نحو الصوامع النائية فى مساجد بيت المقدس ودمشق معتزلاً للناس مستغرقاً فى تأمل الفرق الإسلامية ، واستقر فى نفسه أنه ينبغى تخليص الأمة من الدقائق التى يخوض فيها المتكلمون ومن خلافات الفقهاء وما يتجادلون فيه من فروع دون طائل ، وأخذ يحمل على الفقهاء والمتكلمين جميعاً حملات عنيفة ، مبيناً أن ما هم فيه من جدال ليس من الدين فى شىء ، وأن من شأنه أن يزعزع العقيدة العامة ويحدث بلبلة فى العقول . وبالمثل حمل على الفَلسفة وأعلن عليها حرباً شعواء فى كتابه « تهافت الفلاسفة » وخاصة على فلسفة ابن سينا المشائية ، ووجَّه حملاته بقوة إلى الإسماعيلية فى كتابه « فضائح الباطنية » . وهدته تأملاته فى عزلته إلى أنه لابد من الوصل بين التصوف والسنة كى ينمو الشعور الدينى ويصبح تجربة نفسية قلبية بحيث يتعانق عمل القلب وعمل الجوارح فى أداء الشعائر والفروض والنوافل حتى ينهض بها المسلم مصحوبة بالإخلاص وبصدق الشعور الباطنى ، وحتى تكون محبة الله الدافع الأساسى لكل ما يصدر عنه من قول وفعل . وألَّف على هذا الهدى كتابه « إحياء علوم الدين » محللاً فيه الحياة الدينية والأخلاقية للمسلم على مبادئ تستمد من التصوف وروحه ، ونقصد التصوف السنى الذى أقام هو والقُشَيْرِىّ والسرَّاج بنيانه ، والذى يرفض أفكار الصوفية الغالية مثل الاتحاد بالله والحلول . وقد جعل القلب أساس السعى إلى الله حتى يقرب منه المسلم وينال محبته ومبتغاه ، وحقا لابد أن تؤدَّى الفرائض والسنن ، ولكن لابد معها من عمق الإخلاص وعمق الشعور الدينى وصدقه ، إذ هو جوهر الحياة الدينية . وبذلك وصل الغزالى وصلاً وثيقاً بين أهل السنة والمتصوفة دون لجاج فى اتحاد المتصوف بالذات الإلهية ودون تعثر فى شباك الحلول ، ومع الإيمان بأن أحكام الشريعة أساس الحياة الدينية الصادقة المفعمة بالإخلاص . ومن أهم ما نفذ إليه الغزالى فى

= صادر) ٤ /٢١٦ وطبقات الشافعية للسبكى (٦ /١٩١) ومقدمة بويج لنشرته لكتابه التهافت طبع بيروت ومؤلفات الغزالى لعبد الرحمن بدوى ومحاضرات مهرجانه فى دمشق سنة ١٩٦١ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بورض ١٩٦ وبراون ص ٣٦٨ والعقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسيهر القسم الرابع وفى التصوف الإسلامى لنيكلسون ترجمة عفيفى ص ١٣٩ وسيرة الغزالى لعبد الكريم العثمان (طبع دمشق) والحقيقة فى نظر الغزالى لسليمان دنيا (طبع دار المعارف بمصر) .

أثناء كتاباته فكرة الحقيقة المحمدية ، وهى تبدو واضحة – كما يقول نيكلسون[١] – فى كتابه « مشكاة الأنوار » وكأن الرسول صورة للأمر الإلهى أو الكلمة الإلهية . وكان لهذه الفكرة تأثير بعيد فى متصوفة الأجيال التالية ، ونقصد فكرة الإنسان الكامل الذى يتمثل فى الرسول ﷺ . وقد تكاملت للغزالى هذه النزعة الصوفية فى أثناء عزلته وخلوته بصوامع مساجد الشام مدة عشر سنوات ، عاد بعدها إلى بغداد ، ولكنه لم يعقد بها مجالس للفقه أو علم الكلام ، وإنما عقد بها مجالس للوعظ حدّث فيها بكتابه « الإحياء » . وراجع إلى موطنه خراسان وألم بالمدرسة النظامية فى نيسابور مدة يسيرة وتركها إلى طوس مسقط رأسه . وهناك أقام بجانب داره مدرسة للفقهاء «وخانقاه» للمتصوفة ، واشتغل بالنسك والعبادة حتى لبَّى نداء ربه بعد أن زاوج بين التصوف والشريعة مزاوجة بقيت على مر العصور التالية ، وبعد أن هاجم الفلسفة هجوما عنيفا جعلها تسقط أمام التصوف وصولجانه .

وقد ازدهر التصوف السنى فى إيران وغير إيران من العالم الإسلامى ، بفضل أعلامه الثلاثة السابقين وخاصة الغزالى ، وليس معنى ذلك أن التصوف الفلسفى انتهى ، فقد ظلت منه أسراب ولكنها أسراب فردية على نحو ما يلقانا عند يحيى السُّهَرْوَرْدِيّ[٢] الإيرانى المولود بسهرورد سنة ٥٤٥ للهجرة فى الإقليم الإيرانى المعروف باسم إقليم الجبال وقد أكبّ على كتب التصوف والفلسفة . واستوت له فلسفة صوفية إشراقية وسنعود إلى الحديث عنه فى الفصل الرابع . ومن أصحاب التصوف الفلسفى بعد السهروردى صدر الدين الشيرازى المتوفى سنة ١٠٥٠ للهجرة وهو أهم من كتب بعده فى التصوف الإشراقى على نحو ما يتضح فى كتابه « الأسفار الأربعة » .

ومنذ الغزالى بل قبله منذ السراج والقشيرى ينشط نشاطاً واسعاً التصوف السنى فى إيران ؛ وقد أخذت تظهر فيه مع مر الزمن طرق يتبعها كثيرون ، من أهمها طريقة النقشبندية ، وكان تيمورلنك يرعى أهلها ، كما مر بنا فى القسم الخاص بالعراق ، وعاصرتها طريقة البكطاشية ، وقد غمست فى التشيع وفى شىء من التصوف الفلسفى . وبدون شك أنتجت إيران فى هذا العصر وخاصة منذ القرن السابع طائفة كبيرة من شعراء التصوف فى الفارسية فى مقدمتهم جلال الدين الرومى (٦٠٤ – ٦٧٢ هـ .) والشيخ سعدى الشيرازى المتوفى سنة ٦٩١ وله بعض قصائد عربية ، وخلفه الصوفى الكبير حافظ الشيرازى المتوفى سنة ٧٩١ وفى الحق أن التصوف ظل مزدهراً فى إيران قروناً متطاولة .

---

(١) فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ١٤٦ ومابعدها . الفصل الرابع من هذا القسم .

(٢) انظر مصادر ترجمة يحيى السهروردى فى ترجمته فى

الفصل الثانى

الثقافة

١

الحركة العلمية

نشطت الحركة العلمية فى العصرين : العباسى الأول والعباسى الثانى نشاطا عظيما ، فمن تعليم للناشئة فى الكتاتيب إلى تعليم للشباب فى المساجد ، ومضت على هذا النحو فى أوائل عصر الدول والإمارات فى إيران وغير إيران ، وكانت الناشئة تتعلم الخط والكتابة والقراءة وشيئا من الحساب وبعض آيات القرآن الكريم وسوره وبعض الأشعار . أما المساجد فتحولت بجانب ماكان يقام فيها من صلوات إلى جامعات كبرى ، يتعلم فيها الشباب جميع فروع العلم . وكان الأستاذ عادة يستند إلى أسطوانة فى المسجد ، ويتحلّق الطلاب حوله ، وهو يملى عليهم محاضراته . وكانوا يتكاثرون فى بعض الحلقات ، فلا تسمع الصفوف الأخيرة كلام الأستاذ ، فينهض مُسْتَمْلٍ بترديده ، حتى تسمعه تلك الصفوف . وكانت أكثر الحلقات طلابا حلقات الفقهاء والمحدِّثين . ولم تكن هناك رسوم أو أجور تؤخذ من هؤلاء الطلاب فقد كانت الدولة تتكفل بأجور العلماء ، وكان منهم من يأبى أن يأخذ أجرا على دروسه ، اكتفاء بما يكسبه من تجارة له أو عمل .

ولا نبالغ إذا قلنا إن القرنين الرابع والخامس للهجرة بإيران يُعَدَّان أزهى قرون هذا العصر من حيث النهضة العلمية وبلوغها الأوج المنتظر ، ولعل مرجع ذلك إلى التنافس الذى نشأ بين أصحاب الإمارات حينئذ ، فقد مضى كل منهم يجهد جهدا بالغا فى أن يضم حوله علماء العصر ليزدان بهم بلاطه وتزدان بهم دولته وكى يبعثوا فى شباب الدولة الطموح إلى تحقيق مالم يحققه العلماء قبلهم . ولعل عضد الدولة خير من يمثل ذلك بين البويهيين ، فقد كان يقدر العلم والعلماء ويُجْرى الرواتب والأرْزاق على الفقهاء والأدباء والقرَّاء ، فرغب الناس فى العلم ، وكان هو نفسه يتشاغل بالعلم ، ووُجد فى تذكرة له : إذا فرغنا من حل أقليدس كله تصدقت بعشرين ألف درهم ، وإذا فرغنا من كتاب أبى

على الفارسى النحوى تصدقت بخمسين ألف درهم [١] . ويقول ابن الأثير : «كان يجلس مع العلماء يعارضهم فى المسائل ، فقصده العلماء من كل بلد ، وصنفوا له الكتب ، منها الإيضاح فى النحو والحجة فى القراءات لأبى على الفارسى ، والكناش الملكى فى الطب لعلى ابن العباس المجوسى ، وكتاب التاجى فى التاريخ لأبى إسحق الصابئ إلى غير ذلك » . وكان خلفاؤه من البويهيين يُعْنَون بالعلم وأهله . وكذلك كان السامانيون ، حتى قالوا إن خراسان جنَّة العلماء ، وكانت بها نيسابور أكبر مركز للعلم بإيران فى العصر ، وسيتردد اسمها كثيرا فيما يلى من كلام . وبالمثل كانت الدولة الزِّيارية تُعْنَى فى طبرستان بالعلم والعلماء . ولم تكن تقلّ عنها عناية الدولة الخُوَارَزْمية بأمرائها الثلاثة فى مدينة خيوه المعروف كل منهم باسم « مأمون خوارزم » ويكفى أن نعرف أنه كان يعيش فى رعاية ثالثهم الذى استولى محمود الغزنوى على إمارته سنة ٤٠٨ للهجرة صفوة من رجال الفلسفة والعلم فى مقدمتهم البيرونى وابن سينا وأبو سهل المسيحى والطبيب ابن الخمَّار والرياضى أبو نصر بن العرَّاق ، وكان محمود الغزنوى قد طلبهم من مأمون خوارزم قبل استيلائه على إمارته ، فاستدعاهم وعرض عليهم رغبته ، ولبَّاها ابن العرَّاق وابن الخمار والبيرونى ، ورفضها أبو سهل وابن سينا ، وولىَّ الأخير وجهه نحو قابوس بن وشمكير الزِّيارى صاحب طَبَرِسْتان [٢] . وفى هذا ما يدل على مبلغ اهتمام محمود الغزنوى [٣] بجمع الفلاسفة والعلماء فى عاصمته « غَزْنة » التى جعلها مركزا من أهم مراكز العلوم والآداب فى الشرق الإسلامى وعمت النهضة فى دولته مدنا أخرى مثل هَرَاة . وكثر حينئذ إهداء المؤلفين كتبهم للأمراء ، وكانوا أحيانا لا يخصُّون بها أميرا واحدا ، بل ينتجعون بها أمراء الدول والإمارات المختلفة ، على نحو ما كان يصنع الثعالبى ، فقد أهدى كتابيه : « المبهج » و« التمثل والمحاضرة » إلى قابوس بن وشمكير أمير طبرستان وجرجان وكتبه : « النهاية فى الكناية » و« نثر النظم » و« اللطائف والظرائف » لمأمون بن مأمون أمير خوارزم ، وكتابه « لطائف المعارف » للصاحب بن عباد وزير البويهيين ، وكتابيه « سحر البلاغة » و« فقه اللغة » للأمير أبى الفضل الميكالى راعى العلم والأدب فى نيسابور .

وكان مما عمل على ازدهار النهضة العلمية فى العصر منذ أوائله تأسيس المدارس فيه ، وكانت نيسابور أول مدينة إيرانية سبقت إليها ، إذ تأسست بها فى منتصف القرن الرابع الهجرى مدرسة أبى حفص الفقيه ، وكان يدرس بها للطلاب ابن شاهويه المتوفى سنة ٣٦١

---

(١) انظر المنتظم ٧/١١٥ وابن الأثير ٧/٢١ .

(٢) انظر براون (ترجمة إبراهيم أمين الشواربى) ص ١١١ .

(٣) انظر فى ثقافته ابن تغرى بردى ٤/٢٧٣ .

للهجرة[١] ، وفى أواخر القرن الرابع بُنيت بها مدرسة للمحدِّث الكبير ابن فُورَك[٢] المتوفى سنة ٤٠٦ ومدرسة ثانية سُميت دار السنة[٣] . وكثر بها بناء المدارس فى النصف الأول من القرن الخامس ، إذ بنيت بها مدرسة[٤] لأبى عثمان الصابونى شيخ الإسلام المتوفى سنة ٤٤٩ ثم أربع مدارس[٥] : هى المدرسة البيهقية ، ومدرسة الإستراباذى المتوفى سنة ٤٤٠ بناها لأصحاب الشافعى ، والمدرسة السَّعدية بناها الأمير نصر بن سُبُكْتِكين ، والرابعة مدرسة بُنيت لأبى إسحق الإسفرايِنى .

ولما أصبحت إيران تابعة للدولة السلجوقية واتخذوا الرىَّ حاضرة لهم أخذوا يعنون بالحركة العلمية ، ولم يلبث أن وزر لهم فى عهد سلطانهم أَلْب أَرْسلان وزيرهم المشهور نظام الملك المولود بطوس سنة ٤٠٨ وقد التحق بخدمتهم منذ انتصارهم على الغزنويين فى سنة ٤٣١ حتى إذا اعتلى أَلْب أرسلان العرش جعله كبير وزرائه ، وكان سياسيا بارعا وله فى السياسة كتاب باللغة الفارسية سَمَّاه «سياست نامه» . وكان شافعى المذهب أشعريا عدوا للإسماعيلية الباطنية ، فرأى أن يؤسس مجموعة من المدارس ، عُرفت كل واحدة منها باسم النظامية ، لمحاربة النحلة الإسماعيلية نحلة الحشاشين ، ولنشر المذهب الشافعى والنحلة الأشعرية . فبنى ببلخ مدرسة وكذلك بنيسابور وهراة ومَرْو وأصفهان وآمل فى طبرستان وبالموصل وبغداد . وجميعها تأسست حوالى سنة ٤٥٧ للهجرة ، وكان يُدْرَسُ فيها بجانب الفقه وعلم الكلام على مذهب الأشعرى علومُ التفسير والحديث واللغة والفرائض والأدب والرياضيات وكان يختار لكل منها أستاذا كبيرا . وجعل لأساتذتها مساكن ورواتب منتظمة ، ورصد لطلابها نفقات مقدَّرة ، ووقف عليها جميعا أوقافا كثيرة . وألحق بكل مدرسة مكتبة كبيرة تَغَصُّ بالكتب فى كل علم وفن ، ما عدا كتب الباطنية الحشاشين .

والاهتمام بالمكتبات عند العصور السابقة سبق أن عرضنا له وبيَّنا اهتمام الدولة والأفراد به ، لأنها أداة الثقافة ومنهلها العذب ، وظل الاهتمام بها فى هذا العصر ، بل تزايد مع ازدهار الحركة العلمية ، فكانت هناك مكتبات الورَّاقين التى تُعْرَض فيها الكتب للبيع ، وكانت تتكاثر فى المدن الكبيرة حتى تصبح سوقا مستقلا . وكانت هناك مكتبات عامة للدولة كمكتبات نظام الملك التى ألحقها بمدارسه المسماة بالنظامية . وكانت فى كل جامع كبير مكتبة تضم ما يَقفه العلماء على طلاب العلم فى الجوامع . وكان هناك رعاة للعلم يبنون

---

(١) طبقات الشيرازى (طبع بغداد) ١٢١ .
(٢) السبكى ٤/١٢٨ .
(٣) السبكى ٤/١٥٩ .
(٤) السبكى ٤/٢٩٠ .
(٥) السبكى ٤/٣١٤ .

المكتبات لطلابه ، مثل ابن حِبَّان البستى صاحب كتاب الجرح والتعديل المتوفى سنة **٣٥٤** فقد بنى بنيسابور خزانة كتب ومساكن لطلاب العلم الغرباء وأجرى لهم الرواتب . ويُرْوَى أن أبا على بن سِوار الكاتب فى دواوين عضد الدولة المتوفى سنة **٣٧٢** أنشأ دار كتب فى مدينة رامَهُرْمُز على شاطئ خليج العرب وجعل فيها نفقة لمن قصدها[١] .

وكان طبيعيا منذ أوائل هذا العصر أن يُشْغَف البويهيون بالكتب وجمعها واتخاذ مكتبات خاصة لأنفسهم ، وكان لديهم من ذلك ثلاث مكتبات كبيرة ، أولاها مكتبة عضد الدولة ، وقد رآها المقدسى ووصفها بقوله : « حجرة على حدة ، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ، ولم يبق كتاب صُنِّف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصّله فيها ، وهى أَزَج (بناء) طويل فى صُفَّة كبيرة ، فيه خزائن من كل وجه ، وقد أُلصق إلى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوت طولها قامة فى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوَّق ، عليها أبواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منضَّدة على الرفوف ، لكل نوع بيوتٌ وفهرستات فيها أسامى الكتب ، ولا يدخلها إلا كل وجيه[٢] » . والمكتبة الثانية مكتبة وزيره ابن العميد ، وكانت أكبر من السابقة ، ويقال إنها لو حُملت ما استطاع أن يحملها إلا مائة بعير[٣] ، واتخذ خازنالها ابن مسكويه الفيلسوف المعروف لعصره ويقال بل اتخذه عضد الدولة ، ويبدو أنه اتخذه خازنا — كما مرَّ فى ترجمته — بعد وفاة ابن العميد وابنه أبى الفتح . والمكتبة الثالثة مكتبة الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة بالرَّىِّ ، ويقال إنها كانت أضعاف مكتبة ابن العميد ، إذ كان بها من كتب العلم ما يُحْمَلُ على أربعمائة بعير أو أكثر . ويقال : كان فهرست خزانة الكتب بمدينة الرَّىّ عشرة مجلدات[٤] .

ولعل فى ذلك ما يصور مدى اهتمام أصحاب الإمارات الفارسية ووزرائهم بالثقافة العربية ومصنفاتها الكثيرة ولم يقف ذلك عند البويهيين والسامانيين والزِّياريين والخوارزميين ، بل امتد أيضا كما قدمنا إلى عصر الدولة السلجوقية ووزيرها نظام الملك الذى كانت مجالسه تزدان بالعلماء ، وكان يحضر سماطه القُشَيْرى وإمام الحرمين وأبو إسحق الشِّيرازى ، وكثر تصنيف الكتب باسمه من مثل كتاب التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية من فرق الهالكين لأبى المظفر طاهر بن محمد الإسفرايِنى المتوفى سنة ٤٧١ . وقدَّم له إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك الجُوينى كثيرا من كتبه ، وله بنى المدرسة النظامية بنيسابور وظل يدرِّس فيها عشرين عاما إلى أن توفى سنة ٤٧٨ وكان يحضر دروسه أربعمائة طالب

(١) المقدسى ص ٤١٣ .
(٢) المقدسى ص ٤٤٩ .
(٣) ابن مسكويه ٦/٢٨٦ وما بعدها .
(٤) معجم الأدباء لياقوت ٦/٢٥٩ .

وأستاذ [١] . وكان الطلاب دائما كثيرين فى حلقات العلماء ، فيُرْوى أنه كان يحضر دروس أبى الطيب الصعلوكى مفتى نيسابور أكثر من خمسمائة طالب [٢] . وفى هذا ما يدل على إقبال الشباب فى نيسابور على دروس الفقه والدين إقبالا منقطع النظير ، ولم يكن ذلك فى نيسابور وحدها ، فقد كان عاما فى مدن إيران وما وراء النهر من أرض الشاش وفَرْغانة ، إذ كان حضور حلقات العلماء مباحا للجميع ، فكان الناس من كل الأوساط يقبلون عليها ، لا أوساط المثقفين فحسب ، بل أيضا أوساط العامة ، يدل على ذلك من بعض الوجوه ما رواه السبكى فى طبقاته من أن فقهاء الشاش «كتبوا إلى ابن سُرَيْج إمام الشافعية ببغداد يُعْلمونه أن الناس فى ناحيتهم : أرض الشاش وفَرْغانة مختلفون فى فقهاء الأمصار ممن لهم الكتب المصنفة والفُتْيا ، ويسألونه أن يكتب لهم رسالة يذكر فيها أصول الشافعى ومالك وسفيان الثورى وأبى حنيفة وصاحبيه (محمد وأبى يوسف) وداود بن على الأصفهانى (صاحب مذهب الظاهرية) ويسألونه أن يكون ذلك بكلام واضح يفهمه العامىّ ، فكتب القاضى لهم الرسالة » [٣] .

فالثقافة الفقهية لم تكن وقفا على الفقهاء وتلاميذهم ، بل كانت العامة تشارك فيها وفى دقائقها وتفريعاتها الكثيرة لا التى اختلف فيها أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى : الشافعى ومالك وأبو حنيفة فحسب ، بل أيضا تلك التى اختلف فيها معهم سفيان الثورى وداود بن على الأصفهانى . ونفس ما حدث بين أصحاب مذهب كبير كالمذهب الحنفى من خلاف مثل ما حدث بين أبى يوسف ومحمد بن الحسن الشيبانى وقفت عليه العامة فيما وراء النهر. وظاهرة ثانية تدل على شيوع الثقافة الدينية فى إيران وأنها كانت عامة بين الناس ، ولا تخص الرجال بل تعم النساء ، وهى تتصل بالحديث النبوى وروايته ، إذ نجد طائفة من النساء الإيرانيات يؤخذ عنهن الحديث كما يؤخذ عن علمائه الأثبات ، ويُذْكَرْنَ فى تراجم بعض المحدثين ويُنَصُّ على أنهم حملوا الحديث عنهن ، منهن كريمة المروزية ، وعليها قرأ بمكة الخطيب البغدادى المحدِّث المشهور صحيح البخارى ، وسمع منها أيضا بمكة سعد الأسد آباذى [٤] ، فهى لم تحدث فى موطنها فحسب ، بل حدثت أيضا فى مجمع العلماء بالحرم المكى ، وبأى كتاب ؟ بأعظم كتب الحديث إسنادا : صحيح البخارى . ومن هؤلاء المحدثات المشهورات عائشة [٥] بنت عبد الله البوشنجية ، وهى من محدِّثات القرن

---

(١) طبقات السبكى ٥/ ١٨٤ .

(٢) التهذيب للنووى (طبعة وستنفلد) ص ٣٠٧ .

(٣) السبكى ٣/ ٤٥٧ .

(٤) السبكى ٤/ ٣٠ ، ٣٨٣ .

(٥) السبكى ٥/ ١١٨ .

الخامس الهجرى ، ومثلها فاطمة بنت أبى على الدقاق شيخ القشيرى فى التصوف ، وعنها أخذ الحديث بنيسابور كثيرون [(١)] . ومن محدِّثات القرن الخامس أيضا كريمة [(٢)] بنت محمد ، وُشْهدة [(٣)] بنت أحمد . وهن جميعا أدلة على ازدهار الحركة العلمية بإيران . ومن تتمة هذه الأدلة أن نجد العلماء منذ أوائل هذا العصر يحاولون فهرسة كتب المكتبة العربية ، موزعين الكتب على علومها المختلفة ، على نحو ما هو معروف عن فهرست ابن النديم ، وربما كان أهم من ذلك أن نجد معاصره الخوارزمى أبا عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف يؤلف كتابا موسوعيا هو «مفاتيح العلوم» ويهديه إلى أبى الحسن العتبى وزير الأمير نوح السامانى الثانى (٣٦٦ – ٣٨٧ هـ .) وكان يعيش فى رعايته بنيسابور . والكتاب يشتمل على المصطلحات الفنية للعلوم وتفسيرها وتوضيح دلالاتها ، وهو مقالتان : المقالة الأولى فى علوم الشريعة وما يتصل بها ، والمقالة الثانية فى الفلسفة وعلوم الأوائل .

٢

علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة

تحدثنا فى كتابى العصر العباسى : الأول والثانى عن ترجمة علوم الهند والفرس واليونان ، وكيف أنها شملت ما لدى الفرس والهند من مصنفات فى الفلك والرياضيات وما لدى اليونان من مؤلفات فى الرياضيات والطبيعيات . وسرعان ما شارك العرب فى كل ما ترجموه ، سواء فى النظريات الفلكية أو فى العلوم الطبيعية ، وقد سارعوا فى نقل كتاب المجسطى لبطليموس الإسكندرى وهو فى الفلك والجغرافية ونَقْل كتاب الأصول لأقليدس فى الهندسة وكتب أرسطو فى علمى الحيوان والطبيعة وفى المنطق وكتب جالينوس وبقراط فى الطب ، وترجموا أيضا لأفلاطون وغير أفلاطون كتبا مختلفة . وقد ذكرنا فى كتابى العصر العباسى أسماء المترجمين والنقلة من اللغات المختلفة وأشهر ما نقلوه وترجموه ، وعرضنا ذلك كله عرضا مستفيضا . وأوضحنا مساهمة العرب مساهمة حية خصبة فى جميع الميادين العلمية ، بحيث ظهر من بينهم أفذاذ فى الرياضيات دوَّت شهرتهم فيما بعد فى عالم الغرب مثل محمد بن موسى الخوارزمى الذى يفتتح سلسلة الرياضيين العظام بين العرب ، ومثل جابر بن حيان الكيميائى المشهور ، ومثل محمد بن زكريا الرازى ذائع الصيت فى عالم

(١) السبكى ٥/١١ .
(٢) السبكى ٥/٩٥ .
(٣) السبكى ٦/٧١ ، ٧٣ .

الطب الذى اكتشف فى وضوح فرق ما بين مرضى الجُدَرِىّ والحَصْبة ووضع أُسُساً واضحة للطب النفسى . وكان طبيعيا بعد أن تعمق العرب علوم الأوائل وفلسفاتهم أن يصبح لهم بدورهم فلاسفة نابهون . ويلمع اسم الكندى فيلسوف العرب الأول لعصر المأمون ، ويلمع بأخرة من العصر العباسى الثانى اسم فيلسوف كبير هو الفارابى الذى مزج فى فلسفته بين روحانية الإسلام وأفكار فلاسفة اليونان مزجا رائعا ، مصطفيا لأمته نظريات فلسفية جديدة .

وبانتهاء العصر العباسى الثانى ينتهى عصر المترجمين العظام ، وندخل فى عصر جديد هو عصر الفلسفة الإسلامية الخالصة والمشاركة العلمية الخصبة ، أما الفلسفة فنبغ فيها اثنان من الفلاسفة الإيرانيين البارعين هما ابن سينا المتوفى سنة ٤٢٨ والبيرونى المتوفى سنة ٤٤٠ للهجرة .

وابن[1] سينا أكبر فلاسفة الإسلام ، ويلقب بالشيخ الرئيس ، وقد احتفظ ابن أبى أصيبعة بترجمة شخصية له كتبها بقلمه ، وهو يصور فيها حياته حتى بلغ سن الثانية والثلاثين ، وفيها يذكر أن أباه من أهل بلخ وأنه انتقل منها إلى بخارى فى أيام الأمير السامانى نوح بن منصور وتولَّى التصرف للسامانيين بقرية خرميثن ، وفيها ولد له ابنه سنة ٣٧٠ وانتقل الأب مع أسرته إلى بخارى وعُنى بتربيته فأحضر له معلما للقرآن ومعلما للأدب ، وما بلغ العاشرة حتى كان قد حفظ القرآن ، وأقبل على دراسة الفقه . ويذكر أن أباه كان إسماعيليا ولم يلبث أن أقبل على دراسة المنطق والهندسة والفلك على شخص متفلسف يسمى الناتلى ، وكان يقرأ معه إيساغوجى وكتاب أقليدس والمجسطى ، ويراه لا يفهمها حق الفهم فكان يشرحها لأستاذه . وأكبَّ على علوم الأوائل والطب ، وسرعان ما اشتهر وهو لا يزال غلاما فى السابعة عشرة من عمره . واستغلقت عليه الإلهيات حتى قرأ بالصدفة فيها كتابا للفارابى ، حَلَّ له مستغلقاتها . وحدث أن مرض الأمير نوح بن منصور فاستدعوه لمعالجته بعد أن عجز الأطباء عن مداواته ، ويكون شفاؤه على يديه ، فيوظفه عنده ويغدق عليه

---

(١) راجع فى ابن سينا وترجمته صوان الحكمة للبيهقى ص ٥٢ والقفطى ص ٤١٣ وابن أبى أصيبعة ص ٤٣٧ وابن خلكان ٢/١٥٧ وروضات الجنات ص ٢٤١ ولسان الميزان ٢/٢٩١ وكتاب لكارادى فوعنه (طبع باريس) ومقالته عنه فى دائرة المعارف الدينية والأخلاقية نشر هيستنجر (أدنبرة ١٩٠٩) ٢/٢٧٢ وبراون (ترجمة د. إبراهيم أمين الشواربى) ص ١١١ ، ١٢١ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور ص ١٦٤ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع والعلم عند العرب لألدوميلى ص ١٩٧ وكتاب مؤلفات ابن سينا لفؤاد سيد ولقنواتى . وانظر ترجمته بقلمه وتعليقنا عليها فى كتابنا «الترجمة الشخصية» طبع دار المعارف ومقالاً لنا عن لغة ابن سينا فى العدد رقم ٦٩١ من مجلة الثقافة ، وهو عدد خاص بعيده الألفى .

من أمواله . ويستأذنه ابن سينا فى دخول مكتبة القصر ويأذن له فيجد فيها ما لا يحصى من الكنوز فى علوم الأوائل . ولم تلبث الدولة السامانية أن انهارت فترك بخارى إلى خوارزم ، ونزل بعاصمتها «خِيوة» عند أميرها مأمون مع من كانوا يلوذون برعايته مثل البيرونى . وسمع محمود الغزنوى بهذه الصفوة من العلماء والمتفلسفة والأطباء فى بلاط أمير خوارزم ، فأرسل إليه فى طلبهم ، كما مر بنا ، وأبىَ ابن سينا أن يذهب إليه ، وأخذ يتنقل فى بلدان إيران حتى وصل إلى جرجان وأميرها قابوس بن وشمكير ، فأكرمه وأنزله منزلة عليا ، حتى إذا قُتل سنة ٤٠٣ ولى وجهه نحو أصفهان وأميرها البويهى علاء الدين بن كاكويه . وظل هناك إلى أن أدركته الوفاة بهمذان سنة ٤٢٨ هـ/ ١٠٣٦م وقبره معروف بها إلى اليوم .

وعند ابن سينا تمتزج الفلسفة اليونانية بالحكمة الشرقية والروح الإسلامية ، ويلقَّب بالمعلم الثالث بعد أرسطو والفارابى ، وأكثر مؤلفاته بالعربية ، وله مؤلفات بالفارسية ، وأيضا له قصائد فلسفية بجانب نثره الفلسفى ، وله قصص فلسفية كقصة سَلامان وأُبْسال وقصة حىّ بن يقظان ورسالة الطير . ومصنفاته تُعَدّ بالمئات ، وأشهرها كتاب القانون فى الطب وكتاب الشفاء فى الإلهيات وعلوم الطبيعة والرياضيات . وكان الكتاب الأول عماد الغربيين فى دراساتهم الطبية بجامعاتهم حتى القرون القريبة ، وقد ترجموه إلى اللاتينية ، ويقال إنه طبع بها ست عشرة مرة فى القرن الخامس عشر الميلادى وعشرين مرة فى القرن السادس عشر . وكتاب الشفاء دائرة معارف كبرى تتناول كل فروع الفلسفة .

وابن سينا يتأثر بأرسطاليس ، وحاول جاهدا أن يوفق بين آرائه وآراء أفلاطون والأفلاطونية الحديثة والإسلام . ونَحَا فى كثير من أفكاره نحو الفارابى ، وهو يتفق معه فى تفاريع المنطق وفى الإلهيات وما ذهب إليه من أن المادة لا تصدر عن الله ، لأنه منزَّه عن كل مادة وكل جسم ، والله واحد من كل وجه ، فلا يصدر عنه كثير لا بالعدد ولا بالانقسام إلى مادة وصورة ، وإلا اختلفت الجهات فى ذاته . وهو – لذلك – لا يصدر عنه إلا واحد هو العقل الأول . وعن هذا العقل يصدر عقل يدبِّر الفلك (الملائكة) ومنه تصدر نفس كما تصدر مادة هى جرم الفلك ، وأخيرا العقل الفعَّال الذى تصدر عنه مادة الكائنات فى الأرض وصورها الجنسية كما تصدر النفوس الإنسانية . وطبيعى أن لا يرتضى أهل السنة والمعتزلة منه هذه الآراء . وإذا نحَّيناها عن فلسفة ابن سينا وجدناه بعدها يحاول التوفيق بين فلسفته وبين القائلين بسلطان القضاء ، فيقول إن كل ما فى الوجود خيرا كان أم شرا بقضاء الله وقدره على نحو ما توضح ذلك رسالته فى القدر . وكان يرى أن من الموجودات ما هو خير محض كالأمور العقلية والسماوية ، ومنها ما يغلب عليه الخير كالوجود

الأرضى والشر فيه من طبيعته لأنه عالم كون وفساد .

وكان يذهب إلى أن العقل أعلى قوى النفس ، وعنده أن النفوس تنقسم إلى مراتب أعلاها النفوس الكاملة التى تتمسَّك بالمثل العليا وبالخير المحض الخالص وكان يعدّ الموت بطلانا للجسم ، أما النفس فتبقى خالدة وعلى اتصال بالعقل الكلى ، وسعادتها وشقوتها حينئذ ترجعان إلى اتحادها به قوة وضعفا . وفى ذلك يكون الثواب والعقاب .

ويخطو ابن سينا بفلسفته خطوة ، فيمزجها بالتصوف الذى تفيض على المتصوف فيه اللذات الروحية فلا يرى فى الكون سوى مبدعه وجماله على نحو ما تصور ذلك قصتاه «حى ابن يقظان» و«سَلامان وأَبْسال» وسنلمّ بهما فى الفصل الأخير. وفى الأولى يعود حى بن يقظان الفيلسوف إلى مورد المعرفة الصوفية الإلهية ، بينما يتخلص أبسال فى الثانية من أغلال اللذات الحسية موغلا فى اللذات العقلية وما يُطْوَى فيها من لذات الصوفية الروحية . ويوضح ذلك فى كتابه الإشارات ، فيقول عن الصوفى ويسميه العارف إنه المتصرف بفكره إلى قدس الله مستديما لإشراق نور الحق على نفسه ، وهو يعبد الله لأنه مستحق للعبادة لارهبة من عقابه ولا رغبة فى ثوابه .

والبَيْرونى [1] هو محمد بن أحمد المولود سنة ٣٦٢ بضاحية من ضواحى خيوه عاصمة خوارزم تسمى بَيْرون ، ولا نعرف شيئا واضحا عن نشأته ، ويبدو أنه تلقن معارفه الأولى بخيوه ، ولم يلبث أن اتجه إلى الرياضيات والفلك فحذقهما حذقا رائعا ، وشُغف فى أثناء ذلك بمعرفة أحوال البلدان والأمم ، ولم يكد يتدرج فى العقد الثالث من عمره حتى بارح موطنه إلى طَبَرِسْتان حيث عاش فى رعاية أميرها قابوس ، وإليه قدَّم أول كتبه : «الآثار الباقية عن القرون الخالية» الذى فرغ من تأليفه حوالى سنة ٣٩٠ وقد صوَّر فيه المناهج التاريخية والتقاويم الحسابية لكثير من الأمم المتحضرة وهو أول كتبه العظيمة ، وقد طبعه سخاو فى ليبزج سنة ١٨٧٨ وقدم له بمقدمة نفيسة عن البيرونى وأعماله ومكانته . وكان قابوس متقلبا ، فخشى البيرونى على نفسه منه ، وتركه إلى موطنه وأميره فيه «مأمون خوارزم» . وسمع به وبعلمه محمود الغزنوى ، فطلبه من أميره ، وأبدى البيرونى — فما

---

(١) انظر فى البيرونى تتمة صوان الحكمة للبيهقى ومعجم الأدباء ١٧ / ١٨٠ وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٤٥٩ ومقدمتى سخاو للآثار الباقية وتحقيق ما للهند من مقولة وبراون ١١١ ، ١٢١ وكاجورى فى تاريخ الرياضيات ومادة بيرونى فى دائرة المعارف البريطانية وكتاب العلم عند العرب لألدوميلى ص ١٨٨ وما بعدها ومقالتى بروكلمان وفيدمان عن البيرونى فى دائرة المعارف الإسلامية وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/ ٢٤٥ ومابعدها .

يُرْوَى – رغبته فى الذهاب إليه ، ويقال : بل ظل مع مأمون خوارزم حتى استولى محمود الغزنوى على دياره فصحبه فيمن أخذهم معه من علماء خوارزم لسنة ٤٠٨ للهجرة . وكان البيرونى شيعيا ومحمود سنيا يضطهد الشيعة ، فتحول البيرونى إلى مذهبه ، وربما تحول إلى هذا المذهب قبل صحبته لمحمود . وكان محمود ماينى يغزو الهند على نحو ما مر بنا فى الفصل السابق ، فكان يسير معه ، ويظهر أنه أقام بها سنوات متصلة مكنته من دراستها دراسة علمية خصبة ، تعلم فى أثنائها اللغة السنسكريتية وقرأ ما كتبه فيها علماؤها ، ودرس فى عمق فلسفاتها ورياضياتها وعقائدها وتقاليدها وجملة معارفها فى التنجيم والتاريخ والفلك ، وكل ذلك أودعه كتابه الرائع : «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة» وقد أتمه سنة ٤٢٣ بعد وفاة محمود الغزنوى بعامين . وفى الكتاب قطع بنصها لمؤلفين هنود ، وفيه وصف جغرافى مفصل للهند وآرائهم الدينية والفلسفية ومعارفهم وتاريخهم وتقاليدهم وعاداتهم وأعيادهم وأنظارهم فى الفلك والتنجيم . ويقارن مقارنات خصبة بين علومهم وعلوم العرب واليونان والفرس . ويعترف بتفوق المعرفة اليونانية لما تمتاز به من كمال المنهج ومن الدقة والعمق . ويقارن بين أديان الهند وأديان الكتب السماوية مقارنات دالة على تأمل دقيق فى الديانات وفلسفاتها ، ويوسع تأمله ليشمل المانوية وغيرها من ديانات الفرس . وفى كل ذلك ينثر آراءه الأصيلة التى تدل على عقل متفلسف دقيق منتهى الدقة . ونراه يبين فى قوة وجوه التوافق بين الفلسفة الفيثاغورية الأفلاطونية والحكمة الهندية .

ومن مصنفات البيرونى كتابه القانون المسعودى فى الهيئة والتنجيم ألفه سنة ٤٢١ للسلطان مسعود بن محمود الغزنوى عقب وفاة أبيه وهو دائرة معارف فى الفلك والهندسة والتنجيم ، وقد وصفه ياقوت بأنه يعفِّى أثر كل كتاب ، صُنِّف فى تنجيم أو حساب ، ويقول البيهقى إنه غرة فى وجوه تصانيفه . وفى مقدمته يشيد بالسلطان مسعود الذى قدم إليه الكتاب وقد نشر فى حيدر آباد سنة ١٩٥٣ . وللبيرونى كتب أخرى ، منها كتاب فى المعادن سماه الجماهر فى معرفة الجواهر ، أهداه إلى السلطان مودود الغزنوى ، ومنها كتب فى الطب وكتاب فى الصيدلة نشره ماكس مايرهوف فى برلين وكتب أخرى فى الطبيعيات . وفى الحق أنه شخصية فريدة فى تاريخ إيران العربية .

ويلحق بهذين الفيلسوفين العظيمين الشهر(١) ستانى أبو الفتح محمد بن أبى القاسم

(١) انظر فى الشهرستانى وترجمته ابن خلكان ٤/٢٧٣ بالوفيات ٣/٢٧٨ وشذرات الذهب ٤/١٤٩ ومرآة الجنان ٣/٢٨٩ ولسان الميزان ٥/٢٦٣ وعبر الذهبى = وتذكرة الحفاظ ٤/١٣١٣ والسبكى ٦/١٢٨ والوافى

المتوفى سنة ٥٤٨ وهو من شهرستان فى شمالى خوارزم ، واشتهر بكتابه الفريد « الملل والنحل » الذى ألفه فى سنة ٥٢١ وهو فى علم مقارنة الملل والأديان . وكان تسامح المسلمين مع أهل الكتاب من قديم سببا فى نشأة هذا العلم نشأة مبكرة لدى العرب ، فمنذ القرن الثالث الهجرى وهم يؤلفون فيه إلى أن ظهر البيرونى وألف كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » الذى تحدثنا عنه آنفا ، وقلنا إنه يبحث فيه مباحث دقيقة فى الديانات ، وجاء بعده ابن حَزْم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ وألف كتابه « الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل » وخلفه الشهرستانى ، فألف كتابه سالف الذكر عارضا فيه جميع الفرق الإسلامية وديانات أهل الكتاب وديانات غيرهم من أهل الشرك فى اعتدال وإنصاف وبصر نافذ ، وهو لا يبارَى فى دقته وذكائه وتمييزه بين المعتقدات والملل سواء تحدث عن عالمه الإسلامى أو عن عالم الفرس القديم ودياناته أو عن عالم الهند أو عالم اليونان .

وظلت طوال العصر دراسات علوم الأوائل ناشطة وفى مقدمتها الرياضيات والفلك ، وقد تقدم العرب بهما فى مطالع هذا العصر خطوات على نحو ما يصوِّر ذلك ألدومييلى فى كتابه العلم (١) عند العرب ، ومن نابهيهم فى القرن الرابع الهجرى ممن تحدَّث عنهم أبو الفتح محمود بن محمد الأصفهانى الذى نقح كتاب المخروطيات لأبولونيوس ، وأبو جعفر الخازن الخراسانى ، وله كتاب فى الفلك وصف فيه عددا من آلات الرصد الفلكية ، وأبو الحسين الصوفى مؤلف كتاب الكواكب الثابتة ، وهو محلًّى بالرسوم ، ويقول ألدومييلى إنه صحَّح فيه كثيرا من أخطاء بطليموس ، وانتفع بتصحيحاته علماء الفلك المحدثون . واطرد هذا النشاط العلمى فى القرن الخامس إذ نجد أبا الحسن على بن أحمد النسوى يؤلف بالفارسية كتابا فى اللوغارتمات ويترجمه إلى العربية بعنوان المقنع فى الحساب الهندى . ويشمل نظام الملك فى الدولة السلجوقية برعايته الكثير من العلماء الرياضيين ، وفى مقدمتهم (٢) عمر الخيام صاحب الرباعيات المشهورة ، وله كتاب فذ فى علم الجبر رتب فيه – كما يقول ألدومييلى – الصور المختلفة للمعادلات ذات الدرجة الثانية والثالثة ترتيبا منظما ، وقد عهد إليه نظام الملك بإصلاح التقويم ، وبنى له مرصدا سنة ٤٧١ ويظن أنه إما كان فى مرو وإما فى أصفهان وإما فى نيسابور ، وعيَّن له ثمانية من علماء الفلك يساعدونه فأصلح التقويم

= ١٣٢/٤ وروضات الجنات ١٨٦ وبراون ص ٤٥٩ ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر العلم عند العرب ص ٢١٢ وما بعدها .

(٢) راجع فى عمر الخيام وترجمته القفطى ص ٢٤٣ وآثار البلاد للقزوينى (طبعة وستنفلد) ص ٣١٨ وبراون ص ٣٠٤ وألدومييلى ص ٢١٤ ، ٢٢١ ودائرة المعارف الإسلامية .

وألف فيه كتابه « التاريخ الجلالى » نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه السلجوقى . ومن أشهر الرياضيين بعده نصير [١] الدين الطوسى المولود بطوس سنة ٥٩٧ وقد تلقَّفه الإسماعيليون لما رأوا من ذكائه ، فأرسلوه إلى عاصمتهم « ألموت » وهناك وجد مكتبة نفيسة أكبَّ على ما فيها من كتب الفلسفة والرياضيات ، حتى إذا استولى هولاكو على تلك القلعة انتقل نصير الدين إلى خدمته ، وكرَّمه لما سمع من معرفته بالفلك والتنجيم ، وصحبه فى هجومه على بغداد ، وانتهز الفرصة فاستولى على كثير من كتبها النفيسة ، وكوَّن منها مكتبة ضمّت أكثر من أربعمائة ألف مجلد ، كما يقول ابن شاكر فى كتابه فوات الوفيات . وساعده هولاكو فى بناء مرصد مدينة المراغة المشهور سنة ٦٥٧ وعيَّن معه فيه جماعة من صفوة العلماء الرياضيين ، وظل نصير الدين قائما على هذا المرصد حتى وفاته سنة ٦٧٣ وقد ألف زيجا أو قل تقويما أصلح به تقويم الخيام ، وألف كتبا كثيرة فى التنجيم والفلسفة والرياضيات والطبيعيات . ومن أشهر تلاميذه قطب [٢] الدين محمود بن مسعود الشيرازى المتوفى سنة ٧١٠ وكان رياضيا فلكيا ، ومن كتبه : « نهاية الإدراك فى دراية الأفلاك » . ومنهم نجم [٣] الدين على بن عمر الكاتبى المشهور باسم دبيران المتوفى سنة ٦٧٥ وكان موظفا فى مرصد المراغة بأذربيجان واشتهر بكتاب فى المنطق سماه « الرسالة الشمسية فى القواعد المنطقية » وهى مشروحة مرارا . وظل مرصد المراغة مجهزا بأكمل الآلات حتى القرن الثامن الهجرى ، وكانت العربية لا تزال فى إيران اللغة الأولى للعلوم ، وإن أخذت تزاحمها الفارسية حتى ظفرت بها فى الحقب المتأخرة .

وعلى نحو ما نهضت العلوم الرياضية والفلكية نهضت العلوم الطبيعية والطبية ، وكانت البيمارستانات تُعَدّ مدارس كبرى لتعليم الطب والنهوض به ، ومن أهم الأطباء فى القرن الرابع الهجرى على [٤] بن العباس المجوسى صاحب الكناش الملكى فى الطب ، وقد أهداه إلى عضد الدولة البويهى ، وكان يعاصره أبو [٥] سهل المسيحى الذى ألف ما يشبه دائرة

(١) انظر فى نصير الدين الطوسى وترجمته فوات الوفيات لابن شاكر (نشر مكتبة النهضة المصرية) ٢/٣٠٧ وروضات الجنات ص ٥٠٦ وشذرات الذهب ٥/٣٣٩ وبراون ص ٦١٥ وألدومييلى ص ٢٨٩ ، ٢٩٦ ودائرة المعارف الإسلامية ، وقد نشرت له دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد سنة ١٣٥٨ هـ مجلدين من رسائله ومقالاته .

(٢) راجع فى قطب الدين وترجمته الدرر الكامنة لابن حجر ٤/٣٣٩ والنجوم الزاهرة ٩/٢١٣ وألدومييلى ص ٢٩٨ .

(٣) انظره فى فوات الوفيات ٢/١٣٤ و ألدومييلى ص ٢٧١ .

(٤) راجع ألدومييلى ص ٢٣٨ وما بعدها حيث يعرض مجموعة من الأطباء بينها على بن العباس وانظر القفطى ص ٢٣٢ وبروكلمان ٤/٢٩١

(٥) انظر فيه القفطى ص ٤٠٨ وبروكلمان ٤/٢٩٤ .

معارف طبية فى مائة مقالة . ولزين [1] الدين الجرجانى الطبيب المتوفى سنة ٥٣١ موسوعة طبية كتبها بالفارسية سماها « ذخيرة خوارزم شاه » وقد أهداها إلى الشاه الخوارزمى قطب الدين محمد . ويظل الاهتمام بالطب على توالى الحقب ، وكذلك ظل الاهتمام بالصيدلة وعلم العقاقير ، ويشتهر فى هذا العلم موفق [2] بن على الهروى فى القرن الرابع الهجرى ، كما يشتهر فى الكيمياء الطغرائى الشاعر المشهور وزير السلطان السلجوقى مسعود ، وله كتب كثيرة فى الكيمياء [3] ، منها الجوهر النضير فى صناعة الإكسير . وللقزوينى [4] زكريا بن محمد المتوفى سنة ٦٨٢ للهجرة كتاب طريف فى التاريخ الطبيعى سمَّاه « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات »

ومرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى أن كتاب بطليموس الجغرافى وجَّه العرب منذ الخوارزمى الرياضى محمد بن موسى إلى التأليف فى علم الجغرافيا أو تقويم البلدان ، ونشط فيه التأليف نشاطا واسعا واتبع الجغرافيون العرب حينئذ منهجا طريفا فى وصف البلدان أن يُعْنَوْا بالحديث عن عادات الشعوب ، ويَقُصُّوا بعض ماسمعوه من الأعاجيب ، مما جعل كتبهم الجغرافية تعتمد على المشاهدة وحكاية ماسمعه الجغرافى بأذنه ورآه تحت بصره ، وبذلك أصبحت تشبه كتب الرحلات . ويلقانا فى القرن الرابع رحالة مشهور هو أبو دلف الخزرجى مِسْعر بن مهلهل شاعر الكُدْية الذى سنترجم له بين الشعراء الشعبيين ، وعِداده فى شعراء أصفهان ، وأصله كما يبدو من لقبه من أهل المدينة ، وله رحلة إلى بلاد آسيا الوسطى والشرقية قام بها سنة ٣٣٣ للهجرة وقد نشرت منها وزارة التربية والتعليم المصرية قطعة ، حققها المستشرق مينورسكى ، وعُنى الدكتور محمد منير مرسى بإعادة نشر هذه القطعة كما سيأتى فى الحديث عنه بين الشعراء وفيها يصف أبو دلف بعض مدن الشمال الغربى لإيران . وجاء بعده فى القرن الخامس الهجرى رحالة إسماعيلى ، هو ناصر خسرو ، وقد كتب رحلته بالفارسية فى كتابه المسمى « سفرنامه » واستغرقت منه الرحلة سبع سنوات (٤٣٧ – ٤٤٤ هـ .) طاف فيها ببلدان موطنه إيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر ، وهى تخرج عن حديثنا لأنها ليست باللسان العربى . وللإيرانيين بجانب هذه الرحلات البرية رحلات بحرية إذ كان ملاحوهم يتعمقون فى المحيطين الهندى والهادى ،

---

(١) راجع فيه ألدوميلى ص ٣٢٠ .

(٢) ألدوميلى ص ٢٣٩ .

(٣) انظر فى نشاط الطغرائى الكيميائى ألدوميلى ص ٢٣٩ .

(٤) راجع فى القزوينى براون (ترجمة الدكتور الشواربى) ص ٦١٢ وألدوميلى ص ٢٩٦ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ١ /٣٦٠ .

ووصفوا رحلاتهم فيهما وفى المحيطين وجزرهما وشواطئهما فى آسيا وإفريقيا وكل ما رأوه من شعوب وحيوانات برية وبحرية وطيور . ومن أهم ماكتبوا من هذه الرحلات كتاب «عجائب [1] الهند برِّه وبحره وجزره وشطآنه» لبزرك بن شهريار الناخُداه أى الربان . ويدل اسمه على أنه إيرانى ، وتدل حكاياته على أنه كان يعيش فى القرن الرابع الهجرى ، وهو يقص فى كتابه قَصَصا بديعا ما سمعه من حكايات عن الملاحين الذين اقتحموا المحيطين الهندى والهادى ووصفوا ما أبصروه من أسماك وطيور وحيوانات وما ألم بسفنهم من عواصف هوجاء ، وما شاهدوه من الشعوب وصناعاتها وعاداتها ودياناتها . وهو كتاب جغرافى وأدبى وقصصى نفيس .

وربما كان القزوينى زكريا بن محمد المذكور آنفا أكبر جغرافى أنتجته الحقب التالية فى العصر ، واسم كتابه الجغرافى : «آثار البلاد وأخبار العباد» وهو فيه يصف الأقاليم السبعة للأرض ، ويذكر مافيها من البلدان والجزر والأنهار ، ويهتم بأحوال السكان ويجمع غرائب عن شعوب هذه الأقاليم فى آسيا وإفريقيا وأوربا وخاصة شعوب الهند والصين ، ويقص حكايات عن شعراء الفرس والزهاد فى البلدان الإسلامية ، ويعرض عجائب البنيان والآثار ويحكى كثيراً من الأساطير والخرافات مما يجعل كتابه فى بعض جوانبه شبيها بكتب الأدب الخيالية المسلية .

ولعل فى كل ما سبق ما يصور ازدهار علوم الأوائل فى إيران حتى القرن الثامن الهجرى ، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه إحساس العلماء بكثرة المصطلحات العلمية وأنهم فى حاجة إلى كتاب يجمعها ويعرف بها تعريفا دقيقا ، وهو ما جعل السيد الشريف الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ يتجرد لوضع كتاب يفى بهذه الحاجة ، على نحو ما يلقانا عنده فى كتابه التعريفات الذى أوضح فيه الاصطلاحات العلمية مرتَّبا لها على حروف المعجم ترتيبا دقيقا .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

نشط البحث فى اللغة نشاطا واسعا لهذا العصر ، إذ كثر العلماء الإيرانيون الذين تصدَّوا للمباحث اللغوية ، وكان أكبر ما نهضوا به وضع المعاجم ، واهتمامهم به قديم ، ولذلك

(١) انظر فى هذا الكتاب كراتشكوفسكى ١ / ١٤٣ وكتابنا «الرحلات» طبع دار المعارف ص ٣٣ .

لا يكون عجباً أن أول نسخة تنشر من معجم العين للخيل بن أحمد ، وهو أول معجم وضع فى العربية ، إنما تنشر–كما ذكر صاحب الفهرست– من خراسان . ومعروف أن المعجم الثانى فى العربية الذى ألف على منهج معجم العين هو الجمهرة لابن دُرَيْد المتوفى سنة ٣٢١ هـ وهو أيضاً نُشر لأول مرة فى إيران ، إذ استدعى عبد الله بن محمد بن ميكال والى الأهواز وفارس ابنَ دُرَيْدٍ من البصرة لتأديب ابنه أبى العباس إسماعيل ، وهناك وضع الجمهرة ، وكان ترتيب الكلمات فى هذا المعجم –كترتيبها فى معجم العين– على مخارج الحروف ومواقعها من الجهاز الصوتى أى من الحلق واللسان والفم والشفتين . وأول معجم عام وضع فى عصر الدول والإمارات الذى نحن بصدده معجم تهذيب اللغة الذى وضعه أبو منصور محمد[1] بن أحمد الأزهرى الهروى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ وسنجد كثيرين غيره من هراة بأفغانستان الحالية يشتركون فى خدمة اللغة وغير اللغة ، وكانت هراة تعد جزءاً من إيران .

ورتَّب الأزهرى معجمه على ترتيب معجم العين أى حسب مخارج الحروف ، وعرض فى مقدمته لرواة اللغة وترجم لهم موضحاً مدى الثقة والتهمة فى أعمالهم . وكان يعاصر الأزهرىَّ عالم فاراب إسحق بن إبراهيم الفارابى المتوفى سنة ٣٥٠ للهجرة وقد وضع فى اللغة معجمه ديوان الأدب الذى نشره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، واتبع فيه طريقة جديدة هى ترتيبه حسب الحروف الهجائية باعتبار أواخر الألفاظ وفقاً للأبنية المختلفة ، ووضع الصاحب بن عباد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ معجماً كبيراً سماه المحيط لم تبق منه إلا بعض أجزاء لا تزال مخطوطة . وخلفهما أبو الحسين أحمد[2] بن فارس القزوينى معلم العربية بهَمذان المتوفى سنة ٣٩٥ هـ وله معجمان : المجمل ومقاييس اللغة ، أما المجمل فمعجم عام رتبه حسب الأبجدية المعروفة لنا اليوم ، غير أنه قسم المواد فى كل حرف إلى ثنائى ويشمل المضاعف والمطابق ، ثم ثلاثى ، ثم ما جاء على أكثر من ثلاثة حروف أصلية ، والتزم أن يفتح حديثه فى كل حرف به مع ما يليه . ومعجمه مقاييس اللغة على غرار المجمل ، عُنى فيه بأن يجعل لألفاظ كل مادة لغوية أصلا تُرَدّ إليه أو أصلين . وهو فيه أكثر منه فى المجمل

---

(١) انظر فى الأزهرى ابن خلكان (طبعة دار صادر ببيروت) ٤/ ٣٣٤ ومعجم الأدباء ١٧/ ١٦٤ وشذرات الذهب ٣/ ٧٢ والسبكى فى طبقاته ٣/٦٣ .

(٢) انظر فى أحمد بن فارس اليتيمة ٣/ ٤٠٠ ودمية القصر وابن خلكان ١/ ١١٨ ومعجم الأدباء ٤/ ٨٠ وإنباه الرواة ١/ ٩٢ وما به من مراجع والنجوم الزاهرة ٤/ ٢١٢ .

عناية بالشواهد والأمثال والعبارات المجازية ، بينما هو فى المجمل أكثر منه فى المقاييس عناية بذكر الأعلام .

ولأبى نصر إسماعيل بن حماد الجوهرى [1] معاصره المتوفى سنة ٣٩٥ معجمه المشهور : تاج اللغة وصحاح العربية ويشتهر باسم الصحاح ، وأصل موطن الجوهرى فاراب شرقى خراسان ، رحل فى طلب اللغة إلى بلاد ربيعة ومضر ، ورجع إلى خراسان فنزل فى الدامَغان ثم ألقى عصاه فى نَيْسابور ، وظل بها يدرس ويصنِّف إلى وفاته ، ومعجمه مرتب على الحروف الهجائية ولكن لا بحسب أوائل الكلمات وإنما بحسب أواخرها بنفس المنهج الذى اتبعه خاله الفارابى فى معجمه ديوان الأدب ،وأوتى المعجم من الشهرة والذيوع ما جعل مؤلفات كثيرة تعنى به عند العلماء فى موطنه وفى غيره . ووضع محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى من أهل القرن الثامن الهجرى مختصرا له سماه « مختار الصحاح » ورتبه حديثاً محمود خاطر بحسب أوائل الكلمات لا بحسب أواخرها ، وهو مطبوع فى عصرنا مراراً وتكراراً . وللزمخشرى [2] محمود بن عمر المتوفى سنة ٥٣٨ معجم عام سماه « أساس البلاغة » وهو مرتب بحسب أوائل الكلمات ويورد من الأمثلة والشواهد ما يوضح استخدامها ، ويعنى ببيان ما جاء فى كل كلمة ومادتها من مجازات مختلفة . ونمضى إلى القرن الثامن فنلتقى بالفيروز ابادى مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازى المتوفى سنة ٨١٧ وسبق أن تحدثنا عنه فى الفصل الثانى من القسم الأول الخاص بالجزيرة العربية .

وبجانب هذه المعاجم اللغوية صنع علماء إيران اللغويون فى الحقب الماضية معاجم خاصة للقرآن الكريم والحديث الشريف . منها معجم أبى عبيد الهروى المتوفى سنة ٤٠١ وهو تلميذ الأزهرى ، ولم يُعْنَ مثل أستاذه بمعجم عام إنما عُنى بمعجم خاص لغريب القرآن والحديث سماه كتاب الغريبين ، وقد يذكر عند بعض أصحاب التراجم باسم كتاب الغريبين فى لغة كلام الله وأحاديث رسوله أو باسم غريب القرآن والسنة وتفسيرهما . ووضع الزَّوْزَنى [3] الحسين بن على بن أحمد المتوفى سنة ٤٨٦ بعده معجماً بالعربية والفارسية سماه

---

(١) راجع فى الجوهرى إنباه الرواة ١/ ١٩٤ ومعجم الأدباء ٦/ ١٥١ وشذرات الذهب ٣/ ١٤٢ واليتيمة للثعالبى ٤/ ٤٠٦ ودمية القصر للباخرزى وكتب تراجم النحاة والنجوم الزاهرة ٤/ ٢٠٧ .

(٢) انظر فى الزمخشرى ابن خلكان ٥/ ١٦٨ والأنساب للسمعانى الورقة ٢٧٧ وروضات الجنات ص ٦٨١ وإنباه الرواة ٣/ ٢٦٥ واللباب ٢/ ٥٠٦ ومعجم الأدباء ١٩/ ١٢٦وطبقات المفسرين للسيوطى ٤١ وشذرات الذهب ٤/ ١١٨ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٧٤ وأزهار الرياض ٣/ ٢٨٢ ونزهة الألباء ص ٣٩١ والجواهر المضية ٢/ ١٦٠ وكتب التاريخ فى سنة وفاته وبراون فى تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى ص ٤٥٨ .

(٣) راجع فى الزوزنى إنباه الرواة ١/ ٣٢٠ وبراون ص ٤٤٩ وبروكلمان ٥/ ٢٠٧ .

ترجمان القرآن . وجاء بعده الراغب [١] الأصبهانى الحسين بن محمد المتوفى سنة ٥٠٢ ووضع كتابه أو معجمه مفردات ألفاظ القرآن أو مفردات غريب القرآن ، وهو معجم لا نظير له فى بيان دلالات ألفاظ القرآن ، ولا يستغنى عنه ناظر فى آيات الذكر الحكيم ولا مفسر للقرآن الكريم . ووضع الزمخشرى المذكور آنفاً معجما لألفاظ الحديث النبوى سماه الفائق فى غريب الحديث .

وبجانب هذا النشاط اللغوى نشط علماء اللغة فى إيران فى دراسة الأمثال وعمل معاجم لها تتضمن شرحها ، ويمكن أن ندخلها فى المعاجم الخاصة ، ولعل أول من يصادفنا فى هذا الباب حمزة [٢] الأصفهانى المتوفى سنة ٣٥٠ وكان يتهم بشعوبيته لافتخاره بنسبة إلى الفرس ، ولأنه فيما يقال وضع كتابا لعضد الدولة البويهى فى الموازنة بين العرب والفرس ، وينفى عنه بروكلمان هذه التهمة ، ويقول إنه لم يعاد العرب بل أنصفهم وأعلى ذكرهم ! . وله فى الأمثال معجم بما صيغ منها على وزن أفعل التفضيل مثل قولهم « أحلم من الأحنف » وسماه الدرة الفاخرة ، وصنع الصاحب المذكور آنفا أمثال المتنبى ، استخرج من شعره الأبيات التى تجرى مجرى المثل .

وكان يعاصره أبو هلال [٣] العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ وقد ولد بعسكر مُكْرَم فى إقليم خوزستان وإليها ينسب ، وتعلم بها ، واحترف التجارة ، ولم تشغله عن التنصيف والتأليف ، وله فى الأمثال معجم سماه جمهرة الأمثال رتبه على حروف المعجم ، ذكر فيه منها نحو ألفى مثل . وشرحها شرحا وافياً مبيناً مضاربها ومواردها ، وأعقب كل باب بما ذكر حمزة الأصفهانى فيه من الأمثال المصاغة على وزن أفعل . وجاء بعده الميدانى [٤] أحمد ابن محمد المتوفى سنة ٥١٨ فألف أهم معجم بين كتب الأمثال سماه مجمع الأمثال . حاول فيه أن يستقصى الأمثال العربية ، وهو استقصاء لم يُسْبَقْ إليه ، مع شرحها شرحا مستفيضاً . وخلفه الزمخشرى الذى ذكرناه آنفا فألف معجمه « المستقصى فى الأمثال » ، وهو مرتب على الحروف الهجائية مثل معجم الميدانى . ولكنه لا يبلغ مبلغه من السعة

---

(١) انظر فى الراغب بغية الوعاة وطبقات المفسرين وتتمة البيهقى ١٠٤ وروضات الجنات ٢٤٩ وبروكلمان ٥ / ٢٠٩ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(٢) راجع فى حمزة الفهرست لابن النديم ص ٢٠٥ والأنساب ورقة ٤٤١ وبروكلمان ٣ / ٦٠ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٣) انظر فى أبى هلال معجم الأدباء ٨ / ٢٥٨ – ٢٦٧ ومعجم البلدان فى عسكر مكرم وإنباه الرواة للقفطى باب الكنى وبغية الوعاة للسيوطى ص ٢٢١ وخزانة الأدب ١ / ١١٢ .

(٤) راجع فى الميدانى كتاب الأنساب الورقة ٥٤٨ ومعجم الأدباء ٥ / ٤٥ والإنباه ١ / ١٢١ وابن خلكان ١ / ١٤٨ ونزهة الألباء ٣٩٠ وروضات الجنات ص ٨٠ .

والدقة . ويُدْخل فى هذا النشاط المعجمى بعضُ اللغويين وضعَ معاجم لألفاظ الفقهاء مثل المغرب فى ترتيب المعرب لناصر[1] المطرِّزى الخوارزمى المتوفى سنة ٦١٠ خليفة الزمخشرى فى وطنه خوارزم . ومعجمه يتناول الألفاظ الغريبة التى يستخدمها الفقهاء .

وحاول اللغويون فى إيران أن يضعوا كتبا تجذب القارئ بمنهجها مثل ديوان الأدب المارّ ذكره وهو يتناول أبواباً صرفية ، وأهم منه كتاب الصاحبى فى فقه اللغة ألفه أحمد بن فارس المذكور آنفاً باسم الصاحب بن عباد ، وهو أول كتاب منهجى فى موضوع أصل اللغة العربية وخصائصها . واهتم اللغويون بما يعرض للكلمات من أخطاء ، وتجرَّد لذلك أبو أحمد[2] العسكرى خال أبى هلال ، فصنف كتاب التصحيف والتحريف وتوالت بعض الكتب فى هذا الموضوع .

ولم يقتصر نشاط اللغويون فى إيران على كل ما قدمنا . فقد بذلوا جهودا خصبة فى شروح الشعر ومن أهمها شرح الواحدى لديوان المتنبى وشرح الزوزنى المار ذكره على المعلقات السبع وقد طبع مرارا ويتداوله الطلاب فى الجامعات العربية . واشتهر التبريزى أبو زكريا يحيى بن على المتوفى سنة ٥٠٢ بكثرة ما صنف من شروح ، تناول فى بعضها الشعر القديم وفى بعضها الشعر المولد ، وقد تحدثنا عن نشاطه فى هذا الاتجاه بين اللغويين فى العراق ، وشرح الزمخشرى بعده لامية العرب للشنفرى ، وشرح المطرزى خليفته مقامات الحريرى .

ونهض اللغويون بمحاولة أخرى هى جمع الأشعار والكلم البليغة ، وألفوا فى ذلك مصنفات مختلفة ، منها ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ، وكتاب نثر الدرر لأبى سعيد منصور بن الحسن الآبى[3] من أدباء القرن الخامس وكتاب محاضرات الأدباء للراغب الأصبهانى المذكور آنفا وألف بأخرة من العصر بهاء الدين العاملى المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة كتابيه الكشكول والمخلاة ، وهما كتابان نفيسان بما جمعا من طرائف النثر والشعر .

ولم يكن اهتمام النحاة بالنحو أقل من اهتمام اللغويين باللغة ، وكثير منهم لهم كتب

---

(١) انظر فى المطرزى معجم الأدباء ١٩/ ٢١٢ وإنباه الرواة ٣/ ٣٣٩ وروضات الجنات ص ٢٢٣ والجواهر المضية فى طبقات الحنفية ٢/ ١٩٠ وابن خلكان ٧/ ٣٦٩ وابن قطلوبغا ص ٧٩ .

(٢) انظر فى أبى أحمد العسكرى ابن خلكان ٢/ ٨٣ ومعجم الأدباء ٨/ ٢٣٣ وإنباه الرواة ١/ ٣١٠ والمنتظم ٧/ ١٩١ .

(٣) راجع فى أبى الحسن الآبى دمية القصر ١/ ٤٦٧ وتتمة اليتيمة ١/ ١٠٠ ومعجم البلدان فى آبه من قرى أصبهان .

نحوية متنوعة غير أننا سنكتفى بذكر الأمهات وأصحابها ، وأول من نقف عنده ابن درستويه الفارسى المتوفى سنة ٣٤٧ وقد مرّ ذكره بين اللغويين فى العراق ، وأهم منه إمام النحاة عامة فى القرن الرابع الهجرى أبو على الفارسى (١) المولود بالقرب من شيراز سنة ٢٨٨ وكان رُحَلة فى تدريسه ، فأيام فى شيراز وأيام فى عسكر مُكْرَم بخوزستان وأيام فى كَرْمان ، وأيام أخرى فى بغداد أو فى حلب أو فى الكوفة أو فى دمشق ، وله كتب يسميها المسائل كل منها منسوب إلى بلدة من هذه البلدان فهناك المسائل الشيرازية والعسكرية والحلبية ، وهكذا . وبجانب ذلك له كتب مستقلة عُنى القدماء بشرحها مثل الإيضاح والتكملة وقد صنفها باسم عضد الدولة . وهو أستاذ ابن جنى ، وفى كل مكان من كتبه ينقل عنه وخاصة فى الخصائص وماوضعه فيه من القواعد الكلية ، حتى ليخيّل إلى الإنسان كأن أكثر الأصول والآراء التى سجلّها ابن جنى فى كتبه إنما استمدها من إملاءات أبى على الفارسى . وهو فى آرائه النحوية ينتصر مرة للخليل وسيبويه وغيرهما من البصريين ، ومرة ثانية ينتصر للكوفيين ، ومرة ثالثة يستنبط آراء مبتكرة لم يُسْبَقْ إليها ، نافذا بذلك إلى المذهب (٢) البغدادى الجديد فى النحو الذى كان يقوم على الانتخاب من آراء مدرستى الكوفة والبصرة مع الخلوص إلى آراء وأحكام نحوية جديدة .

وكان يعاصره أحمد بن فارس الذى مر بنا ذكره ، وله كتب نحوية كان يذهب فيها مذهب الكوفيين ، واقترح للنحو مقدمة على شاكلة إيساغوجى فى المنطق ، سماها مقدمة فى النحو . ومن نحاة إيران فى القرن الخامس عبد القاهر الجرجانى وسنفصل الحديث فيه بين البلاغيين ، غير أننا نشير إلى أن له كتابا فى النحو سماه العوامل المائة ، عُنى به الشراح طويلاً .

ويأتى بعده الزمخشرى ، وله كتب نحوية مختلفة ، أشهرها المفصَّل ، وقد جعله فى أربعة أقسام : قسم للأسماء تحدث فيه عن المرفوعات والمنصوبات والمجرورات والنسب والتصغير والمشتقات ، وقسم للأفعال وأنواعها المختلفة وقسم للحروف وأصنافها الكثيرة ، وقسم للمشترك أراد به الإمالة والزيادة والوقف والإبدال والإعلال والإدغام ، وقد شُرح هذا الكتاب مرارا ، وأهم شروحه شرح ابن يعيش فى عشر مجلدات . وهو فى الكتاب

---

(١) انظر فى ترجمة أبى على الفهرست ص ١٠١ وإنباه الرواة ١/ ٢٧٣ وطبقات القراء لابن الجزرى ١/ ٢٠٦ وتاريخ بغداد ٧/ ٢٧٥ ومعجم الأدباء ٧/ ٢٣٢ ولسان الميزان ٢/ ١٩٥ وشذرات الذهب ٣/ ٨٨ وابن خلكان ٢/ ٨٠ ونزهة الألباء ص ٣١٥ وكتاب د . عبد الفتاح شلبى : أبو على الفارسى .

(٢) راجع فى ذلك كتابنا المدارس النحوية (طبع دار المعارف) ص ٢٤٥ وما بعدها .

بغدادى ينتصر تارة للبصريين وتارة للكوفيين وتارة لمن تلاهم من البغداديين وينفذ إلى بعض الآراء الجديدة ، فهو ينتخب آراءه من المدارس السابقة عليه ، وينفرد بآراء جديدة[١] . وتلك هى أصول المذهب البغدادى فى النحو الذى استحدثه ابن كيسان والزجاجى وثبّته بعدهما أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى . ويؤلف المطرِّزى كتابا فى النحو يسميه المصباح ويشرحه كثيرون . وإمام النحاة بعد ذلك فى إيران الرضى[٢] الإسترا باذى نجم الدين محمد بن الحسن المتوفى حوالى سنة ٦٨٦ ومولده ومرباه فى إستراباذ من أعمال طبرستان ، وقد عُنى بعملين لابن الحاجب المصرى ، هما الكافية فى النحو والشافية فى الصرف ، فشرحهما شرحاً واسعا ساق فيه آراء النحاة منذ سيبويه حتى عصره ، وفى ذلك ما يدل من بعض الوجوه على عمق الثقافة النحوية فى إيران حتى أواخر القرن السابع الهجرى وهو فى شرحه للكتابين بغدادى المذهب ، فهو ينتخب من المدارس النحوية السابقة آراءه مفصِّلا القول فى اختلاف النحاة ، ومن حين إلى آخر ينفرد بآراء مبتكرة .

وازدهرت مباحث البلاغة بجانب مباحث النحو واللغة ، بل لعل هذه المباحث لم تنشط فيها بيئة كما نشطت إيران ، وأول من نقف عنده فيها أبو أحمد العسكرى الذى عرضنا له آنفا ، فقد ألف فيها كتابا فى صناعة الشعر وهو يعرض فيه لصور البديع بالمعنى العام بحيث يشمل فنونه وفنون البيان ، والرسالة مفقودة غير أن ابن أخته أبا هلال العسكرى احتفظ منها بكثير من بحوثها فى كتابه الصناعتين ، وبالمثل نقل عنها كثيراً الباقلانى فى كتابه إعجاز[٣] القرآن . وكتاب الصناعتين لأبى هلال مطبوع مرارا ، وهو يريد بالصناعتين صناعتى الكتابة والشعر ، وقد جعل الكتاب فى عشرة[٤] أبواب : باب لموضوع البلاغة وحدودها ، وباب ثان لتمييز جيد الكلام من رديئه ، وباب ثالث لمعرفة صنعة الكلام ، وباب رابع لحسن النظم ، وباب خامس لشرح الإيجاز والإطناب ، وباب سادس للسرقات الشعرية ، وباب سابع للتشبيه ، وباب ثامن للسجع والازدواج ، وباب تاسع لفنون البديع وهو أطول الأبواب ، وباب عاشر لحسن المبادئ والمقاطع وجودة القوافى ودقة الخروج من النسيب إلى المديح .

وخلف أبا هلال القاضى عبد الجبار[٥] قاضى قضاة البويهيين بإيران المتوفى سنة ٤١٥

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا المدارس النحوية ص ٢٨٣ .

(٢) راجع فى الرضا كتابنا المذكور ص ٢٨١ .

(٣) انظر كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ١١١ وما بعدها وص ٤١٣ وما بعدها .

(٤) راجع فى تحليل هذا الكتاب : البلاغة تطور وتاريخ ص ١٤٠ وما بعدها .

(٥) انظر فى عبد الجبار تاريخ بغداد ١١/١١٣ ولسان الميزان ٣/٣٨٦ والشذرات ٣/٢٠٢ ومرآة الجنان ٣/٢٩ =

وقد عرض فى موسوعته الكلامية «المغنى فى أبواب التوحيد والعدل» لإعجاز القرآن فى الجزء السادس عشر منها . وأدّاه الحديث فى الإعجاز إلى عرض كلام أبى هاشم الجُبَّائى فى أن المدار فى الإعجاز ليس على نظم القرآن وإنما على فصاحته . ويأخذ عبد الجبار فى توضيح معنى الفصاحة ، فيقول – كما قال عبد القاهر الجرجانى من بعده – إن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام ، فالكلمة فى نفسها لا تُعَدّ فصيحة ، بل لابد من ملاحظة أبدالها ونظائرها وحركاتها فى الإعراب ومواقعها فى التقديم والتأخير . وبذلك يقترب بوضوح من عبد القاهر فى تفسيره للنظم فى كتابه دلائل الإعجاز ، إذ يشير فى صراحة إلى الخصائص النحوية وما ترسم من فروق فى الكلام ، أو بعبارة أدق يريد – كما أراد عبد القاهر – النظام النحوى للكلام . ويمنع عبد الجبار – كما منع عبد القاهر فيما بعد – أن يكون للفظة صفة أدبية فى الكلام من حيث هى لفظة مفردة ، فالمدار على موقع الكلمة وكيفية إيرادها وطريقة أدائها . ويقول عبد الجبار إن حسن النغم وجمال اللفظ لا وزن له فى الفصاحة ، مع أنهما يضيفان إلى الكلام رونقاً وبهاء .

وهذه النظرية [١] الجديدة للفصاحة تناولها عبد القاهر الجرجانى [٢] المتوفى سنة ٤٧١ كما قدمنا ، فبسطها أعظم بسط وفسَّرها أروع تفسير بحيث أصبحت منسوبة إليه عند القدماء والمحدثين إذ وضع على أساسها علم المعانى المعروف بين علوم البلاغة العربية ، فالأصل من لَدُن عبد الجبار والعلم بشعبه وتفاريعه التى يصورها كتاب دلائل [٣] الإعجاز من لدن عبد القاهر . وكما وضع علم المعانى وضع علم البيان وضعا نهائيا فى كتابه [٤] أسرار البلاغة ، وضعه بتشبيهاته وتفريعاتها الكثيرة وباستعاراته التصريحية والمكنية والتمثيلية وبمجازاته اللغوية والعقلية ، مع روعة العرض وطرافته ، ومع الاهتمام الطريف بالجوانب النفسية . ويخلفه الزمخشرى فيطبق فى تفسيره الكشاف مباحثه فى علمى المعانى والبيان تطبيقا حيا خصبا مضيفاً إليها من حين إلى حين إضافات [٥] بارعة ، سواء فى

= وطبقات المفسرين ١٦ والمعتزلة لابن المرتضى ٦٦ وميزان الاعتدال ٢/٥٣٣ والسبكى ٥/٩٧ وكتابنا البلاغة : تطور وتاريخ ص ١١٤ .

(١) راجع فى تحليل هذه النظرية عند عبد الجبار كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٥ وما بعدها .

(٢) انظر فى عبد القاهر إنباه الرواة ٢/١٨٨ ودمية القطر ٢/١٧ والسبكى ٥/١٤٩ وروضات الجنات ١٤٣ وشذرات الذهب ٣/٣٤٠ ومرآة الجنان ٣/١٠١ وفوات الوفيات ١/٦١٢.

(٣) انظر فى عرض مواد هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٦٠ – ١٨٩ .

(٤) انظر فى تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ١٩٠ – ٢١٨ .

(٥) راجع فى هذه الإضافات الكتاب السالف ص ٢١٩ – ٢٧٠ .

المعانى الإضافية التى يصورها علم المعانى عند عبد القاهر أو فى فنون البيان التى يصورها أيضاً عبد القاهر . وعُنى ببعض ألوان البديع مثل الطباق والمشاكلة واللف والنشر والالتفات وتأكيد المدح بما يشبه الذم ومراعاة النظير والتقسيم والاستطراد والتجريد .

وتتحول البلاغة بعد الزمخشرى وعبد القاهر إلى قواعد جامدة جافة ، وأهم من دفَعها نحو هذا الاتجاه عاجلا الفخر [١] الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ وقد أوغل فى دراسة الفلسفة والعلوم الدينية ، وطاف بكثير من البلدان الإيرانية واستقر بمدينة هَراة حتى وافاه أجله وهو يمتاز فى تآليفه الكثيرة بالقدرة على تشعيب الأفكار وتقسيمها وتفريعها ، يمده فى ذلك عقل متفلسف ، إذ كان قد درس الفلسفة دراسة عميقة ، وله كتب مختلفة فى التفسير والفقه والطب والكيمياء وعلم الكلام . ويهمنا كتابه فى البلاغة الذى سماه : «كتاب نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز» وهو يعلن فى مقدمته [٢] أنه سينظِّم ما كتبه عبد القاهر فى مصنفيه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وينوه بصنيعه قائلاً . « ولما وفقنى الله لمطالعة هذين الكتابين التقطت منهما معاقد فوائدهما ومقاصد فرائدهما وراعيت الترتيب مع التهذيب ، والتحرير فى التقرير ، وضَبطتُ أوابد الإجمالات فى كل باب بالتقسيمات اليقينية ، وجمعتُ متفرقات الكلم فى الضوابط العقلية ، مع الاجتناب من الإطناب الممل والاحتراز عن الاختصار المخل» . وكأنه يعرِّفنا بلسانه ما صارت إليه المباحث البلاغية الرائعة عند عبد القاهر من تقسيمات وتفريعات وضوابط وقواعد أحالتها هيكلا لا حياة فيه فقد ألقتْ فيها السموم الفلسفية المنطقية ما أحالها شاحبة باهتة . ولم تنفعه إضافات الزمخشرى فقد بثَّ فيها نفس السموم . وبالمثل ما نقله عن مواطنه رشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ إذ نقل عن كتابه الذى وضعه بالفارسية وسماه «حدائق السحر فى دقائق الشعر» . ما ذكره فيه من ألوان البديع ، وأسعفه فى هذا النقل أن الوطواط ساق أمثلة النثر والشعر فى كتابه من الأدبين الفارسى والعربى . ولم تسلم هذه الألوان بدورها عند الرازى من الجفاف الشديد .

ويخلفه السكاكى [٣] سراج الدين يوسف بن محمد بن على المولود فى خوارزم سنة

(١) انظر فى الفخر الرازى ابن خلكان ٤/٢٤٨ وطبقات السبكى (طبعة عيسى الحلبى) ٨/٨١ وطبقات المفسرين ٣٩ والوافى للصفدى ٤/٢٤٨ وتاريخ الحكماء للقفطى (طبعة ليبزج) ص ٢١٩ وابن أبى أصيبعة ص ٤٦٢ وشذرات الذهب ٥/٢١ .

(٢) راجع فى تحليل الكتاب ومواده كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ ص ٢٧٥ .

(٣) انظر فى السكاكى معجم الأدباء ٢٠/٥٩ والجواهر المضية ٢/٢٢٥ والفوائد البهية فى تراجم الحنفية للكنوى ص ٣٠١ وتاج التراجم لابن قطلوبغا ص ٨١ وشذرات الذهب ٥/١٢٢

٥٥٥ وقد مضى يعبُّ فى موطنه من جداول الفلسفة والمنطق ، وأكبَّ على العلوم الإسلامية وعلوم العربية ينهل منها ، وذاعت شهرته ، فقصده الطلاب ، وظل يعلِّم ويلقى محاضراته إلى أن توفى سنة ٦٢٧ . ويشتهر السكاكى بتأليفه فى البلاغة كتابه «المفتاح» وقد جعله فى ثلاثة أقسام [1] : قسم لعلم الصرف ، وقسم ثان لعلم النحو ، أما القسم الثالث فقصره على علمى المعانى والبيان ، وألحق بهما ذيلا تناول فيه مبحثا عن الفصاحة والبلاغة ومبحثاً ثانياً لألوان البديع اللفظية والمعنوية . وقدَّم لعلوم البلاغة بمبحث واسع فى علم المنطق ، وتلاه بمبحث فى علمى العروض والقوافى ، وبذلك تضمَّن المفتاح علوم الصرف والنحو والمنطق والمعانى والبيان والبديع والعروض والقوافى . وشهرة الكتاب إنما ترجع إلى ما كُتب فيه عن علوم البلاغة ملخَّصاً ، إذ الكتاب أشبه بمتن فى كل ما خاض فيه من مباحث ، وهو متن استصفاء فيه بالفخر الرازى قبله ، مع تفوقه عليه فى الدقة وضبط الأقسام ، غير أنه يخلو خلوًّا تاماً من تحليلات عبد القاهر والزمخشرى ، ويصبح الكتاب متنا لعلوم البلاغة يُحْصى قوانينها وقواعدها ، مع خلوه من كل ما يؤنس النفس ، إذ وُضعت تلك القواعد والقوانين فى قوالب منطقية شديدة الجفاف ، وهى قوالب يداخلها غير قليل من الالتواء بسبب كثْرة التقسيمات ، مما جعل الكتاب أو قل المتن فى حاجة إلى الشرح والتوضيح ، وتوالت الشروح ، فشرحه قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازى وقد تقدَّم ذكره بين علماء الرياضيات والنجوم ، وشرحه كثيرون من مواطنيه ، من أشهرهم سعد [2] الدين مسعود بن عمر التفتازانى المولود فى تفتازان شرقى إيران سنة ٧٢٢ وأبعده تيمورلنك إلى سمرقند ، وبها توفى سنة ٧٩١ وله كتب كثيرة فى المنطق والنحو . وممن شرح «المفتاح» السيد الشريف [3] الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ صاحب كتاب التعريفات الذى مر بنا ذكره ، وله أيضاً تأليفات كثيرة فى المنطق وقواعد البحث . وصنع الخطيب القزوينى خطيب جامع دمشق فى سنة ٧٣٩ تلخيصاً لهذا المتن موجزاً أشد الإيجاز . فتصدَّى له سعد الدين مسعود التفتازانى بالشرح ، وشرح شرحه تلميذه السيد الشريف الجرجانى بعمل حاشية عليه . ويتوقف عمل علماء البلاغة فى إيران عند صنع الشروح والمتون الموجزة التى يعودون إليها بالشرح وشرح الشرح أو وضع الحواشى عليه .

---

(١) انظر فى تحليل المفتاح كتاب البلاغة : تطور وتاريخ ص ٢٨٧ .

(٢) راجع فى ترجمة السعد التفتازانى روضات الجنات ص ٣٠٩ والبدر الطالع للشوكانى ٢ / ٣٠٣ والفوائد البهية ص ١٢٨ وحبيب السير لخواندمير ٣/ ٢٣ ، ٨٧ .

(٣) انظر فى ترجمة السيد الشريف حبيب السير لخواندمير ٣/٣ ، ٨٧ والبدر الطالع ١ /٤٨٨ وبغية الوعاة ودائرة المعارف الإسلامية .

وعلى نحو ما نشطت المباحث البلاغية فى إيران نشطت المباحث النقدية فى هذا العصر ، وأول ما يلقانا منها رسالة الصاحب بن عباد فى الكشف عن مساوى المتنبى ، وهو فيها ساخط عليه سخطا شديدا ، وقد يُرَدّ سخطه إلى عامل شخصى هو أن المتنبى أبى أن يمدحه ، وأهم مساوى المتنبى فى رأيه الغموض فى أشعاره على طريقة الصوفيين فى عباراتهم الموهمة ، وأنه استخدم الألفاظ الممعنة فى الغرابة ، ورداءة المطالع كما يقول ، والمبالغة المسرفة والاستعارة الذميمة ، والنظم على القوافى الصعبة . ويلقانا فى خراسان لعصر نوح بن منصور السامانى (٣٦٦ – ٣٨٧ هـ .) راوية للمتنبى يسمى المتيم [١] وله فيه وفى شعره كتاب الانتصار المنبى عن فضل المتنبى وهو من الكتب المفقودة . وكان المتنبى قد شغل الناس فى إيران وغير إيران وأكثروا من التخاصم والجدل فى شعره ، فألف على [٢] بن عبد العزيز الجرجانى المتوفى سنة ٣٩٢ كتابه الوساطة بين المتنبى وخصومه ، وكان من قضاة الدولة البويهية فى إيران ، فرأى أن يعرض شعر المتنبى على موازين القضاء العادل ، وهدته هذه الموازين منذ الصفحات الأولى إلى أنه ينبغى أن لا يُحْكَم على الشاعر بما أساء فيه ، فلكل شاعر إساءاته وسقطاته ، وإنما يحكم عليه بإحسانه وما جوَّد فيه ، ولذلك سارع إلى الحديث عن أغلاط الشعراء القدماء والمحدثين فى معانيهم وألفاظهم ، ليبين أن شاعرا ممتازا من السابقين لم يَخْلُ شعره من هذه الأغلاط ، وعرض لبعض ألوان البديع وصوره ، ويفيض فى بيان الحسن والقبيح عند الشعراء وخاصة عند أبى نواس وأبى تمام . ويلمُّ بطائفة من أبيات المتنبى التى أُخذت عليه لبعد فى الاستعارة أو غرابة فى اللفظ أو تعقيد فى الكلام . ويوضح كيف أن ذلك عند المتنبى قليل . ويشيد بمطالعه الجيدة وحسن تخلصه ومعانيه الدقيقة ، ويتحدث عن سرقاته حديثا مستفيضا مبينا أن السرقات شركة بين الشعراء جميعا . ولعلى بن عبد العزيز فى ثنايا كتابه نظرات نقدية تحليلية رائعة ، منها ما يتصل بالغلو والمبالغة فى الشعر ، ومنها ما يتصل بأثر البيئة فى الشعر والشعراء ، ومنها ما يتصل بدقائق التشبيهات والاستعارات [٢] . ويأتى بعده الثعالبى [٣] المتوفى سنة ٤٢٩ ويعقد فى كتابه اليتيمة فصلا طويلا عن المتنبى فيما له وما عليه ، استغرق من الكتاب نحو مائة صفحة ، وقد استهله بقوله عنه : « نادرة الفلك ، وواسطة عقد الدهر فى صناعة

---

(١) انظر فى المتيم اليتيمة ٤/١٥٧ ومعجم الأدباء ٤/٢٤٤ وفوات الوفيات ١/١٣٣ .

(٢) انظر فى تحليل الوساطة كتابنا البلاغة : تطور وتاريخ ص ١٣٢ وسنترجم للمؤلف بين الشعراء .

(٣) راجع فى الثعالبى دمية القصر وابن خلكان ٣/١٧٨ وعبر الذهبى ٣/١٧٢ وشذرات الذهب ٣/٢٤٦ ونزهة الألباء ص ٣٦٥ وروضات الجنات ٤٦٢ ومرآة الجنان ٣/٥٣ ومعاهد التنصيص ٣/٢٦٦ .

الشعر» ويبدأ بنبذ عن ابتداء أمر المتنبي ، ويورد بعض أخباره ، ثم يعرض طائفة من معانيه التي استظهرها عِلْيَة الكتاب في عصره برسائلهم من أمثال الصاحب بن عباد وأبي إسحق الصابئ وأبي العباس الضَّبي والخُوارزمي ، كما يعرض طائفة من المعاني التي سرقها الشعراء منه من أمثال أبي الفرج الببَّغاء والمهلبي الوزير والصاحب بن عباد والسَّرِيّ الرفَّاء ويقول عنه إنه كثير الأخذ من المتنبي ، ويذكر معه أيضاً أبا بكر الخوارزمي وأبا الفتح البستي وأبا الحسن السلامي وأبا القاسم الزعفراني . ويعرض لبعض سرقات المتنبي من غيره وما تكرر من معانيه ، ثم يسترسل في بيان مساوى شعره مستضيئا في ذلك بما كتبه الصاحب بن عباد في رسالته آنفة الذكر ، ثم يفيض في بيان محاسن شعره ، مشيدا بنسيبه بالأعرابيات، ومخاطبة الممدوح بمثل مخاطبة المحبوب والصديق ،واستعمال ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب وما اشتهر به من الأمثال والحكم وطرائف المعاني . وكان يعاصر الثعالبي ناقد يسمى أبا القاسم [1] عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني عاش في النصف الأخير من القرن الرابع والربع الأول من القرن الخامس ، وقد ألف كتابا نُشر أخيرا في تونس سماه الواضح في مشكلات شعر المتنبي ، ذكر في مقدمته نبذة عن المتنبي عرض فيها لنشأته في الكوفة ولبعض أخباره عن معاصريه من البغداديين والشاميين والشيرازيين ، ورماه في هذه المقدمة بخبث الاعتقاد ، وقال إنه وقع في صغره إلى شخص يسمى أبا الفضل من الكوفة كان من المتفلسفة فهوَّسه وأضلَّه . ثم مضى يستدل بأبيات من شعره على أخذه بمذهب السوفسطائية وعقيدة التناسخ ورأى الفضائية والإسماعيلية ، وعرض لوصف شعره وأن نعت الخيل والحرب من خصائصه ، وأن له النادر البِدْع ،وفي بعض ألفاظه تعقيد وتعويص . ثم أخذ يناقش ابن جِنِّي في كثير من تفسير شعره مرتبا الأبيات التي ناقشها على الحروف الهجائية ، وهو يدل في نقاشه على قدرة في فهم الشعر وتحليل معانيه . وقد بدأ تحليلاته بقول المتنبي :

أأحبُّه وأحبُّ فيه ملامةً إن الملامةَ فيه من أعدائهِ

وذكر أن ابن جني زعم أنه ناقض بذلك أبا الشِّيص في قوله :

أجدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً حبًّا لذكركِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ

ويعلق على ذلك بقوله : معنى المتنبي بخلاف قول أبي الشيص ، وإنما يريد المتنبي : إني أحب حبيبي واللوَّام ينهون عنه فكيف نأتلف ، وأبو الشيص يريد بقوله : أحب اللوم لا لنهيٍ عن هواك بل لتكرر ذكرك في تضاعيف الكلام وأثناء الملام . ومضى الأصفهاني على هذا النحو يرد على ابن جني بعض تفسيراته لشعر المتنبي حتى نهاية الكتاب . وعُني بالرد

(١) انظره في خزانة الأدب ١ / ٣٨٢

على تفسيرات ابن جى إيرانىٌّ ثان هو أبو على بن فُورَّجَة [١] البُروجِرْدِىّ المتوفى سنة ٤٣٧ وقد كتب فى ذلك كتابين : كتاب الفتح على فتح أبى الفتح لابن جنى يقصد كتابه الفتح الوهبى على مشكلات المتنبى وقد نشره الدكتور محسن غياض ببغداد نشرة علمية محققة. ولابن فورجه كتاب ثان فى الرد على ابن جنى سمّاه كتاب التجنى على ابن جنى ، والأبيات فى كتاب الفتح مرتبة على الحروف الهجائية ، وعماده الرد على ابن جنى ، وفيه أيضاً ردود على القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى فى وساطته وأبى على الحاتمى فى رسالته الحاتمية والصاحب بن عباد فى كشفه عن مساوئ المتنبى ، وهو يغلظ – كما لاحظ الدكتور غياض – فى ردوده على الصاحب إذ يراه متحاملاً عليه متجنياً ! وفيه يقول : «ما شهدت أحداً من الفضلاء وذوى العقول يذم المتنبى غير هذا الظالم» . ويبدو من ملاحظات ابن فورجة فى الكتاب وسَوْقه لكلامه أنه من أنصار المتنبى وأنه درس شعره دراسة نقدية جيدة جعلته يطَّلع على كثير من خصائصه ، من ذلك ملاحظته على البيت :

وإنى لمن قومٍ كأنَّ نفوسَنا بها أَنَفٌ أن تسكنَ اللَّحْمَ والعَظْما

فقد لاحظ أن المتنبى فى فخره قال كأن نفوسنا ولم يقل كأن نفوسهم بإعادة ضمير الغيبة على القوم ، وهو ضرب من الالتفات ، إذ يلتفتون من ضمير الغيبة إلى ضمير المتكلم كما فى البيت أو ضمير المخاطب . ثم قال إن ابن جنى سأله عن ذلك فقال إنه إذا أعاد الذكر على لفظ الخطاب كان أبلغ وأمدح من أن يرده على لفظ الغيبة ، ويعقب على ذلك ابن فورجة بقوله : «وقد استقريت شعره كله فوجدته لا ينزل عن هذا المذهب فى كل ما مدح به ، فإذا أورد ضميرا فى ذمٍّ ردَّه إلى الكلام الأول تفاديا أن يخاطب به مواجها أو يرده إلى نفسه مخبرا (أى أنه يرد الضمير إلى الغيبة) . ومع أنه يبدو دائما مدافعا عن المتنبى وخاصة أمام الصاحب كما قدمنا فإنه ينصٌّ على بعض سيئاته ، فيقول فى قصيدته «مُلِثَّ القطر أعطشْها رُبوعا» هذه القصيدة كلها من الشعر الرَّذْل الذى لا يُنْتَفع به ولا بتفسيره . وحرى بنا أن نذكر تتمة لهذا النشاط النقدى الذى عقده النقاد الإيرانيون حول شعر المتنبى شرح على بن أحمد الواحدى الذى مرّ ذكره [٢] لديوان المتنبى ، وقد أُلِّفت شروح كثيرة للديوان ولكن نخص هذا الشرح بالذكر هنا ، لا لأنه أفاد من كل الشروح السابقة له ، بل لأنه رتب أشعار الديوان ترتيباً تاريخيا على حياة المتنبى وأيامه ، وهو ما لم يتح لديوان

---

(١) انظر فى ابن فورجة تتمة اليتيمة ١ / ١٢٣ ومعجم الأدباء ١٨ / ١٨٨ وفوات الوفيات ٢ / ٢٤٧ وإنباه الرواة ١ / ٣٣٤ وما به من مراجع .

(٢) راجع فى الواحدى دمية القصر ومعجم الأدباء ١٢ / ٢٥٧ وإنباه الرواة ٢ / ٢٢٣ والسبكى ٥ / ٢٤٠ وشذرات الذهب ٣ / ٣٣٠ وابن خلكان ٣ / ٣٠٣

آخر من دواوين شعراء العرب قاطبة ، بحيث أصبح الديوان مُعَدًّا لكى يستغله الباحثون فى كتابة ترجمة حياة المتنبى على نحو ما صنع بلاشيروطه حسين . وفى الشرح نظرات نقدية كثيرة ، وخاصة فى الأبيات الغامضة التى يختلف فيها الشراح ، فإن الواحدى يقارن بين أقوالهم وينفذ إلى الفكرة الصائبة دائماً ، مما يدل على قدرة نقدية حقيقية وذوق أدبى جيد .

٤

علوم التفسير والحديث والفقه والكلام

نشط العلماء لهذا العصر بإيران فى تفسير القرآن الكريم ، واتضحت فيه اتجاهات ثلاثة : اتجاه التفسير بالرأى ، واتجاه شيعى ، واتجاه صوفى ، وأهم ما نصادفه من الاتجاه الأول تفسير الزمخشرى ، وهو يذيع فيه أفكار مذهبه الاعتزالى فالآيات الكريمة توجَّه مع فكرة الحرية والاختيار فى أفعال العباد ومع فكرة تنزيه الذات العلية عن كل تشبيه ومع إكبار العقل ورفض كل اعتقاد فى السحر والكهانة[1] . ويقف الفخر الرازى المار ذكره آنفاً بعده فى الصف المقابل فيدفع فى تفسيره العظيم للقرآن « مفاتيح الغيب » آراء المعتزلة بطريقة فلسفية ، إذ كان عقله متفلسفا إلى أبعد حد ، وهى فلسفة تظهر فى تفسيره بصور كثيرة ، حين يخوض فى المباحث العقلية ، وحين نرى المسألة عنده تتشعب شعبا كثيرة . وكان عقله من الخصب بحيث تغدو الفكرة كأنها شجرة كبيرة ، تتفرع منها فروع ، وتتفرع من الفروع غصون إلى غير نهاية . وكان أشعرى العقيدة ، فأشاع مذهب الأشاعرة فى تفسيره ، وتعقب المعتزلة كما قلنا مُعْليا عليهم وعلى أفكارهم مذهبه الأشعرى السُّنِّى . ومن تفاسير هذا الاتجاه بعد الرازى تفسير البيضاوى[2] عبد الله بن عمر المتوفى بتبريز سنة ٦٩١ وقد سماه « أنوار التنزيل وأسرار التأويل » وهو يعتمد فيه على الزمخشرى وتفسيره ، كما يعتمد على الرازى وغيره من المفسرين ، وهو لا يُنْحى فى تفسيره باللائمة – كما يصنع الزمخشرى – على أهل السنة ، وجاء بعده فى هذا الاتجاه أبو البركات النسفى[3] المذكور بين فقهاء الأحناف فى قسم العراق وقد سمى تفسيره « مدارك التنزيل وحقائق التأويل » .

---

(١) انظر فى تأثر الزمخشرى بالاعتزال فى تفسيره كتاب المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن لجولد تسيهر ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .

(٢) راجع فى البيضاوى السبكى ٨/١٥٧ وبغية الوعاة وروضات الجنات ٤٥٤ وشذرات الذهب ٥/٣٩٢ ومرآة الجنان ٤/٢٢٠ .

(٣) انظر فى النسفىّ الدرر الكامنة ٢/٣٥٢ وتاج التراجم رقم ٨٦ واللكنوى ١٠١ ودائرة المعارف الإسلامية .

وهذا الاتجاه فى التفسير كان يرافقه اتجاه شيعى فى بيئات الشيعة المختلفة بإيران ، وكانوا ينسبون من قديم إلى أئمتهم من مثل جعفر الصادق والحسن بن على العسكرى المتوفى سنة ٢٦٠ تفاسير بأسمائهم ، ومن مفسريهم فى أواخر القرن الثالث محمد بن مسعود السُّلمى رأس الإمامية بخراسان ، ومن أشهر تفاسيرهم فى هذا العصر تفسير الطوسى أبى جعفر محمد بن الحسن المتوفى سنة ٤٦٠ وكان قد نشأ فى طوس ، ثم رحل إلى العراق فى الثالثة والعشرين من عمره ، وظل ببغداد إلى أن أصبح شيخ الطائفة ومرجع فتياها ومن أجل ذلك وضعناه فى القسم الخاص بالعراق . ونلتقى بتفسير الطبرسى [1] أبى على الفضل بن الحسن المتوفى بطوس سنة ٥٥٢ ولقبه الطبرسى نسبة إلى طبرستان ، وقد سمى تفسيره مجمع البيان . وهو فى ثلاثين مجلدا .

أما الاتجاه الصوفى فمن التفاسير فيه تفسير أبى عبد الرحمن السلمى المتوفى سنة ٤١٢ وسماه « حقائق التفسير » وأهم منه تفسير القشيرى الذى مر ذكره فى حديثنا عن التصوف ، وهو فى تفسيره كعقيدته صوفى سنى ، بعيد عن متاهات الاتحاد بالذات العلية ووحدة الوجود مما يلجُّ فيه بعض متفلسفة الصوفية ، وتغلب عليه روح الوعظ ، ومثله فى هذا الاتجاه الغزالى فى بعض ما يعرض له من آى الذكر الحكيم ، ولأخيه أبى الفتح أحمد بن محمد الغزَّالى الواعظ المذكور بين المفسرين فى العراق ، تفسير ينحو فيه نحو الوعظ والتصوف ، لا يزال مخطوطاً .

ومن التفاسير العامة تفسير أبى الليث نصر بن محمد السمرقندى المتوفى سنة ٣٧٣ وسماه « بحر العلوم » وتفسير الثعلبى [2] النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٧ وتغلب عليه النزعة القصصية والنقل عن الإسرائيليات ولتلميذه الواحدى المذكور آنفاً شارح ديوان المتنبى ثلاثة تفاسير : البسيط والوسيط والوجيز وله كتاب « أسباب النزول » واختصر الفرَّاء البغوى الحسين بن مسعود المتوفى سنة ٥١٠ تفسير الثعلبى وسَمَّى مختصره « معالم التنزيل » . ولنظام [3] الدين بن الحسن النيسابورى المتوفى فى أواسط القرن التاسع الهجرى تفسير سماه « غرائب القرآن ورغائب الفرقان » ويعد مختصراً لتفسير الفخر الرازى ويهتم فيه بذكر القراءات .

وظل علم الحديث ناهضا فى إيران لهذا العصر ، ومرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى ما يصور مدى نهضته فى هذا الإقليم ، فقد كان من إنتاجه صحيح البخارى وصحيح مسلم

---

(١) انظر فى الطبرسى روضات الجنات ص٥١٢ ومقدمة تفسيره بقلم محسن الأمين وما بها من مراجع .

(٢) راجع فى الثعلبى معجم الأدباء ٥ /٣٦ وطبقات المفسرين ص ٥ وطبقات القراء ١ /١٠٠ وابن خلكان ١ /٧٩ وإنباه الرواة ١ / ١١٩ وروضات الجنات ٦٨ والسبكى ٤ /٥٨ والنجوم الزاهرة ٤ / ٢٨٣

(٣) انظره فى روضات الجنات ص ٢٢٥.

وسنن النسائى وابن ماجه القزوينى وجامع الترمذى ، ويمكن أن نلحق بتلك الكتب سنن أبى داود السجستانى ، وبذلك تكون كتب الصحيح الستة من الحديث النبوى من صُنْع إيرانيين . ومضى هذا النشاط يؤتى ثمارا جديدة فى القرون التالية . وأول من نلقاه من كبار المحدثين فى العصر محمد(١) بن أحمد بن حِبّان البُسْتى السجستانى قاضى سمرقند ومحدثها المتوفى بها سنة ٣٥٤ ويشتهر بكتابه «الجرح والتعديل» فى نقد حملة الحديث ورواته ، وكان يُمْلى مصنفاته فى الحديث وتُقْرأ عليه أو تؤخذ عنه . وكان يعاصره ابن القطان(٢) الجرجانى المتوفى سنة ٣٦٠ وله كتاب الكامل فى الجرح والتعديل أوكتاب الكامل فى معرفة ضعفاء المحدثين . وخلفهما ابن مَنْده(٣) الأصبهانى محمد بن إسحق المتوفى سنة ٣٩٥ وقد رحل طويلا فى طلب الحديث وله مسند أبى حنيفة وكتب فى الحديث مختلفة . وكان يعاصره أبو سليمان حمد(٤) بن محمد الخطَّابى البُسْتى المتوفى سنة ٣٨٦ وألف فى نقد الحديث كتبا منها إصلاح غلط المحدثين ، وله شرح على صحيح البخارى ، وهو أول من رتب أقسام الحديث الثلاثة الكبرى وهى : الصحيح والحسن والضعيف . وعاصره الحاكم النيسابورى(٥) المعروف باسم ابن البَيِّع المتوفى سنة ٤٠٤ وهو الذى جعل أصول الحديث النبوى علما مستقلا ، وكان بنو سامان أصحاب بخارى يوفدونه فى سفاراتهم إلى بنى بويه ، وله كتاب المستدرك على الصحيحين : صحيح البخارى وصحيح مسلم ، جمع فيه كثيرا من الأحاديث التى لم يُدْخلاها فى صحيحيهما مستدلا ببراهين قوية على أنها مستكملة لشروطهما ، والكتاب مطبوع فى حيدرآباد ، مع تعليقات فى الرد على مؤلفه للذهبى . وكان يعاصره ابن فُورَك(٦) محمد بن الحسن الأصبهانى محدث نيسابور ونزيل غَزْنه المتوفى بها

---

(١) انظر فى ابن حبان الأنساب ٨١ والوافى بالوفيات ٢/٣١٧ وتذكرة الحفاظ ٣/١٢٥ والسبكى ٣/١٣١ وميزان الاعتدال ٣/٥٠٧ وشذرات الذهب ٣/١٦ ولسان الميزان ٥/١١٢

(٢) راجع فى ابن القطان تذكرة الحفاظ ٣/١٤٣ وميزان الاعتدال ١/٢ ولسان الميزان لابن حجر ١/٦ وشذرات الذهب ٣/٥١ .

(٣) راجع فى ابن منده أخبار أصبهان لأبى نعيم ٢/٣٠٦ وتذكرة الحفاظ ٣/٣٣٨ ولسان الميزان ٥/٧٠ .

(٤) انظر فى الخطابى السبكى ٣/٢٨٢ وإنباه الرواة ١/١٢٥ والأنساب ٨٠ ب ٢٠٢ ب ومعجم الأدباء ١٠/٢٦٨ وابن خلكان ٢/٢١٤ وتذكرة الحفاظ ويتيمة الدهر ٤/٣٣٤ .

(٥) راجع فى الحاكم النيسابورى الأنساب ٩٩ ب والسبكى ٤/١٥٥ وتذكرة الحفاظ ٣/٢٢٧ وطبقات القراء ٢/١٨٤ ولسان الميزان ٥/٢٣٢ والمنتظم ٧/٢٧٤ وتاريخ بغداد ٥/٤٧٣ واللباب ٢/٩٥ وابن خلكان ٤/٢٨٠ .

(٦) انظر فى ابن فورك السبكى ٤/١٢٧ والوافى ٢/٣٤٤ وابن خلكان ٤/٢٧٢ والشذرات ٣/١٨١ والنجوم الزاهرة ٤/٢٤٠ .

سنة ٤٠٦ وكان شديد الرد على الكِرامية وله كتب كثيرة فى الحديث والفقه الحنفى ، منها بيان مشكل الحديث ، ورد على الملحدة والمعطلة والمبتدعة من الجهمية والمعتزلة ، وكتَب مصنفات أخرى فى نفس الموضوع ردا على المشبهة والمجسِّمة . ومن كبار المحدثين التالين أبو إسحق الإسفراينى المتوفى سنة ٤١٨ وأبو نعيم الأصفهانى المتوفى سنة ٤٣٠ ويشتهر بكتابة « حلية الأولياء » والبيْهقى [١] أبو بكر احمد بن الحسين المتوفى سنة ٤٥٨ بنيسابور ، وبها كان يملى كتبه وتصانيفه ومن أهمها كتاب السنن الكبير ، وكتاب معرفة الآثار . وازدهرت دراسات الحديث فى عصر السلاجقة ازدهارا عظيما ، كان من ثمارها ظهور الفرَّاء البَغَوى [٢] المار ذكره بين المفسرين وله مصنفات كثيرة فى الحديث والفقه الشافعى وتفسير القرآن الكريم ، وأهمها كتابه المصابيح جمعه من كتب الصحاح الستة وبوَّبه وقسم الأحاديث فى كل باب إلى صحيحة وتشمل كل ما أخذه من صحيحى البخارى ومسلم وإلى حسنة ، وما رأى فيها من ضعف أشار إليه . وجاء بعده فى القرن الثامن الهجرى محمد بن عبد الله الخطيب التبريزى فرتبه ترتيبا جديدا وأتمه سنة ٧٣٧ وسماه مشكاة المصابيح ، وألف بجانب المشكاة كتابا فى رجالها سماه أسماء المشكاة ، وهو تراجم للرواة المذكورين فى المشكاة أتمه سنة ٧٤٠ . وظلت دراسات الحديث وروايته ناشطة بإيران فى القرون التالية .

ولم يكن النشاط فى علم الفقه أقل منه فى علم الحديث ، بل ربما كان أوسع وأعظم ، وقد استقرت منذ أوائل العصر المذاهب الفقهية الكبرى : مذهب أبى حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعى ومذهب ابن حنبل ، ولم يكن المذهب الحنبلى شائعا فى إيران ولا فى أى إقليم من أقاليمها ، ومع ذلك لا نعدم أن نجد فيها بعض الحنابلة فى هراة وهمذان [٣] من مثل أبى إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى صاحب كتاب ذم (علم) الكلام ، وكان محدثا يتظاهر بالتجسيم والتشبيه ، وينال من الأشاعرة [٤] وربما كان المذهب المالكى أقل أتباعا حتى ليروى أن أحمد بن فارس اللغوى الذى ذكرناه فى غير هذا الموضع وكان شافعيا كان ينزل الرَّىّ ، فصار مالكيا ، كما يقول ياقوت فى ترجمته بمعجم الأدباء ، فسُئل فى

---

(١) راجع فى البيهقى تذكرة الحفاظ ٣/ ٣٠٩ واللباب ١/ ١٦٥ والأنساب ١٠١ وابن خلكان ١/ ٧٥ والسبكى ٤/ ٨

(٢) انظر فى البغوى السبكى ٧/ ٧٥ وابن خلكان ٢/ ١٣٦ وتهذيب ابن عساكر ٤/ ٣٤٥ وتذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٥٧ وشذرات الذهب ٤/ ٤٨ والنجوم الزاهرة ٥/ ٢٢٣

(٣) أحسن التقاسيم للمقدسى ١٧٩ ، ٣٩٥ ، ٤٣٩ ، ٤٨١ .

(٤) السبكى ٤/ ٢٧٢

ذلك ، فقال : دخلتنى الحمية لهذه البلدة ، يقصد مدينة الرى ، كيف لا يكون فيها رجل على مذهب مالك الرجل المقبول القول على جميع الألسنة . وكان مذهب داود الظاهرى أكثر اتباعا فى إيران أثناء القرن الرابع ، ولكن لم يلبث أن تراجع وخفت صوته أمام المذهبين الكبيرين . مذهب الشافعى ومذهب أبى حنيفة .

وكان لمذهب الشافعى الغلبة وخاصة فى شرقى إيران وما وراء النهر ، ويقال إن الفقيه أبا بكر [١] القفال المعروف بالشاشى والمتوفى سنة ٣٦٥ هو الذى نشر مذهب الشافعى فى تلك الأصقاع ، ويذكر المقدسى أنه كان غالبا أيضا فى كَرْمان [٢] ، وعملت مؤثرات سياسية فى نشره بل فى ازدهاره لعهد السلاجقة ، فإن وزيرهم المشهور نظام الملك كان شافعياً أشعرياً عَدُوًّا للحشاشين الإسماعيلية ، فأسس ،كما مر بنا ، مدارس فى جميع المدن الإيرانية الكبيرة سنة ٤٥٧ ، ورَصَد لها مبالغ طائلة ، لإلحاق مكتبات بها ولمساكن الأساتذة ورواتبهم ، واختار لكل مدرسة صفوة من أئمة الشافعية والأشاعرة فى عصره ، وظل ذلك من بعده . فكان طبيعيا أن يزدهر المذهب الشافعى فى إيران ازدهارا عظيما وأن يتألق فى دراساته الفقهية فقهاء كثيرون ، يُعدون فى الذروة من الإمامة والقدرة على الفُتْيا ، ولولا أن الاجتهاد بالمعنى الواسع كان قد أغلقت أبوابه ، ولم يبق لهم إلا الاجتهاد فى الفروع ، لتطوروا بالفقه الشافعى تطورا عظيما . ومن أهم من نلقاه منهم لعصر السلاجقة أبو [٣] إسحق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ وقد عينه نظام الملك لتدريس فقه الشافعى بنظامية بغداد كما مرَّ فى قسم العراق ، وكان يقابله فى نظامية نيسابور إمام الحرمين الجُوَيْنِى [٤] عبد الملك أبو المعالى إمام الأئمة لعصره على الإطلاق المتوفى سنة ٤٧٨ . وقلنا فى غير هذا الموضع إنه كان يحضر دروسه أربعمائة تلميذ ، ورُزق من التوسع فى العبارة وعلوها مالم يُعْهَد من غيره ، ولهُ بنيت المدرسة النظامية بنيسابور ، وظل فيها ثلاثين سنة يلقى محاضراته ، وسُلِّم له المحراب والمنبر والخطابة ومجلس الوعظ يوم الجمعة وله تصانيف كثيرة منها النهاية فى الفقه الشافعى والشامل ؛ والبرهان فى أصول الفقه . ومن تلاميذه الغزالى وأجل تلاميذه بعده إلْكِيا الهَرَّاسى [٥]

---

(١) انظر فى ترجمة القفال الأنساب ٤٦٠ وابن خلكان ٤٦/٣ وعبر الذهبى ٣٣٨/٢ والوافى ١١٢/٤ وشذرات الذهب ٢٠٧/٣ والسبكى ٢٠٠/٣

(٢) المقدسى ص ٤٦٨

(٣) انظر فى ترجمة أبى إسحق الشيرازى السبكى ٢١٥/٤ والمنتظم ٧/٩ واللباب ٢٣٢/٢ والأنساب ٤٣٥ب وشذرات الذهب ٣٤٩/٣ وابن خلكان ٢٩/١

(٤) راجع فى الجوينى الأنساب الورقة ١٤٤ والمنتظم ١٨/٩ وابن خلكان ١٦٧/٣ والسبكى ١٦٥/٥ والعقد الثمين ٥٠٧/٥ وشذرات الذهب ٣٥٨/٣ .

(٥) مرَّت مصادر ترجمته بين المفسرين فى العراق .

على بن محمد المتوفى سنة ٥٠٤ بدأ حياته العلمية معيداً لإمام الحرمين ، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة ، ثم تولى تدريس المدرسة النظامية ببغداد إلى وفاته . وكان يعاصره أبو المحاسن الروياني [١] عبد الواحد بن إسماعيل المتوفى سنة ٥٠٢ بآمل شهيدا على أيدى الباطنية الملاحدة ، وكان مدرس نظامية طبرستان وكان الوزير نظام الملك كثير التعظيم له لكمال فضله وله كتاب البحر فى الفقه وهو من أطول كتب الشافعيين وكتاب الكافى ، وصنف فى الأصول والخلاف . ومن كبار فقهاء الشافعية فى القرن السادس فخر الدين الرازى محمد بن عمر الطبرستانى الأصل الرازى المولد المتوفى سنة ٦٠٦ فريد عصره ، ومر بنا الحديث عن تفسيره وعن كتاب له فى البلاغة ، وله كتب كثيرة فى علم الكلام وفى الحكمة وفى الطب ، يقول ابن خلكان : «انتشرت تصانيفه فى البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة ، فإن الناس اشتغلوا بها ورفضوا كتب المتقدمين ، وله فى الفقه وأصوله كتب مختلفة ، وكان يعظ مواطنيه باللسانين العربى والفارسى ، ونزل بأخرة من عمره فى هراة . وبها توفى ، وله مواعظ طريفة . وكان قريبا من عصره الرافعى [٢] المتوفى سنة ٦٢٣ وكان إماماً كبيراً فى التفسير والحديث والأصول ، أما الفقه فكان فيه - كما يقول السبكى - عمدة المحققين وأستاذ المصنفين ، وهو قزوينى ، وكان له مجلس للتفسير ولسماع الحديث والفقه ، وله الشرح الصغير والمحرر وشرح مسند الشافعى والشرح الكبير المسمى بالعزيز فى شرح كتاب الوجيز للغزالى ، واسمه يتردد فى كتب الفقه الشافعى وحواشيه التى أُلِّفت بعده فى مصر وغير مصر.

وكان مركز المذهب الحنفى مدينة بخارى لعهد السامانيين وبعدهم ، وكثيرون علماءُ هذا المذهب الذين ترجمت لهم كتب طبقات الحنفية مثل الفوائد البهية للكنوى والجواهر المضية لابن أبى الوفاء وتاج التراجم فى طبقات الحنفية لابن قطلوبغا ، ومن مشاهيرهم فى القرن الرابع أبو بكر أحمد بن على الجصَّاص الرازى الذى سبق ذكره فى قسم العراق ومثله مرَّ هناك أبو زيد الدَّبُّوسى البخارى المتوفى سنة ٤٣٠ وهو أول من أسس علم الخلاف بين المذاهب الفقهية ، وله تقويم الأدلة فى أصول الفقه . ومنهم البَزْدَوىّ [٣] على بن محمد بن عبد الكريم السَّمَرْقَنْدِىّ المتوفى سنة ٤٨٢ وله المبسوط فى الفقه وكتب مختلفة فى علم

---

(١) انظر فى الروياني كتاب الأنساب ٢٦٣ أ والمنتظم ٩/١٦٠ وابن خلكان ٣/١٩٨ والسبكى ٧/١٩٣ والنجوم الزاهرة ٥/١٩٧ والسبكى ٨/٢٨١ ومراة الجنان ٤/٥٦ .

(٢) انظر فى الرافعى تهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٦٤ وشذرات الذهب ٥/١٠٨ وفوات الوفيات ٢/٧

(٣) انظر البزدوى فى الفوائد البهية (طبعة القاهرة) ص ١٢٤ والجواهر المضية وابن قطلو بغا ص ٤١ والأنساب ٧٨

الأصول والتفسير. ومنهم السرخْسى [١] محمد بن أحمد المتوفى سنة ٤٩٠ وكان إماما علامة متكلما مناظرا أصوليا مجتهدا وله كتاب المبسوط فى أحد عشر مجلدا ، وهو أشبه بدائرة معارف فى الفقه الحنفى ، ومنهم برهان [٢] الدين أبو الحسن الفَرْغَانىّ المتوفى سنة ٥٩٣ وله كتاب الهداية شرح البداية فى مجلدين وهو من أمهات كتب الفقه الحنفى ، وعليه حواشٍ عدة . ومنهم العميدى [٣] السَّمَرْقَنْدى أبو حامد محمد المتوفى سنة ٦١٥ كان إماما فى فن الخلاف ، ويقول ابن خلكان له فيه طريقة مشهورة بأيدى الفقهاء ، ومن مصنفاته الإرشاد ، واعتنى بشرحه كثير من أرباب هذا الشأن . ومنهم حافظ الدين النسفى المذكور بين المفسرين والذى مر ذكره بين فقهاء الأحناف فى قسم العراق وقد ذكرنا هناك كتابه المشهور الذى يتداوله علماء المذهب الحنفى والذى سماه كنز الدقائق ، وله طبعات كثيرة فى الهند ومصر ، وعنى به كثيرون فشرحوه ، ويكثر الشُّرَّاح للكتب فى القرون التالية . ولابد أن نلاحظ أن كثيرين ممن مروا بنا فى علوم الأوائل وعلوم النحو والتفسير والبلاغة كانوا أحنافا ولهم مشاركة فى تأليف مصنفات الفقه الحنفى مثل الزمخشرى وناصر المطرزى ونصير الدين الطوسى .

وكان للشيعة بإيران فقهاؤهم ، ونذكر للزيدية منهم الإمام الهارونى [٤] أحمد بن الحسين البطحانى المتوفى سنة ٤١١ وكان إماما للزيدية بجيلانَ وبلاد الديلم . وقد أخذ المذهب الزيدى فى التضاؤل أمام المذهب الإمامى الاثنى عشرى حتى انحسر عن إيران ، وتبعه المذهب الإسماعيلى ، وخاصة بعد القضاء على فرقة الحشاشين الإسماعيلية فى منتصف القرن السابع الهجرى قضاء نهائيا ، على أننا نلاحظ أن فقهاء المذهب الإسماعيلى كانوا يتركون – فى عهد الدولة الفاطمية – موطنهم فى إيران وينزلون القاهرة وتذيع منها مؤلفاتهم فهم أولى بأن يُنْسَبُوا إلى موطنهم الجديد ، على نحو ماصنع حميد الدين الكرمانى المتوفى سنة ٤٠٨ والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى المتوفى حوالى سنة ٤٧٠ . أما المذهب الإمامى فهو الذى كتب له أن يذيع وينتشر فى إيران ، حتى إذا كانت الدولة الصفوية جعلته المذهب الرسمى للدولة ، ومن فقهائه المبكرين الذين عملوا على تأسيسه فى إيران أبو جعفر القمى المتوفى سنة ٢٩٠ والكلينى الرازى المتوفى سنة ٣٢٨ قبل هذا العصر بقليل ولكتابه الكافى

(١) راجع فى السرخسى الجواهر المضية والفوائد البهية ص ١٥٨ وابن قطلو بغا رقم ١٥٧

(٢) انظر فى الفرغانى الفوائد البهية ص ٤١ والجواهر المضية ٣٨٣/١ وابن قطلو بغا ص ٤٢ وبروكلمان ٣٠٩/٦

(٣) راجع ترجمة العميدى فى الفوائد البهية والجواهر المضية ١٢٨/٢ وتاج التراجم ٥٨ وابن خلكان ٢٥٧/٤ والوافى ٢٨٠/١ والشذرات ٦٤/٥

(٤) انظره فى بروكلمان (ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار) ٣٣٣/٣ .

أهمية كبيرة ، ويعد –كما مرَّبنا فى قسم العراقْ– رابع أربعة من الكتب الكبرى للإمامية ، وهو فيه يتناول العقيدة الإمامية بجميع فروعها ويشتمل على أكثر من ستة عشر ألف حديث ، وشرحه كثيرون من علماء إيران الإمامية بعده . وأشهر فقهاء الإمامية فى أوائل هذا العصر : عصر الدول والإمارات ابن بابـويه القمى نزيل بغداد المذكور فى قسم العراق والمتوفى بالرى سنة ٣٨١ وكان أبوه كما مر بنا رئيس الشيعة فى مدينة قُم مركز المذهب الإمامى ، وبابن بابوَيْه استعان ركن الدولة بن بُوَيْه فى استخدام تعاليم الإمامية فى تدبير سياسته ، وفى ذلك دليل يُضَمّ إلى ماقدمناه من أدلة فى غير هذا الموضوع على أن البويهيين كانوا إمامية . ومن أهم مصنفات ابن بابويه الأمالى واعتقادات الإمامية وكتاب من لا يحضره الفقيه ، وهو أحد الكتب الأساسية عند الشيعة ، وأكبر فقهاء الشيعة بعد ابن بابويه أبو جعفر محمدبن الحسن الطوسى وقد تحدثنا عنه فى القسم الثانى الخاص بالعراق .

ونشط علم الكلام بجانب العلوم الإسلامية السابقة ، وظل للمعتزلة طوال القرنين الرابع والخامس نشاطهم ، ومن أهم رجالهم القاضى عبد الجبار قاضى قضاة البويهيين فى الرىّ المار ذكره فى المباحث البلاغية ، وله كتاب المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ، وهو دائرة معارف واسعة فى الاعتزال وأصوله ، وقد نشرت وزارة الثقافة بمصر أجزاء كثيرة منه . ومن أهم رجال الاعتزال بعده الزمخشرى ومر بنا أنه أخذ نفسه فى تفسيره بتوجيه آى الذكر الحكيم توجيها اعتزاليا ، أساسه تأويل كل الآيات التى قد يفيد ظاهرها تشبيها ،وكذلك توجيه الأخرى التى قد تدل على فكرة القدر والجبر نحو فكرة الإرادة الحرة فى أفعال العباد . وقد عُنى الشيعة دائما بالاعتزال وعَدُّوه مؤيدا لهم فى دعواتهم الشيعية ، ولعل ذلك ماساعد على بقائه بعد القرن الخامس الهجرى ، ولكن على كل حال ضعف شأنه . ومنذ أحمد ابن حنبل وفتنة القول بخلق القرآن وأهلُ السنة الحنابلة يحملون على المعتزلة حملات شديدة ، حتى لَيصِمونهم بالإلحاد أحيانا . ولانصل إلى أوائل القرن الرابع الهجرى حتى ينفصل –كما مر بنا فى العصر العباسى الثانى – أبو الحسن الأشعرى عن المعتزلة ، وكان قد تتلمذ لهم ، ويكوِّن لنفسه مذهبا جديدا يسمى المذهب الأشعرى ، وهو مذهب يقوم على التوسط بين آراء المعتزلة وآراء أهل السنة ، وكان المعتزلة يقدِّمون العقل فيجعل معه بل قبله الكتاب والحديث النبوى . وبذلك أصبحت كل مسألة تُقرنُ فيها الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من القرآن الكريم والسنة ، ونضرب لذلك مثلا تنزيه الله عن التشبيه الذى كان يقول به المعتزلة كما أسلفنا أخذ به ، كما أخذ يقول أهل السنة فى أن الله يُرَى بالأبصار يوم القيامة ، واستدل على ذلك بأدلة سمعية فى كتابه الإبانة وبأدلة عقلية فى كتابه اللمع . وكان

المعتزلة يحتكمون دائما فى الإلهيات إلى العقل فاحتكم معه إلى الشرع والأدلة السمعية من القرآن والسنة . وتوسط بين المحدثين والمعتزلة فى فكرة خلق الإنسان لأفعاله ، فقال إن هذه الأفعال لله صنعا وللإنسان كَسْبا وإرادة ، فالإنسان يريدها والله يخلقها . وقال ، فى مسألة خلق القرآن التى أحدثت فتنة بين المحدِّثين والمعتزلة فى زمن المأمون والمعتصم والواثق ، إن الألفاظ المنزلة بالوحى دلالات على الكلام الأزلى والدلالة مخلوقة محدثة ، وقال إن صفات الله ليست هى عين الذات الإلهية كما قال المعتزلة ولاهى أحوال كما قال أبو هاشم الجُبَّائى المعتزلى وإنما هى زائدة على الذات قائمة بها .

وإنما أطلنا فى الحديث عن مذهب الأشعرى لأنه المذهب الذى ساد طوال هذا العصر فى أغلب البيئات الإسلامية وخاصة بين الشافعية والمالكية ، وكان المذهب الشافعى – كما مر بنا – منتشرا فى شرقى إيران ، وكان أصحابه جميعا أشاعرة ، ولم يلبث نظام الملك الوزير السلجوقى المشهور أن أسس لهذا المذهب الكلامى وبالمثل لقرينه المذهب الشافعى كراسى فى جميع المدارس التى أنشأها – كما مر بنا – فى إيران والعراق ، فازدهر المذهب ازدهارا عظيما ، وانتصر فعلا على المعتزلة والسلفيين من أهل السنة جميعا ، إذ أصبح المذهب الرسمى آنذاك وكان من أهم رجاله إمام الحرمين الجوينى الذى ذكرناه بين الفقهاء ، وكان أعلم أهل زمانه بعلمى الكلام والفقه الشافعى وبُنيت له المدرسة النظامية بنيسابور كما أسلفنا ، ونرى الشهرستانى يشرح على لسانه رأيه المتوسط فى أفعال العباد وأنها لله خلقاً وللناس كسباً يقول : إن نفى هذه القدرة والاستطاعة (عن الإنسان) مما يأباه العقل والحس ، وأيضاً إثباتُ قدرةٍ لا أثر لها بوجه كَنفْى القدرة أصلا . فلابد إذن من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة لا على وجه الإحداث والخلق ، فإن الخلق يشعر باستقلال إيجاده من العدم ، والإنسان كما يحس من نفسه الاقتدار يحس من نفسه أيضاً عدم الاستقلال فالفعل يستند وجوده إلى القدرة ، والقدرة يستند وجودها إلى سبب آخر تكون نسبة القدرة إلى ذلك السبب كنسبة الفعل إلى القدرة ، وكذلك يستند سبب إلى سبب آخر حتى ينتهى إلى مسبب الأسباب ، فهو الخالق للأسباب ومسبباتها المستغنى على الإطلاق ، فإن كل سبب مهما استغنى من وجه محتاج من وجه ، والبارئ تعالى هو الغنى المطلق الذى لا حاجة له [1] . وخلف الجوينى تلميذه الغزالى ، فقاد هذا المذهب إلى النصر الحاسم ، وظل أعظم المذاهب الكلامية طوال العصر .

وكان يعتنقه الشافعية كما أسلفنا فى إيران وغير إيران ، أما الحنفية فكانوا يؤثرون على

(١) انظر الملل والنحل للشهرستانى (طبعة مصطفى البابى الحلبى وتحقيق الكيلانى) ١ /٩٨

مذهب الأشعرى مذهباً متوسطاً مثل مذهب الأشاعرة لعَلَمٍ من أعلامهم ، وهو مذهب الماتريدى[1] محمد بن محمد بن محمود المتوفى بسمرقند سنة ٣٣٣ وكان التنافس شديداً بين الماتريدية والأشعرية ، وكانوا أقرب من الأشعرية إلى المعتزلة ، ويمكن معرفة موقفهم هم والأشاعرة والمعتزلة جميعاً من مسألة الإيمان بالله فالمعتزلة يقولون بأن الوسيلة إلى ذلك التى توجبه هى العقل ، ويقول الأشاعرة بل الوسيلة الموجبة هى الشرع الذى يحتم علينا الإيمان بالله ، ويتوسط الماتريدية بين الطرفين فيقولون إن أساس الإيمان بالله الشرع كما يقول الأشاعرة ، ولكن هذا الإيمان يدركه العقل فالعقل وسيلة فيه . ومثلاً فى مسألة الصفات الإلهية كان المعتزلة يقولون بأنها عين الذات الإلهية ، وقال الأشعرى إنها زائدة على الذات قائمة بها ، وتوسط الماتريدية فقالوا إن الله عالم وله علم أزلى . وبينما كان المذهب الأشعرى يسود فى نيسابور كان المذهب الماتريدى يسود فى بخارى وسمرقند وآسيا الوسطى حيث يسود المذهب الحنفى فى الفقه . وكان الكرامية من الصوفية خاصة يحملون على المذهب الأشعرى ، ومعروف أنهم كانوا يَغْلُون فى التشبيه . وعلى كل حال أخذت كفة المذهب الأشعرى تعلو حتى فى بيئات الماتريدية منذ اتخاذه عقيدة رسمية للسلاجقة فى عهد وزيرهم نظام الملك . وظل المعتزلة ينازعونهم طوال هذا العصر ، حتى فى نيسابور نفسها وحتى منذ عهد نظام الملك أو قبله بقليل فإن الوزير السابق له أبا نصر منصور بن محمد الكندرى حسَّن لسلطانه طُغْرُلبَك السلجوقى أن يمنع الأشاعرة من الوعظ والتدريس وأن يعزلهم عن الخطابة ، ونشبت بذلك فتنة[2] فى نيسابور بين الأشاعرة والمعتزلة ، ولم يلبث الوزير أن قُتل وخلفه نظام الملك فازدهر المذهب الأشعرى منذ هذا الحين كما ذكرنا .

وكان أهل السنة الحنابلة يخالفون الأشعرية فى الأخذ بفكرة التأويل المجازى للآيات والأحاديث التى قد تدل على التشبيه والتجسيد للذات الإلهية ، دون إثباتها ، ومعروف أن الأشعرى كان يقول إزاء مثل هذه الآيات كما فى قوله تعالى (بل يداه مبسوطتان) إن ذلك يُفْهَمُ ولكن بلا كيف ، حتى لا يأخذ بفكرة التشبيه ، وكان أهل السنة الحنابلة يأخذون مثله بظاهر الآيات مع الإيمان بتنزيه الله عن التشبيه والتمثيل وكانوا يرون أن كلام الله قديم وأن القرآن لذلك غير مخلوق ، بينما توسط الأشعرية ، وقالوا إن كلام الله قديم ولكن

---

(١) انظر فى ترجمة الماتريدى الأنساب للسمعانى ٤٩٨ والفوائد البهية ص ٩٥ والجواهر المضية لابن أبى الوفا ٢/ ١٣٠ وابن قطلوبغا ص ٥٩ وشرح الإحياء للزبيدى ٢/ ١٥ ونشر له الدكتور فتح الله خليف كتاب التوحيد الذى يصور مذهبه الكلامى ، وهو كتاب نفيس .

(٢) راجع فى هذه الفتنة طبقات الشافعية للسبكى ٣/ ٣٨٩ و ترجمات عبد الكريم القشيرى والجوينى وأبى سهل بن الموفق .

ألفاظ القرآن الدالة عليه مخلوقة ، فهى ليست كلام الله ولكنها تبليغ له . وأيضا توسط الأشاعرة كما أسلفنا بين أهل السنة الحنابلة وإيمانهم بالقدر وبين المعتزلة وإيمانهم بحرية الإرادة للإنسان . وكان ذلك كله مثار جدل عنيف طوال هذا العصر بين أهل السنة الحنابلة والأشاعرة ، وبالمثل بين الأشاعرة والماتريدية ، وكاد يختفى فى القرون المتأخرة أنصار الاعتزال ، وأُلِّفت فى ذلك كلِّه كتب كثيرة ، تنتصر تارة لهذا المذهب أو ذاك ، وتارة تحكى جميع المذاهب والآراء ولا نقصد كتاب الملل والنحل للشهرستانى المؤلف فى القرن السادس فحسب بل نقصد أيضاً كتاب المواقف لعضد الدين [1] الإيجى المتوفى سنة ٧٥٦ وله شروح نفيسة للسعد التفتازانى والسيد الشريف الجرجانى وغيرهما ، وهو بشروحه موسوعة كبيرة لعلم الكلام ومذاهبه وأصحابه

٥

التاريخ

تنوعت الكتابة التاريخية فى إيران كما تنوعت فى كل بلد عربى ، فكان هناك المؤرخون العامون للأمم والدول ، وهناك المؤرخون للمدن ، وهناك أصحاب التراجم العامة والخاصة . ومر بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى أن أكبر مؤرخى الأمم والدول فى الإسلام كان مؤرخا إيرانيا هو الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ . وأول من يلقانا فى هذا العصر من هؤلاء المؤرخين المطهر [2] بن طاهر المقدسى المتوفى سنة ٣٥٥ وهو ليس إيرانيا كما يشهد اسمه ، ولكنه كتب كتابه بدء الخلق والتاريخ فى مدينة بُست شرقى إيران ، وأهداه لبعض الوزراء السامانيين ، وهو جمع لمعارف كثيرة عن الأديان . وبه كثير من الأخبار التاريخية . وكان يعاصره مؤرخ إيرانى هو حمزة الأصفهانى المتوفى سنة ٣٦٠ ومر بنا حديث عنه فى عرضنا لكتب الأمثال بين المصنفات اللغوية ، وله تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ، وقد طُبعت منه ونُشرت بعض أقسام . ويلقانا بعده ابن مسكويه وكتابه « تجارب الأمم » وقد ترجمنا له فى القسم الثانى الخاص بالعراق .

وكان فى عصره المرعشى المتوفى سنة ٤٢٠ وقد صنف باسم السلطان محمود الغزنوى كتاب الغرر فى سير الملوك وأخبارهم ، عُنى فيه بسِيَر ملوك الفرس ، ومضى فيه حتى عصره .

---

(١) انظر فى عضد الدين السبكى ١٠/٤٦ والدرر لابن حجر ٢/٤٢٩ والبدر الطالع ١/٣٢٦ والشذرات ٦/١٧٤ والنجوم الزاهرة ١٠/٢٨٨ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

(٢) انظره فى بروكلمان ٣/٦٢

ومن هذه الكتب التاريخية العامة كتاب «الآثار الباقية من القرون الخالية» للبيرونى كما مر بنا ويحمل تقاويم وجداول للشهور عند الأمم القديمة مع عرضه لأعيادها ولكثير من المشاكل الفلسفية والنزعات الدينية ، وكان حرَّ الفكر ومع أنه كانت فيه نزعة إلى الاعتداد بقوميته الفارسية فإنه لم يتحيَّف العرب فى أحكامه ، بل إنه نادى بأن العربية أكثر ملاءمة للغة العلم من الفارسية . وهو يدعو فى هذا الكتاب إلى نقد الأخبار التاريخية المغرقة فى القدم لما يشوبها من أساطير . ويفوق هذا الكتابَ فى التاريخ العام أهمية كتابُه تحقيق ما للهند من مقولة الذى سبق أن تحدثنا عنه والذى يضم تاريخ هذه الأمة وجغرافية بلادها وما يتصل بذلك من دراسة لأديانها وكل ما يتصل بحياة شعبها . وكان يعاصره العُتْبى[1] محمد بن عبد الجبار المتوفى سنة ٤٢٧ واشتهر بكتابه الذى ألفه فى الدولة الغزنوية لعهد مؤسسها السلطان محمود الغزنوى وقد فصَّل القول فيه عن هذا السلطان وعن أبيه سُبُكْتِكين وحروبهما ، وخاصة حروب محمود فى الهند ، وسماه اليمينى نسبة إلى لقبه : يمين الدولة الذى منحه له الخليفة تكريما ، وألفه فى لغة مسجوعة منمقة ، حتى عدَّه الفرس من روائع آثارهم الأدبية ، ولذلك اعتنى به وبشرحه كثيرون منهم ، ومن شروحه شرح مطبوع معه بمصر باسم « الفتح الوهبى على تاريخ أبى النصر العتبى » . وعُنى محمد بن حسين البيهقى المتوفى سنة ٤٧٠ بكتابه تاريخ السلاطين الغزنويين ، غير أن الكتاب فُقد ولم يبق منه إلا جزء خاص بحوادث السلطان مسعود بن محمود الغزنوى ، ولهذا يطلق عليه اسم تاريخ مسعودى ، وهو باللغة الفارسية وترجم حديثا إلى العربية وطبع فى مصر باسم تاريخ البيهقى . وألف بعد ذلك الوزير أنوشروان بن خالد المتوفى سنة ٥٣٢ كتابا فى تاريخ الدولة السلجوقية ، وعليه اعتمد العماد[2] الأصبهانى المتوفى سنة ٥٩٧ فى كتابه عن السلاجقة الذى سماه « نُصْرة الفِطْرة وعصرة القَطرة » . ويدخل فى هذه الكتب التاريخية الخاصة بالدول والسلاطين كتاب ابن عَرَبْشاه[3] المتوفى سنة ٨٥٤ : « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » وهو تاريخ مفصل لتيمور لنك طبع مرارا بمصر وفى أوربا ، وحقا ابن عربشاه ولد فى دمشق ، غير أنه رحل عنها إلى بلاد الروم ثم إلى سمرقند وبلاد المغول فى التركستان ، وتلقى العلم على الشيوخ هناك ، فرباه بإيران ، وتولى ديوان الإنشاء هناك ، وكانت تصدر

---

(١) انظر مصادر ترجمة العتبى فى الفصل الأخير من هذا القسم .

(٢) راجع فى العماد معجم الأدباء ١٨ /١١ والشذرات ٤ /٣٣٢ وابن خلكان ٥ /١٤٧ وذيل الروضتين لأبى شامة ص ٢٧ والوافى ١ /١٣٣ والسبكى ٦ /١٧٨ .

(٣) انظر فى ابن عربشاه الضوء اللامع ٢ /١٢٦ والشذرات ٧ /٢٨٠ والبدر الطالع ١ /١٠٩

عنه الرسائل بالعربية والفارسية والتركية .

وللمؤرخين فى إيران كتب كثيرة خَصُّوا بها البلدان عارضين علماءها عرضا واسعا ، فهى من جهة تاريخ علمى لبلدان إيران ومن جهة ثانية تاريخ علمى لعلمائها النابهين ، ومن السابقين إلى صنع ذلك فى العصر العباسى الثانى ابن منده محمد [١] بن يحيى المتوفى سنة ٣٠١ ، فله تاريخ أصبهان ، ومن أوائل ما يلقانا فى هذا الاتجاه لأوائل هذا العصر عصر الدول والإمارات كتاب تاريخ بخارى حتى سنة ٣٣١ لأبى بكر محمد بن جعفر النرشخى المتوفى سنة ٣٤٨ كتبه لنوح بن نصر السامانى ، واختصره بعده محمد بن زفر بن عمر سنة ٥٧٤ وأكمله مؤلف مجهول إلى عهد المغول ، ونشره شيفر فى باريس . وجاء بعد النرشخى الحاكم النيسابورى الذى مر بنا ذكره بين المحدِّثين ، فألف كتابه تاريخ نيسابور أو تاريخ علماء نيسابور ، ويقول السبكى فى طبقاته إنه أكمل من تاريخ بغداد . ويؤلف الحسن [٢] بن محمد القمى المتوفى سنة ٤٠٦ تاريخ قم : مدينة الشيعة ، باسم الصاحب بن عباد ، وهو مطبوع فى طهران . ويؤلف أبو نعيم [٣] المتوفى سنة ٤٣٠ تاريخ أصبهان ويقول ابن خلكان فى ترجمته إنه نقل عن هذا الكتاب اسم أبيه ونسبه .ومن كتب القرن الخامس تاريخ الرىّ لأبى سعد الآبى صاحب نثر الدرر الذى عرضنا له فى غير هذا الموضع . ونلتقى فى القرن السادس بتاريخ مرو للسمعانى [٤] المتوفى سنة ٥٦٢ وتاريخ نسا وأبِيَوَرْد للأبيوردى الشاعر المتوفى سنة ٥٧٥ .

وعُنيت طائفة كبيرة من المؤرخين الإيرانيين بصنع كتب التراجم ، ومنها العامة ، ومنها الخاصة بطائفة معينة كالصوفية والفلاسفة أو الأطباء والشعراء والمغنين ، ونذكر فى مقدمة تراجم الصوفية كتاب طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن [٥] السُّلَمى النيسابورى المذكور بين المفسرين المتوفى سنة ٤١٢ للهجرة وعادة يقدِّم معلومات دقيقة فى عبارات موجزة عن الصوفى الذى يترجم له ويذكر بعض عباراته وبعض ماكان يردده من أشعار . وأوسع منه

---

(١) ابن خلكان ٤ /٢٨٩ وتذكرة الحفاظ ١٠٣١ والشذرات ٢ /٢٣٤

(٢) انظر فى القمى بروكلمان (الترجمة العربية) ٣ /٢٩

(٣) انظر فى أبى نعيم السبكى ٤ /١٨ وتذكرة الحفاظ ٣/٢٧٥ وشذرات الذهب ٣ /٢٤٥ والمنتظم ٨ /١٠٠ وميزان الاعتدال ١/١١١وطبقات القراء ١ /٧١ وابن خلكان ١ /٩١ والعبر ٣ /١٧٠ .

(٤)راجع فى السمعانى المنتظم ١٠ /٢٢٤ وابن خلكان ٣/٢٠٩ وشذرات الذهب ٤ /٢٠٥ ومرآة الجنان ٤ /٣٧١ والسبكى ٧ /١٨٠ وتذكرة الحفاظ للذهبى ٤ /١٣١٦

(٥) انظر فى السلمى السبكى ٤ /١٤٣ وتاريخ بغداد ٢ /٢٤٨ واللباب ١ /٥٥٤ والمنتظم ٨ /٦ وتذكرة الحفاظ وشذرات الذهب ٣ /١٩٦ وميزان الاعتدال ٣ /٥٢٣

فى طبقات الصوفية كتاب حلية الأولياء لأبى نُعَيْم صاحب تاريخ أصبهان الذى ذكرناه آنفا ، وترجماته أوسع وأخصب . ومن كتب تراجم الأطباء والفلاسفة كتاب تاريخ حكماء الإسلام لظهير الدين البيهقى[1] المتوفى سنة ٥٦٥ وقد يسمَّى تتمة صوان الحكمة ، ونشر فى مصر بالاسم الأول وفى لاهور بالاسم الثانى .

واهم كتب التراجم التى عنيت بالشعراء كتاب الأغانى لأبى الفرج[2] الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥٦ ويقع فى نحو ٢٥ مجلداً ، ترجم فيه أبو الفرج للنابهين من شعراء الجاهلية والقرون الثلاثة الأولى للإسلام ، ولم يترجم لأنبه الشعراء فحسب ، بل ترجم أيضا لأنبه المغنين والمغنيات حتى نهاية القرن الثالث الهجرى . وعادة يذكر صوتا أو كما نقول الآن أغنية ، ولذلك سماه الأغانى ، ويتلو الأغنية دائما برقيمها الموسيقى قائلا مثلا إنها من الثقيل الأول ونحو ذلك ، ويذكر اسم شاعرها ومن تغنى بها ، ويترجم إما للشاعر وإما للمغنى أو المغنية ترجمة مفصلة ، قد تمتد أحيانا إلى مائة صفحة ، وقد تزيد كثيرا ، وبذلك يطلعنا على كل ما يتصل بالشاعر من نشأة ومن علاقات اجتماعية ومن آراء لمعاصريه أو للنقاد فيه ، موردا ذلك كله بأسلوب ناصع شفاف ، يعرف كيف يروى وكيف يقصُّ وكيف يسوق الأخبار سَوْقا مشوِّقا ، وفى أثناء ذلك يعرض عليك صور الحياة العربية والحضارة العباسية كما يعرض بعض الخلفاء ، ويخيل إليك أحيانا أنك تراهم فى قصورهم وفى مجالسهم ومع حواشيهم يلهون ويطربون ، رؤية مجسمة ، تجعل الماضى أمامك حاضرا بحذافيره .

ويُعْنَى الثعالبى بعده بعمل موسوعته الشعرية التى أشرنا إليها والتى سماها اليتيمة أو «يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر» وهى تراجم لجميع الأقاليم العربية ومن نبغ فيها من شعراء العروبة من الأندلس حتى أقصى الشرق من أقاليم إيران ولها النصيب الأوفر من الاهتمام فقد شغلت من الكتاب نحو نصفه ، وبدأ الحديث فيها بذكر ابن العميد وبعض الوزراء الكتاب الأفذاذ ثم تحدث عن شعراء أصبهان فشعراء الجبل فشعراء فارس والأهواز فشعراء جرجان وطبرستان فشعراء خراسان وما وراء النهر ، فبعض الشعراء النابهين المقيمين ببخارى وبغيرها من مدن أقصى الشرق فشعراء نيسابور . وجميعهم من شعراء القرن الرابع وأوائل الخامس ، ويقول فى مقدمته إنه أورد فيه لُبَّ اللب ، وحبَّة القلب ،

---

(١) راجع فى البيهقى معجم الأدباء ١٣ /٢١٩

(٢) انظر فى أبى الفرج تاريخ بغداد ١١ /٣٩٨ وتاريخ أصبهان لأبى نعيم ٢ /١١ والمنتظم ٧ /٤٠ ومعجم الأدباء ١٣ /٩٤ وإنباه الرواة ٢ /٢٥١ وابن خلكان ٣ /٣٠٧ وعبر الذهبى ٢ /٣٠٥ وميزان الاعتدال ٣ /١٢٣ ولسان الميزان ٤ /٢٢١ ومرآة الجنان ٢ /٣٥٩ والشذرات ٣ /١٩ والنجوم الزاهرة ٤ /١٥ وروضات الجنات ٤٨٧ .

وناظر العين ، ونكتة الكلمة ، وواسطة العقد ، ونَقش الفَصّ ، مع كلام فى الإشارة إلى النظائر والأحاسن والسرقات ، غير أنه عُنى بأشعار الشعراء ، والاختيار منها ، ولم يُعن ، مثل أبى الفرج فى كتابه الأغانى ، عناية واسعة بأخبار الشعراء إلا قليلاً جداً لا يكاد يشفى غُلّة . وأتبع الثعالبى اليتيمة بذيل لها سماه « تتمة اليتيمة » وزع فيه الشعراء على نفس الأقسام التى ذكرها فى اليتيمة ، وبينما تقع اليتيمة فى أربع مجلدات كبار تقع التتمة فى جزءين ، وهى مطبوعة فى طهران . والتتمة واليتيمة تؤرخان لشعراء الدولتين البويهية والسامانية وكذلك لشعراء الزياريين فى طبرستان والغزنويين فى غزنة . ويليهما كتاب « دُمْيَة القصر وعُصْرة أهل العصر» للباخرزى على بن الحسن المتوفى سنة ٤٦٧ وهو يؤرخ لشعراء زمنه ، ويجرى على نفس نظام اليتيمة ، فيؤرخ لشعراء العالم العربى ، ويُعْنَى خاصة بشعراء إيران وأقاليمها كما عُنى الثعالبى . وقد سار على غراره فى العناية بشعر الشعراء أكثر من أخبارهم ، وكأن الثعالبى هو المسئول عن هذا الاتجاه فى الترجمة للشعراء ، إذ عمّ وشاع لا فى إيران وحدها بل فى أقطار العالم العربى جميعها . ويأتى بعد الباخرزى فى الأهمية كتاب خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصبهانى الذى سبق أن ذكرناه بين المؤرخين وهو أيضاً يترجم لشعراء الأقطار العربية لعصره أى فى القرن السادس الهجرى حتى نحو سنة ٥٧٠ للهجرة ، وتراجمه أوسع ، غير أنها تصطبغ بصبغة اليتيمة ، وخصّ إيران بقسم كبير من كتابه لم ينشر حتى الآن ، ونشرت منه الأجزاء الخاصة بمصر والشام والعراق والمغرب والأندلس .

ولعل أهم كتاب فى التراجم العامة هو كتاب الأنساب للسمعانى عبد الكريم بن محمد الذى ذكرناه بين المؤرخين للمدن وهو مطبوع فى مجلد ضخم بالزنكوغراف ، وهو ليس فى الأنساب بمعنى نسب الشخص فى آبائه ، بل هو أعم من ذلك ، إذ يعنى بأنساب العلماء والأدباء إلى بلدانهم أو قبائلهم أو أسرهم أو صناعاتهم أو تجاراتهم . ويعرِّف أولا بما ينسب إليه الشخص ، وإذا كان بلدة ذكر مكانها ، وكذلك الأنساب الأخرى ثم يترجم ترجمة دقيقة لصاحب النسبة ، وقد يشترك فى النسب أو اللقب الواحد عدة أشخاص ، فيتحدث عن كل منهم ، أو قل يترجم لكل منهم ذاكرا مولده ووفاته . واختصر الكتاب عز الدين ابن الأثير فى مصنفه اللباب فى مختصر الأنساب ، وإلى الكتابين نرجع فى كثير من التراجم ، كما هو واضح فى الهوامش .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

الشعر العربي على كل لسان

رأينا فى حديثنا عن الحياة السياسية لإيران أنها أخذت تستشعر منذ القرن الثالث الهجرى نزعة قومية قوية كان من آثارها فى أوائل هذا العصر أن تقابلت دويلات وإمارت فارسية كثيرة على رقعة إيران الفسيحة ، فكان البويهيون فى الوسط والجنوب ومدوا أجنحتهم حتى شملت بغداد والعراق . وكان الزياريون فى الشمال بطبرستان وجرجان ، وكان السامانيون فى خراسان ، وبذلك كانت إمارتهم أبعد الإمارات عن حاضرة اللغة العربية والخلافة الإسلامية : بغداد ، وتليها إمارة الزياريين فى البعد . وهيأ ذلك للإمارتين جميعاً أن تعملا على إحياء اللغة الفارسية الأدبية . وكان السامانيون أسبق إلى ذلك ، لأن إمارتهم أسبق فى التاريخ ، ولأنهم ورثوا إمارة الطاهريين التى سبقتهم منذ عصر المأمون ، إذ منح طاهر بن الحسين قائده المشهور خراسان طُعْمة له ولبنيه ، فاستقلوا بها مبكرين ، وكانت أول الإمارات الفارسية فى الظهور والنشأة ، فساعد ذلك أهلها على أن يكونوا السابقين فى استشعار القومية الفارسية والعمل على استظهار شعر فارسى لهم ينافسون به الشعر العربى . وكذلك الشأن فى إمارة الصفَّاريين التى عاصرتها ، ويذكر مؤرخو الشعر الإيرانى عادة بعض أسماء الشعراء الذين عرفهم القرن الثالث الهجرى ، واتخذوا الفارسية لساناً لهم ، يعبرون بها عن مشاعرهم ، وغير قليل منهم يلفّه ضباب الأساطير ، وأول شاعر معروف حقا هو الرودكى السمرقندى جعفر بن محمد المتوفى سنة ٣٢٩ للهجرة وكان يتغنى بمديح السامانيين ووزيرهم البَلْعمى مترجم تاريخ الطبرى إلى الفارسية ، ويقال إن هذا الشاعر ترجم من العربية كليلة ودمنة شعراً فارسيا ، غير أن ترجمته سقطت من يد الزمن . وخلفه الدقيقى الطوسى المتوفى سنة ٣٦٧ وهو بدوره من شعراء الدولة السامانية ، واشتهر بأنه اعتزم نظم الشاهنامَهْ فى تاريخ ملوك الفرس وأبطالهم وأساطيرهم القديمة وأنه نظم منها

ألف بيت ، ثم حال الموت بينه وبين إكمالها ، فأكملها من بعده الفردوسى فى عهد محمود الغزنوى .

ولم يهتم البويهيون أى اهتمام بهذا الاتجاه القومى فى إحياء الآداب الفارسية ، فقد آثروا الانضواء تحت لواء الثقافة العربية الخالصة ، وكثير منهم أتقنوا العربية ، حتى اتخذوها لسانهم للتعبير عن عواطفهم وأهوائهم ، مما جعل الثعالبى يترجم لطائفة كبيرة منهم بين شعراء العربية فى إيران . وكان وزراؤهم من كبار الأدباء وفى مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد المشهوران بأشعارهما وكتاباتهما فى العربية . ومع أنه يقال إنه وفد على الصاحب شاعران قدَّما له مدائحهما بالفارسية ، وهما منصور بن على الرازى الملقب بالمنطقى ومحمد بن على السَّرَخْسى الملقب بالكِسْروى ، غير أن ذلك يُعَدُّ شذوذاً فى بيئة البويهيين ، فقد كانت بيئة عربية خالصة ، وكان مثل هذين الشاعرين يُعَدّان طارئين عليها . وبالعكس عُنيت الدولة الغزنوية ، وخاصة فى عهد محمود الغزنوى (٣٨٨ – ٤٢١ هـ) بالعمل على إحياء الآداب الفارسية ، مع أن هذه الدولة ترجع إلى أصول تركية . وفى عهد محمود أنجز الفردوسى نَظْم الشاهنامَهْ فى نحو ستين ألف بيت من الشعر الفارسى [1] ، وكان الفرُّخى والعنصرى والعَسْجدى ومنوجهرى يتبارون فى تمجيد فتوحه ومديح أبنائه . وخلَفتْ كل هذه الإمارات السالفة فى إيران الدولة السلجوقية ، وفى عهدها أخذ الشعراء الإيرانيون من أمثال أبى سعيد بن أبى الخير وسنائى وفريد الدين العطار وعمر الخيام والأنورى يتجهون نحو التصوف . وتعم هذه الموجة شعراء إيران فى القرون التالية من أمثال الشيخ سعدى الشيرازى وجلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى وعبد الرحمن الجامى .

وينبغى أن نعرف أن نشاط هذا الشعر الفارسى وأصحابه لم يكن يُقاس فى شىء إلى نشاط الشعر العربى فى إيران وأصحابه طوال القرون الهجرية : الرابع والخامس والسادس . وأكبر دليل على ذلك أنه بينما أُلِّفت المجلدات الضخام عن الشعر العربى فى تلك القرون على نحو ما تُصوِّر ذلك مجلدات اليتيمة ودُمْية القصر والخريدة لم يؤلف عن الشعر الفارسى كتاب يضم بين دِفَّتيه شعراءه ، وأول كتاب عُنِى بهم هو كتاب لباب الألباب لعوفى المؤلف فى أوائل القرن السابع الهجرى . ومعنى ذلك أنهم كانوا حتى هذا التاريخ قلة قليلة بالقياس إلى شعراء العربية ، ولو أن الفتح المغولى لم يحدث فى هذا القرن لظل الشعر العربى هو المسيطر على روح الجماعة الإيرانية ، ومع ذلك فقد ظل أشواطاً من التاريخ والزمن ، على الرغم

(١) ترجمت الشاهنامة بمصر فى العصر الأيوبى ، ترجمها أبو الفتح البندارى ، ونشر ترجمته فى القاهرة الدكتور عبد الوهاب عزام .

من الخراب الذى رافق المغول والذى عَمَّ إيران ، فقد حرقوا ودمَّروا كل ما صادفهم من حضارة ، وكانت الحضارة العربية هى التى تسود فى كل تلك الديار ، وكان يسود معها الشعر والعلم العربيان ، فتراجعت تلك الحضارة أمام السيول المغولية وأمام ما أنزل بها جنكِزخان وهولاكو من تدمير ، حتى لقد كانا يحرقان المكتبات . أما المدن فقد أنزلا بها خرابا لا مثيل له فى التاريخ ،

وما أنزل هولاكو ببغداد من دمار معروف مشهور . وكان ذلك كله ضربة قاصمة للحضارة العربية فى إيران وبالتالى للشعر والعلم العربيين ، ومع ذلك فقد ظل العلم العربى حيا وبالمثل الشعر ، وإن فقدا كثيراً من نشاطهما الهائل القديم . ولابد أن نعرف أن لغة العلم فى إيران ظلت حتى القرن العاشر الهجرى هى العربية ، فبها كان يكتب علماؤهم وفلاسفتهم من أمثال ابن سينا والبيرونى فى القرن الخامس والزمخشرى والفخر الرازى فى القرن السادس ونصير الدين الطوسى والكاتبى القزوينى المعروف بدبيران فى القرن السابع . وسعد الدين التفتازانى وعضد الدين الإيجى فى القرن الثامن والسيد الشريف الجرجانى فى القرن التاسع . فنى كل هذه القرون – وخاصة حتى القرن السابع – لم تستطع الفارسية أن تستولى تماماً على ألسنة العلماء الإيرانيين ، حقا قد يكتب العالم بها رسالة أو يترجم بها عملاً من أعماله ، كما حدث أحياناً عند ابن سينا والبَيْرونى ، ولكن تظل العربية لغته الأساسية التى يذيع بها كتبه ومعارفه ، ومرجع ذلك إلى أن العربية كانت تفوق الفارسية فى القدرة على التعبير العلمى بفضل ما تتسم به من مرونة فى الاشتقاقات ، وأيضاً لأنها كانت قد أصبحت فعلاً لغة علمية ، تزخر بمصطلحات العلم ، فكان من الصعب أن تحل الفارسية محلها ، ويصوِّر ذلك البيرونى قائلاً : « إلى لسان العرب نُقلت العلوم فى أقطار العالم ، فازدانت وَحلَتْ إلى الأفئدة ، وسَرَتْ محاسن اللغة منها فى الشرايين والأوردة . . والهجو بالعربية أحب إلىّ من المدح بالفارسية . ويعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نُقل إلى الفارسية .[فسيرى أنه] قد ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسودّ وجهه ، وزال الانتفاع به إذ لا تصلح هذه اللغة [الفارسية] إلا للأخبار الكسروية والأسحار الليلية [١] » .

وظل هذا الشعور ماثلاً فى نفوس كثيرين من العلماء الإيرانيين حتى القرن العاشر الهجرى ، فكانوا يشبّون فى مهاد العربية وينهلون من ينابيعها الأدبية ، بل إننا نجد ذلك نفسه عاما بين الشعراء الذين اتخذوا الفارسية لسانا لهم منذ الرودكى ، ولذلك مظهر عام

---

(١) انظر كتاب الأدب الفارسى فى العصر الغزنوى للدكتور على الشابى (طبع تونس) ص ٣٣٨ نقلاً عن كتاب الصيدلة للبيرونى .

عنده وعند غيره ممن جاءوا بعده من شعراء الفارسية ، فإن الألفاظ العربية تكثر فى أشعارهم ، بل لذلك مظهر أبعد عمقاً وغَوْراً ، فإن ضروب النظم التى صاغوا فيها أشعارهم ضروب عربية ، بل قل كل عروض الأشعار عندهم من نفس عروض الشعر العربى ومادة تفاعيله وأوزانه .

وقد اشتهرت عندهم طائفة من ضروب النظم العربى وأنماطه أولها المَثْنَوِىّ ، وهو نفس الضرب المعروف فى العربية باسم المزدوج الذى أخذ يشيع – كما مر بنا فى كتاب العصر العباسى الأول – منذ بشار ، وأشاعه بعده أبان بن عبد الحميد فى ترجمة كليلة ودمنة وما نظم من الشعر التعليمى[1] ، وفيه تختلف القافية من بيت إلى بيت فى حين تتحد فى الشطرين المتقابلين ، وقد اختاره الفردوسى لشاهنامته والتزم فيه وزن المتقارب .

والضرب الثانى القصيدة ، وموضوعها ونسقها لا يختلف فى شىء عن موضوع القصيدة العربية ، فقد يكون مديحاً أو هجاء أو دينا أو فلسفة .

والضرب الثالث الغزل ، وموضوعه غزلى أو صوفى وأبياته لا تزيد عن اثنى عشر بيتاً إلا فى النادر ، وهو بذلك المعروف فى العربية باسم المقطعات الغزلية .

والضرب الرابع الرباعيات ، وهى تتألف من أربعة شطور ، يتفق أولها وثانيها ورابعها فى قافية واحدة ، أما الشطر الثالث فقد يُختم بنفس القافية وقد لا يُختم وهو بدوره نمط عربى ظهر عند بشار وأبى نواس وأبى العتاهية[2] ، وكل ما للفرس أنهم مع الزمن التزموا فيه وزنين خاصين سبق أن تحدثنا عنهما فى قسم العراق .

والضرب الخامس المسمَّط ، وهو يتألف من أدوار وكل دور يتكوَّن من أربعة شطور أو أكثر ، وتتفق شطور كل دور فى قافية واحدة ، ما عدا الشطر الأخير فإنه يستقل بقافية يتحد فيها مع الشطور الأخيرة فى الأدوار المختلفة . وقد أخذ هذا الضرب يشيع فى العربية منذ أبى نواس قبل نشأة الشعر الفارسى الحديث .

ومعنى ذلك أن الشعر الفارسى الذى أخذ ينظمه شعراء الفرس بإيران منذ القرن الثالث الهجرى فَصَلَ عن الشعر العربى كما يَفْصل الرضيع عن أمه . بل لقد ظل الشعر العربى يغذِّيه طوال القرون التالية ، ولذلك مظاهر مختلفة فيه ، فإن موضوعاته من مديح وغير مديح هى نفس موضوعات الشعر العربى ، وإذا أخذنا موضوعاً مثل المديح وجدناه يُنْظَمُ بنفس الصورة العربية ، فللمدحة مقدمة من النسيب ومن وصف الطبيعة ، وكأننا نقرأ مدحة

---

(١) العصر العباسى الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٦ وما بعدها .

(٢) العصر العباسى الأول ص ١٩٧ .

عربية مترجمة على نحو مايتضح عند شعراء الدولة الغزنوية : منوجهرى والعسجدى والعنصرى والفُرُّخى . ونما عندهم – على نحو ماهو معروف – شعر التصوف ، ولكنه يتغذى فى نشوئه ونموه جميعاً بشعر التصوف العربى عند الحلاج وأضرابه من القدماء وعند ابن العربى وابن الفارض والسُّهْرَوَرديِّين . ولايوجد شاعر صوفى من فريد الدين العطار إلى عبد الرحمن الجامى إلا وهو يحسن العربية ويتربى ثقافيا فى مهادها ، ولذلك دائماً نجد لشعرائهم الصوفيين شعراً عربيا ، وهو يقل عند بعضهم حقا ، ولكنه على كل حال يرمز فى قوة إلى هذا التواصل الوثيق [1] بين شعراء الفارسية وشعراء العربية . وشاعت بينهم طريقة هى أن يقتبسوا فى بعض منظوماتهم شطوراً أو أبياتاً عربية ، ويسمون ذلك الملمَّع ، فالشطر أوالبيت العربى يلمع فى المنظومة كما تلمع المنارة وتتألق . ويكثر عندهم وراء هذه الشطور والأبيات أن يضمنوا كثيراً من أبيات منظوماتهم معانى أبيات عربية ، فضلاً عما يضمنونها من الآيات القرآنية والأحادث النبوية . وللدكتور حسين محفوظ بحث طريف بعنوان «متنبِّى وسَعْدى» طبعه فى طهران ، وفيه يذكر آيات الذكر الحكيم فى شعر سَعْدى الشِّيرازى ، وتشغل من البحث نحو عشرين صحيفة ، ويتلوها ما استظهره سعدى من الأحاديث النبوية فى نحو ثلاثين صحيفة ، ويعرض تضمينه لمعانى أبيات الشعر العربى فى أشعاره فى نحو خمسين صحيفة ، وهى أبيات تمتد من العصر الجاهلى إلى العصر العباسى مصوِّرة بقوة ثقافة سعدى الشِّيرازى بالشعر العربى على مر العصور ، ويلى ذلك تضمين سعدى أشعارَه معانى أبيات المتنبى فى نحو خمسين صحيفة . وبجانب ذلك يذكر أشعار سعدى العربية الخالصة . وسَعْدى أوالشيخ سعدى هو أحد ثلاثة يُعَدّون أنبه شعراء الفرس فى تلك الحقب ، والاثنان الآخران جلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى ، بل ربما كان هو أكثر الثلاثة شعبية ومحبة بين أبناء قومه . فإذا قلنا إن الشعر الفارسى كان دائم الاتجاه إلى الشعر العربى ، وكان هذا الشعر دائماً يقع منه موقع البوصلة أو موقع الإبرة المغناطيسية يجذبه إليه فى قوة لم نكن مغالين .

وليس هذا كل ما يلاحظ من ولاء الشعر الفارسى للشعر العربى فى تلك القرون ، فإننا نجد أصحابه يُعْنَوْنَ منذ نشأته بمصطلحات البديع التى أخذت تتزايد وتتراكم بين شعراء العربية فى إيران وغير إيران ، وأكبر مثل يوضح ذلك «كتاب حدائق السحر فى دقائق الشعر» لرشيد الدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣ للهجرة ، وقد أورد فيه ستة وخمسين فنًّا

---

(١) من يرجع إلى كتابات الثعالبى والباخرزى يعرف أن هذا التواصل قديم فقد كان كثير من الشعراء يحسن اللسانين وينظم بهما . انظر اليتيمة ٤ / ٨٨ ودمية القصر ٢ / ٢٦٠ ، ٢٨٠ ، ٣٤٤ ، ٣٦٢ .

من فنون البديع ، ونراه فى كل فن يذكر أمثلة من الشعر العربى وأمثلة أخرى من الشعر الفارسى تحاكيها جرت على ألسنة الرودكى والعنصرى والفرُّخى والعَسْجدى ومنوجهرى والمنطقى وأضرابهم ، وكأن شعراء الفرس لم يتركوا لشعراء العربية فنا إلا حاكوه فيه ، مهما يكن معقداً أو شديد التكلف ، فمن ذلك تقليدهم « لزوم ما لا يلزم » فى القافية بحيث يلتزم فيها الشاعر حرفا قبل حرف الروى ، وتقليدهم الأبيات التى يمكن بحذف أجزاء أخيرة منها أن تقرأ على وزنين ، ومن ذلك المقطّع وهو أن يورد الشاعر بيتاً لا تتصل حروف كلماته فى الكتابة ، والموصَّل وهو أن يقول الشاعر بيتاً لا تقبل كلماته التقطيع فى الكتابة ، والأرقط وهو البيت الذى يتوالى فيه حرف منقوط وحرف غير منقوط بالتعاقب ، والأخيف وهو الذى تتوالى الكلمات فيه كلمة منقوطة وكلمة غير منقوطة . وقد أنشدنا أمثلة من هذه الصور المتكلفة فى قسم العراق ومن ذلك استخدامهم كثيرا اللغز ، والتضمين ، والتقسيم ، وحسن التعليل ، والمثل .

ولعل فى هذا ما يوضح كيف أن الشعر الفارسى كان يتبع خطوات الشعر العربى الماضى والمعاصر له خطوة خطوة ، يتبعه فى الصياغة والسمات ويحاكيه محاكاة دقيقة. وكان الشعر العربى هو الأكثر شيوعا ، وهو الذى يدور على كل لسان ، أما فى القرون الرابع والخامس والسادس فليس فى ذلك شك ، حتى لنرى كثيرين ممن كانوا ينظمون بالعربية والفارسية من الشعراء إنما يشتهرون بشعرهم العربى ، مثل بديع الزمان الهمذانى إذ تُرْوَى له بعض أبيات فارسية بينما له ديوان بالعربية ، وبالمثل أبو الفتح البستى ، إذ يقول الرواة إنه كان ينظم بالفارسية . ولكن هذا النظم ضاع ، وبقى له ديوانه العربى ، ومثلهما الباخرزى ضاع شعره الفارسى إلا ما احتفظ به محمد عوفى فى كتابه اللباب ، وظل ديوانه العربى تتناقله الأجيال حينا من الدهر . ومنذ حروب المغول وتخريبهم لإيران انعكست الحال ، فكثر من ينظمون بالفارسية ، وأصبح المعوَّل فى شهرة الشاعر على ما ينظمه بتلك اللغة ، كما هو الشأن فى سعدى الشيرازى الذى مرَّ بنا حديث عنه . أما قبل ذلك فكان الشعر العربى هو الأكثر ذيوعاً ، وكأنه العملة الشعبية المتداولة فى بيئات المثقفين جميعاً ، فالفلاسفة والعلماء ينظمونه كما ينظمه الكتاب ، غير من كان ينظمه من الشعراء ، ويعُدُّون بالمئات .

٢

كثرة الشعراء

راجت سوق الشعر العربى بإيران فى القرن الرابع الهجرى رواجاً عظيماً ، وكان من العوامل التى أدت إلى هذا الرواج اهتمام ملوك البويهيين ووزرائهم بالشعر وأصحابه ، وفى مقدمتهم عضد الدولة ، وكان ينظم شعراً حسناً ، كما كان يؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء ، كما يقول صاحب اليتيمة ، وقد أنشد له أبياتاً طريفة فى الشراب والطرب من مثل قوله [١] :

ليس شُرْبُ الكأسِ إلا فى المطَرْ وغِناءٍ من جَوارٍ فى السَّحَرْ

وكان الشعراء يفدون عليه ويُجْزل لهم فى صِلاتهم ومكافآتهم ، غير من كان يفرض لهم الرواتب الحسنة . وقد استحال مجلس وزيره ابن العميد إلى ما يشبه ندوة أدبية كبيرة ، فكان الشعراء يروحون ويغدون على مجلسه ، وكثيراً ما كان يطلب إليهم أن يعارضوا بيتاً يُلْقيه ، أو يصفوا شيئاً عرض لهم ، ونضرب لذلك مثالاً : أن بعض الوافدين حيَّاه بأُتْرُجَّةٍ حسنة ، فطلب إلى من حضره من الشعراء أن يتجاذبوا وصفها [٢] ، وابتدأ بقوله : « وأترجَّةٍ فيها طبائعُ أربعُ » فقال أبو محمد بن هندو : « وفيها فنونُ اللهو للشَّرْب أجمعُ » فقال أبو القاسم : « يشبِّهها الرائى سَبيكةَ عسْجدٍ » فقال أبو الحسين بن فارس : « على أنها من فأْرة المسك أَضْوَعُ » فقال أبو عبد الله الطبرى : « وما اصفرَّ منها اللونُ للعشق والهوى » فقال أبو الحسن البديهى : « ولكنْ أراها للمحبين تجمَعُ » . وبذلك تكوَّنت ستة شطور أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات على البديهة ارتجالاً . وكانت تكثر هذه المقارضات فى مجالس الوزراء وغيرهم من المتأدِّبين ، ولعل مجلساً لم يبلغ منها ما بلغه مجلس الصاحب بن عباد إذ يقول الثعالبى فى كتابه اليتيمة : «احْتفَّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل وفرسان الشعر ، مَنْ يُرْبِى عددهم على شعراء الرشيد ولا يقصِّرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ومِلْك رِقِّ المعانى ، فإنه لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين كأبى نواس وأبى العتاهية والعتَّابى والنَّمرى ومسلم بن الوليد وأبى الشِّيص ومروان بن أبى حفصة ومحمد بن

(١) اليتيمة ٢١٨/٢ .

(٢) اليتيمة ١٧٦/٣ وما بعدها .

مناذر ، وجمعتْ حضرة الصاحب بأصبهان وبالرىّ وجُرْجان مثل أبى الحسين السَّلامىّ وأبى بكر الخُوَارَزْمِىّ وأبى طالب المأمونى وأبى الحسن البديهىّ وأبى سعيد الرُّسْتُمِىّ وأبى القاسم الزَّعْفرانىّ وأبى العباس الضَّبِّىّ وأبى الحسن بن عبد العزيز الجرجانى وأبى القاسم بن أبى العلاء وأبى محمد الخازن وأبى هاشم العلوى وأبى الحسن الجوهرى وبنى المنجم وابن بابَك وابن القاشانى وأبى الفضل الهمذانى وإسماعيل الشاشى وأبى العلاء الأسدى وأبى الحسن الغُوَيْرِىّ وأبى دُلَف الخزرجى وأبى حفص الشّهرزوزىّ وأبى معمر الإسماعيلى وأبى الفياض الطبرى وغيرهم ممن لم يبلغنى ذكرهم أو ذهب عنى اسمه . ولذكر كل من هؤلاء مكان من هذا الكتاب إما متقدم أو متأخر». ولكل منهم ولكثيرين وراءهم فيه مدائح لا تكاد تُحْصَى ، ومع كل مدحة كان يأمر بصلة . وكان يتبادل مع من يحضرون مجلسه مقارضات الشعر ومطارحاته وإجازاته . وكثيراً ما كان يعرض موضوعٌ ، فيتنافس فيه الشعراء ، وكل يحاول أن يظهر براعته وتفوقه ، من ذلك أنه بنى قصراً بأصبهان ، فتبارى نحو عشرين شاعراً فى وصفه[1] » ، منهم أبو سعيد الرُّسْتمى ، وفيه يقول[2] :

وسامية الأعلام تلحظ دونها ... سَنا النجم فى آفاقها مُتضائلا
نسختَ بها إيوانَ كسرى بن هُرْمُز ... فأصبحَ فى أرض المدائن عاطلا
متى ترها خلتَ السماء سُرادقاً ... عليها وأعلامَ النجوم مواثلا
وماءٍ على الرَّضْراض يجرى كأنه ... صفائحُ تِبْرٍ قد سُبِكْنَ جداولا[3]

ولما حصل الصاحب ، وهو بِجُرْجان ، على فيل ضخم كان فى عسكر السامانيين أمر من بحضرته من الشعراء أن يصفوه فى تشبيب قصيدة على وزن قافية قول عمرو ابن معد يكرب الزُّبَيْدى :

أعددتُ للحَدَثان سا ... بغةً وعَدَّاءً عَلَنْدَى[4]

وأنشد أبو الحسن الجوهرى فى هذه المباراة قصيدة استهلّها بمديح الصاحب ، ثم أخذ فى وصف الفيل وصفاً مَرِحاً بمثل قوله[5] :

يُزْهَى بخرطومٍ كمثـ ... ـل الصَّوْلجان يرِدّ رَدَّا
أو كُمّ راقصــةٍ تشـ ... ـيرُ به إلى النُّدمان وَجْدَا

---

(١) اليتيمة ٣/ ٢٠٣ .
(٢) اليتيمة ٣/ ٢٠٦ .
(٣) الرضراض : الحصى الصغار فى مجارى المياه .
(٤) اليتيمة ٣/٢٢٩ والسابغة الدرع . والعلندى : الغليظ ، وأراد به الفرس .
(٥) اليتيمة ٣ / ٢٣١ .

وكأنه بوقٌ تُحَـ ـرِّكه لتنفخ فيه جدّا
أذناه مِرْوَحَتان أُسْـ ـندتا إلى الفَوْدين عقْدا

ونفق بِرْذَوْن (بَغْل) أبى عيسى بن المنجم ، بعد أن طالت صحبته له ، فأوعز الصاحب إلى من حوله من الشعراء الندماء أن يُعَزّوا أبا عيسى فيه ويبكوه له ، ونظم منهم عشرةٌ قصائدَ فكاهية سُمِّيت بِالبِرْذَوْنيات منها برذونية أبى القاسم ابن أبى العلاء وفيها يقول [١] :

لقد أنصفتْه الخيلُ ماذُقْن بَعْدَهُ شَعِيراً ولا تِبْناً ومُتْنَ غَليلا
وفى كل إصْطَبْلٍ أنينٌ وزفرةٌ تردَّدُ فيه بُكْرَةً وأَصيلا
ولو وفَّت الجُرْدُ الجِياد حقوقَهُ لما رجَّعتْ حتى المماتِ صَهيلا

وفى هذا كله ما يصور من بعض الوجوه حياة الشعر العربى فى أَصْبهان والرَّى لعهد بنى بويه ، وبالمثل كان الزِّياريون وفى مقدمتهم قابوس بن وَشْمكير يشجعون الشعراء ويجزلون لهم فى العطاء ، ويذكر الباخَرْزى فى دُمْيته أبا بكر الخُسْرُوىّ الذى كان ينظم باللسانين العربى والفارسى ، ويقول : « كانت له وظائف كل سنة من الأمير شمس المعالى قابوس بن وشمكير والصاحب أبى القاسم بن عباد تُدَرّ عليه ، وتتسابق إليه [٢] » . وكانت لكثيرين غيره هذه الوظائف أو الرواتب من الدولتين ، وكذلك من الدولة السامانية ، وفى عاصمتها بخارى يقول الثعالبى : « كانت بخارى فى الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض ومَوْسم فضلاء الدهر [٣] » ويذكر مجلساً من مجالسها ضَمَّ أبا الحسن اللَّحَّام وأبا محمد بن مطران وأبا جعفر بن العباس بن الحسن وأبا محمد بن أبى الثياب وأبا النصر الهَرْثَمى وأبا نصر الطريفى ورجاء بن الوليد الأصبهانى وعلى بن هرون الشيبانى وأبا إسحق الفارسى وأبا القاسم الدينورى وأبا على الزَّوْزَنى إلى غيرهم ممن ينتظم فى سلكهم من الشعراء . وليست الحواضر وحدها هى التى اختصت بالنشاط الشعرى ، فكثير من المدن شاركها هذا النشاط مثل بلاد الجبل وجُرْجان وَطَبرستان وخَوارزم وفارس والأهواز ونَيْسابور وهَراة . وقد بلغ عدد الشعراء الذين ترجم لهم الثعالبى فى يتيمته من الإيرانيين خاصة أكثر من مائة وثمانين شاعراً ، وزادوا عن المائتين فى الدمية إلى من ترجم لهم العماد الأصفهانى فى الخريدة وترجمات ضافية ،

---

(١) اليتيمة ٢١٨/٣ .
(٢) دمية القصر (طبعة دار الفكر العربى) ٢٥٩/٢ .
(٣) اليتيمة ١٠١/٤ .

وكان بجانب أمراء الدويلات الإيرانية كثير من حماة الأدب والشعر فى كل بلدة كبيرة ، منهم آل ميكال فى نيسابور ، وفيهم يقول الثعالبى : « القول فى آل ميكال وقِدم بيتهم وشرف أصلهم وتقدم أَقْرامهم (سادتهم) وكرم أسلافهم وأطرافهم وَجْمعهم بين أول المجد وآخره وقديم الفضل وحديثه وتليد الأدب وطريفه يستغرق الكتب ويملأ الأدراج ويُحْفى الأقلام ، وما ظنك بقوم مدَحهم البحترى وخدمهم ابن دريد وألَّف لهم معجم الجمهرة وسيَّر فيهم المقصورة التى لا يُبْليها الجديدان ، وانخرط فى سلكهم أبو بكر الخوارزمى وغيره من أعيان الفضل وأفراد الدهر[١] » . ويدل أكبر الدلالة على ماكان ببلدان إيران من نشاط أدبى وشعرى أن نجد هذه البلدان لا تكتظ بأدبائها وشعرائها وحدهم ، بل يفد عليها كثيرون غيرهم من بلاد قريبة وبعيدة فى العراق وغير العراق ، على نحو ما يلقانا فى نيسابور ، فقد ترجم الثعالبى لطائفة من الشعراء الطارئين عليها من بلدان شتّى ، وبلغ عددهم ستة عشر شاعراً اختاروها مقاماً لهم .

ونَيْسابور من بلدان الدولة السامانية ، وهى صالحة لأن تكتب فى شعرائها دراسة قيمة عن نشاط الشعر بها لا فى عهد السامانيين وحدهم بل أيضاً فى الحقب التالية ، وبالمثل بلدان إيران الكبيرة المختلفة مثل أصبهان والرىّ والجُرْجانية عاصمة الزياريين وخُوَارزم وهَراة عاصمة خلف بن أحمد ممدوح بديع الزمان الهمذانى وغَزْنة عاصمة الغزنويين ، فكل هذه البلدان وما يماثلها ، وحتى بلاد الشاش فيما وراء النهر يمكن أن تفرد لها دراسة تضم شعراءها فى اليتيمة والدمية وغيرهما من كتب التراجم مثل طبقات الشافعية للسبكى ومعجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان .

ومن يرجع إلى هذه الكتب يخيَّل إليه أن الشعر بإيران إلى ما وراء النهر كان على كل لسان ، وكان الأمراء ورُعاته فى كل بلدة يقيمون له مواسم كالأعيـاد ، وكان الوزراء والأمراء لا يزالون يهبون الشعراء آلاف الدراهم والدنانير ، وكانوا يعيِّنون لهم مرتبات ، كما مر بنا ويُغْدقون عليهم إغداقاً كثيراً ، حتى ليقال إنه حصل للأبِيوَرْدِىّ الشاعر السلجوقى من الملوك والأمراء ما لم يحصل للمتنبى فى عصره ولابن هانئ فى مصره . فلا عجب أن يتكاثر الشعراء ، فقد كان الشعر وسيلة لحياة رَغْدة ، ولذلك قلما ترى شاعراً من المئات التى ترجم لها الثعالبى فى اليتيمة والباخرزى فى الدُّمْية والعماد الأصبهانى فى الخريدة إلا وهو يتكسب بأشعار لعلها تفتح له أبواب النعيم .

(١) اليتيمة ٤/٣٥٤ .

وليس هذا وحده كل مادعا الشعر إلى النشاط فى إيران ، فقد كان يُعَدّ جزءًا لا يتجزَّأ من الثقافة العربية التى كان الناس يعكفون عليها فى شغف ، وهذا هو السر فى أنك قلما تجد فقيها أو فيلسوفاً فى تلك البيئة إلا وهو ينظم الشعر ، ويتخذه أداته فى التعبير عن مشاعره ، تجد ذلك عند البيرونى فى ترجمته بمعجم الأدباء كما تجده عند ابن سينا ، ويتسع ذلك عند الفقهاء ، وكأنهم كانوا يَعُدُّون الشعر من آلات عملهم ، وارجعْ إلى السُّبكى فى طبقاته فإنك تجده من وقت إلى آخر حين يترجم لفقيه يذكر له أشعاراً مختلفة فى الغزل وغير الغزل ، من ذلك أن نراه يترجم لمحمد بن عبد العزيز النِّيلى أحد أئمة خراسان المتوفى سنة ٤٣٦ فيذكر له أشعاراً منها هذه الأبيات الغزلية البديعة (١) :

ما حالُ مَنْ أَسَرَ الهوى ألبابَهُ ... ما حالُ من كسَر التصابىَ بابَهُ
نادى الهوى أسماعَه فأجابه ... حتى إذا ما جازَ أغلق بابَه
أهْوَى لتمزيق الفؤاد فلم يجد ... فى صدرِهِ قلباً فشقَّ ثيابَهُ

ومن كبار أئمة الشافعية فى العصْر القفّال الشاشى ناشر مذهب الشافعى فيما وراء النهر ، وكان أكبر من صاح فى قومه لغزو الروم عام النَّفير ، وذلك أن نِقْفور إمبراطور الروم أرسل إلى الخليفة المطيع قصيدة يتوعده فيها ويتوعد المسلمين بمثل قوله (٢) :

ثغوركمُ لم يبقَ فيها لوَهْنكم ... وضعفكمُ إلا رُســـومُ المعالِمِ

ومضى يفاخر بانتصاراته وانتصارات أسلافه فى كريت (إقريطش) وسَروج وعلى أبواب سُمَيْساط والحدَث ومَرْعش والمصِّيصة وَطَرسوس. وردَّ عليه فخره ونقَضه نقضاً الشيخ القفَّال بقصيدة طنانة يذكر له فيها انتصارات المسلمين عليهم قروناً متطاولة وما قتلوا من مئات الألوف من رجالهم وماسَبَوْا من آلاف الجوارى الروميات ، بل ما قتلوا وسبوا من آلاف الآلاف على مر السنين ، وإن صواعق الموت لتوشك أن تنزل به وبجنوده ، ترسلها عليهم زحوف الخراسانيين جنود الملك السامانى منصور بن نوح (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) التى تزحف بقَضِّها وقضيضها ورُعودها وبُروقها المميتة ، يقول :

أتَتْك خُراسانٌ تجُرُّ خيولَها ... مُسوَّمةً مثلَ الجرادِ السَّوائمِ

(١) السبكى ١٧٩/٤

(٢) السبكى ٢٠٥/٣ وما بعدها

كهولٌ وشبانٌ حماةٌ أحامِسٌ ميامنُ فى الهَيْجاء غيرُ مَشائِم [١]
ونرجو بفضلِ الله فتحاً معجَّلاً ننالُ بِقُسْطَنْطِين ذاتِ المحارمِ
هناك نرى نِقْفورَ واللهُ قادرٌ ينادَى عليهِ قائماً فى المَقاسمِ
ويجرى لنا فى الرومِ طُرًّا وأهلِها وأموالِها جَمْعاً سِهامُ المغانمِ
فيضحك منا سنٌّ جذْلان باسمٍ ويُقْرَعُ منه سِنٌّ خَزْيانَ نادم

ووراء القفال أئمة فى الفقه الشافعى كثيرون أنشد لهم السُّبْكى أشعاراً فى الزهـد ، وسنترجم منهم للقُشَيْرى بين شعراء الزهـد والتصوف . وأنشد السبكى أيضاً أشعاراً لقاضيين هما على بن عبد العزيز الجرجانى والأرَّجانى وسنترجم لهما بين شعراء المديح ، كما أنشد أشعاراً مختلفة للفقيه الأَبيوَرْدِىّ وسنترجم له بين شعراء الفخر، وله ديوان كبير مثل الأرَّجانى ،وكان لعلى بن عبدالعزيز ديوان سقط من يد الزمن . وعلى نحو ما كان الفقهاء ينظمون الشعر كان المحدِّثون ينظمونه أيضاً ، مثل حمد بن محمد الخطابى البُسْتِى الذى مَرَّ حديثنا عنه بين المحدِّثين ، وقد ترجم له صاحب اليتيمة فى جزئها الرابع وأنشد له طائفة من شعره ، وكان ينظمه أيضاً المفسرون للقرآن الكريم من مثل الزمخشرى ، وله ديوان شعر لما ينشر ، وهو زاخر بالأدعية والابتهالات . وتَرْوِى كتب التراجم للفخر الرازى أشعارا مختلفة ، وكان كثيرون من اللغويين والنحويين ينظمون الشعر ، منهم الجوهرى إسماعيل بن حماد صاحب معجم الصحاح ، وله ترجمة فى الجزء الرابع من اليتيمة أنشد فيها الثعالبى طائفة من أشعاره ، ومنهم أبو الحسين أحمد بن فارس صاحب معجمى المجمل ومقاييس اللغة ، وقد ترجم له الثعالبى فى الجزء الثالث من اليتيمة وأنشد طائفة من شعره من مثل قوله [٢] :

مَرَّتْ بنا هَيْفاءُ مَقْدودةٌ تـركـيَّـةٌ تُـنْـمَى لتُرْكِىِّ
ترنو بطَرْفٍ فاتنٍ فاترٍ أضعفَ من حُجَّة نَحْوِىِّ

ومنهم ابن فورَّجة البُرُوجِرْدىّ ، وله ترجمة فى الجزء الأول من تتمة اليتيمة وكذلك فى الجزء الأول من دمية القصر ، وله أشعار بديعة من مثل قوله الذى أنشده الثعالبى [٣]

ألم تطربْ لهذا اليوم صاحِ إلى نغمٍ وأوتارٍ فِصاحِ

---

(١) أحامس : أشداء
(٢) اليتيمة ٣/٤٠٢
(٣) تتمة اليتيمة ١/١٢٤ .

كأنَّ الأيْكَ يوسعنا نِثاراً من الوَرقِ المكسَّر والصِّحاح
تَميدُ كأنها علَّتْ براحٍ وما شربتْ سوى الماء القَراحِ
كأن غُصُونها شَرْبٌ نَشاوَى تصفِّق كلُّها راحاً براحِ

ومرَّ بنا أنه كان ناقداً بصيراً ، كما كان شاعراً فَذًّا ، وذكر له الثعالبي معنى نقله عن شاعر فارسي معاصر له يسمَّى المعروفى على هذا النمط .

يظنون ما تَذْرِي جفونى أدْمُعاً بل الدم منها يستحيلُ فيقطرُ
تُعيد بياضاً حمرةَ الدمِ لَوْعتى كما ابيضَّ ماءُ الورد والوردُ أحمرُ

ومن أصحاب المباحث البلاغية والنقدية الذين اشتهروا بنظم الشعر أبو هلال العسكرى صاحب كتاب الصناعتين ، وقد ضمَّنه كما ضمَّن كتابه ديوان المعانى طائفة من أشعاره ، وأنشد من ترجموا له بعض أشعاره . ومثله الثعالبى صاحب اليتيمة ومرَّ بنا حديث عن بعض نظرات نقدية له ، وله أشعار مختلفة أنشد أطرافاً منها فى كتاب لطائف المعارف وفى كتبه الأخرى . ومثلهما عبد القاهر الجرجانى صاحب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وفى ترجمته بدمية القصر طائفة من أشعاره . وهو باب يطول إذا أخذنا نحصى شعراء العلماء من كل صنف ، إنما هى أمثلة فحسب ، أردنا بها أن نُصوِّر تفتح ينابيع الشعر العربى على ألسنة المثقفين من كل لون . وكان من أقربهم إلى هذه الينابيع كُتَّاب الدواوين ، ولا تكاد تجد كاتباً كبيراً يترجم له الثعالبى فى اليتيمة والباخرزى فى الدمية والعماد فى الخريدة إلا وشعره يكاد يغلب نثره . بل إن كثيرين منهم تقتصر ترجمتهم على مالهم من أشعار ، حتى إنه يكاد يكون من العسير أن نتعقب دواوين الرسائل وكتَّابها وآثارهم النثرية عند السامانيين والخوارزميين والغزنويين والسلاجقة إلا ما يأتى عفواً . وكثير من كتَّاب هذه الدول والإمارات كانت لهم دواوين شعرية مثل أبى بكر الخوارزمى الكاتب المشهور ومثل بديع الزمان وأبى الفتح البُسْتى والباخَرْزىّ وقد أشرنا فيما أسلفنا إلى دواوينهم ، ومثلهم الصاحب بن عباد والعماد الأصبهانى ، وكأنهم وأضرابهم كانوا يرون أن الشعر هو العملة العربية المتداولة التى تَحوز لصاحبها الشهرة الأدبية .

٣

شعراء المديح

يكثر شعر المديح فى هذا العصر كثرة مفرطة ، إذ كان يطلبه الملوك والأمراء والوزراء والولاة والقضاة . ومن يقرأ اليتيمة وتتمتها والدمية والخريدة يرى الشعراء جميعاً يمدحون معاصريهم ، وكأن عمل الشاعر الأساسى أن ينظم فى المديح ، وهو شىء طبيعى إذ كان أداة للكسب ورفاهة العيش ، ومرَّت بنا كثرة الأعطيات التى كان يأخذها الشعراء وأنهم كانوا - أو كان كثير منهم - يأخذ رواتب من الوزراء والحكام . وكان لكل إمارة شعراؤها الذين يقدِّمون لأصحابها المدائح والتهانى فى المناسبات والأعياد المختلفة الإسلامية وغير الإسلامية ، بل كان لكل أمير ولكل وزير شعراؤه الذين يَرُوحون عليه ويَغْدون بالمدائح الرائعة ، ونقف قليلاً عند الدولة البويهية فإن ما نُظم فى عضد الدولة يكاد يؤلف ديواناً مستقلا ، إذ لم يكد ينبغ شاعر فى إيران إلا قصَده ، وقدَّم له مدائحه ، وقصده المتنبى بشيراز فى سنة ٣٥٤ ومدحه بعدة قصائد بديعة ، كما قصده شعراء العراق وفى مقدمتهم السَّلامىُّ الشاعر ، وفيه يقول مواطنه أبو بكر الخُوارَزْمى [١] :

غريبٌ على الأيام وجْدانُ مثلهِ ... وأغربُ منه بعد رؤْيته الفقْرُ
عجبتُ له لم يلبس الكبرَ حُلَّةً ... وفينا لأنْ جُزْنا على بابهِ كِبْرُ

وكانوا كثيراً ما يشيرون إلى النوال فى مدائحهم على نحو ما صنع الخوارزمى فى البيت الأول . ونُظمت فى مؤيد الدولة وفخر الدولة مدائح كثيرة ، ولأبى سعيد الرُّسْتمى مدائح بديعة فى أولهما من مثل قوله [٢] :

بقيتَ مدى الدنيا ومُلْكك راسخٌ ... وظلُّك ممدودٌ وبابُك عامرُ
يَرُدُّ سَناك البدرُ والبدرُ زاهرٌ ... ويقفو نَداك البحرُ والبحرُ زاخر

وبالمثل كان وزراء بنى بويه ممدَّحين ، وخاصة ابن العميد والصاحب بن عباد ، أما ابن العميد فلم يقصده فقط شعراء إيران ، بل قصده أيضاً جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد البعيدة مثل المتنبى الذى وفد عليه بمدينة أَرَّجان ومدحه بقصائد

(١) اليتيمة ٤/٢٢٢ .
(٢) اليتيمة ٣/٣٠٣ .

رائعة ، ومثل ابنُ نباتة السَّعْدى الشاعر العراق ، وله فيه مدائح جيدة ، وكذلك للصاحب بن عباد من مثل قوله فى قدومه إلى أصبهان (١) :

قَدِمَ الرئيسُ مقدَّماً فى سَبْقِهِ فكأنما الدنيا جَرَتْ فى طُرْقِهِ
وكأنما الأفلاك طوعُ يَمينهِ كالعبد منقاداً لمالكِ رِقِّهِ
قد قاسمتْه نجومُها فنحوسُها لعدوِّه وسعودُها فى أفْقِهِ

ولعل وزيراً بُوَيْهِيًّا لم ينل من المدائح ما ناله الصاحب بن عباد ، ومرت بنا أسماء طائفة من الشعراء الذين كانوا يلزمون بابه . وكان وراءهم كثيرون يفدون عليه من شتى البلدان الإيرانية والعراقية ، وعقد لهم الثعالبى فى يتيمته الباب السادس من جزئها الثالث ، وذكر لكل منهم بعض مدائحه فيه ، وكان من مادحيه أبو سعيد الرستمي ، وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله (٢) :

وَرِثَ الوزارةَ كابراً عن كابرٍ موصولةَ الإسنادِ بالإسنادِ
يَرْوِى عن العباس عبادٌ وزا رتَه وإسماعيلُ عن عَبَّادِ

وهو يمدحه بأنه نشأ من الوزارة فى حجرها ودرج إلى الناس من وَكْرها إذ ورثها عن آبائه ، وكان أبو سعيد يبالغ مبالغة مفرطة فى مديحه أحياناً على عادة الشعراء فى العصر ، من مثل قوله فيه (٣) :

لو كان غيرُ الله يُعْبَدُ ما انثنتْ إلا إليـــك أعنَّةُ العُبَّادِ

وهى مبالغة تمجُّها الآذان . ونراه فى نفس القصيدة يذكر للصاحب أنه قمع أهل الجبْر ومن يقولون بأن كل شىء قدر مقدور مُلْغين حرية الإرادة فى الإنسان ، يقول :

ونصبتَ للإسلام أكرمَ رايةٍ وقصَمْتَ أهل الجَبْر والإلحادِ

وكان الصاحب إماميا معتزليا ، والصلة بين مذهب الإمامية والمعتزلة بل بين المعتزلة والشيعة عامة معروفة من قديم ، وهو ما جعل الصاحب يتعقب أهل الجبر بالنكال إن صحّ ما يقول أبو سعيد الرستمى ، ويقول له أبو بكر الخوارزمى من قصيدة فيه (٤) :

ومَنْ نصرَ التوحيدَ والعدلَ فعلهُ وأيقظ نُوَّامَ المعالى شمائلُهْ

وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن المدائح لم تكن ثناء فحسب ، بل كانت أيضاً تسجيلاً لأعمال الأمراء والوزراء ، وهى لذلك ذات قيمة تاريخية مهمة ، وهى قيمة

(١) اليتيمة ٣/١٥٨ .
(٢) يتيمة ٣/١٩٠ ، ٣٠٧ .
(٣) يتيمة ٣/٣٠٧ .
(٤) يتيمة ٤/٢١٤ .

تغيب عن أذهان كثيرين فيظنون أن المديح كان فى العصور السابقة ملقا ونفاقاً ، متناسين أنه كان أيضاً تسجيلاً لأعمال الدولة واتجاهاتها المذهبية وما خاضت من حروب وكسبت من انتصارات . وعلى نحو ما نجد فى كتاب اليتيمة وتتمتها من مدائح بنى بويه ووزرائهم نجد أيضاً مدائح السامانيين ووزرائهم من مثل البَلْعمى مترجم تاريخ الطبرى إلى الفارسية كما أسلفنا ، وفيه يقول أبو محمد المطرانى الشاشىّ (١) :

بلوناك حين يرجَّى الولـ ـىُّ عُرْفا ويَخْشى العدوُّ النكيرا
فلم تك إلا اختيارا نَفوعا ولم تك إلا اضطراراً ضَرورا

وكان أبو الحسن بن سيمجور قائد السامانيين ممدَّحاً ، وللمأمونى الشاعر فيه مدائح مختلفة . وبنفس الصورة يلقانا أمراء الدولة الزيارية وفى مقدمتهم قابوس بن وشمكير الذى لقبه الخليفة بلقبه : شمس المعالى ، فقد مدحه كثير من الشعراء ، وكان غيثاً مدرارا، فأكثروا من مديحه .

ولابد أن نشير إلى أن هذه المدائح التى عرضنا لها سريعاً عند الزياريين والسامانيين والبويهيين تضمنت وصف ما بَنى القوم من قصور مشيدة ، وأشرنا فيما مضى إلى ما نظمه الشعراء فى دار بناها الصاحب بن عباد بأصفهان. وأيضاً لابد أن نشير إلى أن الشعراء ضمنوا مقدمات مدائحهم النسيب القديم ووصف الأطلال من حين إلى حين . وأكثروا أيضاً من تضمينها وصف الربيع وكانوا يقفون عنده طويلاً فى مقدمات المدائح بعيد النيَّروز . واطَّرد ذلك فى مدائح سلاطين الدولة الغزنوية ووزرائها . وقصائد كثيرة نظمت باللغتين العربية والفارسية فى مديح محمود الغزنوى الملقب بيمين الدولة وأمين الملة والإشادة بفتوحه فى إيران وما وراء النهر وفى الهند ، ومن رائع ما مُدح به قصيدة لبديع الزمان الهمذانى يقول فيها (٢) :

تعالى اللهُ ما شاءَ وزاد اللهُ إيمانى
أأفْرِيدونُ فى التاجِ أم الإسكندرُ الثانى
أم الرجعةُ قد عادتْ إلينا بسليمانِ
أطلَّت شمسُ محمودٍ على أَنْجمِ سامانِ
وأمسى آلُ بَهْرامٍ عَبيداً لابن خاقان
إذا ما ركبَ الفِيلَ لحربٍ أو لميدانِ
رأتْ عيناك سلطاناً على مَنْكِبِ شيطانِ

(١) يتيمة ٤/١١٦ وضروراً : مضرا .

(٢) اليتيمة ٤/٢٩٦ .

فمن واسطةِ الهندِ إلى ساحةِ جُرْجانِ
ومن قاصيةِ السِّندِ إلى أقصى خُراسانِ

وأفريدون من ملوك الفرس الأسطوريين ، وآل بهرام هم السامانيون الذى قضى عليهم محمود وامتلك ديارهم ، ويسميه ابن خاقان لأنه تركى ، وقد ضم إيران جميعها إلى ملكه ماعدا إقليمى فارس وكَرْمان ،كما مر بنا فى غير هذا الموضع . ويكثر بعده مديح السلاجقة ووزرائهم ، وخاصة نظام الملك ، ومُدَّاحه يتعاقبون فى كتاب دُمْية القصر بالعشرات ، مع أن مؤلفها الباخَرْزِىّ توفى قبله بنحو سبعة عشر عاماً ، وممن ذكرهم بين مُدَّاحه الفيَّاض الهَرَوِىّ ، وله فيه وفى فتوح سلطانه أَلْب أرْسلان فى آسية الصغرى وأسْره لإمبراطور بيزنطة قصيدة بديعة ، يذكر فيها جيش رومانوس الجرَّار ومُناه فى احتلال ديار السلطان السلجوقى ، وكيف رَدَّ الله كيده فى نحْره ، فسُحق جيشه سحقاً ، وقُتل منه ما لا يُحْصَى ، وأُسِر الإمبراطور ووقف بين يدى ألب أرسلان ذليلاً خانعاً ، وأهوى على الأرض يلثم التراب بين يديه . ويصوِّر ذلك كله الفياض الهروى مشيداً بنظام الملك وقيادته مع أَلْب أرسلان لجيش المسلمين قائلاً [١] :

إذا ما ملوكُ الأرض عُدُّوا فإنما لكم كاهلُ المجد الأشمِّ وغاربُهْ
أحاسدَه مَهْلاً فهذِى سُيوفُه وهاتيك يومَ المكْرُمات مواهبُهْ

ويتوالى سلاطين الدولة السلجوقية ووزراؤهم ويتوالى مديحهم عند الطُّغْرائى والأرَّجانى وغيرهما من معاصريهما . وكان وراء أمراء العصر ووزرائه كثيرون من علية القوم يخصُّهم الشعراء بمدائحهم ، وقد دُبِّجت فيهم قصائد كثيرة . وكانوا يهنِّئون كثيراً لا بالأعياد فحسب ، بل أيضاً بالمواليد ، وفى اليتيمة والدُّمْية من ذلك قصائد ومقطوعات مختلفة . وكثر فى العصر مديح الفقهاء والعلماء يمدحهم تلاميذهم ومريدوهم والمعجبون بهم ، من ذلك ما أنشده الباخرزى لأبى المطهَّر الأصفهانى فى أستاذه الإمام الموفق محمد بن هبة الله وكان من أئمة الشافعية فى نيسابور ، وله يقول تلميذه من قصيدة طويلة [٢] :

يا أيها المولى الأجلُّ ومَنْ بهِ أصبحتُ آمنَ مَنْ تحصَّن فى الذُّرَى
أَنْبَتَّنِى ورعيتَنِى وسمــــوتَ بى غُصْناً بأبكار البيان منوَّرا

ولابن عُنَيْن قصيدة رائعة سيَّرها من نيسابور إلى الفخر الرازى بهراة ، وفيها يشيد بقضائه على البِدَع فى عصره ، ويرفعه فوق ابن سينا وأرسطو وبطليموس درجات

(١) الدمية ٢/٢٨٦ وما بعدها . (٢) الدمية ١/٤٣٤ .

فى الفلسفة والطب ، غير أن ابن عنين دمشقى . وعلى كل حال هو تكملة لهذه الظاهرة التى رآها فى إيران ، ظاهرة مدائح التلاميذ والمريدين لشيوخهم وأساتذتهم من العلماء والفقهاء . وجدير بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء المديح فى تلك البيئة لتتضح لنا صورته ، وهم على بن عبد العزيز الجرجانى والطُّغْرائى والأَرَّجَانىّ .

على (١) بن عبد العزيز الجُرْجانى

من جُرْجان ، وفد على نَيْسابور فى صِباه ، وسمع على شيوخها ، وتخرَّج بهم فقيهاً شافعيا نابهاً ، وولى قضاء موطنه جُرْجان ثم ولاَّه الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وأخيه فخر الدولة قضاء الرَّىِّ ، ثم جعله قاضى القضاة بها ، وظل فى هذه الوظيفة إلى أن توفى سنة ٣٩٢ وحُمل تابوته إلى جُرْجان فدُفن بها ، وترجم له الثَّعالبى فى يتيمته فقال : « هو فَرْد الزمان ، ونادرة الفلك ، وإنسان حَدَقة العلم ، ودُرَّة تاج الأدب ، وفارس عسكر الشعر ، يجمع خط ابن مُقْلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحترى » . ومرَّ بنا حديث عن كتابه « الوساطة بين المتنبى وخصومه » وكيف أنه فيه يصدر عن ناقدٍ ممتازٍ ، بل لعله أهم ناقد ظهر فى عصره . وهو فى الكتاب يصور ثقافة واسعة بالشعر العربى قديمه وحديثه ، كما يصور ذوقاً شعريا مصفى . وبهذا الذوق كان ينظم أشعاره فى المديح وغير المديح ، وقد روى له الثعالبى طائفة من مدائحه فى قوَّاد عصره وولاة جرجان وفى شمس المعالى قابوس بن وَشْمَكير صاحب طَبَرِسْتان ، وللصاحب بن عباد القِدْح المعلى من مدائحه من مثل قوله :

يا أيها القَرْمُ الذى بعلوِّهِ نال العَلاءُ من الزمانِ السُّولا

قسمتْ يَداك على الوَرَى أرزاقها فكنَوْك قاسمَ رزقها المسئولاً

وهى مبالغة أن يجعل الصاحب يقسم على الناس أرزاقهم ، ولكنها كانت تُسْتَحبّ فى عصره ، وكان كل شاعر يحاول أن يأتى منها بمعنى طريف . وكان الصاحب بحراً فياضاً أغدق الصلات على زوَّاره وقاصديه ، وله يصف بلاغته التى عُرِف بها فى النثر والشعر جميعاً :

سَبَقْتَ بأفراد المعانى وأَلَّفتْ خواطرُك الألفاظَ بعد شِرادِها

---

(١) انظر فى ترجمة على بن عبد العزيز وشعره معجم الأدباء ١٤/١٤ واليتيمة ٣/٤ وما بعدها وابن خلكان ٢٧٨/٣ والسبكى ٤٥٩/٣ والمنتظم ٢٢١/٧ وشذرات الذهب ٥٦/٣ ومرآة الجنان ٣٨٦/٢ والنجوم الزاهرة ٢٠٥/٤ .

فإن نحن حاولنا اختراعَ بديعةٍ حَصَلْنا على مسروقها ومُعادها

وهو معنى طريف ، وكانت له ملكة خصبة لا تزال تمده بالمعانى الغريبة النادرة ، وكان يعرف كيف يقتنصها وكيف يوردها فى مدائحه من مثل قوله للصاحب :

لا وجفونٍ يغضُّها العَذَلُ عن وجَناتٍ تذيبها القُبَلُ
ما عاش من غاب عن ذَراك وإن أخَّر ميقاتَ يومِه الأجَلُ (١)

وله فى عياداته حين يمرض قصائد بديعة ، وأخرى فى تهنئته حين يُبِلّ من مرض ألمَّ به أو حُمَّى نزلت بجسده ، وكان يتخيلها من تلهب ذهنه وتوقد ذكائه ، ومن قوله فى تهنئة له بالشفاء :

بك الدهرُ يَنْدَى ظلُّه ويَطيبُ ويُقْلع عما ساءنا ويتوبُ

وأنشد له الثعالبى قصيدة طويلة فى وصف دار الصاحب التى بناها بأصبهان وتبارى الشعراء فى وصفها على نحو ما مر فى حديثنا ، كما أنشد له أيضاً قصيدة فكهة فى رثاء بِرْذَون أبى عيسى بن المنجم ، استهلها بقوله :

جَلَّ واللهِ مادَهاك وعَزَّا فعزاءً إن الكريمَ مُعَزَّى
هىَ ما قد علمتَ أحداثُ دهرٍ لم تدع عُدَّةً تُصان وكَنْزاً

وكان يمزج بين الطبيعة والمديح مزجاً بديعاً لا يكتفى فيه بأن يجعل الطبيعة مقدِّمة للمديح كما كان يصنع الشعراء كثيراً من حوله ، بل يجعلها جزءًا من الممدوح ومن عمله وشيمه وفكره ، وكأنها صورة منه ، أوكأنها مرآة له ، يقول فى وصف بعض الرياض الجميلة الساحرة مادحاً لأبى مضر محمد بن منصور والى جرجان :

أباتتْ يَدُ الأستاذ بين رياضها تدفَّقُ أم أهدتْ إليها سَحائبا
أألبسَها أخلاقَه الغُرَّ فاغتدتْ كواكبُها تَجْلو علينا كواكبا
أوشَّتْ حواشيها خَواطِرُ فكرهِ فأبدتْ من الزَّهْر الأنيق غرائبا
أخالتْه يَصْبُو نحوها فتزَيَّنَتْ تؤمِّل أن يختار منها ملاعبا

ولعل فى ذلك ما يدل على قدرة الشاعر التصويرية ، وهى قدرة تلقانا فى غزله كما تلقانا فى مديحه ، على نحو ما نقرأ فى قوله يصف بعض ليالى أنسه مع مُنى قلبه :

ولـيـالٍ كـأنهن أمـانٌ من زمانٍ كأنه أحلامُ
وكأن الأوقات فيها كئوسٌ دائـراتٌ وأنسُـهـنَّ مُدام

(١) الذَّرا : الكنف والظل .

زمنٌ مُسْعِدٌ وإلْفٌ وَصولٌ ومُنًى تَسْتَلِذُّها الأوهام

وواضح ما فى الأبيات من خيال دقيق ، فكأنه كان يعيش فى حلم ، يتعاطى خمر الأنس المسكرة ، ومن قوله فى الغزل :

قد بَرَّح الشوق بمشتاقِكْ فأولِهِ أحسنَ أخلاقِكْ
لا تَجْفُه وارْعَ له حَقَّهُ فإنه آخر عُشَّاقِكْ

والبيتان يحملان شعوراً مرهفاً رقيقاً ، وكان إلى ذلك كله شغوفاً بالعلم ، يراه متعة لا تعدلها متعة ، ولذلك كان يألف دائماً الخلوة للقراءة فى منزله ، وفى ذلك يقول :

ما تطعمتُ لذَّة العيش حتى صرتُ للبيتِ والكتابِ جَليسا
ليس شيءٌ أعزَّ عندى من العِلْـ ـم فما أبتغى سواه أَنيسا

فللذة القراءة لا تعدلها عنده لذة . وكانت نفسه أبيَّة شديدة الإباء ، لا يُهينها ولا يُذلها فدون الذل والهوان الموت ، وفيم يذل الإنسان ويهون أفى سبيل المال والغنى ؟ بؤساً لهما وله إن هو اقترف فى نفسه هذه الجناية الكبرى ، وفى ذلك يقول :

كأنى ألاقى كلَّ يومٍ يَنُوبنى بذنبٍ وما ذَنْبى سوى أننى حُرُّ
وقالوا تَوَصَّلْ بالخضوع إلى الغِنَى وما علموا أن الخضوعَ هو الفقْرُ
وبينى وبين المال شَيْئانِ حَرَّما علىَّ الغِنَى : نَفسِى الأَبِيَّةُ والدَّهْرُ

إن مثل هذا الغنى الذى يكْسبه صاحبه بالخضوع هو الفقر الحقيقى الذى يدمِّر حياة الإنسان ، فتَعْساً لمن يطلبه عن هذه الطريق وتبًّا له . وله أبيات رائعة فى عزة النفس ، وخاصة عزة نفس العلماء ، اشتهرت فى عصره وبعد عصره ، وهو يمضى فيها على هذا النمط :

يقولون لى : فيك انقباضٌ وإنما رأوا رجلا عن موقفِ الذلِّ أحْجَما
إذا قيل : هذا مَنْهَلٌ قلتُ : قد أرى ولكنَّ نفسَ الحرِّ تحتمل الظَّمَا
ولم أقْضِ حقَّ العلم إن كان كلما بدا طمعٌ صَيَّرْته لىَ سُلَّما
ولم أبتذلْ فى خدمة العلم مُهْجتى لأخْدُمَ من لاقيتُ لكنْ لأُخْدَمَا
أأشْقَى به غَرْسًا وأَجْنِيه ذِلَّةً إذنْ فاتِّباعُ الجهل قد كان أَحْزَمَا
ولو أن أهلَ العلمِ صانوه صانَهم ولو عظَّموه فى النفوس لعُظِّما
ولكنْ أهانوهُ فهانَ ودنَّسُوا محيَّاه بالأطماعِ حتى تجهَّما

وهو يصور فى الأبيات نفس العالم الحر الذى يأبى الهوان مستشعراً كرامته إلى أقصى حد ، وإنه ليأبى فى شمم ما بعده شمم أن يَرْوَى من منهل قد يصيبه منه ما يؤذى نفسه ،

وإنه ليزدرى الطمع فى الدنيا الذى يتحول بالعالم إلى ما يشبه دوّارة الريح فهو يدور مع نفعه المهين ، ناسياً أن من شأن علمه أن يجعله مخدوماً لا خادماً وسيداً لا عبداً ذليلاً ، وإلا كان الجهل خيراً منه وأكثر عائدة على صاحبه . ويحمل حملة شعواء على من يراهم حوله من العلماء صغار النفوس الذين لم يصونوا حرمة العلم بل دنَّسوه ولطخوه بهوان أليم .

الطُّغْرَائىّ (١)

هو أبو إسماعيل مؤيد الدين الحسين بن على بن محمد ، الكاتب الشاعر الذى غلب عليه لقب الطُّغْرَائى لعمله فى دواوين الطُّغْرَاء ، وهى الطُّرَّة التى يكتبها عادة رئيس ديوان الإنشاء فى أعلى الكتب فوق البسملة بالخط الغليظ متضمنة نعوت السلطان أو الحاكم الذى يصدر الكتاب باسمه . وقد وُلد بأصفهان سنة ٤٥٣ لأسرة عربية تنتسب إلى أبى الأسود الدؤلى ، ولا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولكن ثقافته الأدبية والعلمية العميقة تدل على أنه اختلف إلى دور العلم وحلقات العلماء منذ نعومة أظفاره وأنه تثقف على أيدى جهابذة موطنه من اللغويين والفقهاء والأدباء وأصحاب الصنعة (الكيمياء) وله فيها مصنفات مختلفة (٢) . ويبدو أن ملكته الشعرية استيقظت فى نفسه مبكرة ، فسال الشعر على لسانه ، ووفد به على الرؤساء ، وكان من أوائل من وفد عليهم فضل الله بن محمد صاحب ديوان الإنشاء لألْب أرْسلان ، وأعجب به وبشعره ، فعينه كاتباً فى الديوان وأوصله إلى الوزير نظام الملك فاستمع إلى مدائحه فيه ، ورحَّب به ، وحدث أن اشترك الفضل فى مؤامرة كبرى على نظام الملك وانكشفت المؤامرة ، وألقى به فى غياهب السجون ، وظل الطغرائى يحفظ له صنيعه معه ويواسيه فى محنته ببعض أشعار يدبِّجها فى مديحه . وكان نظام الملك حَصيفاً ، فلم يأخذ على الشاعر شيئاً من وفائه لصاحبه ، وظل الطغرائى يعمل فى دواوينه ، كما ظل على صلته به يمدحه فى المناسبات ومن مدائحه البديعة فيه بائيتان ، يشيد فيهما به وبانتصارات جيوش الدولة فى الشرق وفى الغرب على شاكلة قوله :

---

(١) انظر فى ترجمة الطغرائى وشعره معجم الأدباء ٥٦/١٠ وابن خلكان ١٨٥/٢ والأنساب للسمعانى ٥٤٣ والشذرات ٤١/٤ ومقدمة الصفدى لشرحه على قصيدة الطغرائى : لامية العجم المسمى بالغيث المسجم وكتاب الطغرائى للدكتور على جواد الطاهر (طبع بغداد) وكتابه الشعر العربى فى العراق وبلاد العجم فى العصر السلجوقى . وديوان الطغرائى مطبوع قديماً بإستانبول وطبعت لاميته مع شروح لها وأهم شروحها شرح الصفدى (طبع القاهرة) .

(٢) العلم عند العرب لألدومييلى ص ٣٠٧ – ٣١٠ وكتاب الشعر العربى السالف للدكتور على جواد الطاهر ١٥٥/٢ .

خَمِيسٌ أقاصى الشرق تَرْزِمُ تحته وترتجُّ منه أُخْرياتُ المغاربِ[١]
يلفُّهمُ بالرُّعب قبل طِرادهِمْ ويهزمهم بالكتْب قبلَ الكتائبِ

وفى هذه الأثناء يتزوج ، وما تلبث زوجته أن تتوفَّى وتترك له رضيعاً لا يزال يجد فى نفسه منه شجى عميقاً عليها ، ومراثيه فيها تفيض بالحزن المرير على شاكلة قوله :

بنفسىَ من غاليتُ فيها بمهجتى وجاهى وما حازتْ يداىَ من الوَفْرِ
وفُزْتُ بها من بين يأسٍ وخيْبَةٍ كما استخرج الغَوَّاصُ لؤلؤةَ البَحْرِ
فجاءتْ كما جاء المُنى واشتهى الهوى كمالاً ونُبلاً فى عفافٍ وفى سِتْرِ
فيا موتُ ألحقْنى بها غيرَ غادرٍ فإن بقائى بعدها غايةُ الغَدْرِ

وهى مرثية بديعة ، فقد أظلمت الدنيا فى عينى الطغرائى بعد زوجته الشابة الجميلة . ولم يعد له منها سوى الأنين والدموع والزفرات ، وإنه ليشيح بوجهه عن الصبر وأجره وثوابه مفضياً إلى لوعات قلبه وحسرات نفسه ، إذ تركت بين جوانحه ناراً لا تنطفئ ، ويتوجه إليها بالخطاب نادباً لحظه العاثر ، منشداً :

لآنَسْتِنا حتى إذا ما بَهَرْتِنا سَنًا وسناءً غِبْتِ غيبوبة البَدْرِ
وقد كان رَبْعى آهلا بكِ مُدَّةً أحِنُّ إليه حَنَّةَ الطَّيْر للوَكْرِ
وآوِى إليه وهْوَ روضةُ جَنَّةٍ بدائعُها يَخْتَلْنَ فى حُلَلٍ حُمْرِ
فمذ بِنْتِ عنه صار أو حَشَ من لَظًى وأضيق من قَبْرٍ وأجْدَبَ من قَفْرِ

لقد غاب عنه بدره وانقضَّ وكره ودُمِّرت جنته وعاد يتقلب بعد أعطاف النعيم فى لَظى الجحيم ، وحتى مسكنه أصبح قبراً مظلماً وقفراً مجدباً . ويظل يبكيها وتمر به الأيام ، فيسلو عنها ويتزوج ويُرْزَقُ الولد ، وهو فى أثناء ذلك يعمل فى دواوين السلاجقة ، ويتوفَّى نظام الملك ، وتضطرب به الحياة ، فيتعرض لبعض الوزراء بالهجاء ولبعضهم بالمدح والثناء ، وتتوثق صلته بالسلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٩ — ٥١٢ هـ) ويصبح فى عهده نائباً فى ديوان الطُّغْراء أو بعبارة أخرى وزيراً للقلم والإنشاء . ونراه فى مدحة له يتحدث عن جيوشه ووقائعها مع الروم وما تُلْقى فى قلوبهم من فزع بمثل قوله :

خيلٌ بأرض الرَّقّتين وراءَها نَقْعٌ كمُرْتَكِم الغَمام مُثَارُ
رِيعَ العدوُّ وقد أحسَّ بِقُرْبها فالجنبُ نابٍ والرقادُ غِرارُ[٢]
وعلى خليج الرُّوم منك مهابةٌ من خوفها يتطامنُ التيَّار
ولقد دَرَى الروميُّ أنّ وراءه خطراً تقاصَرُ دونه الأخطارُ

---

(١) ترزم : تسقط إعياء .
(٢) غرار : قليل

ويتحدث فى نفس القصيدة عن مقاومة السلطان محمد للباطنية الحشاشين وقضائه المبرم على ابن عطاش فى حصن « شاه دز » بقرب أصفهان واستيلائه على قلعته ، على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع . ويتولى السميرمى الوزارة ويتوفى السلطان محمد ويخلفه ابنه محمود وتفَسد العلاقة بين الطغرائى والوزير ، ويرحل إلى بغداد وينبو به المقام فيذم فى بائية مقامه فى العراق مستهلا ذمه بقوله :

مللتُ ثَوائى بالعراق وملَّنى رفاق وكانوا بالعراقِ طِرابا

وينظم حينئذ لاميته التى اشتهرت خطأ باسم لامية العجم ، وقائلها عربى كما مر بنا فى نسبه ، وليس فيها أى تعصب للعجم ضد العرب ، ولعلها سُمِّيت بذلك لأن قائلها كان يعيش فى بلاد العجم وجعلها على روىٍّ لامية العرب للشنفرى وقد نالت شهرة واسعة منذ عصره وشرحها الأسلاف مراراً وأهم شروحها شرح الصفدى ، وموضوعها الشكوى من الزمان وأهله ، شكوى لا تنكسر فيها نفسه ، بل يظل له طموحه وتظل له صلابته ، وتظل له فضائله التى يفخر بها ، وهو يَسْتهلُّها بقوله :

أَصَالَةُ الرأىِ صانتْنى عن الخَطَلِ وحِلْيَةُ الفَضْلِ زانَتْنى لدى العَطَلِ

وربما أشار بالعطل إلى تعطله من وظيفته الديوانية حنيئذ ، أو ربما يشير إلى ما حدث له أحياناً من هذا العطل ويهتف :

فِيمَ الإقامةُ بالزَّوْراء لا سَكَنِى بها ولا ناقتى فيها ولا جَمَلِى

ويشكو طويلاً الغربة بالزوراء (بغداد) وأن لا صديق له فيها ولا أنيس سوى الوحشة وبعد الوطن والدار ، مع بوار الأمانى وانعكاس الآمال . ويرحل مع صديق ، ويقتربان من حَىٍّ إضَم بالقرب من المدينة ، حى الحبيبة التى ضرب إليها أكباد الإبل ، ولكن دونها الحُماة بالسهام والبيض والسُّمْر ، أو السيوف والرماح ، والأسْد رابضة حول الكِناس . ويتمنى إلمامة بالحى تُبْرئه من علله ، بل ليتمنى الموت فى سبيل نظرة ، وكل هذا رمز عن مطامحه التى لا يستطيع تحقيقها ، وإنه ليصرِّح بأن طالب المجد لابد له أن يغامر وأن يركب الأخطار ، فإن لم يتحقق له فى بلدة طلبه فى أخرى ، ويصيح :

إن العُلا حَدَّثَتْنى وهْى صادقةٌ فيما تحدِّث أن العِزَّ فى النُّقَلِ

ويقول إنه لا يزال يعلل نفسه بالآمال فى أن تقبل عليه الأيام ثانية . ويشكو من الدهر ومن الناس ، مع شعور غير قليل بالكرامة ، ومع التحذير الشديد من الأصدقاء الأدعياء قبل الأعداء . ويختم القصيدة بالدعوة إلى القناعة ورفض المناصب فكل ما على الدنيا ظل

زائل ، وسننشد قطعة من هذه اللامية فى حديثنا عن شعراء الحكمة والفلسفة .
ولا ندرى كيف رغب ثانية فى العمل لدى السلاجقة ، إذ نراه يقصد إمارة السلطان مسعود بالموصل سنة ٥١٣ ويعيِّنه وزيراً له ، وتنشب الحرب بين مسعود وأخيه السلطان محمود وتدور الدوائر فى سنة ٥١٥ على مسعود وجيشه ويؤسر الطُّغْرائى ويقتل بتهمة الزندقة . ويبدو أن خصومه استغلوا عكوفه على الكيمياء ، فاتهموه بالسحر والإلحاد ، واستمع السلطان محمود إلى اتهامهم له وأمر بقتله . والشكوى كثيرة فى أشعار الطُّغْرائى وتكفى منها لاميته السالفة . وفى ديوانه مقطوعات غزلية كثيرة يستوحى فيها حجازيات الشريف الرضى ومهيار ، ومن طرائف غزله :

يا قلبُ مالكَ والهوى من بعدما طابَ السلوُّ وأَقْصَرَ العُشَّاقُ
أوَ ما بدا لك فى الإفاقة والأُلَى نازعْتَهم كأسَ الغرامِ أفاقوا
يا حبَّذا نَجْدٌ وأعراقُ الثَّرى لُدْنٌ وأنفاسُ النعيم رِقاقُ

وكان يدعو إلى مجلس الشراب أحياناً وسماع المثالث والمثانى والانتشاء بالخمر فى مباهج الربيع . وطبيعى أن يتردَّد الفخر فى أشعاره ، على نحو ما ترددت منه رنات فى لاميته ، وله يفتخر بثقافته الواسعة وإلمامه بشتى العلوم :

أما العلومُ فقد ظَفِرْتُ ببُغْيتى منها فما أحتاجُ أَنْ أتعلَّما
وعرفتُ أسرارَ الخليقةِ كلَّها عِلْمًا أنار لىَ البَهِيمَ المظلما

واشتهر كما قدمنا بمعرفته العميقة بالصنعة أو كما نقول الآن علم الكيمياء ، وله فيها أشعار يضمها مخطوط تحتفظ به مكتبة جامعة القاهرة بعنوان مفتاح الرحمة ومصابيح الحكمة ، ونقل منها الدكتور على جواد الطاهر طائفة [1] تصور هذا الضرب من شعره العلمى أو التعليمى . ويكثر عند الطغرائى ومعاصريه جميعاً معارضته الشريف الرضى ومهيار فى بعض قصائدهما ، بل أيضاً معارضته من سبقهما من الشعراء ، وربما كانت لاميته السالفة أروع قصائده من حيث السبك والصياغة ، ومع ذلك حاول الصفدى فى شرحه لها جاهداً أن يرد معانى أبياتها بيتاً بيتاً إلى سابقيه . وكان الطغرائى كشعراء عصره يتصنع لفنون البديع ولكل ما أتوا به من فنون التكلف ، وفى الحق أنه كان شاعراً بارعاً ، وبلغ من إعجاب السابقين به وبلاميته أن عارضها منهم كثيرون ، كان آخرهم البارودى فى لامية له مشهورة .

(١) انظر الشعر العربى فى العراق وبلاد العجم فى العصر السلجوقى ٢/١٥٥ .

الأرَّجانى (١)

هو ناصح الدين أبو بكر أحمد بن محمد الأرَّجانى نسبة إلى أرَّجان من كور الأهواز من بلاد إقليم خُوزسْتان ، وُلد سنة ٤٦٠ ويقول العماد الأصفهانى فيه : « منبت شجرته أرَّجان ، وموطن أُسرته تُستَر وعسكر مُكْرَم من خوزستان ، وهو وإن كان فى العجم مولده فمن العرب محتده ، سلفه القديم من الأنصار » فهو عربى النجار، فارسى الموطن . وقد أرسل به أهله إلى المدرسة النظامية بأصفهان حين شبَّ عن الطوق ، فظل بها ، حتى تخرج فيها فقيهاً شافعيا ، يُحْسن الحكم بين الخصوم والفُتْيا . وتفجر الشعر على لسانه ، فقصد به الوزير السلجوقى المشهور نظام الملك . منذ سنة نيف وثمانين وأربعمائة ، وظل ينظمه إلى وفاته بُتستَرسنة ٥٤٤ وكأنه مات عن سن عالية ، وكان يفتخر بأنه فقيه ويحسن الشعر وفى ذلك يقول :

أنا أشعرُ الفقهاء غيرَ مُدافَعٍ   فى العصر ، بل أنا أفقهُ الشعراءِ

وأعدَّته معرفته العميقة بالفقه لكى يشتغل بالقضاء فى موطنه ببلاد خوزستان ، تارة بتستَر ، وتارة بعسكر مُكْرم عن قاضيها ناصر الدين أبى محمد ومن بعده عن عماد الدين أبى العلاء ، وفى ذلك يقول :

ومن النوائبِ أننى   فى مثل هذا الشغل نائبْ
ومن العجائبِ أنَّ لى   صبرا على هذِى العجائبْ

وكان يُحْسن الفارسية وترجم منها عدداً من الرُّباعيات ، وأكثر شعره فى المديح ، ونراه كما مر بنا يمدح نظام الملك حتى إذا خلفه الوزير تاج الملك مدحه بلامية يقول فيها :

كم موقفٍ دون العلاءِ وقفتَه   والخيلُ بالأسَل الطِّوال تصُولُ

ونراه يمدح وزراء بَرْكياروق حين استولى على صولجان الحكم بعد أبيه ملكشاه ، وفى مقدمتهم الوزير الدهقانى وفيه يقول :

فأتى به العصرُ الأخيرُ وقصَّرتْ   عن شأْوِه وزراءُ كلِّ الأعْصُرِ

ويظلُّ على صلة وطيدة بسلاطين السلاجقة ، يروح إليهم ويغدو بالمدائح ، وله فى السلطان محمود مدائح مختلفة ، من مثل قوله :

---

(١) راجع فى ترجمة الأرجانى ابن خلكان ١/١٥١ والنجوم الزاهرة ٥/٢٨٥ والأنساب ٢٤ ومعجم البلدان فى أرجان ، وديوانه مطبوع قديماً ببيروت . والسبكى ٦/٥٢ وشذرات الذهب ٤/١٣٧ ومرآة الزمان ٣/٢٨١ وتذكرة الحفاظ ٤/١٣٠٦ والمنتظم ١٠/١٣٩ .

أعلى السلاطينِ فى يَوْمَىْ نَدًى ووغًى رَأْيًا وأفضلُهم سرًّا لإعلانِ

ويمدح وزيره السميرمى الذى يقول فيه ابن الأثير كان ظالماً كثير المصادرة للناس سيىء السيرة ، ولعله اضطرَّ إلى مديحه خوفاً من بطشه به كما بطش بالطُّغْرانى ، وله يقول فى بعض مديحه .

وأنقذتَ دينَ الله من شرِّ مارقٍ وكان كِشْلُو بين نابَيْه ناشبِ

وخصَّ معين الدين أحمد بن الفضل وزير السلطان سنجر بمدائح كثيرة ، وصلته به قديمة منذ كان على ديوان الإنشاء للسلطان محمد ، وله يقول :

أحلَّك سلطانُ السلاطين رتبةً يَضيق بها ذَرْعُ الحسود المساجلِ

وكان يزور بغداد كثيراً ويمدح خلفاءها ووزراءها ، وله فى الخليفة المستظهر (٤٨٥ — ٥١٢ هـ) غير مدحة ، ونراه يلجج فيما لجج فيه قديماً مروان بن أبى حفصة وغيره من شعراء العصر العباسى الأول حين كانوا يتحدثون عن شرْعية الخلافة وأن العباسيين أولى بها من العلويين لأن العم يرث ابن أخيه ولا يرثه ابن العم ، ويزعم الأرَّجانى أن الرسول عليه السلام بشَّر بها عمه وأنها تكوْن فى أبنائه ، يقول :

بكم قديماً رسولُ الله بشَّرنا كما به بشَّرتْنا سالفُ النُّذُرِ
وقال مِنْ بَعْدُ للعباس فى ملأٍ افخَرْ فأنت أبو الأملاك فى مُضَرِ

وولى المسترشد (٥١٢ — ٥٢٩) فظل يقدم إليه مدائحه ، واصفاً له بالبأس والشجاعة والإقدام محذِّراً أعداءه من جيوشه وما تدمِّر وتحطم وتَسْحق كل من يقف فى طريقها سَحْقاً . وبالمثل يمدح وزراء بغداد وفى مقدمتهم بنو جهير ، وفيهم يقول :

لله دَرُّ بنى جهيرٍ إنهم جَهَرُوا بدين المجد حتى أُعْلنا

ونوَّه طويلاً بجلال الدين بن صدقة وبأنوشروان بن خالد ، وله فيه نحو عشرين مدحة يتحدث فيها عن كرمه وشجاعته وعلمه وعدله ومواكبه . كما نوه أيضاً طويلاً بالوزير سديد الدولة محمد بن عبد الكريم ، وله يقول فى بعض مدائحه :

أمينَ أميرِ المؤمنين الذى اصْطَفَى وسَهْمَ أمير المؤمنين المسدَّدا

وله غزليات رقيقة ، وهى مطبوعة مثل غزليات الطغرائى بطوابع الشريف الرضى ومهيار ، ونقصد الطوابع البدوية ومن طريف غزلياته :

أأحبَّتى الشاكين طولَ تغيُّبى والذاهبين على الهوى فى مَذْهبى
ما جُبْتُ آفاق البلاد مطوِّفا إلا وأنتم فى الورَى مُتَطلَّبى
سَعْيِى إليكم فى الحقيقة ، والذى تجدون منى فهْو سَعْىُ الدَّهْر لى

أنْحوكمُ ويردّ وجهى القَهْقَرى سَيْرى ، فسيرى مثلُ سَيْرِ الكوكبِ
فالقصدُ نَحْوَ المشرق الأقصى له والسير رأىَ العينِ نحو المغربِ
تالله ما صدق الوشاةُ بما حكَوْا أنى نسيتُ العهد عند تغُّربى

والأبيات تحمل معانى وصوراً دقيقة تصور شاعرية الأرجانى وأنه كان يعرف كيف يُطْرف بصوره ومعانيه ، مما جعل القدماء يشيدون به ، ومن معانيه الغريبة :

رَثَى لى وقد ساويتُه فى نُحولهِ خيالىَ لمَّا لم يكن لىَ راحمُ
فدلَّس بى حتى طَرقتُ مكانه وأوهمتُ إلْفِى أنه بىَ حالمُ
وبِتْنا ولم يشعر بنا الناسُ ليلةً أنا ساهرٌ فى جَفْنِهِ وهْو نائمُ

وهو بعد فى الخيال والتصوير إلى درجة مفرطة من الوهم ، وكان مثل الطغرائى يشكو من الزمن ومن الناس ، وقلما نجد شاعراً فى هذا العصر لا يشكو ، ومن شكواه قوله :

ولما بلوتُ الناسَ أطلبُ عندهم أخا ثقةٍ عند اعتراض الشدائدِ
تطلعتُ فى حالَىْ رخاءٍ وشدَّةٍ ونـاديتُ فى الأحْيـاء هـل مـن مسـاعدِ
فلم أر فيما ساءنى غيرَ شامتٍ ولم أر فيما سرَّنى غيرَ حاسدِ
تمتعتما يا ناظرىَّ بنظرةٍ وأوردتما قلبى أمرَّ المواردِ
أعينىَّ كُفَّا عن فؤادى فإنه من البَغْى سَعْىُ اثنين فى قَتْل واحدِ

فحتى عيناه لا ترحمانه بما تدلعان فى قلبه من جحيم الفتنة بالجمال . وله رباعيات كثيرة غير أنه فيها شديد التكلف ، وقد نظم فى مديح أنوشراون قصيدة تشتمل على ثمانين رباعية . ومن باب هذا التكلف أو التصنع عنده إظهار قدرته فى نظم بيت يُقْرأ طرداً وعكْساً مثل قوله :

أحبُّ المرءَ ظاهرُهُ جميلٌ لصاحبه وباطنهُ سليمُ
مودَّته تدومُ لكلِّ هولٍ وهل كلٌّ مودَّته تدومُ

فالبيت الثانى يقرأ عكساً من آخره إلى أوله كما يقرأ من أوله إلى آخره ، ونجد عند الأرجانى أرجوزة يمكن أن تقرأ لا على قافيتين فحسب ، بل على أربع قواف ، وهى تدل على مقدرة لغوية أكثر منها على مقدرة فنية خالصة . ولعل فى كل ما أسلفنا ما يوضح شخصية الأرجانى الشعرية .

٤

شعراء المراثى

نشط الرثاء طوال هذا العصر ، فلم يمت سلطان ولا أمير ولا وزير ولا قائد إلا رثاه الشعراء ، وخاصة إذا كان شخصاً خطيراً له تاريخ مجيد أو أعمال مجيدة ، وانضم إلى ذلك كرم فياض ، على نحو ما هو معروف مثلاً عن الصاحب بن عباد الذى كان غيثاً مدراراً للشعر والشعراء ، فأتوه من كل فَجٍّ ، حتى قيل إن من مدحوه بلغوا المئات ، ونرى الثعالبى فى يتيمته يتوقف مراراً ليذكر لنا بعض الأشعار التى قيلت فى مديحه ، وبالمثل الأخرى التى قيلت فى رثائه ، من ذلك قول أبى سعيد الرستمى [١] .

أَبعدَ ابنِ عبَّادٍ يهشُّ إلى السُّرَى　　أخو أملٍ أو يُسْتماحُ جوادُ
أبى اللهُ إلا أن يموتا بموتهِ　　فما لهما حتى المعادِ مَعَادُ

وحُمل تابوته من الرَّىِّ إلى أصفهان ، ودُفن فى محلة تُعْرَف بباب دُزيه ، وتبارى الشعراء على قبره يرثونه ، وتقدَّم أبو منصور أحمد بن محمد اللُّجَيْمِىّ يُنْشد معبراً عنه بلقبه : « كافى الكفاة [٢] » :

ثَوَى الجود والكافى معاً فى حُفَيْرةٍ　　ليأنس كلٌّ منهما بأخيهِ
هما اصطحبا حَيَّيْن ثم تعانقا　　ضجيعين فى قبرٍ بباب دُزيهِ

ومرَّ بنا الحديث عن محمود الغزنوى وفتوحه فى إيران والهند وملازمته للجهاد ونشر الإسلام ، وكان مثقفاً وطلب - كما مر بنا - إلى بلاطه العلماء والأدباء ، وأقبلوا عليه يصنِّفون له كثيراً من الكتب فى فنون العلوم ، وقصده الشعراء من جميع البلدان فى إيران ، فكان يسبغ عليهم كثيراً من عطاياه ، فلما توفى بكاه غير شاعر ، وفى مقدمتهم أبو على الحسن بن محمد الدَّامَغانى ، وفيه يقول [٣] :

مضَى الأُفْعوان الصِّلُّ والأَسَدُ الوَرْدُ　　وتاجُ ملوكِ الأرض والفارسُ النَّجْدُ
ولم أدْرِ أن الشمسَ يَسْتُرها ثَرًى　　ولا الفَلَكُ الأعلى يُغَيِّبه لَحْدُ

وأحسَّ الشعراء هذا الإحساس بالخسارة الكبيرة إزاء نظام الملك الوزير السلجوقى المشهور ، الذى عَمَّ العلماء والشعراء ببرِّه ، وأُلِّفت باسمه مصنفات كثيرة ، وكان مجلسه

---

(١) اليتيمة ٣/٢٨٠
(٢) اليتيمة ٤/٤٠٩
(٣) تتمة اليتيمة ١/١٥٣ والأفعوان الصل : الذى لا تفيد معه الرقية ، والورد : الفاتك

يَغَصُّ دائماً بالفقهاء والقرَّاء والأدباء ، فلما توفى أكثر الشعراء من رثائه ، ومن جيِّد ما قيل فيه قول ختنه شِبْل الدولة مقاتل بن عطية (١) :

كان الوزيرُ نظامُ الملك لؤلؤةً ... يتيمةً صاغها الرحمنُ من شرفِ
عَزَّتْ فلم تَعْرِف الأيامُ قيمتَها ... فردَّها ، غَيْرةً منه ، إلى الصَّدَفِ

وظاهرة جديدة فى الرثاء لهذا العصر ، قد تكون لها مقدمات فى العصر العباسى ، ولكنها شاعت إلى أقصى حد حينئذ ، ونقصد رثاء الفقهاء والعلماء فى كل فن ، فلم يتوفَّ عالم كبير إلا تبارى تلاميذه وغير تلاميذه فى رثائه ، فمن ذلك رثاء أبى الحسن عبد الرحمن البُوشَنْجِيّ لأبى عثمان الصابونى شيخ الإسلام بخراسان ، وفيه يقول (٢) :

أَوْدَى الإمامُ الحَبْرُ إسماعيلُ ... لَهْفِى عليه فليس منْه بديلُ
بكتِ السما والأرضُ يومَ وفاتهِ ... وبكى عليه الوَحْيُ والتَّنْزِيلُ
والشمسُ والقمرُ المنيرُ تناوَحا ... حَزَناً عليه وللنُّجوم عَوِيلُ

ومن يرجع إلى طبقات الشافعية للسبكى سيجد من هذا الرثاء للفقهاء والمحدِّثين وأئمة الإسلام كثيراً ، وبالمثل من يرجع إلى كتب الشعراء مثل اليتيمة ودُمْية القصر وكتب التراجم مثل وفيات الأعيان لابن خِلِّكان ومعجم الأدباء لياقوت ، من ذلك قول أبى الفرج حَمْد بن محمد الهمذانى فى رثاء الشيخ الإمام أبى محمد الجُوَيْنِيِّ (٣) :

علومٌ علتْ أعلامَها غَبَراتُها ... وأعينُ أعيانٍ طغتْ عَبراتُها
وأفلاذُ أكْبادٍ من الفضل فُتِّتَتْ ... فدلَّتْ على تَفْتيتها زَفراتُها
تداعتْ مبانى الدين وانهدَّ رُكْنُهُ ... وهُدِّمَ من أطْواده صَخَراتُها

وبلغ ابنه إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك الجوينى من الشهرة العلمية ما لعل أباه لم يبلغه غزارة مَادةٍ وتفننا فى العلوم من الأصول والفروع . ولما توفى أُغلقت الأسواق فى نيسابور إجلالاً له وتكرمة ، وكُسر مِنْبَره فى الجامع وقعد الناس لعزائه ، كما يقول ابن خلكان ، وأكثروا فيه من المراثى ، كقول بعض تلاميذه (٤) :

قلوبُ العالمين على المَقالى ... وأيامُ الوَرَى شِبْهُ الليالى
أَيُثْمِرُ غُصْنُ أَهْلِ العلم يوماً ... وقد مات الإمامُ أبو المعالى

ونجد بين أساتذة الزمخشرى أستاذاً مغموراً درس عليه النحو ، يسمى أبا مضر

(١) ابن الأثير ١٠/٢٠٦
(٢) السبكى ٤/٢٨٣
(٣) الدمية ١/٥٥٧
(٤) ابن خلكان ٣/١٧٠

منصوراً ، ومع ذلك نراه – حين يلبىّ نداء ربه – يتأثر عليه تلميذه تأثراً عميقاً ، فيرثيه بقوله (١) :

وقائلةٍ : ما هذه الدُّررُ التى تساقَطُ من عينيكَ سِمْطَيْن سِمْطَيْنِ
فقلتُ هو الدرُّ الذى كان قد حَشا أبو مُضَرٍ أُذْنى تساقَطَ من عينى

وهى صورة بديعة ، فدرر دموعه ثمرة سماعه على أستاذه ، أودعها الزمخشرى فى سمْعِهِ فجرت من مَدْمعه .

وعلى نحو ما تفجعوا على العلماء وبكوهم بدموع غزار تفجعوا على أبنائهم وأمهاتهم وآبائهم وللباخرزى رثاء لأبويه ، ولأبى الحسن الحسينى البلخى رثاء جيد لأمه (٢) ، ومرَّ بنا عند الطغرائى رثاؤه لزوجته التى ماتت فى ريعان الشباب ، وفى ديوانه مرثية لها قافيَّة ، يصور فيها الموت وهو يقبض كفها ويرسلها وعيناها ساهمتان مُطْرقتان ، وقد أخذ الحزن منه كل مأخذ ، يقول :

ولم أنسها والموتُ يقبض كفَّها ويبسُطها والعينُ تَرْنو وتُطْرِقُ
هلالٌ ثَوَى من قبل أن تمَّ نورُه وغُصْنٌ ذَوَى فَيْنانُه وهْو مُورِقُ

ويصف زيارته لقبرها وعناقه لأحجاره وترابه والأرض تدور به ، وهو لا يكاد يصدِّق أَنها ماتت أو أن بينه وبينها حجاباً صفيقاً ، والدموع تنهلُّ على خديه ، وكلُّه حسرات ولوعات .

ومرَّ بنا فى كتابَى العصر العباسى الأول والثانى بكاء الشعراء للمدن ، حين تنزل بها صواعق النهب والحريق ، فقد بكوا بغداد لعهد الأمين والمأمون ، وبكوا البصرة حين هجم عليها الزنج فى أواسط القرن الثالث ودمَّروا مساكنها وفتكوا بأهلها . وكانت كارثة هذا العصر أعظم وأطمَّ ، ونقصد تدمير المغول لبغداد فى سنة ٦٥٦ إذ قتلوا من أهلها نحو مليون أو يزيدون ، وأشعلوا بها الحرائق وأعملوا النهب حتى فى الكتب والمكتبات ، وكان ذلك دماراً فظيعاً لما كان بها من حضارة عربية وحركة علمية ، أو قل كان ذلك أفولاً لنجمها الذى طالما تألق فى سماء البلاد العربية جميعاً . وطبيعى أن نجد من شعراء إيران من يبكون المدينة العظيمة ، وفى مقدمة من بكاها منهم الشيخ سعدى الشيرازى المتصوف الفارسى المشهور المتوفى سنة ٦٩١ عن نحو مائة سنة ، وهو يشتهر بكتاباته الصوفية الفارسية التى يمثلها كتاباه : جُلُسْتان وبوستان ، غير أشعار فارسية وعربية

(١) ابن خلكان ٥/١٧٢

(٢) الدمية ٢ / ٢٠٨ .

كثيرة ، وقصيدته [١] فى دمار بغداد أكثر من تسعين بيتاً استهلّها بقوله :

حبستُ بجفنىَّ المدامعَ لا تَجْرِى   فلما طغى الماءُ استطال على السَّكْرِ [٢]

ويتمنى لو مر به نسيم صبا بغداد فأحيا نفسه ، ويصور حزن مدرسة المستنصرية على علمائها الراسخين فى العلم وكيف تبكى المحابر أئمتها وجهابذتها ، وهو يندب ويبكى ويذرف الدموع ، ولا يطيق صبراً ولا سلواناً قائلا :

أيا ناصحى بالصَّبر دَعْنى وزَفْرتى   أموضعُ صَبْرٍ والكبودُ على الجَمْرِ

ويقول تحولت دجلة دماً قانياً ، ويرثى الخليفة الشهيد : المستعصم والشهداء الأبرار ويهنئهم بالفردوس ، ويتحدث عن سبايا المسلمين ، والمغول يسوقونهن فى الصحراء . والقصيدة كلها تفجع وتحسر على مصير بغداد ذات التاريخ العربى المجيد وكيف وقعت فريسة لذئاب المغول الكاسرة .

ولم نتحدث حتى الآن عن مراثى الشيعة للإمام على بن أبى طالب والحسين ، ولا ريب فى أنها كانت كثيرة ، إذ انتشر التشيع فى إيران منذ عصر بنى بويه ، واعتاد الشيعة أن يعقدوا سنويا مأتماً كبيراً فى يوم عاشوراء حداداً على الحسين وذكرى حزينة لاستشهاده ، وكان الشعراء يرثون الحسين فى تلك الذكرى القاتمة مراثى كلها أنين وزفرات . ونشر الشيخ محمد آل ياسين للصاحب ديواناً وفيه غير قصيدة فى رثاء الحسين ، ونراه يألم ألماً شديداً لهذه الجريمة البشعة ، التى مُثِّل فيها بحفيد رسول الله ﷺ ، وهو يكرر فى مراثيه الأنين والبكاء والدمع المدرار . وله شعر كثير فى فضائل على بن أبى طالب يدخل فى الشعر الشيعى بعامة ، وفيه يتحدث عن نظرية الوصية بالإمامة لعلى بن أبى طالب المعروفة عند الشيعة الإمامية وعن سابقته فى الإسلام وحروبه المظفرة وحقوقه فى الخلافة . ويكثر الحديث عند الشيعة عن الإمام محمد المهدى المختفى ورجعته ليرد حق أسرته الضائع ويعيد سنن الشريعة . والأشعار المتصلة به تغرق لا فى الرثاء ، بل فى المديح ، مثل الأشعار المتصلة بالإمام على ، ويسمونه صاحب الزمان أو قائم الزمان ، وخير قصيدة تصوره قصيدة بهاء الدين العاملى المتوفى سنة ١٠٣٠ للهجرة ، وهو فيها يسميه حجة الله وخليفته وظله [٣] . ونتوقف قليلاً عند شاعر شيعى من شعراء الرثاء .

---

(١) متنبى وسعدى للدكتور حسين محفوظ (طبع طهران) ص ٧٣

(٢) السكر : ما سُدَّ به النهر .

(٣) انظر الكشكول للعاملى (طبعة الحلبى) ١ / ١٧٦ .

أبو الحسن[1] على بن أحمد الجوهَرىّ الجُرْجانىّ

نشأ بِجُرْجان ، واجتذبه الصاحب بن عباد إلى حضرته فيمن اجتذبهم من أدباء عصره وشعرائه ، ونراه يقرِّبه منه ويرفع مكانته عنده . ويتخذه فى ندمائه . وتستهل ترجمته فى اليتيمة برسالة كتبها إلى أبى العباس الضبى نائب الصاحب فى أصبهان يُشيد فيها به ، ويقول إنه يحسن الشعر فى اللسانين العربى والفارسى كما يحسن النثر. ويترك أصبهان إلى جرجان فلا تطول به الأيام ، كما يقول الثعالبى ، حتى يلبِّى نداء ربه ، ويقول من ترجموا له إنه توفى سنة ٣٨٠ . ولا يذكر له الثعالبى شيئاً من شعره الشيعى ولا من رثائه للحسين ، ومما يُرْوَى له فى بكاء الحسن قوله :

أهلَ الكِساءِ صلاةُ الله نازلةٌ ... عليكمُ الدهرَ من مَثْنىً ووُحْدانِ
أنتم نجومُ بنى حوَّاءَ ما طلعتْ ... شمسُ النهار وما لاح السِّماكانِ

ويشير الجوهرى بفكرة الكساء إلى ما يُرْوَى عند الشيعة من أن الرسول ألقى عليه وعلى السيدة فاطمة والإمام على والحسن والحسين كساء ، وقال : نحن أهل البيت . . ويشير الجوهرى فى القصيدة إلى مقتل الحسين وسِباء كل من كانوا معه من أهله ، وله مرثية أخرى للحسين يبدؤها بالحديث عن يوم عاشوراء يوم مقتله باكياً نادباً قائلاً :

يا أهل عاشورَ يالهفى على الدينِ ... خذوا حدادكمُ يا آل ياسينِ
اليوم قام بأعلى الطَّفِّ نادبهُم ... يقول مَنْ ليتيمٍ أو لمسْكين
يا عينُ لا تَدَعِى شيئاً لغاديةٍ ... تَهْمِى ولا تَدَعى دَمْعًا لمحزونِ
يا آل أحمدَ إنَّ الجوهرىّ لكم ... سيفٌ يقطِّع عنكم كلَّ مَوْضون[2]

والأبيات تصور المأساة تصويراً محزناً ملتاعا . والطف هو الموضع الذى استشهد فيه الحسين ، والجوهرى لا يرقأ دمعه ، بل هو يتمنى أن تسيل من عينيه دموع لا تكفُّ ولا تجفّ ، لما نزل بآل أحمد أو آل ياسين أهل البيت النبوى الطاهر.

وينشد الثعالبى للجوهرى أشعاراً كثيرة تتصل بمدحه للصاحب ولسلطانه فخر الدولة ولنائبه أبى العباس الضبى ولبعض الوجهاء ، كما تتصل بالغزل وبتصوير بعض الأطعمة وبهجاء بعض الأشخاص ، وله خمريات طريفة يمزجها بالحديث عن الطبيعة ، كقوله فى

---

(١) انظر فى الجوهرى اليتيمة ٢٧/٤ وأعيان الشيعة ج ٤١ ص ٤١ وأدب الطف أو شعر الحسين لجواد شبر (طبع بيروت) ١٣٠/٢ وما بعدها

(٢) الموضون : الدرع المنسوج .

دعوة بعض أصدقائه إلى الصَّبوح :

شجرٌ مُدْنَفٌ وجوٌّ عليلٌ   وصباحٌ يميل كالنَّشْوانِ
صاحِ إن الزمان أقصرُ عمراً   أن يُراع المُنى بصَرْفِ الزمانِ
رَقَّ عنى ملاحفُ الليل فانْهَضْ   برقيقٍ من صَوْب تلك الدِّنانِ
كعصير الخدود فى يَقَقِ الأو   جه أو كالدموع فى الأجفان(١)

ويبدو من هذه الخمرية ميله إلى الدقة فى التصوير ، وأنه كان يحاول الإطراف بأخيلته ، وأن يأتى بصور مبتكرة ، على شاكلة قوله :

صَكَّ النسيمُ فِراخَ الغَيْث فانزعجتْ   يَنْفُضْنَ أجنحةً من عَنْبَرِ الزَّغَبِ

ويقول الثعالبى : لو لم يقل إلا هذا البيت لكان أشعر الناس ، وهو فيه يصور زغب الثلوج المتساقط كشُعَيْرات الريش المتطايرة .

٥

شعراء الهجاء والفخر والشكوى

ظل الشعراء يَريشون سهام الهجاء فى هذا العصر كما كانوا يَريشونها فى العصور السابقة ، تارة يسدِّدها بعضهم إلى صدور بعض ، وتارة يسددونها إلى السلاطين والوزراء وعلية القوم . وقد تُسَدَّد إلى أكثر هؤلاء جوداً وكرماً ، لمجرد أنه تأخر فى جائزة شاعر ، أو لأنه أعطى شاعراً جائزة دون جائزة شاعر آخر ، أو لأنه أسخطه لأى سبب من الأسباب . ومرَّ بنا أن الصاحب بن عباد وزير بنى بويه كان ينهال عليه المديح انهيالاً لكثرة ما كان يُغْدقه على الشعراء ، حتى يقال إنه وفد عليه منهم مئات ، ومع ذلك كان لا يسلم من ألسنة بعضهم مثل أبى العلاء الأسدى ، وكان كما يقول الثعالبى قديم الصحبة له ، شديد الاختصاص به ، ممتد الغُرَّة والتحجيل فى شعرائه وصنائعه وندمائه . وكان يودّه ويأنس به ويكاتبه نثراً ونظماً . وإليه كتب : « أبا العلاء شيخى أين ذلك الميعاد ؟ وأين تلك العهود سقتها العِهاد (الأمطار) . وأين كتبك التى هى ألذ من انتهاء النفس إلى رجائها ، وابتداء العين فى إغفائها » . ويبدو أن أبا العلاء لم يرتض من الصاحب أمراً أو شيئاً يوماً ، فأسرع يهجوه بقوله(٢) :

---

(١) اليقق : شدة البياض .

(٢) اليتيمة ٢٧٧/٣

إذا رأيتَ مُسَجًّى فى مرقَّعةٍ   يأوى المساجدَ حرًّا ضُرُّه بادى
فاعلمْ بأن الفتى المسكين قد قذفتْ   به الخطوبُ إلى لؤم ابن عبَّادِ

وهو يصفه باللؤم ، ويصغرٌ من جوده الذى شاع عنه فى سخرية مرة . وانتقم للصاحب من أبى العلاء الأسدى زميل له من الشعراء يسمَّى عبدان الأصبهانى جعله عُرْضة وهدفاً لأهاجيه ، ومن قوله فيه (١) :

أبا العلاء اسكتْ ولا تُؤذنا   بِشَيْنِ هذا النسبِ الباردِ
وتدَّعى فى أسَدٍ نِسْبَةً   لا تثبتُ الدعوى بلا شاهدِ
أقِمْ لنا والدةً أوَّلاً   وأنت فى حِلٍّ من الوالدِ

وهى سخرية لاذعة . ومن كبار الهجائين فى أوائل العصر الشاعر المسمى أبا الحسن اللَّحام ، وفيه يقول الثعالبى : لم يسلم أحد من الكبراء والوزراء والرؤساء من هجائه إياه ، وكان لا يهجو إلا الصدور ، وفى مقدمتهم البَلْعمى وزير السامانيين وفيه يقول (٢) :

وزارةُ البلعمىِّ منقلبهْ   وهْو كقُفْلٍ غدا على خرِبَهْ
لم يَرْعَ للأولياء حُرْمتهم   فيها ولا للوجوه والكَتَبَهْ
فهْو أحقُّ الورى بداهيةٍ   تضْحى لها رأسُه على خَشَبه

وهو يريد له أن يصلب ويصبح مُثْلةً للناظرين ، وكان عبدان آنف الذكر يستثيره كثيراً فما زال يفكر فى أن يورد عليه هجاء شديد الإيلام ، وهداه طول تفكيره إلى قوله فيه (٣) :

عبدانُ هامتُه للصَّفْع معتاده   لاسيَّما من أكفِّ السادةِ القاده
كأنَّ أيدى النّدامَى فى تناولها   أيدى صِيامٍ إلى كيزانِ برَّاده

والبرَّادة : إناء يبرِّد الماء . وكان السخط على السلاطين والملوك يبلغ أحياناً عند بعض الشعراء حدًّا يجعلهم يعمّونهم به غير مفرقين بين مصلح وفاسد ، فإذا هم يهجونهم جميعاً على شاكلة يوسف بن محمد الجلودى الرازى فى قوله (٤) :

لا يصحبنَّ ملوكَنا إلا امرؤ   لِصٌّ مغنٍّ مُفْلِسٌ قَوَّادُ
فلهُ لديهمْ زُلْفَةٌ ومنالةٌ   ولمن تحرَّج واستعفَّ كسادُ

والبيتان يمسخان الملوك حينئذ مسخاً . وكانوا كثيراً ما يهجون البلدان وأهلها ، ويخيل إلى الإنسان أنهم لم يتركوا بلدة إلا سلَّطوا عليها سهام هجائهم ، وقد يتعرضون لصفة فى

(١) اليتيمة ٢٩٨/٣
(٢) اليتيمة ١٠٨/٤
(٣) اليتيمة ١١٢/٤
(٤) تتمة اليتيمة ١ / ١٢٣ .

الشخص ذميمة ، فيهجونه بها ، كصفة الحمق ، ولابن حَسْول يهجو المتكبرين عليه [١] :

دخلتُ على الشيخ فيمن دَخَلْ فغربَل عُصْعُصَهُ وانتحَلْ [٢]
وأظهر من نخوة الكبريا ء مالم أقدِّر ومالم أخَلْ
فقلتُ له مؤثراً نُصْحَهُ وقد يُقْبَلُ النُّصْح ممن نَخَلْ
إذا كنتَ سيدنا سُدْتَنا وإن كنت للخال فاذهبْ فَخَلْ
أخلَّ بحقِّ دُهاةِ الرِّجالِ فمازال يُصْفَعُ حتى أُخَلّ

وهو يصور هذا الشيخ المتكبر المتعجرف ، وقد دخل عليه فلم يقم له ، وكأنما همّ أن يرفع نفسه وعصعصه أو مؤخرته ، ثم تخلّى عن ذلك وتمكَّن من مجلسه ، فعرف أنه متكبر متعاظم ، وهو مالا يكاد يظنه ، فحاول أن ينصحه نصيحة من نَخَل القول وعرف صوابه وخطأه ، وتعرض له قائلاً إن كنت سيدنا حقا سدتنا دون حاجة إلى كبرياء وإلا فخلِّ عنك ، غير أنه لم يستمع نصحه فمازال يُصْفَعُ ، حتى أصابه الخلل .

وكان الفخر فى هذا العصر يرافق الهجاء كما رافقه فى العصور السابقة ، وقلما يحسن الشعرَ أمير أو وزير أو قائد إلا وهو يفتخر بنفسه ، وفى كتاب اليتيمة فصل خاص بسلاطين بنى بويه ، ونجد أشعارهم موزعة بين الفخر والغزل والخمر . ويلقانا فخر كثير للشعراء ، وكثيراً ما يسوقون فخراً لهم بأشعارهم وجودتها وبلاغتها ، من مثل قول على بن عبد العزيز الجرجانى الذى ترجمنا له بين شعراء المديح [٣] :

ألا إننى أَرْمِى بكلِّ بديعةٍ يَبِتْنَ بألباب الرِّجالِ لواعبا
تسيرُ ولم ترحَلْ ، وتدنو وقد نأتْ وتُكسب حُفَّاظَ الرجالِ المراتبا
ترى الناس إما مُسْتَهاما بذكرها وَلُوعًا وإما مُسْتعيرا وغاصبا

فأشعاره كلها – فى رأيه – بدائع وطرائف ، تنتشر فى الناس حتى أقاصى الأرض ، لكثرة رواتها والمعجبين بها ، ويتداولها الشعراء ويغيرون على معانيها المبتكرة . وكثر الفخر فى العصر عند العلماء بسعة المعرفة وغزارة المحصول والتعمق فى الأفكار والنفوذ إلى أغوارها البعيدة .

وشاعت مع الفخر الشكوى من الدهر ومن الناس ، وهى شكوى قديمة ، غير أنها اتسعت فى هذا العصر سعة شديدة ، لما شاع فيه من كثرة البؤس والضنك فى حياة

---

(١) دمية القصر ١/٤١٥ .

(٢) العصعص : نهاية العمود الفقارى ، وغربلة العصعص : تمكنه فى الجلوس . انتحل : ادعى لنفسه ما ليس له .

(٣) اليتيمة ٤/٢٠

الشعب ، فضلاً عن الشعراء . ودائماً يتضاعف إحساس الشاعر ببؤسه حين لا تصله الجوائز الكبيرة ، وحين يجد من بعض الناس إعراضاً عن شعره ، فتظلم الدنيا فى عينيه ، ويراها سواداً فى سواد وظلاماً وحرماناً لا آخر له . ومثله العالم الفاضل الذى يرى علمه كاسداً ، وأنه لن يروج إلا إذا لثم التراب وقبّل الأبواب ، فبؤساً للعلم يكون هذا جزاءه ، وبؤساً للشعر يكون هذا ثوابه . ويصور ذلك من بعض الوجوه عبد القاهر الجرجانى صاحب كتابى دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة ، وهما أروع ما صُنِّف فى البيان العربى ، وكان مقصد الطلاب فى عصره من كل فجٍّ ، ومع ذلك يرى عشرات من دونه يعلونه فى نعيم الحياة مخلِّفين له البؤس والشظف ، مما جعله يهتف بمثل قوله (١) :

هذا زمانٌ ليس فيـ ـهِ سوى النَّذالةِ والجهالَهْ
لم يَرْقَ فيهِ صاعِدٌ إلا وسُلَّمُه النَّذالهْ

واقْرأ فى اليتيمة ودُمْية القصر والخريدة فستجد سيول هذه الشكوى تتدافع من كل جانب . وكثيراً ما كان يحدث لأمير أن يُسْلَب سلطانه كما كان يحدث ذلك للوزراء ، فكان منهم من ينظم الشعر يُودِعه شجونه ، ومرت بنا مأساة قابوس بن وَشْمكير صاحب طبرستان إذ عزلته عن سلطانه حاشيته وألقت به فى غياهب السجون بإحدى القلاع حتى مات لَوْعَة من شدة البرد وأسفاً على ضياع سلطانه ، وكان شاعراً كما كان كاتباً ، فمضى يشكو شكوى مرة من الناس دون أن تنكسر نفسه ، بل مع غير قليل من الصلابة ، على شاكلة قوله (٢) :

قُلْ للذى بِصُروف الدَّهْرِ عَيَّرنا هل حاربَ الدهرُ إلا مَن له خَطَرُ
أما ترى البحرَ تعلو فوقه جِيَفٌ وتَستقرّ بأقصى قَعْرِهِ الدُّرَرُ
فإن تكن عبثتْ أيدى الزمان بنا ومسَّنا من تمادى بؤسه ضَرَرُ
ففى السماء نجومٌ مالها عَدَدٌ وليس يُكْسَفُ إلا الشمسُ والقَمَرُ

وقد تتحول الشكوى من الزمان وأهله إلى ضرب من التشاؤم الشديد ، فالزمان كله بؤس وتعاسة ، والناس ليس فيهم فاضل ولا كريم ، بل كلهم أخسّاء أنذال ، حتى ليقول الفضل بن إسماعيل التميمى الجرجانى (٣) :

ما فى زمانك ماجدٌ لو قد تأمَّلتَ الشواهدْ
فاشْهَدْ بِصِدْقِ مقالتى أولا فكذِّبنى بواحدْ

---

(١) الدمية ٢/١٨ (٣) الدمية ٢/٢٨
(٢) اليتيمة ٤/٦١ وابن خلكان ٤/٨٠

فهو لا يرى فى الدنيا ما جدا واحدا ، وكأنما الناس كلهم أشرار ، ليس فيهم من تجد عنده شيئاً من العون يملأ القلب رضا وطمأنينة ، بل جميعهم يملأون القلب حسرة ولوعة . ونقف عند شاعرين من شعراء العصر هما الخوارزمي والأبيوَرْدى .

أبو بكر[1] الخُوارِزْمىّ

أصله من طَبَرِسْتان ومولده ومنشؤه خُوَارِزْم ، وهو ابن أخت محمد بن جرير الطبرى صاحب التاريخ المعروف ، وقد فارق موطنه فى ريعان شبابه ، وأقام بالشام مدة . وهو أحد الشعراء والكتاب المجيدين فى عصره ، وأيضاً أحد أساتذة الأدب ورواته ، رحل إلى الشام والعراق وبخارى ونيسابور وسجستان ، ثم قصد الصاحب بن عباد ، فأكرمه وأعلى منزلته ، وغمره بما كان سبباً لثرائه وارتياشه ، فعاد إلى نيسابور واستوطنها واقتنى فيها عَقَارا وضِياعا ، وكان لايزال يأتيه رسم أو راتب من قبل الصاحب منذ انصرافه عن حضرته . وكان ذلك سبباً فى أن يتعصب تعصباً شديداً للبويهيين ضد السامانيين أصحاب نيسابور وبخارى ، وناله من ذلك بعض السوء ، لولا توسط الصاحب بن عباد له عند بعض وزرائهم . وكان شيعيًّا وكانت نيسابور سنية ، فاستوحش منه كثيرون وانتهزوا فرصة وفود بديع الزمان الهمَذانى على بلدتهم ، فعقدوا مناظرة بينهما انتصروا فيها للبديع ، وتصادف أن توفِّى الخُوارزمى عقبها سنة ٣٨٣ فصفا الجو لمنافسه . وقد خلَّف الخوارزمى ديوان رسائل كبير وهو مطبوع ، وخلف أيضاً ديوان شعر سقط من يد الزمن ، غير أن فى كتاب اليتيمة طائفة كبيرة من أشعاره فى النسيب والغزل والمديح والمراثى وفى فنون مختلفة فى مقدمتها الهجاء ، وكان طبيعيا أن يصبَّه سياطاً على ظهور السامانيين حين استخرجوا منه ، أو صادروا ، بعض ماله وَزجّوا به فى سجونهم ، وأفرجوا عنه ، غير أنه مضى ينتقم منهم بمثل قوله :

جَزَى اللهُ عنى أهلَ سامانَ ما أتَوْا ... وفى الله للثأر المضيَّع طالبُ
همُ زوّجونى الهمَّ بعد طَلاقهِ ... وذلك عُرْسٌ للمآتم جالبُ
وأنْحَوْا لزرعى بالحصاد وأَنْضَبُوا ... مياهاً لها أيدى سِواهمْ مَذانبُ
أتحصُد أيديكم وَيزرع غَيْرُكم ... فأنتم جَرادٌ والملوكُ سحائبُ

فهم يحصدون ما زرعه آل بويه ووزراؤهم ، ويأكلونه ناراً ، وكأنهم جراد منتشر

(١) انظر فى الخوارزمى وشعره اليتيمة ١٩٤/٤ وابن خلكان ٤٠٠/٤ والوافى بالوفيات ١٩١/٣ والشذرات ١٠٥/٣ وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (طبع دارالمعارف) ص ٢٣٠ وما بعدها

يصيب البلاد بالخراب والوبال بينما البويهيون سحائب غيث منهلة ، تروى من يعيشون فى بقاعهم القريبة وفى بقاع السامانيين البعيدة وغير السامانيين . وبحكم تشيعه كان غاضباً على الخلفاء العباسيين السنيين ، غير أنه اكتفى فى هجائهم بالإشارة إلى صنيعهم السيئ فى توزيع الألقاب على السلاطين والوزراء والقواد ومن يستحق ومن لا يستحق ، يقول :

مالى رأيتُ بنى العبَّاسِ قد فتحوا من الكُنَى ومن الألقاب أبوابا
قَلَّ الدراهمُ فى كَفَّىْ خَلِيفتِنا هذا فأنفقَ فى الأقوام ألقابا

ولا شك فى أنها تدل على ما أصاب المجتمع فى إيران وغير إيران من تدهور ، وكان يغيظ الخوارزمى الشيعى المتعصب لتشيعه الغالى فى تعصبه أن يرى أحياناً فقيها يلقن ابنه مبادئ أهل السنة الذين يسميهم المتشيعة ناصبية فيدَّعى عليه أنه من القائلين بالجبر ويهتف :

مُجْبِرُ صيَّر ابنه ناصِبيًّا مجبراً مثله وتلك عجيبَهْ

والمجبر الذى يقول بالجبر وأن الإنسان لا حرية له فى فعله ولا اختيار وأنه مسير كريشة فى يد القدر يوجهه كيف شاء . وأسخطه طاهر بن شار الطبرستانى ، فتولاه بهجاء مقذع من مثل قوله :

لله فى كل ما قضاهُ لطائفٌ تحتهـا بدائعْ
سُبْحانَ من يُطْعِم ابن شارٍ ويترك الكَلْب وَهْوَ جائع

وهو إقذاع مرير ، فقد جعله دون الكلب وأقلَّ منه ، وحتى يد الصاحب بن عباد الذى طالما أسبغ عليه من نواله ، بل لقد جعل له راتباً معلوماً ، كما قدمنا ، يصله فى نيسابور ، نجده يخدشها بل يعضّها ويسيل الدم منها بأظفار هجائه ، ويبدو أنه لم يرض منه يوماً لقاء له ، فإذا هو يذمه ذمًّا قبيحاً قائلاً :

لا تحمدنَّ ابنَ عبادٍ وإن هَطَلَتْ يَداه بالجود حتى أَخْجَلَ الدِّيَما
فإنها خطراتٌ من وَسَاوِسهِ يُعْطِى ويمنع لا بُخْلا ولا كَرما

فعطاياه التى طبَّقت الشعراء فى إيران وغير إيران إنما هى وساوس وهواجس تُلمُّ به أحياناً . وهو كفران شديد للمعروف ، وكأنها طبيعة للخوارزمى أن لا يستطيع احتمال الصبر وأن يلجأ سريعاً إلى قلمه وشعره ، ويحيله سوط عذاب ينزل به حتى على ولىِّ نعمته . ونراه يتابع سخطه على من يريد هجاءهم حتى بعد وفاتهم كقوله فى رثاء صديق ، حدث بينهما ما يوجب شيئاً من العتاب ، فإذا هو يضخم عتابه ويحيله هجاء قائلاً :

بكيتُ عليك بالعين التى لم تزلْ من سوء فعلك بى تجودُ

فها أنا ذا المهنَّا والمعزَّى ... وها أنا ذا الشقىُّ بك السعيدُ
وما أصبحتَ إلا مثل ضِرْسٍ ... تآكلَ فهْو موجودٌ فَقيدُ
ففى تركى له داءٌ دَوِىٌّ ... وفى قَلْعى له ألمٌ شديدُ

وطبيعى لمثل الخوارزمى الذى كان ينشب أظفاره فى الحكام والأصدقاء والناس أن يتبرم بهم جميعاً وبدنياه وبالدهر ، حتى ليقول :

لا تشكرِ الدهرَ لخيرٍ سبَّبَهْ ... فإنه لم يتعمَّدْ فى الهِبَهْ
وإنما أخطأ فيك مَذهبَهْ ... كالسَّيْل إذ يَسْقى مكانا خَرَّبَهْ

وله وراء ذلك كله مدائح فى البويهيين والصاحب وغيرهم وله غزليات وخمريات ووصف للطبيعة وورودها ورياحينها . وفتح الثعالبى له فصلاً طويلاً لبيان تضميناته أشعارَ غيره فى شعره ، وهم يمتدّون على الحقب من العصر الجاهلى حتى عصره .

الأبيوَرْدِىّ (١)

هو أبو المظفر محمد بن أحمد ، من أبناء معاوية بن محمد حفيد عَنْبَسة بن أبى سفيان بن صَخْر بن حرب الأموى ، مولده ومنشؤه بأبِيوَرْد فى خراسان ، وقد تفقه على إمام الحرمين الجُوَيْنى بنَيْسابور ، وله فيه مدائح بديعة . وسمع عبد القاهر الجرجانى ، ولعل له أثراً فى رهافة ذوقه الأدبى . وأكبَّ على المعارف يحصِّلها ، ولعل ذلك ما جعله فيما بعد يصنف كتباً مختلفة فى الأنساب وغيرها . وفتح له الشعر والأدب العمل فى دواوين السلاجقة فى بغداد وأصفهان وغيرهما من بلدانهم . ويبدو أنه ظل فى بغداد طويلاً ، إذ يُرْوَى عنه أنه قال : كنت ببغداد عشرين سنة حتى أمرِّن طبعى على العربية ، وبعدُ أنا أرتضخ لُكْنَةً أعجمية . وفى بغداد التحق بخدمة مؤيد الدولة بن نظام الملك ، فلما عادى هذا الوزير عميد الدولة بن منوجهر هجاه الأبيوردى ، فدسَّ عليه عند الخليفة أنه هجاه ومدح صاحب مصر الفاطمى . وخشى الأبيوردى على نفسه فترك بغداد إلى همذان حتى سكن جأشه وهدأ روعه . وتدل على الحقبة التى أمضاها ببغداد قصائده فى الخليفة المقتدى (٤٦٧ – ٤٨٧ هـ) وله فيه إحدى عشرة قصيدة . ويقول بعض الرواة إنه إنما هجر بغداد

---

(١) انظر فى الأبيوردى وشعره معجم الأدباء ١٧ / ٢٣٤ وابن خلكان ٤ / ٤٤٤ والوافى بالوفيات ٢ / ٩١ والسبكى ٦ / ٨١ والمنتظم ٩ / ١٧٦ والنجوم الزاهرة ٥ / ١٥١ ، ٢٠٦ وابن الأثير ١٠ / ٢٨٤ ومرآة الجنان ٣ / ١٩٦ والأنساب ٤٩٠ وتذكرة الحفاظ ٤ / ١٢٤١ وروضات الجنات ١٨٥ وشذرات الذهب ٤ / ١٨ وإنباه الرواة ٣ / ٤٩ وديوانه مطبوع بالمطبعة العثمانية بلبنان .

لأنه كان يَرْشَحُ من كلامه نوع تشبيب بالخلافة التى كانت لأسلافه الأمويين مدعياً استحقاقه الإمامة . فاضطُرَّ إلى مفارقته بغداد إلى همذان ، وبقى فيها مدة يدرس ويفيد ويصنِّف . وقال العماد فى الخريدة : تولى فى آخر عمره أشراف مملكة السلطان محمد بن ملكشاه (٤٩٨ – ٥١١ هـ) ، وسقوه السم وهو واقف عند سريره لسنة ٥٠٧ فخانته قدماه وتوفى على الأثر ، فحُمل إلى منزله بأصفهان ، ويقال : بل لم يُسْقَ السم ، وكل ما فى الأمر أنه حين مثل أمام السلطان أصابه الفزع فارتعد وسقط ميتاً .

وُيعَدُّ الأبيوردى من أشهر شعراء هذا العصر ، وديوانه كبير ، وقد وزعه على أقسام ، من أهمها العراقيات والنجديات والوجديات . وله شعر كثير فى الفخر بنسبه الأموى وبيان فضله وحقه فى الخلافة ، ويقولون إنه كان إذا صلى قال : اللهم ملِّكنى مشارق الأرض ومغاربها ، ولعل لهذا الهوس فيه هو سبب حتفه على يد السلطان محمد ، ومن شعره المعبر عن طموحه وقوة نفسه قوله :

يا مَنْ يُساجِلُنى وليس بمدركٍ	شأْوِى وأينَ له جلالةُ مَنْصِبِى
لا تتعبنَّ فدونَ ما أَمَّلْتَه	خَرْطُ القَتادة وامْتِطاءُ الكوكبِ[1]
والمجدُ يعلم أَيُّنا خيرٌ أبًا	فاسأَلْه تعلمْ أىَّ ذى حسَبٍ أبِى
جَدِّى معاويةُ الأغرُّ سمَتْ به	جُرْثُومةٌ من طِينِها خُلِقَ النَّبِى
وورثْتُه شرفاً رفعتُ منارَهُ	فبنو أميَّة يفخرون بهِ وَبِى

وهى صورة جامحة من الاعتداد بالآباء ، وأين بنو أمية فى القرن الأول الهجرى منه فى القرن الخامس ؟ وهل جده معاوية أقرب رحماً إلى الرسول ﷺ من بنى هاشم ؟ إن هذا ومثله لغو وما يشبه اللغو . وهو لا يتوقف عند هذا الحد فى فخره العريض ، إذ يسوقه فى شكل أحلام لا يمكن تحقيقها إذ يقول :

الناس من خَوَلِى والدهرُ من خَدَمِى	وقِمَّةُ المجد عندى مَوْطِئُ القَدَمِ
والنَّسْرُ يَتْبع سَيْفِى حين يَلْحظهُ	والدهرُ يُنْشد ما يَهْمِى به قلمى
لو صيغتِ الأرضُ لى دون الوَرَى ذهباً	لم تَرْضَها لِمُرَجِّى نائلى هِمَمِى
وعن قليلٍ أُرَى فى مأزقٍ حرجٍ	به تُشام السُّرَيْجيَّاتِ فى القِمَمِ[2]
والبِيضُ مُرْدَفَةٌ تبدو خلاخِلُها	فى مسلكٍ وَحِلٍ من عَبْرةٍ ودم

---

(١) القتادة : نبات له شوك كالإبر ، وفى المثل : «من دونه خرط القتاد» يضرب للشىء لا ينال إلا بمشقة

(٢) تشام : ترى . السريجيات : ضرب من السيوف شديدة .

فالمجدُ فى صهَوات الخيل مطلَبُه   والعِزُّ فى ظُبَةِ الصَّمْصامة الخَذِمِ [١]

وهو يحلم حلماً غريباً بأنه سيقود معركة مظفرة تُسْبَى فيها النساء النادبات لأزواجهن وأبنائهن وأهلهن ، وتجول وتصول فيها الخيل مردية للأقران ، ونسور الفلا تتبعه لتأكل من أشلاء قتْلاه ، والدهر ينشد مجده الحربى شعراً حماسيا ملتهباً . وطبيعى أن يقترن هذا الفخر العاصف عنده بالشكوى من الزمن الذى لا ينيله مطامحه ، وهى شكوى تمتزج بغير قليل من القوة والجلد وتحمل الشدائد على شاكلة قوله :

تنكَّر لى دهرى ولم يَدْرِ أننى   أَعِزُّ وأحداثُ الزمانِ تهونُ

فبات يُريِنى الخطبَ كيف اعتداؤه   وَبِتُّ أُريه الصَّبْرَ كيف يكون

وهذا الجانب فى الأبيوردى واعتزازه بنفسه وقومه جعله يستشعر غضباً لا حد له على الصليبيين حين أغاروا لأول مرة سنة ٤٨٨ للهجرة على بيت المقدس ، وهو استشعار يُحْمَدُ له ، فإنه أحسَّ الكارثة التى نزلت بالإسلام وأهله ، حين دنَّس الصليبيون بأقدامهم الحرمَ القدسىَّ ، فصاح بأعلى صوته يُهيب بالمسلمين أن يذودوا عن حِماهم المستباح فى قصيدة طويلة يقول فيها :

مزجنا دماءً بالدموع السَّواجمِ   فلم يبق منا عُرْضَةٌ للمَراجمِ [٢]

وكيف تنام العينُ ملءَ جفونها   على هفواتٍ أيقظتْ كلَّ نائمِ

وإخوانكم بالشام يُضْحِى مَقِيلهُم   ظهورَ المذَاكى أو بطون القَشاعم [٣]

وكم من دماءٍ قد أبيحتْ ومن دُمًى   تُوَارِى حياءً حُسْنَها بالمعاصمِ

أَترضى صناديدُ الأعاريب بالأذى   ويُغْضِى على ذلٍّ كُماةُ الأعاجمِ

فليتهمُ إذ لم يذودوا حَمِيَّةً   عن الدين ضَنُّوا غَيْرَةً بالمحارمِ

والقصيدة استنفار قوى للمسلمين من العرب والأعاجم كى يقفوا سدًّا منيعاً دون حماهم وحمى الإسلام يذودون عنه بسلاحهم وأرواحهم حتى يُذيقوا الصليبيين وبال حربهم ويردوا كَيْدهم إلى نحورهم ، وهى أولى القصائد التى أخذت طوال قرن تصوِّب أبياتها ، بل سهامها ، إلى صدور أعداء الإسلام ، حتى استطاع صلاح الدين أن يستنقذ منهم بيت المقدس وغيره من ديار الشام ، ويسفك دماء ملوكهم وقادتهم ، وكان حقًّا على الله نَصْرُ المؤمنين .

ولـلأبيوردى وراء ذلك مدائح كثيرة فى الخلفاء وسلاطين السلاجقة ووزرائها ،

(١) الصمصامة : السيف . الخذم : القاطع   (٣) المذاكى : الخيل . القشاعم : النسور .

(٢) المراجم : القبيح من الكلام .

وله غزليات سنعرض لبعض أمثلة منها فى مطالع الفصل التالى ، وكانت له مرثية بديعة للحسين تحدث عنها ياقوت ، غير أن ديوانه خلا منها ، كما خلا من مرثيته للغزالى ، التى أشار إليها ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان . وله بيتان طريفان فى هجاء أبى النجيب عبد الرحمن بن عبد الجبار المراغى ، وكان شاعراً ، ويستعمل فى شعره لزوم ما لا يلزم الذى اشتهر به أبو العلاء فى لزومياته ، فقال فيه :

شعر المراغىِّ – وحُوشِيتمُ – كعَقْلِهِ أَسْلَمُهُ أسْقَمُهْ
يَلْزَمُ ما ليس له لازماً لكنَّه يترك ما يَلْزمه

والسخرية واضحة ، إذ يشير إلى أن شعره مغسول مما يلزم الشعر من المشاعر والأخيلة وفنون البديع ، بينما يُغرقه فيما لا يلزم من تعقيد الروى وعدم الاكتفاء فى الشعر بروىٍّ واحد ، مما يصور تكلفاً شديداً إن لم يكن الشاعر بارعاً فى صنع الشعر ونظمه .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

ظل تيار الغزل حارًّا متدفقا طوال هذا العصر ، حتى ليخيل إلى الإنسان أنه لم يَشْدُ شاعر بشعر إلا وجرى الغزل على لسانه ، لا يشذّ عن ذلك سلطان ولا وزير ولا كاتب ولا قائد . وظل للغزل لوناه المتقابلان على مر العصور : الغزل المادى والغزل العُذْرى العفيف ، وكان طبيعيا أن تظل للغزل سوقه الكبيرة لكثرة الإماء والجوارى وكان كثيرات منهن يحسنَّ الغناء ، فملأن قلوب الرجال شغفا وهياما . واقرأْ فى تراجم الشعراء لهذا العصر فستجد دائما مقطوعات الغزل لتختار منها ما يطيب لك جمالَ معنى وجمالَ صورة وجمال صوت ، على شاكلة قول ابن العميد (١) .

ظَلَّتْ تُظَلِّلنى من الشَّمْسِ ... نَفْسٌ أعزُّ علىّ من نَفْسى
فأقول واعجبــاً ومن عجبٍ ... شمسٌ تُظَـلِّلُنى من الشَّمْسِ

وهى صورة بديعة لما فيها من لفت قوى إلى جمال صاحبته ، وكان خليفته فى وزارته الصاحب بن عباد أشعر منه ، وله غزل كثير أنشد منه الثعالبى طائفه من المقطوعات ، من ذلك قوله (٢) :

قـــال لى إنَّ رَقــيبى سَـــيِّـئُ الخُلْق فَـــدَارِهْ
قلتُ دَعْنى وَجْهُك الجَنَّــةُ حُفَّتْ بـــالمكـــاره

وواضح أنه عمد فى البيت الثانى إلى الاقتباس من الحديث النبوى : « حُفَّت الجنة بالمكاره » وهو اقتباس طريف لإحكام صلته بما قبله . وكثرة الاقتباس من الحديث والقرآن الكريم ظاهرة من ظواهر العصر الأدبية .

وكانوا يتورَّطون أحيانا فى الغزل بالغلمان ، وهو وصمة فى جبين العصر ، تضاف إلى

(١) اليتيمة ٣/١٧٨ (٢) اليتيمة ٣/٢٥٤

مثيلتها فى العصر العباسى ، وربما كانوا ينظمونه تندراً ودعابة ، أو تقليداً لأسلافهم ، وهو تقليد بغيض . ومن الحق أن كثيراً من الشعراء نَحَّوْ هذا النوع المقيت عن غزلهم ، مؤثرين أن يَطْبعوا أشعارهم بطوابع الغزل العفيف الطاهر الذى لا يعرف المتاع المادى للحب ولا اجتناء ثمراته من العناق وغير العنـاق ، إنما يعرف نيرانه المحرقة كما يعرف الحب الظامئ الذى لا يَرْوَى صاحبه أبدا ، فدائماً فراق ودائماً حنين واشتياق ، ودعاء كما قال أبو العلاء الأسدى (١) :

شتَّتوا بالفراق شَمْلى ولكنْ　　جَمَعَ الله شَمْلهم أين كانوا

وكثيرٌ من هذا الغزل العُذْرىّ كان يصوغه العلماء والفقهاء صورةً لطهارة نفوسهم ونقائها وما يتجشَّمون فى الحب من آلام دون أن يشوب تفكيرهم شيىء من الغريزة النوعية ، فقد تساموا عن الحسِّ وكل ما يتصل بالحس . ويكثر فى هذا الغزل الحنين المستمد من حنين العذريين ، الحنين إلى نجد وديار نجد مع الحسرات من الفراق والشوق إلى اللقاء . وربما لم يُكثر من ذلك شاعر كما أكثر الأبِيوَرْدى ، فقد جعل للنجديات أو الغزل النجدى العذرى قسما مستقلا من أقسام ديوانه الكبير ، ومن نجدياته :

نزلنا بنَعْمان الأراكِ ، وللنَّدَى　　سَقِيطٌ به ابتلَّت علينا المَطَارفُ (٢)
فبتُّ أُعَانى الوَجْدَ والركبُ نُوَّمٌ　　وقد أخذتْ منى السُّرَى والتَّنائفُ (٣)
وأذكر خَوْداً إن دعانى على النَّوى　　هواها أجابتْه الدموعُ الذوارفُ
لها فى مغانى ذلك الشِّعْبِ منزلٌ　　لئن أنكرتْه العينُ فالقلبُ عارفُ
وقفتُ به والدمعُ أكثره دمٌ　　كأنىَ من جَفْنى بنَعْمانَ راعفُ (٤)

وعلى نحو ما يجعلون محبوبتهم نجدية يجعلونها ممنَّعة ، فحولها أُسْدٌ يحمونها ، بحيث لا يستطيع المحب الولهان أن يلقاها أو يقرب من حِماها ، فدونها الموت الزُّؤام ، وفى ذلك يقول الطُّغْرائى فى لاميته (٥) :

إنى أريد طُروقَ الحىِّ من إضَمٍ　　وقد حَماهُ رُماةُ الحىِّ من ثُعَلِ
يحمون بالبِيض والسُّمْر اللِّدانِ به　　سودَ الغدائر حُمْرَ الحَلْىِ والحُلَلِ
فالحبُّ حيث العِدا والأُسْدُ رابضةٌ　　حول الكِناسِ لها غابٌ من الأَسَلِ

فهو يريد الإلمام بحى معشوقته فى إضم ، فيرى دون ذلك أهوالا ، فقد حماه رماة من

---

(١) اليتيمة ٣/٣٣٦ .
(٢) نَعْمان : واد بين عرفات والطائف . الأراك : من أشجار البادية ، المطارف : الثياب .
(٣) التنائف : المفازات . السرى : السير ليلا .
(٤) راعف : من الرعاف وهو الدم السائل من الأنف .
(٥) ديوان الطغرائى ص ٥٤ .

عشيرة ثُعل المشهورون منذ امرىء القيس بحذقهم فى رمى السهام ، وهم مسلحون بالسيوف والرماح ، يحمون نساءهم الفاتنات ، الرابضات فى الخدور وكأنهن ظباء فى كِناس تحوطه غابة ضخمة من الرماح ، والأسد جُثُومٌ ، والموت الأحمر ينتظر كل من يدنو أو يقترب . ونقف عند شاعرين من شعراء الغزل فى العصر.

أبو الفرج (١) بن هندو

هو على بن الحسين بن هندو ، وسقطت كلمة على من اليتيمة وصحح الاسم الثعالبى فى تتمتها . وكان من النابهين فى الطب والفلسفة والأدب والشعر ، وله من الكتب مفتاح الطب والمقالة المشوقة فى المدخل إلى علم الفلسفة وكتاب الكلم الروحانية من الحكم اليونانية وهو مطبوع ومنشور بالقاهرة . وقد تتلمذ فى الفلسفة والطب على يد أبى الخير بن الخمَّار وكان من أجل تلاميذه ، ووفد على الصاحب بن عباد ، فقرَّبه إليه ، وكان أحد كتاب الإنشاء فى ديوان عضد الدولة البويهى ، وعاش بعده طويلاً إلى أن وافته المنية بجرجان سنة ٤٢٠ . وكان له ديوان شعر لم يصل إلينا ، ويقول الثعالبى : « هو مع ضربه فى الآداب والعلوم بالسهام الفائزة ، وملكه رِقَّ البلاغة والبراعة ، فَرْدُ الدهر فى الشعر وأوحد أهل الفضل فى صيد المعانى الشوارد ، ونظم القلائد والفرائد ، مع تهذيب الألفاظ البليغة وتقريب الأغراض البعيدة وتذكير الذين يسمعون ويروون بقوله تعالى : (أفسِحْرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون) » . ويُنْشد له كثيراً من غزلياته وخاصة فى التتمة ، من ذلك قوله :

تقول : لو كان عاشقاً دَنِفاً ... إذنْ بدتْ صُفْرَةٌ بِخَدَّيْهِ
لأُتنْكريهِ فإن صُفْرَته ... غطَّتْ عليها دماءُ عَيْنَيْهِ

وهو برهان بديع ، وطبيعى لمن درس الفلسفه أن يحسن التعليل ، فصفرته متوارية فى خَدَّيه ، تُواريها دماء عينيه . وتكثر هذه العلل الطريفة فى غزله على شاكله قوله :

عارضَ وَرْدُ الغصون وَجْنَتَهُ ... فاتفَّقا فى الجمال واختلفا
يزداد بالقَطْف وَرْدُ وَجْنَتِهِ ... وينقصُ الورد كلما قُطِفا

فوجنة صاحبته وردها غريب ، ورد يزيده القطف ، إذ يزداد خدها به خجلا واحمرارا ، فيزداد الورد ويكثر ولا ينقص أبدا ولا تغيض حمرته ، بل لا يزال يولِّد فيه

---

(١) انظر فى ترجمة أبى الفرج بن هندو اليتيمة ٣/٣٩٤ وتتمة اليتيمة ١ / ١٣٤ والدمية ٢ / ٥٧ ومعجم الأدباء ١٣ / ١٣٦ وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (طبعة مكتبة الحياة – بيروت) ص ٤٢٩ وفوات الوفيات ٢/٩٥ وتاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ٩٣ – ٩٥ .

القطف وردا لا ينتهى ، ويتلطَّف لصاحبة له قائلا :

أيـا بـدرا بلا كَـلَـفٍ به دونَ الـوَرَى كلفى
أَبِنْ لى دُرَّ ثَغْرِك ما بهاءُ الدُّرِّ فى الصَّدَفِ

وواضح أنه يطلب إليها فى رقة أن تبتسم له ، حتى تنفتح له أبواب النعيم على مصاريعها ، وعلى مثال هذا التلطف قوله :

قُولا لهذا القَمر البادى مالِكَ إصلاحى وإفسادى
زَوِّدْ فؤادا راحلاً قُبْلَةً لابُدَّ للرَّاحل من زادِ

فكل مسافر لابد له من زاد ، وهو يريد أن يأخذ زاداً لروحه : قبلة من محبوبته ، تظلُّ تغذِّى مشاعره ، حتى يعود إليها من رحلته الطويلة . ويحاول فى غزله دائما أَن يأتى بصور مبتكرة ، فيجلب كثيرا من الصور الغريبة كقوله :

ليس لِى من أذَى الفراق اكتئابُ قد كفْتنى عَيْنِى جميعَ اكتئابى
كلما شئتُ أسبلتْ دمَ قلبى فأرى فيه صورةَ الأحباب (١)

فهو لا يكتئب للفراق كغيره من العشاق الذين طالما شكوا منه واكتئبوا ، إذ تردُّ عينه عنه اكتئابه بدموعها التى تنزف فيها دماء قلبه ، تلك التى يرى من خلالها صورة الأحباب ، فصورتهم لا تغادر دموعه . وإذا كان المحبون طالما شكوا من طول الليل وظلامه الداجى فإنه يناقضهم قائلا :

ليت أن الليل دامتْ ظُلَمُهْ فلقد جَلَّتْ لدينا نِعَمُهْ
مَثَّلَتْ صُدْغَيْكِ لى ظُلْمَتُهُ وأرتْ خَدَّيْكِ عينى أَنْجُمُهْ

فهو يتمثل فى الليل محبوبته ، إذ يرى فى ظلمته خُصَلَ شعرها المنسدلة على خديها ، ويرى خديها فى نجومه المتألقة ، وهو بُعْدٌ فى الوهم والتخيل ، وله :

قالوا اشتغلْ عنهمُ يوماً بغيرهمُ وخادعِ النفسَ إن النفس تنخدعُ
قد صِيغَ قلبى على مقدار حُبِّهمِ فما لحبِّ سِواهم فيه متَّسَعُ

وهو رَدٌّ طريف على من يطلبون إليه السَّلْوى عن بعض أحبابه بحبٍّ سواهم ، فقلبه مشغول دائما بهم وليس فيه مكان لغيرهم . وله معان طريفة كثيرة فى موضوعات الشعر المختلفة ، من ذلك قوله فى بخيل :

لو ماتَ لم يأكل الطعامَ إذا ما كان ذاك الطعامُ من كِيسهِ
ان لم نشاهد دُخانَ مَطْبخهِ فقد شَهِدْنا دخانَ تَعْبيسهِ

(١) أسبلت : أسالت .

فهو لا يأكل من كيسه ، بل يخزن المال ولا يرى سروراً إلا فى خزنه ، ولم يشاهد أحد له دخانا يعلو مطبخه ، فدخانه دائما يعلو وجهه ، تعبيس ما بعده تعبيس . ويقول فى النهى عن اتخاذ الأولاد والاقتناع بالوحدة :

ما لِلْمُعِيل وللمعالى إنما ... يسعى إليهنَّ الوحيدُ الفاردُ
فالشمسُ تجتابُ السماءَ وحيدةً ... وأبو بنات النَّعْش فيها راكدُ

وبنات النعش نجوم معروفة فى السماء لا تكاد تريم ، تشاهد بالقرب من القطب الشمالى ويدعوه أباها . وله فى الشكوى أشعار مختلفة منها قوله يشكو من مقامه بمدينة الرَّىِّ دون طائل :

ضِعْتُ بأرض الرَّىِّ فى أهلها ... ضياعَ حَرْف الراء فى اللُّثْغَه
صِرْتُ بها بعد بلوغِ المُنَى ... يعجبنى أن أبلغَ البُلْغَه [١]

ولعل فى كل ما قدمنا ما يصور شاعرية أبى الفرج بن هندو وبراعته فى نظم الشعر والإتيان فيه ، وخاصة فى الغزل ، بالصور والمعانى الطريفة المبتكرة .

أبو الفضل [٢] الميكالى

هو عبيد الله بن أحمد من آل ميكال وُجَهاء نيسابور ، وطالما عملوا مع السامانيين فى دواوينهم وولاةً لهم على بعض البلدان ، ومرَّ بنا تنويه الثعالبى بهم ، وفى أبى الفضل يقول : « الأمير أبو الفضل عبيد الله بن أحمد يزيد على الأسلاف والأخلاف من آل ميكال زيادة الشمس على البدر ، ومكانه منهم مكان الواسطة من العقد وما على ظهرها اليوم أحسن منه كتابة وأتم بلاغة . ثم يورد الثعالبى قول بعض الشعراء فى وصف بلاغته وحسن بيانه على هذا النمط :

لك فى المحاسن معجزاتٌ جَمَّةٌ ... أبداً لغيرك فى الوَرَى لم تُجْمَعِ
بحران : بحرٌ فى البلاغة زانَهُ ... شِعْرُ الوليد وحُسْن حِفْظ الأصمعى [٣]
وإذا تَفتَّق نَوْرُ شِعرك ناضرا ... فالحسنُ بين مرصَّعٍ ومصرَّعِ
أَرْجَلْتَ فُرسان القَريض ورُضْتَ أَفْـ ... ـرلسَ البديع وأنت أمجدُ مبدع [٣]

وليست عندنا معلومات واضحة عن حياة أبى الفضل ، ويذكر ابن خلكان أنه دخل

---

(١) البلغة : ما يكفى لسدِّ الحاجة .

(٢) انظر فى أبى الفضل اليتيمة ٤/٣٥٤ وفوات الوفيات ٢/٥٢ وابن خلكان ٣/٢٠٢ ، ٥/١٠٩

(٣) الوليد : البحترى

(٤) أفراس : ج فرس ، فرسان : ج فارس .

بغداد بعد صدوره من الحج سنة ٣٩٠ وأن له مصنفا يسمى المنتخل جمع فيه مختارات شعرية . ويروى الثعالبى له شعرا قاله فى نكبة ، ويبدو أنه حُبس فى عهد الغزنويين حين استولوا على إمارة السامانيين . وقد أنشد الثعالبى طائفة كبيرة من أشعاره منها نُبَذ فى الغزل من مثل قوله :

لقد راعنى بَدْرُ الدُّجى بِصدودهِ ووكَّل أجفانى بِرَعْىِ كواكِبهْ
فياجَزعى مَهْلاً عساه يعود لى ويا كبدى صَبْراً على ما كواكِ به

وواضح أنه قصد إلى الجناس قصدا فى قافيتى البيتين ، فكلمه «كواكبه» فى البيت الأول لا تنقص عنها شيئاً كلمه «كواك به» . وهذا هو البديع الذى يشير إليه مادحه . إذ شُغف الإيرانيون أو قل كثير منهم بصنعة الجناس ، حتى ليروى الثعالبى فى يتيمته أن شاعرا يسمى أبا حفص عمر بن على المطوّعى ألف فى أجناس التجنيس كتابا ، ويقول الميكالى :

أنكرتِ من أدمعى تَتْرَى سوَاكبُها
سَلِى جُفونىَ هل أبْكِى سواكِ بها

والبيتان خفيفان فى موسيقاهما ، ولكنه أثقلها بهذا الجناس المتعمد فى القافيتين : «سواكبها» و «سواك بها» . وقد يجعل الجناس بين كلمتين فى البيت الواحد كقوله :

وأصْداغهُ يَلْسَعْنَنى كالعَقاربِ وألحاظُه يَفْعَلْنَ فعلَ العُقَارِ بى

وقوله :

ألا ليت الجوابَ يكون خيْراً فَيْشفِى ما أحاط من الجَوَى بى

والعقارب الأولى فى البيت الأول : جمع عقرب ، والعقار فى نهاية البيت : الخمر ، والجوى فى نهاية البيت الثانى : حُرقة الوجد ولوعته ، وقد أضاف إليها كلمة «بى» ليتم له الجناس بين آخر البيت وكلمة الجواب فى أوائله ، ويقول :

ظَبْىٌ يَحارُ البَرْقُ فى بَرِيقهِ غَنيتُ عن إبريقهِ بِريقهِ
فلم أزل أَرْشُفُ من رَحِيقهِ حتى شفيتُ القلب من حَرِيقهِ

وقد أدخل على كلمة «ريقه» وهو رُضاب الفم الباء ليتم له الجناس بين نهايتى الشطرين المتقابلين ، والجناس فى البيت الثانى أكثر قبولا إذ جانس بين «رَحِيقه» و «حريقه» لتداخل الصورة معه ولأن الجناس ليس تاما ، فالتكلف فيه يبدو أقل قليلا ، ويقول :

شافَهَ كَفِّى رَشأٌ بِقبلةٍ ما شَفَتِ
فقلتُ إذ قَبَّلها يا ليت كفِّى شَفَتى

والجناس مقبول فى البيت الثانى ، وربما الذى جعله مقبولا أن كلمة «كفىٍّ» هَيَّأت له واستدعته ، فخفَّ التكلف فيه ، ولم تمجّه النفس ، ومثله قوله :

ماذا عليه لو أباحَ رِيقَهُ لقلبِ صَبٍّ يَشْتكى حَرِيقَهُ

والجناس هنا بين «ريقه» و«حريقه» مقبول لأنه ليس جناسا تاما يبدو فيه القصد والتكلف ، وكأنه جناس طبيعى استدعاه الكلام ، وقارنْ ذلك بقوله :

صَدَفَ الحبيبُ بوَصْلهِ فجفَا رُقادى إذ صَدَفْ
ونثرتُ لُؤْلُؤَ أدمعٍ أَضْحَى لها جَفْنى صَدَفْ

فقد جانس بين قافيتى البيتين باستخدامه كلمة «صدف» الأولى بمعنى أعرض ، والثانية بمعنى غشاء اللؤلؤة ، والتكلف شديد الوضوح . وكثيرون غيره من معاصريه كانوا يذهبون مذهبه فى هذا الجناس الثقيل الذى كثيرا ما تقابل فيه كلمتان كلمة واحدة ، ويقرب منه فى هذا التصنع بل ربما زاد عليه وأربى أبو الحسن أحمد[1] بن المؤمل ، وقد روى له منه الثعالبى أبياتا كثيره فى الغزل وغير الغزل . وللميكالى وراء غزله أشعار فى وصف الطبيعة وفى الإخوان ، وله مداعبات ، ولا يخليها أيضا من تصنعه ، كقوله :

فَتىً سَخِطَ النَّصْبَ فى قِدْرِه كما رَضِىَ الخَفْضَ فى قَدْرِهِ

وقد تصنع لذكر النصب والخفض المعروفين فى النحو ، وأراد أنه لا ينصب قدره ولا يدع فيها شيئا يطبخ ، كما رضى بالدون فى قدره فلا كرم له ولا همة . ومن طريف ما روى له الثعالبى قوله :

كم والدٍ يَحْرِمُ أولادَهُ وخَيْرُهُ يَحْظَى به الأَبْعَدُ
كالعَيْنِ لا تبصِرُ ما حولها ولَحْظُها يُدْرِك ما يَبْعُدُ

ولعل فيما قدمنا ما يدل على شاعرية أبى الفضل الميكالى ، ولو لم يثقلها بكلف الجناسات لبدا خِصْبُها واضحا ، إذ كان غزير المعانى والصور . وليس من ريب فى أن إعجاب الشعراء والأدباء من حوله بجناساته هو الذى جعله يبالغ فى ذلك ويغلو فيه .

٢

شعراء اللهو والمجون

كان شعر اللهو والمجون منتشرا فى إيران طوال العصر ، إذ كان هناك من ينغمسون فى الملاهى والخمور إما لتحلل الأخلاق وإما هروبا من مآسى الحياة وما فيها من اضطراب

(١) انظر ترجمته فى اليتيمة ١٤٨/٤ .

القيم ، وكان يتورط فيها كثيرون من رجال الدولة : سلاطينها ووزرائها . ومرت بنا أبيات لعضد الدولة فى غير هذا الموضع يقول فيها إن متاع الحياة إنما هو الشرب فى المطر وغناء الجوارى فى السحر . وكان وزراؤه على شاكلته يعكفون على الخمر ويتغنون بها فى أشعارهم من مثل قول الصاحب بن عباد فى وصف كأس مملوءة بالخمر[١] .

رَقَّ الزجاجُ وراقَتِ الخمرُ وتشابها ، فتشاكلَ الأَمْرُ
فكأنما خمرٌ ولا قَدَحٌ وكأنما قدحٌ ولا خَمْرُ

وكان كثيرا ما يحاكى الصَّنَوْبرى فى ثلجياته أو بعبارة أخرى فى ذكره الخمر مع الثلج ونزوله فى الشتاء القارس وفى ذلك يقول[٢] :

أقبلَ الثلجُ فانْبَسِطْ للسرورِ ولشُرْب الكبير بعد الصغيرِ
أقبل الجوُّ فى غلائلِ نُورٍ وتهادى بلؤلؤٍ منثورِ
فكأنَّ السماءَ صاهرتِ الأرْ ضَ فصار النِّثارُ من كافور

وكأنما يتصور الدنيا تجلو عروسا . وتتكاثر هذه الثلجيات عند غيره من شعراء العصر ، فقد أكثروا من وصف شرب الخمر واحتسائها فى أيام الثلج وزَمْهريره ، ومعروف أن العكوف على الخمر قديم فى إيران منذ أعتق عصورها ، وظل ذلك طوال الحقب ، ويقول أبو عبد الله الروزبارى[٣] :

ما لابْنِ هَمٍّ سوى شُرْبِ ابنةِ العِنَبِ فهاتها قهوةً فَرَّاجةَ الكُرَبِ
أَدْهِقْ كُئوسَك منها واسْقِنِى طرباً على الغيوم فقد جاءتْك بالطَّرَبِ[٤]
نِثارُ غَيْثٍ حكى لونَ الجُمان لنا فاشربْ على منظرٍ مستحسنٍ عَجَبِ
جاد الغمامُ بدمعٍ كاللُّجَيْنِ جَرَى فجُدْ لنا بالتى فى اللون كالذهب

فهى فرحتهم ومسرتهم فى دنياهم ، وهم يعبُّون منها أرطالا تلو إرطال حين يكفهر الجو بالسحب ، لما تبعث فى النفوس من طرب فى أيام الشتاء المفضَّضة ، التى تتناثر فيها الأمطار ، وكأنها نِثار عرس مفرح ، نثار فضىّ مبهج ، ويقول أبو المظفر ناصر بن منصور البُسْتى المعروف بالغزّال[٥] :

وإذا الهمومُ تطاولتْ فاطلبْ لها عَيْشاً هنيئاً بانتزاعِ مُدَامِ
صَهْباء تَسْطَعُ فى الكئوس كأنها نارٌ تجيشُ بوقدةٍ وضِرام
من كفِّ سَاقٍ لو سقاك بكفّه سَماً لكان شِفاً لكل سَقَامِ

(١) النجوم الزاهرة ١٧١/٤ .
(٢) اليتيمة ٢٦١/٣ .
(٣) اليتيمة ٤١٦/٣ .
(٤) أدهق : املأ .
(٥) الدمية ٣٥٨/٢ .

وكأنها معصورةُ من خدِّهِ إذ ظَلْتَ تَرْمقهُ بِلَحْظٍ سامِ

وأبو المظفر يريد أن يعيش حياته لتناول الكئوس التى تلهب فؤاده ، من كف ساق يقدم له بها ما يشفى سقامه ، ويتخيلها كأنما عصرت من خدود جميلة ، وهو يكبّ عليها غير محتشم ولا مفكر فى رشاد ، فحسبه الخمر وحسبه احتساؤها ، وليكن من الإثم ما يكون ! ودائما تلقانا هذه الخمريات فى تراجم الشعراء ، إذ كان يتورَّط فيها كثيرون من مثل عمر الهرندى القائل [١] :

لا أحبُّ المُدامَ إلا العَتِيقا ويكونُ المزاجُ من فيكِ رِيقا
إنَّ بين الضلوعِ منىَ ناراً تتلظَّى فكيف لى أن أُطيقا
بحياتى عليك يا مَنْ سقانى أرحيقاً سقيتنى أم حريقا

فبين ضلوعه نار متقدة لا يشفيها إلا الخمر وهو يعكف عليها ، ولا يدرى أحريق هى أم رحيق لأنها تدفعه دائما إلى المزيد ، بحيث لا يستطيع أن ينصرف عنها ، إذ تأخذ عليه طريقه . وإنها لتظل تملؤه حُبًّا لها وشوقا لارتشافها ، وهو يرتشف ولا يدرى أيرتشف رحيقا أو نارا أو قل أيرتشف شرابا هنيئا أو سُمًّا زعافا ، وهو ممعن فى الشرب متعلق به ، لا يستطيع فكاكا منه ولا خلاصا . وكانت للخمر مواسم عندهم هى الأعياد الفارسية والمسيحية ، ففى عيد الشَّعانين وفى أعياد النَّيروز والمهرجان والسَّذَق أو النار المجوسية يشربون منها ويعبُّون فى احتفالات صاخبة . وكانوا يشربونها كثيرا وسط الرياض ، ولذلك يكثر عندهم معها وصف الطبيعة والربيع البهيج . وتلقانا فى أثناء ذلك أبيات طريفة من مثل قول أبى منصور قَسيم بن إبراهيم ، وكان ينظم باللسانين العربى والفارسى [٢] :

وحُجِّبَ فى الثلج الربيعُ وحُسْنُهُ كما اكتنَّ فى بَيْضٍ فِراخُ الطَّواوسِ

وكانوا يخرجون أحيانا للصيد والطَّرِد ، ولأحمد بن عضد الدولة طردية بديعة [٣] . ونعجب لألفاظ الفحش والمقاذر التى نجدها عند بعض الشعراء ، وهو جانب أشاعه فى العصر ابن الحجاج الشاعر البغدادى المتوفى سنة ٣٩١ ومواطنه ابن سكرة . ويلاحظ ذلك صاحب الدمية حين يترجم للمشطَّب الهمَذانى ، فيقول : « له أشعار سخيفة نسج فيها على منوال ابن الحجاج [٤] » ويذكر منها قصيدة مليئة بالفحش ، وحتى الصاحب بن عباد الوزير الوقور تجرى أمثلة من هذا الفحش على لسانه فى أشعاره [٥] ، وهى وصمة لا

(١) اليتيمة ٣ / ٤١١ .
(٢) تتمة اليتيمة ٢ / ٤٥ .
(٣) اليتيمة ٢ / ٢٢١ .
(٤) الدمية ١ / ٥٧٢
(٥) اليتيمة ٣ / ٢٧٢ – ٢٧٥

شك فيها . وحسبنا الآن أن نعرض شاعرين من شعراء الخمر والمجون فى العصر هما أبو بكر القهُستانىْ وأبو الحسن الباخرزىّ .

أبو بكر[1] القُهُسْتانىّ

هو على بن الحسن القُهُسْتانى من قرية رُخَّج من قرى كابُل ، بزغ نجمه فى دولة السلطان محمود الغزنوى ، إذ سلكه بين ندمائه ووظفه فى دواوينه ، واتصل بابنه محمد ، وأصبح رئيسا لديوانه فى أثناء ولايته لأبيه على خوزستان ، وكان ممدَّحا ، مدحه كثيرون منهم الباخرزى والفرُّخى السجستانى الشاعر الفارسى المشهور ، وكان يمدح بدوره الأمير محمد الغزنوى ، بمثل قوله :

محمدُ بنُ محمودٍ أبو أحـ ـمَدٍ مَوْلَى أميرِ المؤمنينا
جلالُ الدولةِ العَلْياء دُنْيا جمالُ المِلَّة الغَلْباء دينا
ولىُّ العهدِ عهدِ المُلْك طُوبَى لنا إذ ظَلَّ ظِلُّ الله فينا

وهو يشير إلى تولية السلطان محمود لابنه محمد ولاية العهد من بعده دون أخيه مسعود . وتُعَدُّ الفترة التى قضاها معه أزهى فترات حياته ، فقد كان يحس بإقبال الدنيا عليه ، وخاصه حين كان يتولى قيادة جيوشه . وقد تحول بمجلسه فى ديوانه إلى ندوة أدبية كبيرة كان ما يني يمزح فيها وفى مجالس أميره بإنشاد بعض الألغاز المعَمَّاة وامتحان الأدباء والندماء فيها من مثل قوله :

دقيقةُ الساقِ لا عروقَ لها تَدوسُ رزقَ الوَرَى بهامَتِها

وهو لغز أراد به مغرفة الباقلَّانى يغرفُ بها الماء ويهشم برأسها الخبز والثريد وهو رزق الورى . وتكثر هذه الألغاز منذ فاتحة العصر ، ونراها مبثوثة فى كتاب اليتيمة فى أشعار ابن العميد وغيره ، وكأنها دعابات كانت تطفو فى مجالس الأدباء والوزراء . ويتولى محمد مقاليد الحكم بعد أبيه سنة ٤٢١ غير أن أخاه مسعودا يسلبه منه كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . ونرى القهستانى يترك بلاط الغزنويين ودواوينهم إلى بغداد ، فيمدح الخليفه القادر بالله (٣٨٢ - ٤٢٤ هـ) قائلا :

ولم يرنى ذو مِنَّةٍ غَيْرُ خالقى وغيرُ أميرِ المؤمنين ببابهِ

ويمدح وزيره وكاتبه أبا طالب بن أيوب ، كما يمدح المرتضى نقيب الشيعة ويبدو أنه

---

(١) انظر فى القهستانى تتمة اليتيمة ٧٣/٢ ودمية القصر ٢١١/٢ ومعجم الأدباء ٢١/١٣ وحدائق السحر فى دقائق الشعر (نشر الدكتور إبراهيم أمين) ص ١٠٠ .

ظل ببغداد إلى نهاية العقد الثالث من القرن الرابع ، حتى إذا استولى السلاجقة من السلطان مسعود الغزنوى على خراسان سنة ٤٣١ وضع يده فى أيديهم إلى أن توفى . ولا تُعْرَفُ بالضبط سنة وفاته . وكان مثقفا ثقافة واسعة ، إذ يقول القدماء إنه عُنى بتحصيل علوم الأوائل حتى اتهمَّه بعض معاصريه بالمروق من الدين . ويقول ياقوت إنه كان كثير المُزاح ، راغبا فى اللهو والمِراح ، وله فى ذلك خاطرٌ وَقَّاد وحكايات متداولة . وله خمريات بديعة ، كان يتغنى فيها المغنون بحضره الأمير محمد الغزنوى من مثل قوله :

قُمْ يا خليلى فاسْقِنِى كشُعاع خَدِّك من شرابِ
فلقد يَمُرُّ العيش مُنْـ ـقَرِضاً ولا مَرَّ السَّحاب
فانعَمْ بعيشك ما استطَعْـ ـتَ ولا تُضِعْ شَرْخَ الشبابِ
فلكم أضعتَ من الشبا ب وما استفدتَ سوى اكتئابِ

وهو يدعو صديقه دعوة حارة إلى الشراب ، قبل أن يفنى عمره الذى يمر مُسْرِعاً مرَّ السحاب ، وقبل أن تذيل زهرة شبابه ، وكم أضاع من أيام الشباب ، ولم يفد – كما يقول – سوى الاكتئاب والغم والحسرات ، ويهتف به ثانية :

تمتَّعْ من الدنيا فأوقاتُها خُلَسْ وعُمْرُ الفتى - مُلِّيتَ - أطولُه نَفَسْ .
وسارعْ إلى سَهْمٍ من العيش فائز فما ارْتَدَّ سَهْمٌ قَطُّ يوما ولا احتَبَسْ
ولا تتقاضَ اليوم هَمَّ غَدٍ ودَعْ حديثَ غَدٍ فالإشتغالُ به هَوَسْ
هىَ الرُّوحُ كالمصباح والرَّاحُ زَيْتُها فدونك عَنِّى إنما الرَّأىُ يُقْتَبَسْ

وهى دعوة ملتهبة لانتهاز فرصة الشراب ، فليس فى الدنيا وراءه – فى رأيه – نعيم ولا متاع ، ودَعْك من الهموم كما يقول ، ودع التفكير فى الغد . وهى نفس النغمة التى نجدها فى رباعيات الخيام الفارسية ، فالحياة فانية ، وهى سريعة الفناء ، وعلى الإنسان أن يتدارك يومه ، بل اللحظة التى هو فيها ، ليشرب وينعم بالشراب ، إذ هو زيت الروح ، بدونه تنطفئ وتظلم ، وبه تضيىء ضوء الفرح والبهجة والمرح . ودائما تلقانا هذه الخمريات البهيجة عند القهستانى وأنداده من شعراء إيران ، وإنه ليعلن دائما أنه سيظل ما عاش يشرب الخمر صفوا . وله وراءها غزليات وأهاج فى الوزير الميمندى كاتب السلطان محمود الغزنوى وبعض معاصريه ، وله بعض مقطوعات كان يتصنع فيها للجناس ما وسعه التصنع كمقطوعته :

تمتَّعْ بيومٍ مُسْعِدِ النُّجْح مُسْعِفِ ودَعْ قولَ لاحٍ مُعْنتِ النُّصْح مُعْنِفِ

وهى مليئة من بدايتها إلى نهايتها بمثل هذه الجناسات ، وأيضا كان يقتبس كثيرا بعض

الآيات القرآنية كقوله فى بعض مديحه :

سما بك من فوق السمواتِ رُتْبَةً ... أبٌ لك يدعو اللهَ فى السِّرِّ والجَهْرِ
كما قد دعَا موسى لهرون ربَّهُ ... أن (اشْدُدْ به أَزْرِى وأَشْرِكْهُ فى أمرِى)

ولا ريب فى أنه كان شاعرا بارعا ، كما كان كاتبا نابها دُوِّنت رسائله كما دُوِّنت أشعاره ، ويقول ياقوت : « له أشعار فائقة ، ورسائل رائقة » .

أبو الحسن (١) الباخَرْزِىّ

له كنيتان أبو الحسن وأبو القاسم ، واسمه على بن الحسن بن على بن أبى الطيب ، من باخَرْز ، من نواحى نَيْسابور ، ونراه يُعْنَى فى شبابه بالاختلاف إلى حلقات العلماء بنيسابور ، ويُكِبُّ على الاشتغال بالفقه على مذهب الإمام الشافعى ، ويختص بملازمة دروس الفقيه المشهور لعصره أبى محمد الجُوَيْنى والد إمام الحرمين . ويتجه إلى فن الكتابة . ويوظَّف فى ديوان الرسائل لدى الغَزنويين ، وحين يرتفع نجم السلاجقة نراه يرحل إليهم ويشتغل فى دواوينهم ، إذ يصبح كاتبا للسلطان « طُغْرُل » وله فيه مدائح بديعة من مثل قوله :

سِرْنا ومرآة الزمانِ بحالها ... فالآن قد مُحقتْ وصارتْ مِنْجَلاَ
تَخِدُ الرِّكابُ فلا تعوجُ بنا على ... طَلَل الحبيب ولا تُحَيِّى المنزلا (٢)
وتحرِّك الأعطافَ تَشْميرا بنا ... تتيمَّم الملكُ المظفَّر طُغْرُلا

وقرَّبه منه الوزير الكُنْدرى ، وكانا يتعارفان فى شبابهما ، ويبدو أنه هو الذى وصله بطغرل ، وكان يلازمه فى حله وترحاله ، فلما ورد بغداد صحبه معه ، وفيها مدح الخليفه القائم بأمر الله سنة ٤٥٥ بقصيدته التى صدَّر بها ديوانه مفتتحاً لها بقوله :

عِشْنا إلى أن رأينا فى الهوى عجباً ... كلَّ الشهور وفى الأمثال عِشْ رَجَبا
أليس من عجبٍ أنى ضُحَى ارتحلوا ... أو قدتُ من ماءِ دمعى فى الحشَا لهبَا
وأنَّ أجْفان عينى أمطرتْ وَرِقاً ... وأن ساحة خدِّى أنبتتْ ذَهَبا
وإنْ تَلهَّبَ بَرْقٌ من جوانبهم ... توقَّد الشوق فى جَنْبَىَّ والتهبا

ولما سمع البغداديون شعره استهجنوه وقالوا فيه برودة العجم ، لما لاحظوا فيه من تكلف

---

(١) انظر فى الباخرزى كتاب الأنساب ٥٧ ب ومعجم الأدباء ٣٣/١٣ وابن خلكان ٣٨٧/٣ والنجوم الزاهرة ٩٩/٥ والسبكى ٢٥٦/٥ واللباب ٨٣/١ ومرآة الجنان ٩٥/٣ وشذرات الذهب ٣٢٧/٣ وبراون (ترجمة الشوارِبى) ص ٤٥١ .

(٢) تخد : تسرع . تعوج : تميل

وتصنع ، على نحو ما نرى فى البيت الأول إذ حاول أن يستغل المثل : «عِشْ رَجَبا تَرَ عَجَباً » فقال إن شهور الممدوح كلها عجيبة ، ومضى فى تصنعه ، فماء دموعه يوقد جحيما فى حشاه وأجفان عينه تمطر ورقا أو دموعا كالفضة الصافية ، بينما تنبت ساحة خده حين الوداع ذهبا . وحين رأى البغداديين يستبردون أشعاره انتقل إلى الكَرْخ وسكنها وخالط فضلاءها وسُوقتها مدة ، واقتبس من لغتهم وظَرْفهم ، ثم أنشأ قصيدة استهلها بقوله :

هَبَّتْ علىَّ صَباً تكاد تقولُ ... إنى إليك من الحبيب رسولُ
سَكْرَى تجشَّمتِ الرُّبَى لتزورنى ... من عِلَّتى وهُبُوبُها تعليلُ

فاستحسنها البغداديون ، وقالوا تغير شعره ورقَّ طبعه . وظلَّ ملازما الكندرى فى مدينة الرَّىِّ عاصمة طغرل عاملا فى دواوين الدولة ، ومقدما له مدائح كثيرة ، إلى أن قبض السلطان أَلْب أرسلان على الكندرى وأمر بقتله ، وله مرثية فيه غير أنه يشيد فيها بقاتله ، مما جعل القدماء يأخذون عليه عدم الوفاء . ويبدو أنه أخذ يُعْنى منذ ذلك بتأليف كتابه دمية القصر الذى نرجع إليه كثيرا ، مذيِّلا به على يتيمة الدهر للثعالبى ، كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع . واستقال من عمله فى دواوين السلاجقة وأخذ يعيش عيشة لاهية ماجنة انتهت بمقتله فى إحدى ليالى أنسه سنة ٤٦٨ للهجرة . وكان ينظم ، باللسانين العربى والفارسى ، وله فى الفارسية قصيدة طويلة جعل عنوانها «طرب نامه» أو رسالة الطرب ، وهى مؤلفة من رباعيات فارسية تتوالى بحسب الترتيب الهجائى للحروف . وكان ما يزال يحاول النفوذ إلى معان وصور غريبة نادرة ، من ذلك قوله يصف شدة البرد وزمهريره .

كم مؤمنٍ قَرَصَتْهُ أظفارُ الشِّتا ... فغدا لسُكَّان الجحيم حَسُودا
وترى طيورَ الماء فى وُكناتها ... تختار حَرَّ النار والسَّفُّودا
وإذا رميتَ بفضل كأسك فى الهوى ... عادتْ عليك من العقيق عُقودا
ياصاحبَ العودين لا تُهمِلْهما ... حَرِّق لنا عودا وحَرِّك عودا

والصور فى الأبيات تقوم على المبالغة الشديدة ، فالمؤمن يحسد سكان الجحيم والطيور تؤثر لو تُشْوَى على السفود . ولو رميتَ فى الهوى بفضل الكأس لتجمدت حبات الخمر وأصبحت عقودا . وينادى على المغنى أن يحرك عود طرب للغناء ويحرق عود حطب للصِّلاء . وله غزليات رقيقة من مثل قوله :

قالتْ وقد ساءلتُ عنها كلَّ مَنْ ... لاقيتهُ من حاضرٍ أو بادِى
أنا فى فؤادك فارْمِ طَرْفك نحوه ... تَرَنى فقلتُ لها وأين فؤادى

ففؤاده ليس عنده ، بل هو عندها ، إذْ ضاع منه ، وهى التى تعرف مكانه ، وماذا

عليها لو ردته إليه ، وله من جملة أبيات :

بصورة الوَثَن استعبَدَتْنِى وبها فَتَنَتْنِى وقديما هِجْت لى شَجَنا
لا غَرْوَ أن أحرقتْ نارُ الهَوى كبدِى فالنارُ حَقٌّ على من يَعْبُدُ الوَثَنا

والصورة طريقة غير أنه يداخلها شيىء من التكلف ، إذ حاول أن يعلل لحرق نار الهوى لكبده بأن صاحبته استعبدته بصورة الوثن ، وكأنه عَبَد وَثَناً وحقَّت عليه النار ، ولم يكن فى حاجة إلى إيراد هذه العلة وتكلفها على هذا النحو ، فنار الهوى تحرق أكباد الشعراء من قديم ، ولعل الصورة التالية أكثر تكلفا إذ يقول فى غزله :

زكاةُ رءوسِ الناس فى عيدِ فِطْرهم يقول رسولِ الله -صاعٌ من البُرِّ
ورأسُكِ أغلى قيمةً فتصَدَّق بفيك علينا فهْو صاعٌ من الدُّرِّ

فقد وضع صورة الزكاة فى عيد الفطر ومايجب على كل مسلم من تصدقه بصاع من البُرِّ أو القمح فى هذا العيد ، ليصل إلى أن صاحبته ينبغى أن تتصدق عن نفسها لا بصاع من البر وإنما بصاع من الدُّرِّ ، يريد ثغرها وما فيه من دُرِّالأ سنان . والصورة فى غاية التكلف . وتكثر مثل هذه الصور منذ مطالع هذا العصر ، وكأنما أخذ يُعْيِى الشعراء أن يأتوا بصور طبيعية أوكأنما أحسُّوا أن أسلافهم استنفدوها ، فأخذوا يحاولون الإتيان بهذه الصور الغربية المبعدة فى الغرابة من مثل قول الباخرزى أيضا لبعض صواحبه :

وأبكى لدُرِّ الثَّغْر منكِ ولى أبٌ فكيف يُديم الضِّحكَ وهْو يتيمُ

فهو يبكى لأنها لا تنيله شيئا ، ويعجب أن يبكى وله أب ، بينما ثغرها يضحك ، وهو يتيم . والتورية واضحة ، فالمعنى المتبادر أنه لا أب لهذا الثغر ، وهو يريد أنه منقطع النظير حسنا . والتكلف فى البيت أوقل فى الصورة شديد الوضوح .

٣

شعراء الزهد والتصوف

لا شك فى أن موجة المجون وما اتصل بها من لهو وخمر كانت موجة محدودة ، حتى لتكاد تكون قاصرة على البيئات المترفة ، أما بيئات الشعب العامة فلم تكن تعرف الترف ولا ما يستتبعه من الخمر والمجون ، إنما كانت تعرف قسوة الحياة وشظفها مستعينة عليها بتقوى الله والاستماع إلى الوعاظ فى المساجد بِنَيْسابور وغير نيسابور وما يدعون إليه من الزهد فى الحياة ومتاعها الزائل وانتظار ما عند الله من ثواب ونعيم فى الدار الآخرة . وكان هؤلاء الوعاظ كثيرين كثرة مفرطة ، وكانوا يسمُّون مجالس وعظهم مجالس التذكير ، يذكِّرون

الناس بالمحشر وما فيه من أهوال وبعذاب النار ونعيم الجنان ، موردين عليهم من قصص الأنبياء والأمم السالفة ما يملأ قلوبهم إيمانا وتقوى وورعا . وكانت العامة تُشْغَفُ بهم ، وتستدير حول مجالسهم منيبة إلى الله مغذِّيةً مشاعرها وعواطفها بما تسمعه من مواعظهم . وكان نفر من كبارهم مثل أبى عثمان الصابونى شيخ الإسلام بنيسابور المتوفى سنة ٤٤٩ ، وكان يعظ الناس بالعربية والفارسية لمدة ستين سنة متوالية[١] ، وطبيعى أن يشعر مع هذا الوعظ شعر الزهد على ألسنة الوعاظ والفقهاء والنسَّاك ، فهو الشعر الذى تهوى إليه أفئدة الشعب ، ولذلك مضى ينظمه غير شاعر حتى يستولى على ألباب سامعيه ، وتلقانا فى العصر مواعظ كثيرة ، من مثل موعظة أبى الفرج الساوى حين توفى السلطان فخر الدولة البويهى ، فقد نفذ من موته إلى صنع موعظة طريفة استهلها بقوله[٢] :

هىَ الدنُّيْا تقولُ بملِء فيها ... حَذارِ حذارِ من بَطْشي وفَتْكى
فلا يغرركمُ حُسْنُ ابتسامى ... فقولى مضحكٌ والفعلُ مُبْكى
بِفَخْرِ الدولة اعْتَبِروا فإنى ... أخذتُ المْلكَ منه بسيفِ هُلْك
وقد كان استطالَ على البرَايا ... ونظَّم جمعهم فى سِلْك مُلْكِ
فلو شمسُ الضُّحَى جاءتْه يوماً ... لقال لها عُتُوًّا : أُفِّ منكِ
ولوزُهْرُ النُّجومِ أبتْ رِضاه ... تأبَّى أن يقول : رضيتُ عنكِ
فأَمْسَى بعد ما قَرعَ البرايَا ... أسيرَ القَبْر فى ضِيقٍ وضَنْكِ
وظنىِّ أنه لو عاد يَوْماً ... إلى الدُّنْيا تَسَرْبَلَ ثَوْبَ نُسْكِ

ومضى يتخذ من موت هذا السلطان الباغى عبرة وعظة ، فلو أنه عاد إلى الدنيا لطأطأ من كبريائه وعتوِّه وظلمه بل لرفض الدنيا زاهدا فيها مؤثرا أن يعيش عيشة النُّسَّاكِ . وفى كِتاب اليتيمة شاعر يسمى أبا محمد إسماعيل بن محمد الدهان ، كان يشغل نفسه حقبة بمديح الأعيان والوجهاء ، ثم آثر الزهد والإعراض عن الدنيا ، ويُورد الثعالبى أطرافا من شعره الزاهد[٣] من مثل قوله :

عَبْدٌ عَصَى ربَّه ولكنْ ... ليس سوى واحدٍ يقولُ
إن لم يكن فِعْلُهُ جميلا ... فإنما ظَنُّه جَميلُ

(١) انظر ترجمته فى الأنساب ٣٤٦ وطبقات المفسرين للسيوطى وتتمه اليتيمة ١١٥/٢ والسبكى ٢٧١/٤ .
(٢) اليتيمة ٣٩٣/٣ .
(٣) اليتيمة ٤٣٢/٤ .

وهو يصوِّر فناء الإنسان السريع وخوفه من ربه ورجاءه فى لطفه ، ويذكر الثعالبى أنه لما أزمع الحج وزيارة قبر الرسول ﷺ ظل ينشد :

أتيتك راجلا ووَدِدْتُ أنى ملكتُ سوادَ عَيْنى أَمْتطيهِ
ومالى لا أسيرُ على المآقى إلى قبرٍ رسولُ اللهِ فيه

ومن شعراء كِتاب اليتيمة الذين شاركوا فى هذا الشعر الزاهد الذى يفوح بالتقوى أبو جعفر البحَّاث الزَّوْزَنى أحد القضاة بخراسان ، وله موعظة طويلة يتحدث فيها عن الشباب ورحيله والمشيب ونزوله ، ويقف بإزاء الزمان وما يدير على الناس من كئوس شراب هنئ وشراب بغيض مرير ، ويفيض فى الحديث عن الحياة والموت وكيف أتى على الملوك والحشم والجيوش وربات الخدور والحسان ، ويسخر من الأغنياء حين يموتون فإن ورثتهم يستبشرون بموتهم ، وكل منهم يصبح فى شغل بميراثه ، يقول(١) :

سباعٌ حَواليه زُرْقُ العيونِ كلابٌ وأُسْدٌ وذئبٌ أَزَلُّ(٢)
فهذا يجاذب ما قد حواهُ وهذا يُخالسهُ ما فضَلْ
إذا وضعوه على نَعْشِهِ أشاعوا البُكا وأسَرُّوا الجَذَلْ(٣)
وإن دفنوه نَسوهُ مَعاً وكلٌّ بميراثِهِ مُشتَغِلْ

ويبكى أبو جعفر بدموع غزار على شبابه وما صار إليه من وهن العظم واشتعال الشيب فى رأسه ، ويتوب إلى ربه منيبا مستغفرًا . ويلقانا هذا الشعر الزاهد على ألسنة كثير من الشعراء فى كتاب دمية القصر ، وخاصة منهم القُصَّاص الوعاظ ، وكان طبيعيا أن يفسح هؤلاء الشعراء لمديح الرسول عليه السلام ، وعم هذا الشعر الزاهد بين شعراء المحدِّثين والفقهاء. وللزمخشرى ديوان لا يزال محفوظا بدار الكتب المصرية وهو ملىء بالأدعية والابتهالات وطلب الشفاعة من الرسول عليه السلام . وللغزالى بدوره أشعار زهدية كثيرة وقد ينزع بها منزع المتصوفة السنيين على شاكلة قوله(٤) :

سَقمى فى الحبِّ عافيتى ووجودى فى الهَوى عَدَمى
وعذابٌ يَرْتضون بهِ فى فَمى أحْلَى من النَّعَمِ
ما لِضُرٍّ فى محبتكم عندنا واللهِ مِنْ أَلَمِ

(١) اليتيمة ٤ /٤٤٥ .
(٢) ذئب أزل : ذئب يتولد بين الضبع والذئب .
(٣) الجذل : الفرح .
(٤) انظر ترجمة الغزالى فى السبكى ٦ /٢٢٢ .

وللفخر الرازى المار ذكره أشعار زهدية طريفة ، وكان علامة فى علم الكلام والتفسير والحديث والشرعيات وعلوم الأوائل ، وله فى جميعها مؤلفات كثيرة . وكان فى الوعظ آية ، وكان يحضر مجالسه أرباب المذاهب والمقالات فى هراة ، وكان يعظ باللسانين العربى والعجمى وكان يلحقه الوجد فى الوعظ ويكثر من البكاء ، ويشتهر له قوله[١] :

نهايةُ إقدامِ العقولِ عِقالُ ... وأكثرُ سَعْىِ العالمين ضَلالُ
وأرواحُنا فى وَحْشةٍ من جُسومنا ... وحاصلُ دُنْيانا أَذًى ووَبالُ
ولم نَسْتَفِدْ من بَحْثنا طولَ عُمْرنا ... سوى أنْ جَمَعْنا فيه قِيلَ وقالوا
وكم قد رأينا من رجالٍ ودولةٍ ... فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جِبالٍ قد علتْ شُرُفاتِها ... رجالٌ فزالوا والجِبالُ جِبالُ

فكل ما فى الحياة حتى العلوم عبثٌ وضلال ، وما الدنيا ؟ إننا لا نجنى منها سوى الأذى والوبال ، وسوى العدم والفناء الذى يحيط بالناس جميعاً وبالدول مهما عظم سلطانها ، فمآلها إلى زوال . ومن كبار الشعراء الفقهاء الزهاد الإمام الرافعى القَزْوينى الفقيه الشافعى المشهور المار ذكره المتوفى سنة ٦٢٣ وكان له مجلس فى قزوين لسماع الفقة والتفسير والحديث النبوى ، ومن قوله فى الدعوة إلى الرضا بالحظ المقسوم وحمد الله فى اليسر والعسر دائما أبدا [٢] :

إنْ كنتَ فى اليُسْر فاحْمَدْ مَنْ حَباك بهِ ... فليس حَقًّا قضَى لكنَّه الجودُ
أو كنْت فى العُسْرِ فاحمَدْه كذلك إذ ... ما فَوقَ ذلك مصروفٌ ومَرْدود
وكيفما دارتِ الأيامُ مقبلةً ... وغَير مقبلةٍ فالحمدُ محمودُ

وكان يقول : « اعلم أن الناس فى الرضا ثلاثة أقسام : قوم يحسُّون البلاء ويكرهونه ولكن يصبرون على حكمه ويتركون تدبيرهم ونظرهم حباللهتعالى ، لأن تدبير العقل لا ينطبق على رسوم المحبة والهوى . وقوم يضمون إلى سكون الظاهر سكون القلب بالاجتهاد والرياضة ، وإن أتى البلاء على أنفسهم :

يَسْتعذبون بَلاياهمْ كأنهمُ ... لا يَيْأَسون من الدنيا إذا قُتِلوا

تسرُّهم البلية كما تسرهم النعمة ، وقوم يتركون الاختيار ، ويوافقون الأقدار ، فلا يبقى لهم تلذذ ولا استعذاب ولا راحة ولا عذاب » . وفى ذكر الرافعى لكلمة المحبة ما يدل على أنه كان ينزع بزهده نزعة صوفية . والتصوف كثير فى العصر ولم يكن النظم فيه يقتصر على

---

(١) ابن خلكان ٤/٢٥٠ والسبكى ٨/٩٦ . ٨/٢٨٦ وما بعدها

(٢) انظر فى الأبيات وكلام الرافعى التالى السبكى

شعراء اللسان العربى ، بل كان يشمل المتصوفة الذين ينظمون باللسان الفارسى ، على شاكلة الشيخ سعدى الشيرازى ، وله أشعار صوفية عربية من مثل قوله[١] .

يا نديمى قم بليلٍ واسْقِنِى واسْقِ النَّدامَى
خَلِّنى أَسْهَرُ ليلى ودَعِ الناسَ نيامَا
فى أوانٍ كشفَ الوَرْدُ عَن الوجه اللِّثامَا
قُلْ لمن عَيَّر أهل الـحبِّ بالحبِّ ولا ما
لا عرفتَ الحبَّ هيهاتَ ولا ذُقْتَ الغرَامَا

وهى خمرية صوفية طريفة . ومرَّ بنا فى الفصل الأول أن المتصوفة فى إيران كانوا يمثلون اتجاهين : اتجاهاً سنيًّا واتجاهاً فلسفياً ، ولعل من الخير أن نقف قليلاً عند شاعرين يمثلان النزعتين ، هما عبد الكريم القشيرى ويحيى السُّهَرَوَرْدِىّ .

عبد الكريم[٢] القُشَيْرِىّ

ولد فى قرية أُسْتُوَا بخراسان سنة ٣٧٦ وفيها بدأ تعليمه ، ثم انتقل إلى نَيْسابور حاضرة خراسان العلمية لعصره ، واتفق أن حضر مجلس الصوفى الكبير أبى على الدقَّاق ، فأُعجب به وسَلَكه بين مريديه ، وأشار عليه بالاشتغال بالعلم والفقه ، فأقبل على دروس أبى بكر الطُّوسى الفقيه الشافعى ، ثم اختلف إلى دروس ابن فُورك حتى أتقن علم الأصول ، كما اختلف إلى دروس أبى إسحق الإسفراينِى الفقيه الشافعى المتكلم الأصولى ، ونظر فى كتب القاضى الأشعرى أبى بكر بن الطيب الباقلانى . وسرعان ما أصبح علامة فى الفقه الشافعى وفى التفسير والحديث والأصول والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف وعلم الكلام على مذهب الأشعرى . وزوَّجه الدقاق ابنته حُبًّا له ، حتى إذا توفى خلفه فى مجالسه سالكاً مسالك المجاهدة والتجريد ، وأخذ فى التصنيف ، فصنف التفسير الكبير قبل سنة عشر وأربعمائة وسماه «التيسير فى علم التفسير» وهو – كما يقول ابن خلكان – من أجود التفاسير . وخرج إلى الحج فى رفقة ، فيها الشيخ أبو محمد الجُوَيْنى والد إمام الحرمين وأحمد

---

(١) الكشكول لبهاء الدين العاملى (طبعة الحلبى) ٢٦٣/١

(٢) انظر فى ترجمة القشيرى كتاب الأنساب للسمعانى ٤٥٣ ب وتاريخ بغداد ٨٣/١١ وابن خلكان ٢٠٥/٣ ودمية القصر والسبكى ١٥٣/٥ والمنتظم لابن الجوزى ٢٨٠/٨ وإنباه الرواة للقفطى ١٩٣/٢ وشذرات الذهب للعماد ٣١٩/٣ واللباب ٢١٤/٢ والنجوم الزاهرة ٩١/٥ وتبيين كذب المفترى لابن عساكر ٢٧١ وعبر الذهبى ٢٥٩/٣ .

ابن الحسين البَيْهقى وجماعة من المشاهير ، فسمع معهم الحديث ببغداد والحجاز . وعقد لنفسه فى نَيْسابور مجلس الإملاء فى الحديث ومجالس الوعظ منذ سنة ٤٣٧ وقصده الطلاب من كل صَوْب . وذكره الخطيب البغدادى ، فقال : «قدم علينا بغداد فى سنة ٤٤٨ وحدَّث ببغداد وكتبنا عنه ، وكان ثقة ، وكان يقصّ ، وكان حسن الوعظ مليح الإشارة» ويقول الباخرزى واصفاً وعظه : «لو قَرع الصَّخْر بصوت تحذيره لذاب ، ولو رُبط إبليس فى مجلسه لتاب» .

وكان يعتنق مذهب الشافعى فى الفقه والفروع ومذهب الأشعرى فى علم الكلام والأصول . وكان يجمع بين الشريعة والحقيقة ، وهو – كما مر بنا فى الفصل الأول – من أوائل من رأبوا الصدع الذى كان قد تفاقم بين المتصوفة وأهل السنة ، وذلك فى رسالته المشهورة التى نقلنا عنها فقرة طويلة فى الفصل المذكور ، والتى وجَّهها إلى الصوفية وأهل السنة ، وخلفه فى هذا الصنيع الغزالى السنى . ولا ريب فى أن له فضلاً كبيراً فى الجمع بين الطرفين المتعارضين وإزالة ما بينهما من خلاف ، بحيث أصبح أداء الفروض الدينية جزء لا يتجزأ من التصوف ، كما أصبح التصوف نتيجة طبيعية للتمسك بتلك الفروض تمسكاً ينتهى إلى النسك والمحبة الإلهية ، دون مغالاة من شأنها أن تدفع بالمتصوف إلى منازع فلسفية تتصل بالحلول وما إلى الحلول من اتحاد بالذات الإلهية . وتلك هى صورة التصوف السنى الذى رفع عماده القشيرى ، وكان شاعراً وله أشعار كثيرة ، تصور تصوفه وزهده من مثل قوله :

وإذا سُقيتُ من المحبّة جُرْعةً ... أَلْقَيْتُ من فَرْطِ الخُمار خِمارى
كم تبتُ قصداً ثم لاحَ عِذَارُهُ ... فَخَلَعْتُ – من ذاك العِذار – عِذارى

والخُمار بضم الخاء بقية السكر والخِمار بكسر الخاء الحجاب . يقول إنه يسكر بنشوة الحب الإلهى ، وإنه إذا أخذ يتناول جرعات تلك الخمر الإلهية رفعت الحجاب بينه وبين محبوبه . وإنه ليتوب ثم تتراءى له شواهده . فيعود ثانية إلى سكره والنشوة بحبه ، أو كما يقول يخلع عذاره كناية عن أنه يتهمك فيه ويقول :

ومَنْ كان فى طول الهوى ذاق سَلْوةً ... فإنِّىَ من لَيْلَى لها غيرُ دائقُ
وأكثرُ شىءٍ نلتُه من وِصالها ... أمانىُّ لم تَصْدُقْ كَخَطْفةِ بارقِ

فهو لا يسلو هواه ولا يكفُّ عنه ، لأنه هوى يتعمق شغاف قلبه فلا يستطع انفكاكاً عنه ولا خلاصاً منه ، هوى لا يزال يتعثر فى شباكه ، ومع ذلك لا ينال من وصال المحبوب شيئاً إلا أمانى تبدو له كما يبدو البرق الخاطف فى السحاب . ويقول :

سَقَى اللّهُ وقتا كنت أَخْلُو بوجْهكم   وثَغْرُ الهَوَى فى رَوْضة الأُنْس ضاحكُ
أقَمْنا زماناً والعيونُ قريرةٌ   وأصبحتُ يوماً والجفونُ سوافكُ

وهو يتحدث عن الوصال الذى يذكره المتصوفة هذا الحديث الرمزى ، فقد كان ينعم به زماناً أو قل كان يخيَّل إليه أنه ينعم به ، وكانت تمتلئ نفسه بهجة وفرحة ، غير أنه أصبح يوماً ، فإذا الوصال كان حلماً ، وإنه ليطلبه باكياً بكاء لا ينقطع ، بكاء كله جزع ، وكله لوعة وحسرة . وله وراء ذلك تبتلات طريفة من مثل قوله :

يا مَنْ تقاصَر شُكْرى عن أياديهِ   وكَلَّ كُلُّ لِسانٍ عن معاليهِ
وجودُه لم يزل فَرْداً بلا شَبَهٍ   عَلاَ عن الوقت ماضيهِ وآتيهِ
لا دَهْرَ يُخْلِقُه لا قَهْرَ يَلْحَقُهُ   لا كَشْفَ يُظْهره لا سِتْرَ يُخْفيه
لاعَدّ يجْمَعُه لاضِدَّ يَمْنعه   لاحَدَّ يَقْطعه لا قُطْرَ يَحْويهِ
لاكَوْنَ يَحْصُره لاعَوْنَ يَنْصُره   وليس فى الوهم معلومٌ يُضاهيه
جلالُـه أزلىٌّ لازوالَ لـه   ومُلْكه دائمٌ لا شئ يُفْنِيه

والتبتُّل يقوم على التنزيه الشديد للذات العلية ، وأنه فرد لا شبيه له ، سما عن كل زمن ماض وحاضر ، فلا زمن يحصره ولا دهر ينال منه ، وهو القاهر فوق عباده ، موجود فى كل زمان ومكان ، دون انكشاف ودون حجاب ، ودون حَصْر ، ودون حَدٍّ يطيف به أو مكان يحتويه ، ليس كمثله شىء ، أزلى لازوال لجلاله ولا فناء لملكه . وهو تجريد قوىّ للذات العلية ينفصل به القُشَيْرى وأصحاب التصوف السنى عن أصحاب التصوف الفلسفى وما آمنوا به من الحلول والاتحاد بالذات الإلهية . ويقول :

جَنِّبانى المجونَ يا صاحِبيَّا   واتْلُوا سُورَةَ الصَّلاحِ عَلَيَّا
قد أجَبْنا لزاجرِ العقل طَوْعاً   وتركنا حديثَ سَلْمَى ومَيَّا
ومَنَحْنا لموجب الشَّرْع نَشْراً   وشرَعْنا لموجب اللَّهْوِ طَيَّا
ووجدنا إلى القناعة باباً   فوضَعْنا على المطامع كَيَّا
كنتُ فى حَرِّ وَحْشَتِى لاختيارى   فتعوَّضْتُ بالرِّضا منه فَيَّا[1]
والذين ارْتَوَوْا بكأسِ مُناهم   فعلى الصَّدِّ سوف يَلْقَون غَيَّا

وهو يعلن فى الابيات سلوكه فى الطريق ، وكأن الانحراف عن هذا السلوك مجوناً أو يشبه المجون ، وقد لبى عقله ودواعيه وترك اللهو وبواعثه ، فهو يعيش للشريعة المحمدية قانعاً ، زاجراً مطامعه فى متاع الحياة . ويتصور كأنه كان يقضى أيامه قبل تصوفه فى فيافى

(١) فيا : ظلا

وحْشَةٍ شديدة الحرارة ، حتى أفاء عليه التصوف بظلاله الوارفة ، ظلال نهل فيها كئوس المنى ، ومن ينهل منها لا يستطيع أن يفارق مواردها وينابيعها الثرّة أو يصدّ عنها ، لأنها ينابيع الصلاح والرشاد . ومازال القشيرى غارقاً فى هذه المشاعر الصوفية ناعماً بها حتى توفى سنة ٤٦٥ بنيسابور ودفن بجوار شيخه أبى على الدقّاق .

يحيى(١) السُّهْرَوَرْدِىّ

وُلد يحيى بن حَبَش حوالى سنة ٥٤٥ للهجرة بِسُهْرَوَرْد فى الإقليم الإيرانى المعروف باسم إقليم الجبال ، وبموطنه تلقى ثقافته الأولى ، وتركه مبكراً إلى مدينة المراغة ، ثم إلى أَصْفهان حيث درس الفقه وأكبَّ فى أثناء ذلك على كتب التصوف والفلسفة . وأعجب بالصوفية فصحبهم وأخذ نفسه بطرقهم فى الرياضة والمجاهدة . وأكثر من الرحيل للقاء العلماء والمتفلسفة والمتصوفة . ومدَّ تجواله وترحاله إلى ديار الشام . وكان قد أصبح شيخاً من شيوخ التصوف الفلسفى ، فكان يجادل الفقهاء . واستوت له فلسفة تصوفية إشراقية تعتمد – كما يقول دارسوه – على غنوصية آسيوية ، وخير ما يصور ذلك من كتبه الكثيرة التى بلغت أكثر من أربعين كتاباً مصنَّفه : « حكمة الإشراق » وهو قسمان : قسم خصَّ به المنطق الذى يضبط الفكر ضبطاً دقيقاً ، وقسم ثان قصره على الأنوار الإلهية ، عرض فيه لنور الأنوار وحقيقته وما يصدر عنه ، كما عرض فيه للمعاد والنبوات والمنامات . وهو ينقد المنطق والفلسفة نقداً واسعاً ، غير أنه يراهما ضروريين للمتصوف ، حتى يتعانق فى داخله العقل والقلب أو الذوق . ولجَّ السهروردى فى نظرية النور وما يقابلها من الظلمة ، وكأنه يتأثر النحل الفارسية من زرادشتية وغيرها فى ثنائية النور والظلمة وتقسيم العالم إلى عالم ظلمة وعالم نور . وفى رأيه أن الموجودات انبثقت عن نور الأنوار بطريق الفيض إلى ما لا نهاية ، ومن ثَمَّ كان يقول بوحدة الوجود وبالحلول الإلهى فى الكون والكائنات . وذهب إلى النبوات لا تنقطع وأن الحكيم الصوفى المتوغل فى تصوفه أفضل وأسمى من الأنبياء . وكان طبيعياً أن يكفِّره الفقهاء فى « حلب » وأن يحملوا الملك الظاهر ابن صلاح الدين على قتله سنة ٥٨٧ للهجرة . ولما تحقق القَتْلَ كان يُنْشد :

(١) انظر فى ترجمة يحيى السهر وردى معجم الادباء لياقوت ١٩/٣١٤ وابن خلكان ٦/٢٦٨ وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء ص ٦٤١ وقد خلط ابن أصيبعة بينه وبين الشهاب عمر السهروردى المتصوف البغدادى السنى ، وانظر مرآة الجنان ٣/٤٣٤ ولسان الميزان ٣/١٥٦ والنجوم الزاهرة ٦/١١٤ ودائرة المعارف الإسلامية وتعليق الدكتور محمد مصطفى حلمى على ترجمته فيها وفتاوى ابن تيمية ٥/٩٣ والفلسفة الصوفية فى الإسلام لعبد القادر محمود (طبع دار الفكر العربى) ص ٤٤٠ وما بعدها .

أرى قَدمى أراقَ دَمى وهـانَ دَمِى فها نَدمى

ولكنه ندم ولات حين مندم . ومن كلامه : حرام على الأجساد المظلمة أن تلج ملكوت السموات ، فوحِّد الله وأنت بتعظيمه ملآن ، واذكره وأنت من ملابس الأكوان عُرْيان ، ولو كان فى الوجود شمسان لانطمست الأركان ، فأبى النظام أن يكون غير ما كان :

وخفيتُ حتى قلتُ لستُ بظاهرٍ وظهرتُ من سَعتى على الأَكْوانِ

والبيت يشير بقوة إلى فكرتى الحلول والاتحاد فى الذات العلية وكان يكثر من ترداد قوله :

لو علمنا أننا ما نلتقى ما قضينا من سُلَيْمَى وَطَرَا

والسُّهْرَوردى يشير فى وضوح إلى فكرة الشهود المعروفة عند المتصوفة وله شعر صوفى كثير من مثل قوله :

أقول لجارتى والدمعُ جارِى ولى عَزْمُ الرحيل عن الديارِ
ذَرينى أن أسيرَ ولا تَنُوحى فإن الشُّهْبَ أشْرَفُها السَّوارى
وإنى فى الظلامِ رأيت ضوءاً كأن الليل بُدِّل بالنهارِ
ويبدو لى من الزَّوْراء بَرْقٌ يذكّرنى بها قُرْبَ المزارِ
إذا أبصرتُ ذاك النور أَفْنَى فما أدرى يَمينى من يسارى

وهو يذكر فى الأبيات فكرة نور الأنوار إزاء عالم الظلمة الكثيف ، كما يذكر فكرة الفناء الصوفية وكيف أنه يفنى عن كل ما حوله فلا يعود يشعر إلا بنور الأنوار أو بإلهه وما أنعم عليه – كما يتصور – بنعمة الوصال ، بل بنعمة الاتحاد والاندماج بنوره . وله حائية رائعة يستهلها بقوله :

أبداً تحنُّ إليكمُ الأرواحُ ووِصالُكم رَيْحانُها والرَّاحُ
وقلوبُ أهلِ ودادكم تشتاقكم وإلى لذيذ لقائكم ترتاحُ
وارَحْمتا للعاشقين تكلَّفوا سَتْرَ المحبة والهوَى فضَّاح

وهو يخاطب الذات الإلهية قائلا إن كل الأرواح معلقة بها هائمة تتمنى وصالها لتجد فيه ريحانها وراحها ونشوتها التى لا تماثلها نشوة ، وإن القلوب لتحن إليها دائما مشتاقة مولعة شاعرة بنعيم ما بعده نعيم ، ويأسى لعاشقى الذات الإلهية ، فهم لا يستطيعون إخفاء عشقهم ولا كتمانه ، لدموعهم التى تقطر دائما على خدودهم سَحاً وتسكابا ، ويتضرَّع إلى المحبوب قائلا :

عودوا بنور الوَصْل من غَسق الجفَا فالهَجْرُ لَيْلٌ والوصالُ صَباحَ
صافاهمُ فصفَوْا له فقلوبُهم في نورها المِشْكاةُ والمِصْباح
وتمتعَّوا فالوقتُ طاب بقربكم راقَ الشرابُ ودارتِ الأقداحُ

وهو يعود إلى فكرة النور ويصلها بفكرة الظلمة فالوصل نور مشرق والهجر ظلام داجٍ ، وهو يشير بالمشكاة والمصباح إلى الآية الكريمة : (اللهُ نورُ السموات والأرض مثلُ نوره كمشْكاةٍ فيها مصباحٌ المصباحُ فى زجاجةٍ الزجاجةُ كأنها كوكبٌ دُرِّىٌّ يوقد من شجرة مباركة زَيْتونة لا شرْقية ولا غربية يكاد زَيْتُها يضيئُ ولو لم تَمْسَسْهُ نارنورٌ على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب اللهُ الأمثالَ للناس والله بكـل شيءٍ عليم) وكأن فى قلوب الصوفية نور الله ، وهو يريد بذلك الاتحاد بالذات الإلهية النورانية ، وهو اتحاد يَعْنى السكر والنعيم بنشوة هذه الخمر الربانية التى راقت وأخذت كئوسها وأقداحها تدور على المحبين كما يقول ، أقداح من شرابٍ روحىٍّ مصفىًّ ، ويقول مصورا لهم فى حال سكرهم :

لا يَطْربون بغير ذِكْرِ حَبيبهم أبداً فكلٌّ زمانهم أفراحُ
حَضَرُوا وقد غابتْ شواهد ذاتهم فتهتَّكوا لمَّا رأوه وصَاحوا
أفناهمُ عنهم وقد كُشِفَتْ لهم حجبُ البَقا فتلاشَتِ الأرواحُ

فهم سكارى فرحون بذكر حبيبهم ، وهم حاضرون غائبون ، وكأنما يفنون عن ذواتهم وأجسادهم بل هم فانون فعلا ، لا يدركون حِساً منهم ولا ما يشبه الحس ، إذ أصبحوا فى الحضرة الإلهية ، وأصبحوا لا يحسُّون ولا يبصرون سواها ، وإنهم ليصيحون ويعلو صياحهم فرحا وابتهاجا بما صاروا إليه من الفناء والاتحاد بالله ، وبما كشف عنهم من الحجب والأستار . وواضح ما يداخل هذه الأبيات من أفكار صوفية فلسفية كان ينكرها – كما قدمنا – أصحاب التصوف السنى ، فهم لا يعرفون فناء ولا اتحادا ، ولا يدَّعون غيبة وهم حضور ، كما لا يدعون رؤية الله بأبصارهم فإنه كما قال القشيرى آنفاً لا يحده زمان ولا مكان ولا تبصره العيون ولا ينكشف لأحد ، ليس كمثله شـيء ، ولا كم له ولا كيف (لا تُدْركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) وليحيى السهروردى قصيدة فى النفس حاكى فيها قصيدة ابن سينا العينية المشهورة التى صور فيها النفس سابقة للجسد ، وهى تحل فيه ودائما متشوقة إلى عالمها المثالى الأول ، وفى ذلك يقول السُّهْرَوَرْدىّ :

خَلَعَتْ هياكلَها بِجَرْعاءِ الحِمىَ وصَبَتْ لَمغْناها القديم تَشَوُّقا

فهى تشتاق عالمها القديم ، ولذلك تفارق الجسد الذى حلت فيه راضية مرضية ، ولعل فى هذه القصيدة ما يؤكد صلة السهروردى بابن سينا وفلسفته الإشراقية فضلا عن صلته بالفلسفة عامة .

٤

شعراء الحكمة والفلسفة

الحكمة قديمة فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ، ونجدها متراصَّة فى مطوَّلة زهير وكانت تجرى على ألسنة كثيرين يقطِّرون خِبْراتهم شعرا ، لينتفع بها أبناء قبائلهم ومن حولهم ، وتظل مبثوثة فى الشعر العربى طوال العصر الإسلامى ، وتكثر فى العصر العباسى وتتعدد روافدها الأجنبية بتعدد الثقافات التى عرفها العرب والتى نُقلت عنها لهم الحكم والأمثال . ومرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الأول أن أبان بن عبد الحميد نقل من الفارسية إلى العربية كتاب كليلة ودمنة وما فيه من أمثال وحكم فى نحو أربعة عشر ألف بيت ، وأن أبا العتاهية نظم مزدوجة طويلة سماها ذات الأمثال ، وكلها حكم ، ويقال إنها كانت تبلغ أربعة آلاف بيت ، وروى أبو الفرج فى ترجمته بكتابه الأغانى منها قطعة طويلة ، وأكبر الظن أن كثيرا من هذه الحكم نقلها أبو العتاهية عن الفارسية ولعله أخذها من بعض كتب الأدب الفارسى التى ترجمها ابن المقفع وغيره ، وفى شعر أبى نواس بعض أمثال فارسية نَصَّ عليها القدماء . وقد مضى شعراء العصرين العباسى الأول والعباسى الثانى يسلكون فى أشعارهم بعض الأمثال الفارسية والعربية ، حتى إذا كنا فى هذا العصر بإيران وجدنا الشعراء الإيرانيين ينقلون كثيرا من الأمثال المعروفة فى لغتهم إلى أشعارهم العربية ، بل لقد تصَّدى نفر منهم إلى صنع قصائد حكمية ، هى ترجمات لبعض الأمثال الفارسية على نحو ما نجد عند أبى عبد الله الضرير الأَبِيوَرْدِىّ ، فقد ذكر له الثعالبى قصيدة ترجم فيها أمثال الفرس ، أنشد منها بعض الأبيات من مثل قوله (١) :

صِيامى إذا أفطرتُ بالسُّحْتِ ضَلَّةٌ ... وعلْمِى إذا لم يُجْدِ ضربٌ من الجَهْلِ (٢)

وتزكيتى مالاً جمعتُ من الرِّبا ... رِياءٌ وبعض الجود أخْزَى من البُخْلِ

كسَارقةِ الرُّمَّان من كَرْم جارها ... تعود به المَرْضَى وتطمع فى الفَضْلِ

ألا رُبَّ ذِئْبٍ مَرَّ بالقوم خاوياً ... فقالوا علاه البُهْرُ من كثرة الأكل (٣)

---

(١) اليتيمة ٤/٩٠

(٢) السحت : الكسب الحرام .

(٣) البهر : تتابع النفس

وكان الشعراء يضمِّنون قصائدهم وأشعارهم كثيرا من الحكم ، ومن خير من يمثل ذلك الطُّغْرائى فى لاميته المسماة لامية العجم ، وهى تَغصّ بالحكم والأمثال منذ مطالعها ، ونكتفى بسرد طائفة من طرائفها على هذا النمط :

حبُّ السلامة يَثْنِى هَمَّ صاحبِهِ   عن المعالى ويُغْرِى المرءَ بالكسلِ
أعلِّلُ النفسَ بالآمال أَرْقُبُها   ما أضيقَ العَيْشَ لولا فُسْحَةُ الأمل
تقدَّمَتْنى أناسٌ كان شَوْطُهمُ   وراء خَطْوِىَ إذ أمشى على مَهَل
وإن عَلانىَ مَنْ دونى فلا عجبٌ   لى أسوةٌ بانحطاط الشمس عن زُحَلِ
أعْدَى عدوِّك أَدْنَى مَنْ وثِقْتَ بهِ   فحاذِرِ الناسَ واصحبْهم على دَخَلِ [(١)]
وإنما رجلُ الدنيا وواحِدُها   مَنْ لايعوِّل فى الدنيا على رَجُلِ

وأكبر الظن أن الطغرائى لم ينقل شيئا من هذه الحكم عن الفرس إنما هى ثمرةَ تجاربه وخبرته بالدنيا وبالناس من حوله .

ونمت الفلسفة فى هذا العصر نمواً واسعا ، ونمت معها علوم الأوائل على نحو ما مرَّ بنا فى الفصل الثانى ، وظهر كثير من المتفلسفة أمثال ابن سينا وله أشعار تَتَّشح بشىء من تفلسفه قليلا أو كثيرا وأُثرت له رباعيات فارسية وأشعار عربية فى الزهد والحكمة وبعض مسائل طبية وفلسفية . وأهم تلك الأشعار وأشهرها قصيدته العينية عن النفس ، وهى تصوِّرها فى عالمها العلوى الذى كانت تَحْيي فيه قبل اتصالها بالبدن حين يتخلَّق فى الرحم ، وفى عالمها السّفْلى حين تمَّ هذا الاتصال بالجسد . وهو اتصال تُقْدم عليه وهى كارهة ، وتظل فى أثنائه متشوقة إلى عالمها العلوى ، مع ما حدث لها فيه من ألفة ، ولذلك تنفصل عنه كارهة كما اتصلت به كارهة ، يقول [(٢)] :

هبطتْ إليك من المحلِّ الأَرْفعِ   وَرْقاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ
محجوبةٌ عن كلِّ مُقْلَةِ ناظرٍ   وهىَ التى سَفَرتْ فلم تَتَبْرقَعِ
وصلتْ على كُرْهٍ إليكَ وربما   كرهتْ فراقَكِ وهْىَ ذات تفجُّعِ
أنفتْ وما ألفتْ فلما واصلتْ   ألفتْ مجاورةَ الخرابِ البَلْقعِ
وأظنُّها نسيتْ عهوداً بالحِمَى   ومنازلاً بفِراقها لم تَقْنعِ
حتى إذا اتصلتْ بهاء هُبوطها   من ميم مَرْكزها بذاتِ الأَجْرعِ
علقتْ بها ثاءُ الثَّقيلِ فأصبحتْ   بين المعالم والطُّلول الخُضَّعِ

---

(١) دخل : خبث ومكر

(٢) انظر العينية فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة – بيروت) ص ٤٤٦ وقارن بابن خلكان ١٦٠/٢

والورقاء : الحمامة كنى بها عن النفس . وهو يصوِّرها تهبط من عالمها الرفيع أو الأرفع ، عالم العقول المجردة أو العقول الكلية ، الذى تجد فيه سعادتها وكمالها ، ولذلك هى تهبط منه شاعرة بغير قليل من العزة والشرف ، محجوبة عن كل حسٍّ ، ومع ذلك تسفر للعقول فتدركها دون أن تبصرها ، وتنزل فى البدن كارهة لأنه ليس من جنسها ، غير أنها تأنس له مع الأيام ، حتى إذا فارقته توجعت له وتفجعت عليه ، مع أنه بدونها خراب بلقع مقفر . وكأنما نسيت عهودها بعالمها العلوى لأنسها لهذا الجسد الفانى الذى هبطت إليه من مركزها الرفيع وعشقته ، عشقت مشخصِّاته الأرضية التى عبر عنها بالثقل وبذات الأجرع ، وغدتْ تحنُّ إلى دياره ومعالمه وطلوله حنين الشعراء لمعشوقاتهم ، ويمضى قائلا :

تبكى وقد نسيتْ عهوداً بالحِمىَ ... بمدامعٍ تَهْمِى ولما تُقْلِعِ
وتظل ساجعةً على الدِّمَنِ التى ... دَرَسَتْ بتكرار الرياحِ الأَرْبَعِ
حتى إذا قَرُبَ المسيرُ إلى الحِمىَ ... ودَنا الرحيلُ إلى الفضاء الأوسع
وغدتْ مفارقةً لكلِّ مخلَّفٍ ... عنها حَلِيفِ التُّرْب غيرِ مشيَّع
هجعتْ وقد كُشف الغطاء وأبصرتْ ... ما ليس يُدْرَكُ بالعيون الهُجَّعِ
وغدتْ تغرِّد فوق ذِرْوةِ شاهقٍ ... والعلمُ يرفع كلَّ مَنْ لم يُرْفَعِ

فهى تحنُّ الى عهودها القديمة وتبكى بدموع غزارٍ الدِّمَنَ أو أجزاء البدن التى توشك على الفساد والانحلال ، حتى إذا أوشكت أن تفارق جسدها إلى عالمها الأعلى ، بل حتى فارقته فعلا ، فارقت البدن الفانى ، عادت إليها سكينتها واستراحت ، إذ كُشف لها الغطاء وأبصرت ما لا تدركه العيون التى ألمَّ بها النوم ، وغدت تَغرِّد فرحة ، فقد عادت إلى عالمها وعاد لها علمها بالأشياء ، العلم الكلى الشامل الذى كانت قد نسيته فى سُكناها البدن ، ويستمر سائلا متحيرا :

فلأىِّ شَىءٍ أُهْبِطَتْ من شاهقٍ ... سامٍ إلى قَعْرِ الحضيض الأَوْضَعِ
إن كان أهبطها الإلهُ لحكمةٍ ... طُويتْ عن الفطِنِ اللبيب اللَّوْذَعى
إذ عاقها الشَّرَكُ الكثيفُ فصدَّها ... قَفَصٌ عن الأَوْجِ الفسيح الأَرْبُعِ
فهبوطها -لاشكَّ- ضربةُ لازبٍ ... لتكون سامعةً لما لم تسمع
وتعود عالمةً بكل خفيَّةٍ ... فى العالمين فَخَرْقُها لم يُرْقَعِ
وهى التى قَطَعَ الزمانُ طَرِيقها ... حتى لقد غَرَبتْ بغيرِ المطلعِ
فكأنها بَرْقٌ تألَّقَ بالحِمىَ ... ثم انْطَوَى فكأنه لم يَلْمَعِ

وهو يعجب من هبوط النفس من العالم العلوى إلى العالم السُّفلى ثم رجوعها إلى العالم الأول ويسأل فيم هبطت وفيم عادت ؟ ويجيب إن كان فى ذلك حكمة لله جَلَّ شأنه تغيب عن العقول الذكية فأكبر الظن أنها هبطت لتسمع ما لم تكن تسمع ولتعلم ما لم تكن تعلم من العالم الأرضى وتقف على أسراره ، بجانب ما كانت تعالم من العالم العلوى ، وكأنها لم تبلغ من ذلك كل ما أرادت ، فعادت وقد انقطع بها الزمان الدنيوى . عادت وقد تَّمَّتْ رحلتها فى الدنيا من شروق وما تلا الشروق من العلم بخفايا الأرض وعالمها وما انتهى إليه هذا الشروق من غروب . وكأنها فى هذه الرحلة القصيرة برق لمع ، ثم طَوْته السحب طيا . وواضح ما تحمل القصيدة من فكرة وجود النفس قبل البدن وخلودها ، متصلة فى الحالين بالعقل الكلى إلا ما كان من رحلتها القصيرة فى الأرض وخلال البدن ، ومع ذلك فهى فى هذه الرحلة تحاول أن تعلم من أسرار عالمنا ماتضيفه إلى علمها بأسرار العالم العلوى. وسرعان ما تنفك عن البدن ويصيبه الانحلال والفساد . ولعل من الخير أن نقف عند شاعرين من شعراء الحكم والأمثال ، كان أحدهما يعنى بنقلها عن الفارسية وكان الثانى يعنى بوضعها ونظمها فى أشعاره ، وهما أبو الفضل السكرى المروزى وأبو الفتح البُسْتى .

أبو الفضل[1] السكرى المَرْوَزىّ

هو أحمد بن محمد بن زيد ، يقول فيه الثعالبى : « شاعر مَرْو وظريفها ، وله شعر مليح خفيف الروح كثير المُلَح والأمثال » ويورد بعض أشعاره ، ثم يذكر أن له مزدوجة ترجم فيها أمثالا للفرس ، وكأنه اختار أن ينظمها من وزن الرجز الذى خَصَّ به العباسيون منذ عصرهم الأول الشعر التعليمى لوفرة ألحانه وأنغامه ، حتى يتلافوا ما فى هذا الشعر من نقص الأحاسيس والمشاعر ، وظل ذلك ثابتا طوال العصور التالية إلا ما ندر . فقد تعارف الشعراء على اختيار الرجز لنظم المعلومات والمعارف والحكم والخبرات ، واتبعوا ما أحدث العباسيون الأول فى الرجز من تغيير القافية فيه من بيت إلى بيت ، مع الاحتفاظ بها فى كل شطرين متقابلين بحيث يصبح الشطر فى واقع الأمر وحدة الأرجوزة المزدوجة ، فهى تتألف من شطرين شطرين ، وكل شطرين يتحدان فى قافيتهما . ويقف الثعالبى عند مزدوجة لأبى الفضل ترجم فيها طائفة كبيرة من أمثال الفرس ، ويورد منها ثلاثة عشر بيتا من مثل قوله :

(١) انظر فى ترجمة أبى الفضل السكرى اليتيمة ٨٧/٤ وما بعدها

من مُثل الفُرْس ذوى الأبصارِ الثوبُ رَهْنٌ فى يَدِ القَصّارِ [١]
نال الحمارُ بالسقوط فى الوَحَلْ ما كان يَهْوَى ونجا من العمَلْ
والعَنْزُ لا يَسْمَنُ إلا بالعَلَفْ لا يَسْمَنُ العَنْزُ بقولٍ ذى لَطَفْ [٢]
البحر غَمْرُ الماء فى العِيانِ والكلبُ يَرْوَى منه باللسانِ [٣]
من لم يكن فى بيته طعامُ فماله فى مَحْفِلٍ مقامُ
كان يقال : من أتى خوانا من غير أن يُدْعَى إليه هانا [٤]

ويعلِّق الثعالبى بعد ذكره لبعض أمثال المزدوجة بقوله : « وكان أبو الفضل السكرى مولعا بنقل الأمثال الفارسية إلى العربية » وينشد طائفة كبيرة من الأبيات اختارها من نقله وترجماته الأخرى غير مزدوجة ، من ذلك قوله :

إذا لم تُطِق أن تَرْتَقِى ذِرْوَةَ الجبَلْ لعجزٍ فقِفْ فى سَفْحه هكذا المثَلْ

وقوله :

فى كلِّ مستحسنٍ عَيْبٌ بلارَيْبِ مايَسْلَمُ الذهب الإبريزُ من عَيْبِ

وقوله :

ادَّعَى الثَّعلبُ شيئا وَطَلَبْ قِيلَ هَلْ من شاهدٍ؟ قال : الذَّنَبْ

وقوله :

تَبَخْتَرَ إخفاءً لما فيه من عَرَجْ وليس له فيما تكلَّفه فَرَجْ

وأبو الفضل إنما هو رمز لتعلق الناس بالأمثال ، وهو تعلق مرجعه إلى أنها تحمل خبرات الإنسان فى عصور طويلة ، ولذلك كان لكل أمة أمثالها التى تحفظها الأجيال من جيل إلى جيل ، وهى لذلك تدخل فى باب الآداب الشعبية ، لأنها تُتَداول على ألسنة الشعب ، وكأنها عُمْلات لغوية عامة ، كلٌّ يستخدمها ، وكل يلفظ بها عند مناسبتها . وكأنما يُلْقِى بها الكلمة التى لا تُرَد ، ولذلك سميت حكمة ، فهى حكمة الشعوب وخبرتها مركزة فى قطرات أوكلمات .

---

(١) القصار : صابغ الثياب

(٢) لطف : رفق .

(٣) الماء الغمر : الكثير العميق .

(٤) الخوان : مائدة الطعام .

أبو الفتح[١] البُسْتىّ

هو على بن محمد ، ويُعَدّ من كبار الأدباء الإيرانيين فى زمنه ، وكان يُحْسن الكتابة والشعر باللسانين العربى والفارسى وعرف له أمير بُسْت مكانته ، فاتخذه كاتبا له ، حتى إذا فتح بلدته الأمير سُبُكْتِكين قرَّبه منه وقلَّده الكتابة فى ديوانه ، وحَلَّ عنده محل الثقة الأمين فى مهمات شئونه . ونعم بجواره ، واشتهر بما صوَّر فى كتبه وأشعاره من فتوحه ، وظلت له نفس المكانة عند ابنه الأمير محمود الغزنوى ، إلى أن غضب عليه ونفاه إلى بخارى وسرعان ما وافته المنية بها سنة ٤٠٠ للهجرة وقيل بل سنة ٤٠١ وكان شافعى المذهب معتزلىّ العقيدة .

ويعرِّف به الثعالبى فيقول : «صاحب الطريقة الأنيقة فى التجنيس الأنيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه ويأتى فيه بكل طريفة لطيفة» . ولم يكن يستخدم الجناس استخداما واسعا فى أشعاره فحسب ، بل كان أيضا يستخدمه فى كتاباته ونثره . ويورد الثعالبى طائفة من جناساته وسجعاته فى رسائله ، يدل بها على قدرته فى التجنيس البديع الصيغة ، فمن ذلك قوله :

«مَنْ أصلح فاسده ، أرغم حاسده . مَنْ أطاع غضبه ، أضاع أدبه . عادات السادات ، سادات العادات . مِنْ سعادة جَدِّك ، وقوفُك عند حَدِّك . الخيبة ، تهتك الهيبة . الدَّعة ، رائدة الضَّعة . أجهلُ الناس مَنْ كان للإخوان مُذِلا ، وعلى السلطان مُدِلاً . إذا بقى ما قاتك ، فلا تأس على ما فاتك . المنيَّة، تضحك من الأُمْنيَّة . حَدُّ العَفاف ، الرضا بالكَفاف . ظِلُّ الجفاء ، يَكْسِف شمس الصفاء» .

ويأخذ الثعالبى فى عرض أغراض شعره بادئا بملحه فى الغزل والخمر ، وهى ملح لا تقوم على الاهتمام بالمعانى بقدر ما تقوم على الاهتمام بالجناس ، وكأنما أصبح الجناس وما قد يجلبه من تشبيه أو استعارة أو طباق غايته أو هدفه من صنع أشعاره ، على نحو ما نجد فى قوله متغزلا :

وغزالٍ كلُّ مَنْ شَبَّهَهُ ... بهلالٍ أو ببدْر ظَلَمَهْ
قال إذ قبَّلتُ بالوهم فَمَهْ ... قد تعدَّيْتَ وأسرفتَ فمَهْ

(١) انظر فى ترجمة أبى الفتح البستى وشعره اليتيمة ٤/٣٠٢ وما بعدها والمنتظم ٧/٧٢ وتاريخ الحكماء للبيهقى : ٤٩ وطبقات الشافعية للسبكى ٥/٢٩٣ وابن خلكان ٣/٣٧٦ وشذرات الذهب ٣/١٥٩ وعبر الذهبى ٣/٧٥ والأنساب ٨٠ ب وروضات الجنات ٤٨٢ والنجوم الزاهرة ٤/١٠٦ وديوانه مطبوع

ومَه فى آخر البيت الثانى اسم فعل أمر بمعنى اكففْ . وواضح أنه جلبها ليصنع منها جناسا تاما بينها ومعها الفاء وبين كلمة « فمه » فى آخر الشطر الأول . وعلى نفس الشاكلة قوله فى الخمر لصاحبه :

أوانٍ أنت فى هذا الأوانِ عن الرَّاحِ المروَّق فى الأوانى

فقد جانس بين « وان » فى أول البيت بعد إدخاله عليها همزة الاستفهام ليتم له جناس كامل بينها وبين كلمة « الأوان » فى آخر الشطر الأول بمعنى الزمان ، ثم بينهما وبين كلمة « الأوانى » فى آخر البيت جمعا لإناء . وبالمثل معاتباته وأهاجيه ومدائحه كقوله فى مديح كاتب وكتابته :

لم تَـرَ عينى مثلَه كاتباً لكل شىءٍ شاءَ وشَّاءَ
يُبْدِع فى الكُتْب وفى غيرها بـدائـعا إن شاءَ إنشاءَ

والجناس الناقص واضح بين « شىء » و « شاء » و « وشّاء » أو منمق ، وأتى بجناس تام فى البيت الثانى بين كلمتى « إن شاء » و « إنشاء » . ويعترف بأنه سمع وهو صبى شاعرا من موطنه « بُسْت » يستخدم الجناس فاستحسنه وأخذ نفسه بسلوك طريقته[١] . وكان هو نفسه عاملا مهما فى إشاعة هذه الطريقة بين الشعراء الإيرانيين فى زمنه[٢] وبعد زمنه . وعُنى غير أديب بإفراد كتب خاصة بها مثل المطوعى الذى مرَّ بنا ذكره . وكان أبو الفتح يتصنع كثيرا فى شعره لاستخدام المصطلحات الفقهية والطبية والفلسفية والفلكية والنحوية كقوله مستظهرا مصطلح اللازم والمتعدى :

قال لى لمـــا رآنى طالبا مالاً ورِفْدَا
إن مالى يا حبيبى لازمٌ لا يـتـعـدَّى

وكان هذا التصنع وما يماثله قد أخذ يشيع فى زمنه ، ومما لا شك فيه أن البُسْتى كان من عوامل إذاعته وانتشاره فى الأوساط الأدبية الإيرانية . على أنه ينبغى أن لا نَحْمل على تصنع أبى الفتح لهذه المصطلحات ولأنواع الجناس بصوره التامة والناقصة ، فقد كان ينفذ فى أحيان كثيرة إلى استخدام رشيق للمصطلحات والجناسات كقوله يهجو بعض خصومه ، وكان يدَّعى سَعة الفكر والمنطق العميق :

يَبْنى على الفكرة أعمالَه وذاك فى التحقيق أَعْمَى لَهُ
فقيَّض الرَّحْمَـنُ أَفْعَى لَهُ تُريهِ فى الخَلْوة أفعالَهُ

(١) اليتيمة ٣٣٧/٤ واسم الشاعر شعبة بن عبد الملك (٢) اليتيمة ١٥١/٤ .

وواضح جناسه التام بين « أعماله » و « أعمى له » فى البيت الأول ، وبين « أفعى له » و« أفعاله » فى البيت الثانى . ولم نتحدث حتى الآن عن الحكم والأمثال فى أشعاره ، وكان يعرف كيف يصوغها صياغة محكمة ، ومن أروع ماله فى هذا الجانب نونيته ، وهى طويلة ، وفيها يقول :

زيادةُ المرءِ فى دنياه نُقْصانُ ... وربْحُهُ غيرَ مَحْضِ الخيرِ خُسْرانُ
ياعامراً لخراب الدَّارِ مجتهداً ... بالله هل لخراب العُمْرِ عُمْرانُ
وياحريصاً على الأموال يَجْمَعُها ... أَقْصِرْ فإنّ سرور المال أحزانُ
أَحْسِنْ إلى الناس تستعبدْ قلوبهمُ ... فطالما استَعْبَدَ الإنسانَ إحسانُ
وكُنْ على الدهر مِعْواناً لذى أمَلٍ ... يرجو نَداك فإن الحرَّ معْوانُ
واشْدُدْ يَدَيْك بحَبْلِ اللهِ معتصماً ... فإنه الرُّكْنُ إن خانتْك أركانُ
مَنْ جاد بالمال مالَ الناسُ قاطبةً ... إليه والمالُ للإنسان فتّانُ
والناسُ أعوانُ مَنْ واتَتْه دولتُه ... وهم عليه إذا عادتْه أعوانُ

واشتهرت له هذه القصيدة الحكمية منذ حياته وانتشرت فى العالم العربى ، وأخذت الاجيال العربية تردِّدها فى كل بلد ، حتى لتصبح قصيدة شعبية ، ينشدها الناس فى كل مكان ، وإلى زمن قريب كان المنشدون ينشدونها فى مقاهى القاهرة . ولعل فى هذا ما يدل – من بعض الوجوه – على ما يمتاز به الشعر العربى الفصيح من شعبيته ، فقصيدة تنظم فى أقصى بيئاته فى الشرق فى « بُسْت » بأفغانستان الحالية تُنْشَدُ فى قلب العالم العربى بالقاهرة ، ويحفظها الشباب ويستظهرونها فى المغرب كما يستظهرونها فى المشرق . ويعقد الثعالبى فصلا طويلا لحكم البُسْتى ، ووراءها حكم وأمثال كثيرة فى ديوانه ، ومن طرائفه الحكمية قوله :

لا تَحْقِرِ الْمَرء إنْ رأيت بهِ ... دمامةً أو رثاثةَ الحُلَلِ
فالنَّحْلُ شىءٌ على ضؤولتهِ ... يَشْتارُ منه الفتى جَنَا العَسَلِ (١)

وقوله :

لا يَسْتخفَّنَّ الفَتى بعدوِّهِ ... أبدا وإن كان العدوُّ ضَئيلا
إن القَذَى يُؤْذى العيونَ قليلُه ... ولربما جَرح البعوضُ الفِيلا

وقوله :

ألم تَرَ أنَّ المرءَ طولَ حياتهِ ... مُعَنًّى بأمرٍ لا يزالُ يُعالجُهْ

(١) يشتار : يجتنى

يدور كدودِ القزِّ يَنْسِجُ دائما ويهلك غَمًّا وَسْطَ ما هو ناسِجُهْ

وعلى هذا النحو لانزال نقرأ عند أبى الفتح البُسْتى حكما طريفة . مما يدل على بعد نظره واتساع خبرته . وكان يخليها من الجناس عادة ، حتى تخفَّ على ألسنة الناس وتدور فى أفواههم ، ومن الحق أنه كان شاعرا خصب القريحة ، مما جعل شعره يحفل بمعان وصيغ بديعة .

٥

شعراء شعبيون

لا يستطيع أحد أن يزعم أن الشعر العربى انفصل فى عصر من عصوره عن شعوبه ، إذ كان دائما ترجمانا عن عواطفها ومشاعرها ، حتى فى المديح ، فإن الشعراء كانوا يمدحون الحكام بالمثل العليا التى تتطلبها شعوبهم فيهم ، ولم يتركوا لهم عملا قدَّموه لشعوبهم دون أن يحمدوه لهم حمدا كثير ، سواء أكان فى الداخل مما يتصل بنشر الأمن والعدل أم فى الخارج مما يتصل بانتصاراتهم على أعداء شعوبهم وخصومها . وكثرةُ الشعراء كانت من عامة الشعوب العربية ، فكان طبيعيا أن تتضح فى أشعارهم روحها ومشاعرها وكل ما يجرى فى خواطرها . وقد تحدثنا عن أغراض تتضح صلتها القوية بالشعوب مثل الزهد الذى يلتحم مباشرة بالجماعة الكبيرة فيها . وكانت تعيش كادحة كدحا مريرا ، لكى تثرى وتنعم بثمار عملها جماعة محدودة من الحكام وكبار التجار والإقطاعيين . ولم يكن أمام هذه الجماعة الكبيرة إلا الانصراف عن متاع الحياة وطيِّباتها ، وهى لذلك تُقبل على شعر الزهد ، ويصبح هذا الشعر غذاءها . ولا شك فى أن شعبية هذا الشعر هى التى جعلته يَسْهُلُ فى لغته سهولة شديدة ، لأن العامة لا تحب الإغراب اللغوى ، بل تحب الأساليب السهلة المبسَّطة الخفيفة التى تفهمها بمجرد أن تقرع أسماعها . وبذلك كان الزهد طوال هذا العصر شعبيا فى لغته الشعرية ، وكان مما أكد شعبيته ذيوعه على ألسنة الزهاد والعباد والمتصوفة والقُصَّاص والفقهاء وأصحاب الحديث ، فكان الناس يسمعونه فى كل مكان بالإضافة إلى ما كانوا يسمعون منه على ألسنة الشعراء ، وحتى شعر المجون مع أنه خاص بطبقة معينة من الشعب ونقصد أصحاب الثراء واللهو نجد فيه أو بعبارة أدق فى بعض منه آثارَ الشعبيةِ ، غير أنها هذه المرة لا تأتى من سهولة الألفاظ وإنما تأتى مما كان يقترن به أحيانا من دعابة ، مما يجعله أقرب إلى النوادر المضحكة ، وتأتى أيضا من استظهار طائفة من أصحابه للكلمات الفارسية التى تشيع على ألسنة العامة ، ويلقانا منهم كثيرون فى اليتيمة وتتمتها وفى دمية القصر

والخريدة . وطبيعى أن يشيع شعر شيعى كثير على ألسنة الشيعية ، يرويه خالف لهم عن سالف وخاصة ما يتصل بمراثى الحسين ، وبالمثل كان يشيع لأهل السنة كثير من الأشعار المصورة لعقيدتهم السنية ، مما تزخر به كتب الطبقات .

ونجد فى اليتيمة شاعرا من الأهواز يسمى محمد [١] بن عبد العزيز السوسى ، يقول فيه الثعالبى إنه كان أحد شياطين الإنس ، ويذكر أن له قصيدة كانت تُرْبِى على أربعمائة بيت فى وصف حاله وتنقله فى الأديان والمذاهب والصناعات ، أولها :

الحمدُ لله ليس لى بَخْتُ ولاثيابٌ يضمُّها تَخْتُ [٢]
سِيَّان بَيتى لمن تأمَّلَهُ والمَهْمَهُ الصَّحْصَحَان والمَرْتُ [٣]
أمنتُ فى بيتىَ اللصوصَ فما للصِّ فيهِ فوقٌ ولاتَحْتُ

فهو عديم الحظ وليس له ثياب يضمها صِوان ،فكل ما يملكه فوق جلده ، وبيته فارغ من الأثاث ومن أى شىء يكون فى البيوت عادة ، وكأنه فلاة مقفرة ، وطبيعى أن يأمن اللصوص ، فليس فى بيته ما يسرقونه ، وكأنه سجن ولاحرس له . ويمضى فيما رواه الثعالبى من القصيدة ، فيذكر أنه اضطُرَّ إلى أن يتخذ مظهرَ مُتَسَوِّلةِ الصوفية فقصَّرَ ثيابه ، وأَحْفَى شاربه مستقصياً ، وحَمَلَ سَجَّادة ، وذهب إلى الحج دون أن ينويه ، ودخل المسجد الحرام وصلَّى فى مقام الخليل ليوهم الناس أنه صوفى حقا ، حتى يعطفوا عليه ويحسنوا إليه . والقصيدة كانت كلها هزلا على هذا النمط .

واشتهرت منذ أوائل العصر جماعة من الشعراء الرحالة المتسولين المعروفين باسم شعراء الكُدْية أو التسول الأدبى ، ويعرفون أيضا باسم الساسانيين نسبة إلى أمير فارسى يسمى ساسان حرمه أبوه من الملك ، فهام على وجهه محترفا للكُدْية ، وتُشْبه هذه الجماعة طائفة الأدباتية التى كانت معروفة بمصر فى أواخر القرن الماضى والتى كانت تظهر فى موالد الأولياء متخذة من أشعارها وسيلة لاكتساب المال وابتزازه . ونجد مقدمات هذه الجماعة الساسانية فى أوائل كتاب البخلاء للجاحظ إذ يعرض طائفة من حِيَلها وخُدَعها ، ويتلوه البيهقى فيصور فى كتابه المحاسن والمساوى ألوانا من هذه الخدع والحيل . وحرى بنا أن نقف عند أهم شعرائها فى العصر : أبى دلف الخزرجى .

---

(١) اليتيمة ٣/٤٢٦ .
(٢) التخت : الصوان .
(٣) المهمه : الفلاة . الصحصحان : المستوى الواسع . المرت : القفر لانبات فيه .

أبو دُلَف الخزرجي : مِسْعر بن مُهَلْهِل [١]

شيخ هذه الجماعة بإيران فى العصر ومقدَّمها وزعيمها من شعراء القرن الرابع الهجرى وقد عاش فى بلاط نصر بن أحمد السامانى (٣٠١-٣٣١ هـ) ورافق بناء على أمره مجموعة صينية فى عودتها إلى الصين ، وفى عودته طاف بالهند . وعاش حتى اتصل بالصاحب بن عباد الوزير البويهى كما يوضح ذلك الثعالبى ونراه يعقد له ترجمة طويلة فى اليتيمة ، ويعرِّف به على هذا النحو : « شاعر كثير المُلَحِ والطرف ، مشحوذ الـمُدية فى الكُدْية ، خَنق التسعين فى الإطراب والاغتراب وركوب الأسفار الصعاب ، وضَرْب صفحة المحراب بالجراب ، فى خدمة العلوم والآداب . . وكان ينتاب حضرة الصاحب [بن عباد] ويكثر المقام عنده ، ويكثر سوادغاشيته وحاشيته ، ويرتفق بخدمته ، ويرتزق فى جملته ، ويتزود كتبه (رسائله إلى الولاة برعايته) فى أسفاره فتجرى مجرى السَّفاتج (الحوالات المالية) فى قضاء أوطاره . وكان الصاحب يحفظ مناكاة (كلام ومصطلحات) بنى ساسان حفظا عجيبا ، ويُعْجبه من أبى دلف وفور حظه منها ، وكانا يتجاذبان أهدابها ، ومن قول أبى دُلف :

وَيْحَكَ هذا الزمانُ زورُ فلا يـغـرَّنَّك الـغَـرورُ [٢]
زَوِّقْ ومَخْرِقْ وكُلْ وأَطْبِق واسْرِقْ وَطَلِّقْ لمن يزور
لاتـلـتـزمْ حـالةً ولـكـنْ دُرْ بـالـليالى كما تدورُ

والأبيات تصور حياة أبى دلف وأنها تقوم على المخرقة والتحامق والخطف والسلب والنهب . وله قصيدة طويلة سماها القصيدة الساسانية ، أو هكذا أسماها الثعالبى ، وهى فى ذكر المُكْدين وبيان فنون حرفهم وأنواع رسومهم ، استهلها بالتعريف ببنى ساسان الأدباتية وكيف يعيشون على الغربة والترحال واليسر تارة والعُسْر وربط البطون على الجوع والمسغبة تارات ، ثم يقول :

فنحن الناسُ كلُّ النا س فى البَرِّ وفى البَحْرِ
أخـذنـا جِزْيَةَ الخلقِ مـن الصِّين إلى مِصْـرِ

---

(١) انظر أبا دلف فى اليتيمة ٣٥٢/٣ وتاريخ الأدب الجغرافى لكراتشكوفسكى ١٨٨/١ وفى دائرة المعارف الإسلامية وانظر الرسالة الثانية لأبى دلف نشر مينورسكى بالقاهرة وكذلك النشرة الثانية للرسالة لمستشرقين روسيين ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرسى (نشر عالم الكتب بالقاهرة) .

(٢) الغرور : كل ماغرّ الإنسان من شيطان أوجاه أو مال أو متاع .

إلى طَنْجَةَ بل فى كـ ـلِّ أرضٍ خَيْلُنا تَسْرِى
إذا ضاق بنا قُطْرٌ نَزَلْنَا عنه إلى قُطْر
لنا الدنيا بما فيها من الإسلام والكُفْر
فَنصْطافُ على الثَّلْج ونَشْتُو بلدَ التَّمْرِ

وطريف أن يَعُدّ أبودلف ماياخذه الساسانيون من الناس بتفاصحهم وخُدَعهم وحِيَلهم الأدبية جزية . ويصوِّر الأرض كلها من مشارقها إلى مغاربها دارا لهم من الصين على المحيط الهادى إلى طنجة والمحيط الأطلسى ، وكأن الدنيا كلها ملكهم ولا حواجز تحجزهم من نهر أو جبل أو بلد مسلم أو بلد كافر ، فالدنيا كلها مسرح لأقدامهم ، يصطافون فى أقاليمها الباردة ، ويشتون فى أقاليمها الحارة الدافئة . ثم يأخذ أبودلف فى وصف حِيَلهم وصفا مسهبا ، وكيف أنهم كانوا يحتالون على النساء بما يكتبون لهم من تعاويذ وأحْراز ، وكيف أن القاصَّ منهم كان يتفق مع صاحب له ، ليفد على مجلس قَصصه ، فيأمر السامعين بإعطائه مايجودون به ، ثم إذا تفرَّقوا عنه تقاسما ما أعطوه . ويصورهم يتباكون فى البرد القارس خداعا للناس ، حتى تلين لهم قلوبهم ويعطوهم دراهمهم وكيف أنهم حين يلمُّون بحوانيت الباعة يخطفون جوزة من هنا وتمرة أوتينة من هناك ، وكيف يدهنون وجوههم بماء البَيْض الأصفر ، لتبدو شديدة الصفرة ، وكيف يَعْصبون جباههم ليوهموا الناس أنهم مَرْضَى ، وكيف يعْقرون أو يجرحون أنفسهم بالأمواس ، وكيف يَطْلون أجسادهم بالزيت حتى تسودَّ جلودهم ، وكيف يدارون ألسنتهم موهمين الناس أن الروم قطعوها فى جهادهم ، محاولين أن يبتزُّوا منهم الثياب والسلاح للغزو ، وكيف يحملون البخور وأدواته للسؤال به ، وكيف يحتالون على مرضى الأسنان بوضع دود الجُبْن بين أسنانهم ثم استخراجه ، وكيف يروون للناس كذبا الحديث عن الأنبياء والحكايات القصار ، وكيف يلبسون ثياب المتصوفة والرهبان احتيالا ، وكيف يوهمون الناس أنهم يجمعون الأموال لأقربائهم الأسرى فى ديار الروم فداء لهم ، وكيف يخفون إحدى أيديهم إيهاما بأنها مقطوعة ، وكيف يخيِّلون للناس أنهم كانوا يهوداً أو نصارى وأسلموا ، وكيف يوهمونهم بأنهم عُمْىٌ لايبصرون ، وكيف يدورون بين العِشائين منادين : رحم الله من عَشَّى الغريب الجائع ، آخذين من كل دار كِسْرة ، وكيف يحتالون على الناس بمعرفة طوالعهم ونجومهم ، وكيف يحتالون على الشيعة خاضبين لحاهم بالحِنَّاء مع حملهم الألواح والسُّبَح من الطين زاعمين أنها من قبر الحسين ، مع نواحهم عليه ورواية الأشعار فى فضائله ومقتله ، وكيف أنهم يحتالون لذرف الدموع بغمس قطنة فى الزيت وإمرارها على عيونهم ، وكيف يستأجرون

الصبيان والنساء ويُكْدون أو يشحذون عليهم ، وكيف يطرحون على أبواب الحوانيت السُّبحات وأقراص الحلوى ، وكيف يَرْقون المجانين وأصحاب العاهات ، وكيف يموِّهون بأنهم صائمون وأنهم سيحجُّون عن الناس ، وكيف يعبِّرون للناس رُؤاهم ، وكيف يستأجرون الصبيان ، وكيف يحملون السِّلال فيها الحيَّات وقد قلعوا أنيابها ، وكيف يدَّعون الطبَّ ومداواة المرضى ، وكيف يشحذون أو يُكْدون على الدِّببة والسباع والقردة ، وكيف يُرْعَدون رَعَدات شديدة تهتز لها مفاصلهم وتصطكّ أسنانهم ، وكيف أنهم يشدُّون أيديهم مجموعة الأصابع حتى يُظَنّ أنها مقطوعة ، وكيف يأوون إلى المساجد عليهم المرقَّعات حتى يُظن أنهم من الصوفية . وما يزال أبودلف فى وصف خُدَع القوم وحِيلهم ، حتى يُوفى على نهاية القصيدة قائلا :

ألا إنى حَلبتُ الدَّهـ ـرَ من شَطْرٍ إلى شَطْرِ
وجُبْتُ الأرضَ حتى صر تُ فى التَّطْواف كالخِضْرِ
فإنْ أظفَرْ بآمالى تَشَفَّتْ غُلَّةُ الصَّدْرِ
وألمت بأوطـــــانى قَوِىَّ النَّهْى والأمر
وقد تَخفق فوقى عـ ـزَّةً ألويةُ النَّصْرِ
وإما تكن الأخرى وعِزٌّ جائزُ الكسر
فلا أُبْتُ مع السَّفْر غداً فى أوبةِ السَّفْرِ
ولا عُدْت متى عُدْتُ بلا عِزٍّ ولا وَفْرِ

ويقول إن له أسوة فى غربته بالسادة الطُّهر آل البيت كما تشهد قبورهم فى الكوفة وكربلاء وبغداد وسامرًّا وطوس وباخمرا بالقرب من الكوفة . وفى ذلك مايدل على أنه كان شيعيا ، وأكبر الظن أنه كان إماميا مثل الصاحب بن عباد . وقد صوَّر فى قصيدته كل أفانين المكدين وحيلهم مستخدما مصطلحاتهم فى هذه الحيل ، مما جعله يُعْنَى بشرح القصيدة بيتا بيتا ، وعنه نقل الثعالبى الشرح ، ولخصناه فى إيجاز . والمصطلحات كلها شعبية ، ومن المؤكد أن جماعة الكدية كلها كانت جماعة شعبية ، ولاشك فى أن أبادلف يُعَدَّ خير شاعر فى عصره عبرَّ عن نفسه وعن هذه الجماعة .

ولأبى دلف رحلات إلى الصين وأواسط آسيا دوَّن اقتباسات كثيرة منها ياقوت فى « معجم البلدان » والقزوينى فى كتابه « آثار البلاد » وُوجدت له رسالتان حلل أولاهما المستشرق الألمانى رور صوير موضحا أنه يتحدث فيها عن رحلته إلى الصين . ونشر الرسالة الثانية المستشرق مينورسكى (طبع وزارة التربية والتعليم بالقاهرة) كما نشرها مستشرقان

روسيان وعنى الدكتور محمد منير مرسى بترجمة ما بذلاه فى نشرتهما والتعليق على الرسالة تعليقات علمية نافعة ، تذلل صعوباتها وتجعلها ميسرة للقارىء . وفيها يصف أبو دلف رحلته فى أواسط آسيا من جنوبى أذربيجان إلى مدينة باكو فتفليس فأردبيل فهمذان فالرىّ فطبرستان فقومس فطوس فنيسابور ، فهراة ، فأصفهان ، فمدن خوزستان . ويعنى بوصف المدن والقلاع التى شاهدها وصفا دقيقا ذاكراً معادنها وثمارها وأسواقها وأسوارها وسكانها من الشيعة وغيرهم وآثارها القديمة .

الفصل الخامس

النثر وكتّابه

١

تنوع الكتابة

رأينا فى العصرين : العباسى الأول والعباسى الثانى كيف تطور النثر العربى حتى وَعَى الثقافات الأجنبية العلمية والفلسفية ، وكيف تحول العرب من دور النقل والترجمة إلى دور التصنيف والمشاركة العقلية الخصبة المثمرة فى ميادين العلم والفلسفة . ونحن لا نصل إلى هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، حتى يصبح فى أغلب الأمر عصر تصنيف ومشاركة حية فى الفلسفة وعلوم الأوائل ، على نحو ما صوَّرنا ذلك فى غير هذا الموضع . وقد أصبح للعرب نوعان متكاملان من النثر : نوع علمى ونوع فلسفى ، ونفذوا خلال ذلك إلى وضع كتب فى مصطلحات العلوم ، كما أسلفنا ، وكل ذلك أحدثوه بدون ضجة . ولم يتركوا علما دون أن يتعمقوا فيه ودون أن يكتبوا فيه المجلدات الضخام ، ويحدثنا المطهر المقدس المتوفى سنة ٣٥٥ عن سلوك معاصريه العلمى ومايبذلون من عناء ليس وراءه عناء قائلا[١] :

«يأبى العلم أن يضع كنَفه أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجهه إلا لتمجَرِّد له بكلِّيته ، ومتوِّفر عليه بأنِّيته ، مُعانٍ له بالقريحة الثاقبة ، والرَّويَّة الصافية ، مقترن به التأييد والتسديد ، قد شمَّر ذَيْله ، وأسهر ليله ، حليف النَّصب ، ضجيع التعب ، يأخذ مأخذه متدرِّجا ، ويتلقَّاه متطرِّفا ، لا يظلم العلم بالتعسف والاقتحام ، ولا يخبط فيه خَبْطَ العَشْواء فى الظلام ، ومع هجران عادة الشر ، والتروع عن نزاع الطبع ، ومجانبة الإلف ، ونَبْذ المماحكة واللَّجاجة ، وإجالة الرأى عند غموض الحق ، والتأنى بلطيف المأتى ، وتوفية النظر حقه من التمييز بين المشتبه والمتضح ، والتفريق بين التمويه والتحقيق ، والوقوف عند مبلغ العقول ، فعند ذلك إصابة المراد ، ومصادفة المرتاد» .

وبهذا العناء البالغ والجهد الشاق تمثل المثقفون العلوم والفلسفة تمثلا رائعا ، وكان

(١) كتاب بدء الخلق والتاريخ للمقدسى ١/٤ .

لذلك آثار كثيرة فى تنوع فنون الكتابة والنثر ، مما نراه واضحا لا فى الكتابات العلمية والفلسفية فحسب ، بل أيضا فى الكتابات الأدبية ، ولنأخذ جانبا واحدا هو جانب القَصص ، فقد أخذ يوجد بجانب القصص الأدبى الخالص قصص صوفى وقصص فلسفى . ومعروف أن المترجمين عُنوا فى القرنين الثانى والثالث للهجرة بنقل كثير من القصص الفارسى والهندى وكان بين ما نقلوه كتاب ألف ليلة وليلة . ومحاكاةً له ألَّف محمد بن عبدوس الجهشيارى المتوفى سنة ٣٣١ للهجرة كتابا قصصيا مماثلا يشتمل على ألف حكاية من حكايات العرب وغيرهم . ومنذ هذا الحين يكثر تأليف كتب السمر حتى ليذكر حمزة الأصفهانى المتوفى قبل سنة ٣٦٠ أن كتب السمر المتداولة فى أيامه بلغت سبعين كتابا[١] ، وكانت العامة تتلهف منها على ما يدور حول الحب وحكاياته أوحول الجن. وطبيعى أن تكثر كتب النوادر ، وخاصة ما اتصل منها بالحمقى أو بالمغفلين ، وتكثر أيضا كتب الندماء وأخبارهم .

ومرَّ بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى أنه أخذت تتكوَّن منذ القرن الثالث حول المتصوفة حكايات كثيرة ، تصوِّر جهادهم فى نسكهم جهادا مضنيا ، وحكايات أخرى بجانبها تصور كراماتهم . وكانت العامة تقبل على هذه الحكايات الصوفية ، مما جعلها تطبع بطوابع الأدب الشعبى وألفاظه ولغته[٢] . وكلما مضينا فى عصر الدول والإمارات كثرت الحكايات والأقاصيص عن المتصوفة ، لما كانت تلقى من رواج عند العامة ، ويكفى أن نعرض أطرافا من هذه الحكايات عند القشيرى مؤسس التصوف السنى ، فقد فتح فى رسالته بابا لكرامات الأولياء ، وقصَّ حكايات منها تنسب إلى الصحابة والتابعين وكبار المتصوفة فى إيران والعراق ومصر والخضر عليه السلام . ومما حكاه أنه كان فى قصر سهل التسترى المتصوف بيت يسمى بيت السباع ، يقول · فسألنا عن ذلك ؟ فقالوا كانت السباع تجىء إلى سهل ، وكان يُدْخلهم هذا البيت ويُضيفهم ويُطْعمهم اللحم ثم يخليهم ! وحكى عمن يسمى ابن سالم أنه لما مات إسحق بن أحمد دخل سهل التسترى صومعته ، فوجد فيها سَفَطًا (وعاءً) فيه قارورتان ، فى واحدة منهما شىء أحمر ، وفى الأخرى شئ أبيض ، ووجد شوشقة (قطعة) ذهب وشوشقة فضة ، فرمى بالشوشقتين فى دجلة ، وخلط ما فى القارورتين بالتراب ! وكان على إسحق دين ، قال ابن سالم : قلت لسهل إيش كان فى القارورتين ، قال : إحداهما لو طُرِح منها وزن درهم على مثاقيل من النحاس

---

(١) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى (نشر دار مكتبة الحياة ببيروت) ص ٤٠ .

(٢) انظر العصر العباسى الثانى (طبع دار المعارف) ص ٢٥٩ .

صارت ذهبا ، والأخرى لو طُرح منها مثقال على مثاقيل من الرصاص صارت فضة . فقال سامع لابن سالم : وإيش عليه لو قضى منه دين إسحق؟ فقال له : إى دوست (يا صاحبى) خاف على إيمانه . وحكى عن الخوَّاص أنه قال : كنت فى البادية مرة ، فسرت فى وسط النهار ، فوصلت إلى شجرة وبالقرب منها ماء ، فنزلت ، فإذا أنا بسبع عظيم أقبل ، فاستسلمت ، فلما قرب منى ، إذا هو يعرج ، فحَمْحم وبرك بين يدى ، ووضع يده فى حجرى ، فنظرت ، فإذا يد ه منتفخة ، فيها قيح ودم ، فأخذت خشبة وشققت الموضع الذى فيه القيح ، وشددت على يده خرقة ، ومضى ، وإذا أنا به بعد ساعة ومعه شبلان يبصبصان لى وحملا إلىّ رغيفا ! . وحكى عن ذى النون فى رواية أبى بكر بن عبد الرحمن قال : كنا مع ذى النون المصرى فى البادية ، فنزلنا تحت شجرة أم غيلان ، فقلنا : ما أطيب هذاالموضع لو كان فيه رُطَب ، فتبسم ذو النون ، وقال : أتشتهون الرطب ، وحرَّك الشجرة ، وقال : أقسمت عليك بالذى ابتدأك وخلقك شجرةً إلا نثرت علينا رُطَباً جَنِيًّا ، ثم حرَّكها ، فنثرت رطبا جَنِيًّا ، فأكلنا وشبعنا . ثم نمنا ، وانتبهنا وحركنا الشجرة ، فنثرت علينا شوكا !. ومما حكاه عن الخضر فى رواية أبى عمران الواسطى قال : انكسرت السفينة ، وبقيت أنا وامرأتى على لوح وقد ولدت فى تلك الحالة صبية ، فصاحت بى ، وقالت لى : يقتلنى العطش ، فقلت : هو ذا يرى حالنا ، ورفعت رأسى ، فإذا رجل فى الهواء ومعه كوز ، فأخذت الكوز وشربنا منه ، وإذا هو أطيب من المسك وأبرد من الثلج وأحلى من العسل ، فقلت : من أنت ؟ رحمك الله ، فقال : عبد لمولاك ، فقلت : بم وصلت إلى هذا ؟ فقال : تركت عَوارى الدنيا لمرضاته ، فأجلسنى فى الهواء ، ثم غاب عنى ولم أره :

وتكثر أمثال هذه الحكايات فى كتب المتصوفة ، وواضح ما فيها من إبطال قانون السببية ، وإنما رويناها لندل على ذيوع حكايات وأقاصيص صوفية شعبية بين العامة ، وكانت تُرْوَى بلغة وسطى بين الفصحى والعامية أو قل بلغة فصحى قريبة من أفهام العامة ، وبذلك كانوا يتداولونها وكانت تشيع فى أوساطهم وتنتشر ، عاملة – إلى حد – فى الإبقاء على الفصحى ، لغةً متداولة على ألسنة الإيرانيين فى ذلك العصر ، خاصة أنهم كانوا يُشْغَفُون بالتصوف وكل ما يتصل به من أقاصيص ، لا تتناول الكرامات فحسب ، بل أيضا تتناول جوانب أخرى كرؤيا الرسول ﷺ فى الحلم ورؤيا الصحابة والصوفية ورؤيا الحور العِين . وفى رسالة القشيرى من ذلك حكايات مختلفة ، وبالمثل فى كتب المتصوفة ككتاب قرة العيون ومفرح القلب المحزون لأبى الليث السمرقندى المطبوع على هامش

الروض الفائق فى المواعظ والرقائق .

ويلقانا بجانب القصص الصوفى قصص فلسفى رمزى عند ابن سينا ويحيى السُّهْرَوَرْدِىّ ، أما ابن سينا فله ثلاث أقاصيص ، هى حَىّ بن يَقْظان وسَلامان وأُبْسال ، ورسالة الطير . وتستهل أقصوصة حَىّ بن يقظان بأن رفقاء (هى شهوات الإنسان وغرائزه) خرجوا يتنزهون ، فبينما هم يطوفون إذ رأوا شيخا بهيًّا هو حى بن يقظان وقد رمز به ابن سينا إلى العقل الفعال . ويدور حوار بين حى بن يقظان والرفقاء نعرف منه خطورة علم المنطق ويسميه علم الفراسة ، كما نعرف أن الرفقاء رفقاء سوء وأن هناك شاهد زور هو قوة التخيل التى توقع الإنسان فى الشر ، وأن الإنسان تحفّه من يمين القوة الغضبية ومن يسار القوة الشهوانية القذرة ولا نجاة منها إلا بالموت ، مثلها فى ذلك مثل الرفقاء السوء من الغرائز ، وأن على الإنسان أن يقمعها بالمجاهدة . ويقول حى بن يقظان إن حدود الأرض ثلاثة ، حد يحوزه الخافقان ، ويقصد به المركبات المحسوسة ، وحد المغرب ويقصد به الهيولى ، وحد المشرق ويقصد به الصورة . وبين هذين الحدين وبين عالم البشر سور مضروب لن يتجاوزه إلا الخواص المغتسلون فى عين فوّارة لعلها علم المنطق تطهرهم وتزكيهم ، إذ تضيئ لهم الحقائق . ويشير إلى المملكة المعدنية والنباتية والحيوانية ويقول إن إقليم الإنسان تقابله أقاليم المملكة السماوية وما بها من الأفلاك التسعة أو العقول التسعة التى تتسلط على الأرض والكون ، ثم العلة الأولى أو علة العلل وهى الذات الإلهية . ويتحدث عن عالم الأرض ويقول إنه رُتّب على سكك خمس كسكك البريد ، ويريد بها الحواس الخمس ، ويقول إن فى الأرض أمة بررَة رامزا بها إلى القوى العاقلة . وبذلك تنتهى الأقصوصة .

وأقصوصة سَلامان وأُبْسال لها أصول يونانية ، وهما أخوان كان أُبْسال أصغرهما سِناً وتربىَّ فى كَنَف أخيه ، ونشأ جميلا عفيفا ، شجاعا عالما أديبا . وسلامان فى الأقصوصة هو النفس الناطقة ، وأبسال هو العقل أو درجة العرفان . وكانت لسلامان زوجة رمزت بها الأقصوصة إلى القوة البدنية الأمارة بالشهوة ، عشقت أبسال ، فقالت لزوجها أخلطْه بأسرتك . ولما خلت به أظهرت له عشقها ، فأبى الانصياع لها أو قل أبى العقل الانصياع إلى القوة البدنية . ومكرتْ به فزوجته بأختها ، وقالت لها إننى لم أزوجك بأبسال ليكون لك وحدك ، وإنما ليكون لنا معا . وفى ليلة الزفاف جاءته بدلا من أختها وأخذت تعانقه وتضمه إلى صدرها ، فلاح برق فى السماء أبصر على ضوئه وجه زوجة أخيه فتخلص منها . ويرمز البرق إلى جذبة من جذبات الحق ، وينكشف الشَّرَكُ لعين أُبْسال ، ويتخلص

من عالم الشهوات الحسية إلى عالم العقل المحض . وينتظم جنديا فى الجيش ويفتح كثيرا من البلاد رمزا إلى الاطلاع على الملكوت الأعلى . وتتفق زوجة سلامان مع الطابخ والطاعم فيدسَّان لأبسال السم و يموت . ويثأر الأخ لأخيه ، فيقتل الزوجة والطاعم (رمزى القوة الشهوانية) والطابخ (رمز القوة الغضبية) . وسلامان نفسه فى قتله الثلاثة رمز لغلبة العقل على القوى البدنية .

وأقصوصة الطير يتخذ ابن سينا الطير فيها رمزا للحرية ، ويستهلُّها بدعوة إخوانه الفلاسفة الى الصفاء والإخلاص والسمو إلى الكمال ، و يتصور نفسه طائرا مع طائفة من الطير تنبه لها الصيادون ، فنصبوا لها الشِّباك ، وسرعان ما وقع فيها الطير وتشبثت بأجنحته وأرجله ، فاستسلم للهلاك ، وشُغل كل طائر عن أخيه بأمره وكَرْبه ناسيا حريته الضائعة كما نسيت الأرواحُ الإنسانية عالمها الذى هبطت منه ، وأصبحت سجينة البدن . وتخلَّص بعض الطيور روءسها وأجنحتها من الشباك ، ولكن تظل أرجلها متعثرة فيها . ويجمع الطير قوته والشباك عالقة به ، وييمِّم جبل الملك رجاء أن يفكها عنه ، ويرى من دونه سبعة جبال مايزال يقطع وديانها حتى يصل إلى الجبل الثامن ويعرف أن الملك فى مدينة وراءه فينفذ إليه و يبهره جماله ، ويتضرع إليه أن يفك عنه الشباك . ويقول له لا يستطيع فكها إلا عاقدوها ، ويرسل إليهم رسولا معه ليفكوها عنه . وانصرف الطير مسرورا . وواضح أن كل هذا الجهاد من جبل إلى جبل إنما كان فى سبيل تخلص الأرواح من أجسادها ، وترمز الجبال إلى مقامات السلوك إلى محبة الله المعروفة فى بيئات المتصوفة ، بينما يرمز الرسول الذى يفكّ الشباك عن الطير إلى ملك الموت .

ويُعيد يحيى بن حَبَش السهروردى كتابة أقصوصة حى بن يقظان متخذا لها اسما جديدا هو الغريبة الغربية ، وحى بن يقظان فيها لا يرمز إلى العقل الفعال أو العقل الإنسانى كما رأينا عند ابن سينا ، وإنما يرمز إلى المتصوف وجهاده ومقاماته حتى يتصل بربه محبوبه . ويستهل الأقصوصة السهروردى بأنه سافر مع أخيه عاصم من ديار ماوراء النهر إلى مدينة القيروان حيث أُسِرا وقُيِّدا فى السلاسل وألقى بهم فى بئر عميقة . ويبدو أنه يرمز بالمغرب والبئر إلى الشهوات التى تحول بين الإنسان وبين حياة الإشراق . ورأى هو وأخوه (رمز العقل كما يتضح من اسمه عاصم) هدهدا فى ليلة قمراء فى منقاره كتاب صدر من شاطئ الوادى الأيمن من البقعة المباركة . وهو كتاب حُمل إليهما من الذات العلية يدعوهما إلى السفر (رمز الجهاد الصوفى) بغية الوصول ، ويأمرهما بركوب سفينة تجرى بهما فى موج كالجبال صاعدة بهما إلى طور سيناء ، ليريا صومعة (الله) . ولعله رمز بالموج إلى

الشهوات . ورأيا فى الطريق جماجم عاد وثمود (رمز الضالين) وصعدا الجبل ورأيا أباهما شيخا كبيرا تكاد السموات والأرض تنشق لجماله وجلاله . وكأنه يرمز بذلك إلى وصوله . ويطلب إلى ربه أن يخلِّصه من سجن القيروان غير أنه يأمره بالعودة إليه قائلا إنه يمكنه المجئ إليه كلما شاء . وهو بالعودة إلى سجن القيروان يرمز إلى أن الصوفى لا يستطيع التخلص نهائيا من علائق الأرض . ويقول الله إنك ستتخلص يوما (يوم الموت) من سجن القيروان ولا تعود إليه . ويلقاه فى الرحلة أسد هو رمز القوة الغضبية وحيتان ربما كانت رمزا للشهوات .وكانت الرحلة شاقة . واتخذ السهروردى من مشاقها رمزاً للعناء الصوفى فى الوصول إلى المعرفة الإلهية والمحبة الربانية ، وقد ختمها بقوله « نجَّانا الله من قيد الهيولَى والطبيعة » .

وإذا كان القصص نما فى العصر هذا النمو على أيدى الفلاسفة والمتصوفة فإن ضروب النثر الأخرى نمت بدورها ، وفى مقدمتها المناظرات وخطابة الوعظ . أما المناظرات فكثرت كثرة مفرطة بين أصحاب المذاهب الفقهية ، وكذلك بين أصحاب المذاهب الكلامية ، وهى أكثر وأوسع من أن نقف عندها ، وخاصة أنها كانت علمية الطابع . وأما خطابة الوعظ فتجرد لها كثيرون من الفقهاء والمحدثين والمتصوفة والزهاد وكانوا يعظون الناس فى المساجد بعد صلاة الجمعة وطوال شهر رمضان . ويصور السمرقندى المتوفى سنة **٣٧٣** ماينبغى أن يكون عليه الواعظ والمستمعون إليه ، فيقول[1] : إن أول مايحتاج إليه الواعظ أن يكون صالحا فى نفسه ورعا متواضعا ، وأن لا يكون متكبرا ولافظا غليظا ، وأن يكون عالما بتفسير القرآن والأحاديث وأقاويل الفقهاء ، وأن لا يحدِّث الناس إلا بما صحَّ عنده من الأحاديث النبوية والأخبار ، وأن لايسأل إنسانا هدية ، أما إذا أهدى إليه إنسان من غير مسألة فلابأس من أن يقبل هديته ، وينبغى أن يمزج فى مجلسه بين الخوف والرجاء ، فلا يجعله كله خوفا ولا كله رجاء ، وإن كان الواعظ محتاجا إلى تطويل مجلسه تخلله بكلام يستظرفه السامعون حتى يزيدهم نشاطا وإقبالا على سماعه . ومن آداب المستمعين أن يصلُّوا على الرسول ﷺ عند سماع اسمه وأن لا يناموا فى أثناء الوعظ ، بل يظلوا ناشطين متنبهين

ونلمُّ على سبيل المثال بطائفة من كبار الوعاظ ، فمنهم أبو عثمان الصابونى شيخ الإسلام بخراسان ويقال إنه ظل – كما مرَّ بنا – يعظ الناس فى مجالس تذكيره ستين سنة ، وإنه كان

---

(١) بستان العارفين على هامش تنبيه الغافلين للسمرقندى ص **٢٥** وما بعدها .

يعظهم بالعربية والفارسية [١] ، ومنهم إمام الحرمين الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨ ومن أجله بنيت المدرسة النظامية بنيسابور - كما أسلفنا - وكان يجلس للوعظ والمناظرة ورُزق من التوسع فى العبارة ما لم يعهد من غيره ، وكان لا يتلعثم فى كلمة [٢] . ومنهم القشيرى الإمام الصوفى الكبير المتوفى بنيسابور سنة ٤٦٥ ومرَّ بنا ما قيل فى وعظه من أنه « لو قرع الصخر بصوت تحذيره لذاب ، ولو رُبط إبليس فى مجلسه لتاب » . ومنهم الغزالى الإمام المشهور وأخوه أحمد الذى قيل فيه : « كان واعظا تنفلق الصخور الصمّ عند سماع تحذيره ، وتُرْعَدُ فرائص الحاضرين فى مجالس تذكيره [٣] » . ومنهم فخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ وكان واعظا كبيرا وكان يعظ باللسانين العربى والعجمى وكان يلحقه الوجد فى حال الوعظ ويكثر البكاء . وحضر مجلس وعظه ذات يوم السلطان أبو المظفر الغزنوى ، فصاح به وهو على المنبر ، ياسلطان العالم ! لا سلطانُك يبقى ، ولا تلبيسُ الرازى يبقى ، وإن مردِّنا إلى الله [٤] .

وكانت كثرة الدول والإمارات الفارسية فى العصر عاملا مهما فى كثرة الرسائل الديوانية ، فقد كان لكل دولة ولكل إمارة ديوان رسائل تصدَّره كتَّاب اشتهروا بحسن البيان ، وليس ذلك فحسب فإنهم مضوا يتأنقون فى كتاباتهم صورا من التأنق حتى يُرْضوا أمراءهم . وكانت كتبهم لاتخلو من حِلية السجع ، فهى حلية مشتركة فى الرسائل جميعها وتضاف لها حِلًى مختلفة من الجناس والطباق والأخيلة ، حتى لتغدو بعض الرسائل طائفة من الحِلْيات والتنميقات . وكان الشبان يغدون على هذه الدواوين ابتغاء العمل فيُخْتَبَرُونَ ، ومن تتضح عنده الملكة الأدبية يوظف فيها ، وحينئذ يَلْزَمُ كاتبا من كتابها ، يعمل بين يديه ، حتى يخرِّجه كاتبا ماهرا . وكان بعضهم يظل فى حضرة الدولة أوعاصمتها ، وبعضهم يُرسل إلى الولايات للعمل بين أيدى الولاة . وكل ذلك كان يدفع شباب الكتاب إلى التنافس بينهم ، تنافسا أداهم إلى التثقف الواسع بألوان الثقافات المختلفة من لغوية وغير لغوية . وكان من يُظهر منهم نبوغا يرتقى سريعا وقد يصبح رئيسا للديوان ، وقد يصبح وزيرا يدبر أمور الدولة كلها ، وربما أصبح واليا لمدينة كبيرة . وكل ذلك دفع إلى النهوض بالكتابة الديوانية ، وخاصة فى القرون الرابع والخامس والسادس للهجرة ، حين كانت العربية لاتزال غالبة ولايزال سلطانها نافذا فى الأعمال الرسمية . وبالمثل ظلت فى

---

(١) السبكى ٢٧١/٤

(٢) ابن خلكان ١٦٨/٣

(٣) السبكى ١٩١/٦

(٤) السبكى ٨٩/٨ وما بعدها وابن خلكان ٢٤٩/٤ .

تلك القرون الكتابة الإخوانية مزدهرة ، فالادباء يصوِّرون فى رسائلهم الشخصية عواطفهم فى التهادى والاستمناح والثناء والذم والتهانى والعتاب والاستعطاف والتعزية ، مظهرين فى هذا المجال براعة فى طرافة التفكير وجمال التعبير ، وسنُعْنَى فى الصحف التالية بالحديث عن كتاب الرسائل الديوانية والشخصية ، ونقف قليلا عند قابوس بن وَشْمكير ومحمد بن عبدالجبار العتْبى ورشيد الدين الوطواط من كتَّاب الدول والإمارات ثم نلمُّ بابن العميد واضع طريقة كتابة الرسائل فى العصر وتلميذه الصاحب بن عباد وبديع الزمان وما أنشأ من مقاماته الرائعة .

٢

كتَّاب الرسائل

من أهم ما يلاحَظ فى مطالع هذا العصر بإيران ازدهار الحياة الأدبية ، فإن أصحاب الدول والإمارات الإيرانية تنافسوا فى جَمْع الأدباء من حولهم ، واتخذوا لذلك كل ما استطاعوا من تشجيع مادى مما جعل حواضرهم تتحول إلى مراكز أدبية كبيرة ، ولعلنا لم نَنْسَ مامرَّ بنا من كثرة الإمارات الفارسية فى القرن الرابع الهجرى ، فقد كان السامانيون فى بُخَارى بخراسان والبويهيون بالرَّىِّ والزياريون فى طَبَرسْتان وجُرْجان ، ولم يلبث الغزنويون أن ظهروا فى هراة بأفغانستان . وكان كل حاكم يسعى إلى أن تحفل عاصمته بكبار الكتاب والشعراء ، وكانوا دائما يختارون كاتبا كبيرا ليتولى شئون دواوينهم ، وكان بدوره يختار طائفة من الكتاب البلغاء لمعاونته ، فلا نعجب إذا نشطت الكتابة حينئذ وكثر الكتاب بإيران كثرة مفرطة . ولم يكن أصحاب الإمارة الكبيرة أو الدولة فقط هم الذين يجذبون الكتاب البلغاء إلى دواوينهم ، بل كان أيضا يصنع صنيعهم حكام البلدان والإمارات الصغيرة ، ولذلك تعددت مراكز الأدب فى الإمارة الواحدة على نحو ما يرى القارئ للثعالبى فى كتابه اليتيمة ، فإنه عرض فى حديثه عن الدولة السامانية وحاضرتها بخارى بخراسان لنيسابور وما كان بها من نشاط أدبى واسع ، وبالمثل عرض فى حديثه عن الدولة البويهية وحاضرتها الكبرى فى الرَّىِّ لأصبهان والجبل وفارس والأهواز .

ولن نستطيع أن نتعقب جميع كتاب الدول والإمارات الإيرانية فى القرن الرابع فضلا عما وراءه من قرون ، ولذلك سنكتفى ببعض المشهورين متخذين منهم أمثلة لازدهار كتابة الرسائل الديوانية والإخوانية قبل الغزو المغولى أو التتارى فى القرن السابع الهجرى . وأول من نقف عندهم كتاب الدولة السامانية ومن كبار كتابها العميد والد أبى الفضل بن العميد

كبير كتاب القرن الرابع وعلى بن محمد[1] الإسكافى النيسابورى وأسرة بنى ميكال من أهل نيسابور وفى مقدمتهم أبو الفضل الميكالى الذى ترجمنا له بين شعراء الغزل ، ويقتطف الثعالبى فصولا طريفة من رسائله . وأكثر المجلد الرابع من اليتيمة إنما هو فى الترجمة لأدباء بخارى ونيسابور ومن طرأ عليهما من كبار الأدباء مثل بديع الزمان ، وسنفرد له حديثا ، ومثل أبى بكر الخوارزمى ، وقد ترجمنا له فى شعراء الهجاء ، وهو أكبر كتاب الرسائل الشخصية أو الإخوانية فى العصر ورسائله مطبوعة ، وقد تحدثنا عن فنه الكتابى وبراعته الأدبية فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » .

ويُفيض المجلد الثالث من كتاب اليتيمة فى ذكر كتَّاب الدولة البويهية فى الرىِّ وأَصْبهان والجبل وفارس والأهواز وفى مقدمتهم ابن العميد والصاحب بن عباد ، وسنخص كلامنهما بحديث ، ويشيد الثعالبى بأبى العباس[2] الضبى المتوفى سنة ٣٩٩ ويقول إنه خليفة الصاحب وجذوة من ناره ، ويجرى فى طريقه ، ترسما وترسلا . وكان لجرجان وطبرستان حظهما من الكتاب والشعراء ، ولعل كاتبا فيهما لم ينبغ نبوغ قابوس بن وَشْمكِير فى الترسل والكتابة ، وسنلم به وبكتابته عما قليل . ونلتقى فى الدولة الغزنوية بكثيرين من الكتاب وفى مقدمتهم أبو الفتح البُسْتى ، وقد ترجمنا له بين شعراء الحكمة والفلسفة ، وكان يعاونه فى الكتابة أبو النصر محمد بن عبد الجبار العُتْبى ، وسنقف عنده بعد قليل . ومن كتَّاب الدولة الغزنوية أبو بكر القُهُسْتانى الذى ترجمنا له بين شعراء اللهو والمجون وكان على رأس كتَّاب الأمير محمد بن محمود الغزنوى . ويذكر الثعالبى فى تتمة اليتيمة بعض أسجاعه فى رسائله . ومن كتاب هذه الدولة أيضا القاضى أبو أحمد منصور[3] بن محمد الأزدى الهروى المتوفى سنة ٤٤٠ وأشاد بكتاباته وأشعاره كل من ترجموا له من القدماء .

ونمضى إلى الدولة السلجوقية فى القرن الخامس الهجرى ونجد على رأس كتَّابها أول وزير لها عميد الملك منصور بن محمد الكُنْدُرِىّ المارّ ذكره المتوفى سنة ٤٥٦ للهجرة وفيه يقول صاحب الدمية : « لعميد الملك الكُنْدُرِىّ طريقة فى الترسل محمودة ، وموافقة فى البلاغة مشهودة »[4] ويذكر نموذجا من كتاباته . ومن كتَّاب هذه الدولة أبو الحسن[5] الحسينى

---

(١) انظر فى الإسكافى اليتيمة ٤ /٩٥ ومعجم الأدباء ١٤ /١٥٧ .

(٢) راجع فى الضبى اليتيمة ٣/٢٨٧ ومعجم الأدباء ٢/١٠٥ .

(٣) انظر القاضى منصور الهروى فى تتمة اليتيمة ٢/٤٦ والدمية ٢/١٥٣ والسبكى ٥/٣٤٦ ومعجم الأدباء ١٩/١٩١ وبروكلمان ٢/١٢٢ .

(٤) راجع الكندرى فى الدمية ٢/٢٣٠ وابن خلكان ٥/١٣٨ والشذرات ٣/٣٠١ وابن الأثير فى مواضع متفرقة .

(٥) انظره فى الدمية ٢/١٧٧ .

البلخى ، وكان أَلْب أرسلان يرسله فى مهامِّه إلى بغداد ، ويسوق الباخرزى فى الدمية نموذجا من سلطانياته . ومن كتاب هذه الدولة أيضا الباخرزى صاحب الدمية ، ومرت ترجمته بين شعراء اللهو والمجون ، والطغرائى ومرت ترجمته بين شعراء المديح ، والأبيوردى وعمل فى دواوين السلاجقة ببغداد وأصفهان وغيرهما من البلدان ، ومرت ترجمته بين شعراء الفخر والهجاء والشكوى .

وكانت الدولة الخوارزمية تقود بدورها نشاطا أدبيا وعلميا عظيما استمر حتى قضاء التتار عليها سنة ٦٢٩ للهجرة ، ويكفى أن هذا النشاط أنتج العالم المعتزلى الكبير الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ كما أنتج كاتبا كبيرا يُعَدّ آخر كتاب الدواوين النابهين فى إيران ، وهو رشيد الدين الوطواط ، وسنخصه بكلمة ، بعد إلمامنا بقابوس بن وَشْمكير وأبى النصر العُتبىّ .

قابوس [1] بن وَشْمَكير

هو أحد أمراء الدولة الزِّيارية فى طَبَرِسْتان وجُرْجان وبلاد الجبل ، ويرجع نسبه هو وأسرته إلى « آل قارن » إحدى الأسر السبع الرفيعة – فيما يُقَال – لعهد الساسانيين . وينسبه البيرونى هو وأسرته إلى « قُباذ » الملك الساسانى . ولى الحكم فى إمارته بعد أبيه وَشْمكير ابن زِيار سنة ٣٦٧ ولقبه الخليفة العباسى بلقب « شمس المعالى » واشتبك مع البويهيين فى سلسلة حروب انتهت بفراره من إمارته إلى السامانيين سنة ٣٧١ وظل عندهم مكرَّما ، حتى استردَّ ملكه سنة ٣٨٨ . وكان أميراً جليل القدر بعيد الهمة ، غير انه كان – كما يقول ابن خلكان – على ما خُصَّ به من المناقب ، والرأى البصير بالعواقب ، مُرَّ السياسة لا يساغ كأسه ، ولاتُؤْمَنُ بحال سطوته وبأسه ، يقابل زلَّة القدم ، بإراقة الدم ، لا يذكر العفو عند الغضب ، فما زال على هذا الخلق ، حتى استوحشت النفوس منه وانقلبت القلوب عليه ، فأجمع أعيان دولته وعسكره على خلعه ونزع أيديهم من طاعته ، وحاصروه بإحدى القلاع فى جرجان . وكان ابنه منوجهر بَطَبَرِسْتان فاستحثُّوه على السير إليهم لعقد البيعة له ، فأسرع فى الحضور وبايعوه على أن يخلع أباه ، ونزل على إرادتهم ، وألزم أباه المكث بإحدى القلاع ، ولم يزل فى سجنه حتى توفى سنة ٤٠٣ على نحو ما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع .

---

(١) راجع ترجمة قابوس فى اليتيمة ٤/٥٩ واليمينى للعتبى مع شرح المنينى (طبع القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) . ٢/١٤ – ١٧ ، ٢/١٧٢ – ١٧٨ ومعجم الأدباء ١٦/٢١٩ وابن خلكان ٤/٧٩ والمنتظم ٧/٢٦٤ والنجوم الزاهرة ٤/٢٣٣ وابن الأثير فى مواضع متفرقة وديوان المعانى للعسكرى ١/٨٦ والفن ومذاهبه فى النثر العربى (الطبعة الثامنة) ص ٢٥٥ .

وكان قابوس مكرما للعلماء والشعراء يجزل الصلات لهم ، وقدَّم له البيرونى كتابه « الآثار الباقية » وقدم له الثعالبى كتابيه : « المبهج » و «التمثل والمحاضرة » . وكان مثقفا ثقافة واسعة شملت علوم الأوائل ، ويقال إنه كتب فى الإسطرلاب كتابا كان يعجب به الصاحب . وكان أديبا بارعا ، وهو يُعَد من كبار الكتاب فى عصره ، وفيه يقول الثعالبى : « جمع الله سبحانه له إلى عزة العلم بسطة القلم ، وإلى فصل الحكمة نفاذ الحُكْم ، وإنى أتوِّج هذا الكتاب (اليتيمة) بِلُمَع من ثمار بلاغته . . وأكتب فصولا من عالى نثره » . ويقول العتبى فى كتابه اليمينى : « إن رسائله موجودة فى البلاد عند الأفراد ، لكنى أكتفى منها بلمعة من بوارق بيانه ، وزهرة من حدائق إحسانه » . ويعلق أبو هلال العسكرى على رسالة له اقتبسها فى كتابه « ديوان المعانى » بأنها لانظير لها فى الافتخار والعتاب . وقد جمع رسائله فى عصر قريب منه عبدالرحمن بن على اليزدادى باسم « كمال البلاغة » ونُشرت فى القاهرة ، ونراه يحلل فى مقدمته لها بلاغته ، وقد ردَّها إلى أربعة عشر نوعا فى طريقة التسجيع واستخدام قابوس اللوازم المتصلة به ، مما يصور بوضوح تعقد السجع عند قابوس تعقدا شديدا ، وهو تعقد مرجعه فيما يظهر سعة وقته ، وكأنه اتخذ منه أداة للهوه وتسليته على نحو ما يتضح فى المطلع التالى لإحدى رسائله :

« الإنسان خُلق ألوفا ، وطُبع عطوفا ، فما لسيدى لايُحْنَى عُوده ، ولايُرْجَى عَوْده ، ولايُخال لفيئة مَخيلة ، ولايُحال تنكره بحيلة ، أمِنْ صَخْر تَدْمُرَ قلبه ، فليس يُلينه العتاب ، أم من الحديد جانبه فليس يميله الإعتاب » .

وواضح تصنعه المعقد للجناس فى سجعاته إذ يجانس بين « عُوده » و « عَوْده » ملتمسا جناسه فى اختلاف حركة العين فى الكلمتين ، وقد يلتمس الجناس عن طريق الاشتقاق كما فى « يخال » و « مخيلة » وفى « يحال » و « بحيلة » . وقد يلتمسه فى تغاير بعض الحروف فى الكلمة كما فى « مخيلة » و « بحيلة » . وكل ذلك ليظهر مهارته فى تضييق ممراته إلى أسجاعه . وفى كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » بيان واف لهذا الجانب عنده .

أبو النصر[1] العُتْبى

هو محمد بن عبد الجبار العُتبى ، مولده ومرباه فى الرَّىِّ ، وقد فارقها فى شبابه ، وقدم خراسان على خاله أبى نصر العتبى وكان من وجوه العمال بها ، فلم يزل يرعاه كالولد العزيز

---

(١) انظر فى ترجمة العتبى اليتيمة ٣٩٧/٤ والسبكى فى ترجمة محمود بن سبكتكين الغزنوى ٣١٩/٤ وبروكلمان (الترجمة العربية) ١/٦ .

عند الوالد الحانى إلى أن وافاه القدر . وتتقلب بمحمد أحوال وأسفار وأعمال فى الدواوين إلى أن استقر أمره فى العمل مع أبى الفتح البستى فى ديوان أبى منصور سُبُكْتِكين مؤسس الدولة الغزنوية ، وظل يعمل بعد وفاة سُبُكْتكين مع ابنه محمود حين استولى على صولجان الحكم ، وكان محمود يعترف -كما مر بنا- بالسلطة الروحية للخليفة العباسى ، فخلع عليه لقب يمين الدولة وأمين الملة . واتسع ملكه -كما أسلفنا- حتى شمل خوارزم وما وراء النهر وإيران الوسطى والشرقية وكشمير والبَنْجاب فى الهند . وعُنى أبو النصر العتبى بكتابة تاريخ هذا الفاتح العظيم وسمى كتابه اليمينى نسبة إلى لقب محمود الذى خلعه عليه الخليفة : « يمين الدولة » وقد انتهى به عند سنة ٤٠٩ مع أنه عاش حتى سنة ٤٢٧ . وربما كان فى ذلك ما يدل على أنه صنفه فى وقت متأخر ، وأنه لم تتح له الفرصة لتكملته . ويقول السبكى : « وأهل خُوارزم وما والاها يعتنون بهذا الكتاب ، ويضبطون ألفاظه أشد من اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريرى » وهو مطبوع فى القاهرة مع شرح المنينى له فى القرن الماضى ، ونسوق القطعة التالية منه مع ما سجله من ألقاب محمود الغزنوى ، يقول :

« الأمير السيد ، الملك المؤيد ، يمين الدولة وأمين الملة أبو القاسم محمود بن ناصر الدين أبى منصور سُبُكتكين ، مَلك الشَّرْق بِجَنْبيه ، والصدر من العالم و يديه ، لانتظام الإقليم الرابع بما يليه من الثالث والخامس فى حوزة ملكه ، وحصول ممالكها الفسيحة وولاياتها العريضة فى قبضته ، ومصير أمرائها وذوى الألقاب الملوكية من عظمائها تحت حمايته ، وجبايته ، واستدّرائهم « دفعهم » من آفات الزمان بظل ولايته ، ورعايته ، و إذعان ملوك الأرض لعزته ، وارتياعهم بفائض هيبته ، واحتراسهم – على تقاذف الديار ، وتحاجز الأنجاد والأغوار – من فاجئ رَكْضته » .

والعتبى بكتابته تاريخ محمود الغزنوى بهذه اللغة المسجوعة يحاكى الصابئ فى كتابه « التاجى فى ملوك بنى بويه » الذى كتبه قبله بنفس اللغة ، وقد سقط « التاجى » من يد الزمن بحيث لا نستطيع المقارنة بين العملين . ويبدو أن كتاب العتبى كان أخف ، فتعلقت به القلوب والأفئدة ، حتى قالوا إن من جاءوا بعده كانوا يتحفظونه ويتدارسونه ويتخذونه قدوة لهم فى البلاغة . وعلى شاكلته فى خفة السجع وعذوبته رسائلُه ، فإن الفصول التى حكاها الثعالبى منها تتخذ نفس الأسلوب فلا تكلف ولا تصنع ولا تعمل من مثل قوله فى رقعة كتبها فى الإنكار على من يذم الدهر :

« عَتْبُكَ على الدهر داعٍ إلى العَتْب عليك ، واستبطاؤك إياه صارفٌ عِنانَ اللَّوْم إليك ، فالدَّهْرُ سَهْمٌ من سهام الله منزعه عن مقابض أحكامه ، ومطلعه من جانب

ما حرَّرتْه مجارى أقلامه ، والوقيعة فيه ، تمرد بحكم خالقه وباريه ، ومجارى الأشياء على قدر طباعها ، وبحسب ما فى قُواها وأوضاعها ، ومَنْ ذا الذى يلوم الأراقم على النَّهْشِ بالأنْياب ، والعقارب على اللسْع بالأذناب ، وأنىَّ لها أن تُذَمّ ، وقد أُشْرِبَتْ خِلْقتها السم وحكم الله فى كل حال مطاع ، وبأمره رِضاً واقتناع » .

ولغة العتبى سهلة ليس فيها ألفاظ غريبة ، وسجعه ينزلق عن الألسنة فى يسر ، وليس فى الكلام ما يعوق جريانه من عقد الجناس وما يتصل بالجناس ، مما يتعثَّر فى الأفواه .

رشيد الدين [1] الوَطْواط

هو محمد بن محمد بن عبد الجليل العُمَرى الملقب برشيد الدين االمعروف بالوطواط لضآلة جسمه . من سلالة عمر بن الخطاب ، وُلد ببَلْخ وبها نشأ وتربى فى المدرسة النظامية ، وكان شاعرا كما كان كاتبا ، وله مصنفات عدة ، منها : «غرر الخصائص الواضحة» وهو من كتب الأدب التهذيبى ، ومنها : «حدائق السحر فى دقائق الشعر» وهو فى علم البديع والصناعة الشعرية ، وضعه بالفارسية ، وأمثلته فيه موزعة . بين الفارسية والعربية ، وقد نقله إلى العربية الدكتور إبراهيم أمين . ونرى رشيد الدين يغادر موطنه ويلتحق فى سنة ٥٢٢ للهجرة بدواوين الدولة الخوارزمية فى عهد أميرها الطموح الباسل أَتْسِز (٥٢١ - ٥٥١ هـ) ويظل بعد وفاته يعمل فى دواوين الدولة ، إلى أن يبلغ من الكبر عتِيًّا ويَهِن عظمه ، يدل على ذلك أن سلطان شاه محمود حفيد أتسز حين تولى مقاليد الأمور فى خوارزم سنة ٥٦٨ أراد أن يرى هذا الشاعر الهرم المريض فحملوه إليه فى محفَّة ، فلما مثل بين يديه نظم رُباعية فى مديحه ومديح أبيه وجده باللغة الفارسية . وعاش الوطواط بعد ذلك سنوات ، واختلف مؤرخوه ، فقيل توفى سنة ٥٧٣ وقيل بل سنة ٥٧٨ .

ويشيد ياقوت بأدبه وبلاغته قائلا : «كان من نوادر الزمان وعجائبه ، وأفراد الدهر وغرائبه ، أفضل زمانه فى النظم والنثر ، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب ، وأسرار النحو والأدب ، طار فى الآفاق صيته ، وسار فى الأقاليم ذكره ، وكان ينشىء فى حالة واحدة بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسية من بحر آخر ويمليهما معا » ويقول ياقوت : من مؤلفاته

---

(١) راجع فى الوطواط وترجمته معجم الأدباء ٢٩/١٩ وروضات الجنات ٧٧ وبغية الوعاة للسيوطى ومقدمة الدكتور إبراهيم أمين لتعريبه لكتاب حدائق السحر فى دقائق الشعر ، وقد ضمنها ترجمة واسعة له مع ذكر مراجعه فى الفارسية . وانظر بروكلمان ١٤٢/٥ ورشيد الدين الوطواط (مقالة مستلة من مجلة الجامعة المستنصرية) العدد الأول سنة ١٩٧٠ .

تحفة الصديق من كلام أبي بكر الصِّدِّيق ، وفصل الخطاب من كلام عمر بن الخطاب ، وأُنْس اللَّهفان من كلام عثمان بن عفان ، ومطلوب كل طالب من كلام على بن أبي طالب . ويقول أيضا : له ديوان شعر وديوان رسائل بالعربية وديوان رسائل بالفارسية ، وشعره دون نثره جودة . ورسائله العربية مطبوعة بمصر فى جزءين ، وهى موزَّعة بين رسائل شخصية أو إخوانية ورسائل سلطانية أو ديوانية . ونسوق له قطعة من تقليد حسبة صدر عن ديوان خُوارزم ، وفيه يقول :

« أن أولى الأمور بأن تُصْرَفَ أَعِنَّةُ العناية إلى ترتيب نظامه ، وتُقْصَر الهمم على مهمَّة إتمامه ، أمرٌ يتعلَّق به ثباتُ الدين ، ويتوقف عليه صلاح المسلمين ، وهو أمر الاحتساب فإنَّ فيه تثبيت الزائغين عن الحق ، وتأديب المنهمكين فى الفسق ، وتقوية أعضاد أرباب الشرع وسواعدها ، وإجراء معاملات الدين على قوانينها وقواعدها . وينبغى أنْ يكون متقلد هذا الأمر موصوفاً بالديانة ، معروفاً بالصيانة ، معرضاً عن مراصد (أماكن) الرَّيْب (التهمة) بعيداً عن مواقف التّهم والعيب ، لابساً مَدارع السَّداد ، سالكاً مناهج الرشاد . والشيخ الإمام — أدام الله فضله — متحلٍّ بهذه الخصائص المذكورة ، والفضائل المشهورة ، ومستظهر فى دولتنا للحقوق الفَرْضِيَّة ، ومستشعر للصفات المَرْضِيَّة ، فقلَّدناه هذا الأمر . وأمرناه أولاً أن يجعل التقوى شعاره ، والزُّهد دثاره ، والعلم مَعْلمه والدين مناره . ثم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقيم حدود الشرع على وفق النصوص والأخبار ، ومقتضى السنن والآثار . وأمرناه أن يبالغ فى تعديل المكاييل والموازين ، على وَفْق أحكام الشَّرْع والدين ، فإن وجد تفاوتاً فى شيء منها سوَّاه وعدَّله ، وغيَّره وبدَّله ، وأدَّب صاحبه على رءوس الأشهاد ، لينزجر عن مثله أهل الخيانة والفساد » .

والتقليد مهم لأنه يطلعنا على وظيفة الحسبة ، وأن الحاسب لم يكن فقط يراقب الأسواق كما يراقبها الشُّرْطى ، بل كان أيضاً ينظر فى كل ما يقع بها من الجنايات والخصومات كما ينظر القاضى ، وكأنه كان يقوم بوظيفة الشرطى والقاضى فى وقت معاً ، فهو ينظر فى الجرائم وما يقع من خصومات وفق ما جاءت به الشريعة من الحدود والأحكام . وهو لذلك كان يُخْتار من الفقهاء أو من الشيوخ كما جاء فى التقليد ، إذ لابد أن يكون عالماً بالكتاب والسنة وما جاء عن الأئمة فى الحدود وغيرها من أحكام . وهو مع ذلك يقوم بأعمال الشرطى ، فيراقب المكاييل والموازين ، فإن وجد فى مكيال أو ميزان تفاوتاً أو نقصاً بدَّله على رءوس الأشهاد ، حتى يفتضح الخائنون فلا يعودوا إلى خيانة أبداً ، وحتى ينزجر غيرهم فلا تحدثهم نفوسهم بخيانة فى ميزان أو مكيال أو ما يشبه الخيانة .

والتقليد جميعه مسجوع ، وليس فيه ألفاظ غريبة ، فالوطواط ينطلق فى سجعه ، وكأنه ينساب من معين زاخر دون أى عائق أو حائل . ويمثل هذه الصورة من السجع رسائله الإخوانية أو الشخصية فهى تجرى سائغة سهلة خفيفة على الأسماع والأفواه كقوله من رسالة وجه بها إلى الزمخشرى يستأذنه فى حضور دروسه ومجالسه :

«أنا منذ لفظتْنى الأقدار من أوطانى ، ومعاهد أهلى وجيرانى ، إلى هذه الخِطَّة (خوارزم) التى هى اليوم بمكان جار الله – أدام الله دولته – جَنَّةً للكرام ، وجُنَّةً (سِتْرا) من نكبات الأيام ، كانت قُصْوَى مُنْيتى ، وقُصارى بُغْيتى ، أن أكون أحد الملازمين لسُدَّته الشريفة التى هى مخيمَّ السيادة ، ومقبَّل أفواه السادة ، مَنْ ألقى فيها عصاه ، حاز فى الدارين مُنَاه ، ونال فى المحلَّين مبتغاه ، ولكن سوء التقصير ، أو مانع التقدير ، حرمنى تلك الخدمة ، وحرَّم علىّ هذه النعمة . والآن أظن – وظَنُّ المؤمن لا يخطئ – أن آفل جَدِّى (حظى) همَّ بالإشراق ، وذابلَ إقبالى أقبل على الإبراق ، فقد أجد فى نفسى نوراً مجدَّداً يَهْدينى إلى جنَّته ، ومن شوقى داعياً موفَّقاً يدعونى إلى حضرته» .

وتمضى الرسالة على هذا النمط من السجع الطبيعى . وكان يفسح فى شعره لكل صور البديع المتكلفة ولكل ضروب المحسنات من ترصيع وغير ترصيع . ونتركه للحديث عن ثلاثة هم فى الذروة من أدباء العصر فى مختلف حقبه الماضية : ابن العميد والصاحب بن عباد وبديع الزمان .

٣

ابن العميد[١]

هو أبو الفضل محمد بن الحسين ، فارسى الأصل ، من مدينة قُم الشيعية الإمامية ، فيها منشؤه ومرباه ، مما أعدَّه ليكون شيعياً إماميًّا مثل أمرائه البويهيين . وكان أَبوه كاتباً فَذًّا ، كتب لما كان بن كاكى ثم للسامانيين ، وهم الذين لقبوه بلقبه العميد كعادتهم فيمن يتقلد لهم ديوان الرسائل . ولم يُلحق ابنه معه بديوانهم ، بل ألحقه بدواوين البويهيين . وخدم ركنَ الدولة الحسن بن بويه صاحب الرَّىّ ، ولم يزل يترقى عنده ، حتى أصبح وزيره منذ سنة ٣٢٨ حتى وفاته سنة ٣٦٠ .

---

(١) انظر فى ابن العميد وترجمته اليتيمة ١٥٤/٣ وما بعدها وتجارب الأمم لابن مسكويه فى مواضع متفرقة وابن الأثير ٥١١/٨ ، ٥١٦ ، ٦٠٦ وابن خلكان ١٠٣/٥ والشذرات ٣١/٣ والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ٦٦/١ وكتابه «مثالب الوزيرين» وفيه تحامل شديد عليه وانظر الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢٠٥ .

وكان ابن العميد مثقفاً ثقافة واسعة بجميع علوم عصره حتى ليقول ابن مسكويه مؤرخ البويهيين المشهور : «كان أجمع أهل عصره لآلات الكتابة ، حفظاً للغة والغريب ، وتوسعاً فى النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام . فأما القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار ، فكان منه فى أرفع درجة وأعلى رتبة . . أما المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد فى زمانه أن يدَّعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعلم» . ويقول ابن الأثير : «كان عالماً فى عدة فنون ، منها الأدب ، فإنه كان من العلماء به ، ومنها حفظ أشعار العرب فإنه حفظ منها ما لم يحفظ غيره مثله ، ومنها علوم الأوائل فإنه كان ماهراً فيها ، مع سلامة اعتقاد إلى غير ذلك من الفضائل ، ومع حسن خلق ولين عشرة مع أصحابه وجلسائه ، وشجاعة تامة ، ومعرفة بأمور الحرب والمحاصرات ، وبه تخرَّج عضد الدولة ، ومنه تعلم سياسة الملك ومحبة العلم والعلماء» . ويقول ابن خلكان : «كان متوسعاً فى علوم الفلسفة والنجوم» .

وكان –كما لاحظ ابن الأثير– يحسن قيادة الجيوش ، وحقق للدولة انتصارات عظيمة ، من ذلك انتصاره على محمد بن ماكان قائد الجيش الخراسانى سنة ٣٤٤ بعد أخذه لأصبهان واستيلائه على خزائنها ، فقد اعترضه فى طريقه إلى الرى وهزمه هزيمة ساحقة . ومن ذلك انتصاره على ابن بلكا بشيراز سنة ٣٤٥ . وخرج فى سنة ٣٦٠ لقتال حسنويه الكردى ، ولكن المنية أدركته دون غايته ، وكان عمره يزيد قليلاً على ستين عاماً . وظل وزيراً ثلاثا وثلاثين سنة . وكان مقصد الشعراء والأدباء يجزل لهم الصلات ، وقصده أبو الطيب المتنبى بأرَّجان ، فاستقبله استقبالاً حافلاً ، وفيه يقول :

عربيٌّ لسانُه فلسفيٌّ رأيُه فارسيَّةٌ أعيادُهْ

ويشيد كل مَنْ ترجموا له ببلاغته ، وفى ذلك يقول الثعالبى : «أوحد العصر فى الكتابة وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة ، والضارب فى الآداب بالسهام الفائزة ، والآخذ من العلوم بالأطراف القوية ، يُدْعَى الجاحظ الأخير والأستاذ والرئيس . يُضْرب به المثل فى البلاغة ، ويُنْتَهى إليه فى الإشارة بالفصاحة والبراعة ، مع حسن الترسل وجزالة الألفاظ وسلاستِها إلى براعة المعانى ونفاستها . وكان يقال : بُدِئت الكتابة بعبد الحميد ، وخُتمت بابن العميد» . ومَنْ يقرأ ما اقتبسه الثعالبى من كتاباته يؤمن بأنه هو الذى أعطى الكتابة فى عصر الدول والإمارات صيغتها التى ظلت الأجيال المتوالية تستخدمها ، وهى صيغة قامت على أساسين كبيرين : أولها السجع ، وكان السجع معروفاً من قبله فى

الدواوين العباسية منذ أول القرن الرابع الهجرى ، على نحو ما مرَّ بنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الثانى ، وسنراه يُدخل عليه ضروباً من الموازنة فى السجعتين المتواليتين ، بحيث تصبح هذه الضروب ضرورة أو لازمة فيه . والأساس الثانى لم يكن متبعاً قبله ، وهو استخدام المحسنات البديعية مع السجع ، فالسجع وحده لا يكفى ، بل لابد أن تُضاف إليه الاستعارة أو الجناس أو الطباق وما إلى ذلك من محسنات البديع وتلاوينه . ونسوق مثالاً لذلك من كتاب كتب به عن ركن الدولة بن بويه إلى ابن بلكا عند عصيانه عليه ، مفتتحاً كتابه بقوله :

«كتابى إليك ، وأنا مُتَأَرْجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تُدِلُّ بسابق حُرْمه ، وتَمُتُّ بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب حَقًّا ورعاية ، ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلُولٍ[1] وخيانة ، وتتبعهما بِآنِفِ[2] خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يُحْبط أعمالك ، ويُسْقِطُ كلَّ ما يُرْعَى لك » .

وهذه النغمات الأولى فى الكتاب ترينا بوضوح أساس المنهج الذى التزمه ابن العميد فى كتابته ، فهو يلتزم السجع ، وليس ذلك فحسب ، بل هو يوازن بين السجعات ، فيجعلها قصيرة تتكون من كلمتين ، وإن طالت السجعة الأولى قليلاً أطال السجعة الثانية وجعلها موازنة لها أدق موازنة ، فسجعة «تدلّ بسابق حُرْمة» توازنها فى دقةٍ السجعة التالية لَها : «تمتّ بسالف خِدْمة» . ومثلهما السجعتان : «ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بآنِف خلاف ومعصية» . وهو لا يلتزم السجع فحسب ، بل يكثر من الطباق مثل «طمع ويأس» و «إقبال وإعراض» كما يكثر من الجناس مثل سابق وسالف ، والكتاب زاخر به وبالطباق وبتصاوير كثيرة كقوله فيه معاتباً صاحبه :

«ألم تكن فى ظلٍّ ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بَليل ، وهواء عَذِىّ[3] وماء رَوِىّ ، ومهادٍ وَطِىّ (لين) وكِنٍّ[4] كَنين[5] ، ومكان مكين ، وحِصْن حصين » .

وكل هذه كنايات واستعارات لما كان فيه هذا العاصى لركن الدولة حين كان يضع يده فى يده ، فقد كان فى سعادة ما وراءها سعادة ، فإذا كل نعيم كان فيه يتحول بؤساً وشقاء .

وله فصل من رسالة كتب بها إلى عضد الدولة يشيد فيها برعايته للعلم والعلماء قائلاً :

«قد يعدّ أهل التحصيل فى أسباب انقراض العلوم وانقباض مُدَدها ، وانتقاض مِرَرِها

---

(١) غلول : خيانة

(٢) آنف : أشد

(٣) عذى : خالص

(٤) الكن : ما يردّ الحر والبرد من الأبنية .

(٥) كنين : مستور

(قُواها) . . الطوفان بالنار والماء ، والمَوتان العارض من عموم الأوباء ، وتسلط المخالفين فى المذاهب والآراء . . وليس عندى الخَطْبُ فى جميع ذلك يقارب ما يولِّده تسلط ملك جاهل تطول مدته ، وتتسع قدرته . وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته ، والبلوى بمن هذه صورته ، تعظم النعمة فى تملك سلطان عالم عادل كالأمير الجليل الذى أحلَّه الله من الفضائل بملتقى طرقها ، ومجتمع فرقها ، وهى نُورٌ[1] نوافر ممن لاقت حتى تصير إليه ، وشُرَّد نوازع حيث حلَّت حتى تقع عليه ، تتلفَّت إليه تلفُّت الوامق ، وتتشوَّف نحوه تشوُّف الصبِّ العاشق » .

والفصل طريف فى دلالته على عناية عضد الدولة بالعلم وأهله ، وكان دائماً يعقد لهم المناظرات بين يديه . والفصل صورة أخرى لعناية ابن العميد بالسجع وتقصيره ، وإحداث الموازنات بين السجعات حين تطول . وفى أثناء كل ما قدمنا له تتضح عنايته بمحسنات البديع وسلاسة اللفظ وجمال السبك ووضوح المعنى . وهى كلها جوانب أساسية فى بلاغته وبيانه .

٤

الصاحب[2] بن عباد

هو كافى الكفاة إسماعيل بن عباد ، من أهل الطَّالَقان : ولاية بين قزوين وأَبْهر ، وُلد عام ٣٢٦ لأبيه عباد بن العباس الطالقانى ، وكان يعمل مع ابن العميد فى ديوان ركن الدولة بالرى ، وعُنى به ، فوصله منذ نعومة أظفاره بأحمد بن فارس اللغوى ، حتى إذا اتضحت فيه مخايل الأدب ألحقه بابن العميد ، فكان يصحبه دائماً ، مما جعل الناس يطلقون عليه لقب صاحب ابن العميد ، وظل هذا اللقب علماً عليه ، وقيل بل صحب مؤيد الدولة بن ركن الدولة منذ الصبا وسماه الصاحب ، فاستمر عليه اللقب واشتهر به .

---

(١) نور : جمع نَوار : شاردة

(٢) انظر فى الصاحب وترجمته وأشعاره ورسائله اليتيمة ١٨٨/٣ والمنتظم ١٧٩/٧ ومعجم الأدباء ١٦٨/٦ وابن خلكان ٢٢٨/١ وإنباه الرواة ٢٠١/١ وروضات الجنات ١٠٤ ونزهة الألباء ٣٢٥ ومرآة الجنان ٤٢١/٢ والشذرات ١١٣/٤ ولسان الميزان ٤١٣/١ وابن الأثير فى مواضع متفرقة وفى سنة ٣٨٥ وكذلك النجوم الزاهرة ١٦٩/٤ ، ومثالب الوزيرين لأبى حيان ، يريد ابن العميد والصاحب وقد بالغ فى الغض منهما كما أشرنا إلى ذلك . ورسائل الصاحب منشورة فى دار الفكر العربى بالقاهرة بتحقيق وتحقيق الدكتور عبد الوهاب عزام . وجمع أشعاره محمد آل ياسين ونشرها فى النجف باسم ديوان الصاحب وله عنه كتاب ، وكذلك للدكتور بدوى طبانة (طبع القاهرة) . وانظر المدخل بين يدى الرسائل وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى ص ٢١٢ وما بعدها .

ومنذ فتك مؤيد الدولة بأبي الفتح على بن أبي الفضل بن العميد سنة ٣٦٦ ولاه وزارته وظل وزيراً له حتى إذا توفى سنة ٣٧٣ وخلفه أخوه فخر الدولة أقرَّه على وزارته ، وكان مبجلاً عندهما ومعظماً نافذ الأمر . وكان حسن السياسة مدبراً للملك كما كان قائداً شجاعاً مما رفع منزلته عندهما إلى أقصى حد ، حتى قيل : كان « مَنْ يُؤْذَنُ له فى الدخول عليه يظن أنه قد بلغ الآمال ، ونال الفوز بالدنيا والآخرة ، فرحاً ومسرة ، وشرفاً وتعظيماً ، فإذا حصل فى الدار وأذنَ له فى الدخول إلى مجلسه قبَّل الأرض عند وقوع بصره عليه . . ولم يكن يقوم لأحد من الناس ، ولا يشير إلى القيام ، ولا يطمع أحد منه فى ذلك » . ومازال وزيراً لفخر الدولة حتى توفى سنة ٣٨٥ ويقال أنه لما توفى أغلقت له مدينة الرىّ ، واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته ، وحضر فخر الدولة وسائر القواد وقد غيَّروا لباسهم . ومشى فخر الدولة أمام الجنازة مع الناس ، وقعد للعزاء أياماً . وفيه يقول الثعالبى : « ليست تحضرنى عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله فى العلم والأدب وجلالة شأنه فى الجود والكرم ، وتفرّده بغايات المحاسن ، وجمعه أشتات المفاخر ، لأن همة قولى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ؛ وجهد وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه ولكنى أقول : هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وغرة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان . . وكانت أيامه للعلوية والعلماء . والأدباء والشعراء ، وحضرته محطُّ رحالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع آمالهم ، وأمواله مصروفة إليهم ، وصنائعه مقصورة عليهم ، وهمته فى مجد يشيده ، وإنعام يجدده ، وفاضل يصطنعه ، وكلام حسن يصنعه أو يسمعه . . وكانت حضرته مشرعاً لروائع الكلام ، وبدائع الأفهام ، وثمار الخواطر ، ومجلسه مجمعاً لصوب العقول وذوب العلوم ودرر القرائح . . واحتفَّ به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، مَنْ يُرْبى عددهم على شعراء الرشيد ؛ ولا يقصِّرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى ، ومِلْك رِقِّ المعانى » . ويذكر ياقوت أن عطاياه للأدباء والشعراء والعلماء والأشراف كانت تزيد على مائة ألف دينار فى العام الواحد . وكان يقول : مُدحت بمائة ألف قصيدة عربية وفارسية ، وفى هذا ما يدل على أنه كان يعرف الفارسية ، بل ربما كان يتقنها إذ رُوى أنه اختبر قدرة بديع الزمان الهمذانى ، حين مرَّ ببابه ، فى الترجمة من الفارسية إلى العربية .

وكان شاعراً مجيداً ، كما كان كاتباً مجيداً ، وقد أنشد الثعالبى طائفة كبيرة من أشعاره أخلاها من شعره العقيدى الشيعى والمعتزلى ، فقد كان شيعيا إماميا كما مر بنا فى حديثنا عن شعراء المديح وكان يدين بمذهب المعتزلة ومبادئهم المعروفة ، وقد نشر محمد حسن آل ياسين

ديوانه كما مرَّ بنا ، وهو يموج بأشعاره الشيعية وبتصويره لمبادئه الاعتزالية من مثل قوله :

قالت : فما اخترتَ من دينٍ تفوز به فقلت إنىَ شيعىٌّ ومُعْتزلى

وقوله :

ومن كان بالتَّشْبيه والَجبْر دائناً فإنىَ فى التوحيد والعَدْل أوحدُ

وهو يحمل على المشبِّهة والمجبرة حملات شعواء ، كما يحمل نفس الحملات على من يقولون بأن القرآن قديم وغير مخلوق يقول :

وإن قال أقوامٌ قديمٌ لأنه كلامٌ له فانظرْ إلى أين صعَّدُوا

وله وراء شيعياته واعتزالياته أشعار طريفة أنشدنا منها – فيما مرَّ – أطرافاً . وصنَّف فى اللغة معجماً سماه المحيط كما صنف كتباً ورسائل مختلفة فى الإمامة وفى فضائل على ابن أبى طالب وفى أسماء الله وصفاته وله رسالة فى الكشف عن مساوى المتنبى وكتاب فى المقصور والممدود . وكانت له مكتبة ضخمة ويقال إن فهرست كتبها كان يقع فى عشر مجلدات ، وأنها كانت حِمْل أربعمائة بعير .

ورسائله منشورة ، وهى فى عشرين بابا وكل باب يشتمل على عشر رسائل ما عدا البابين السابع عشر والثامن عشر ، وأولها فى الآداب والمواعظ وبه أربع رسائل ، والثانى فصول قصيرة وتوقيعات موجزة . وقد ذُكرت فى مدخل الرسائل القيمة التاريخية لها . وجميعها ديوانية ، أو الكثرة الكثيرة منها ، ولذلك كانت تُعَدُّ وثائق قيمة عن الدولة البويهية ، وخاصة أن الصاحب يعرض فيها حروبهم وأسماء قوادهم وقُضاتهم كما يعرض معاهداتهم وإدارتهم لشئون الرعية مما يجعل لها قيمة سياسية واجتماعية بعيدة . والباب الأول منها خاص بفتوح عضد الدولة وحروبه مع أخيه فخر الدولة وقابوس بن وَشْمكير ومع الروم ومع ابن حمدان ومع وَهْسوذان . وفى كل ذلك تفاصيل جديدة تضيفها الرسائل إلى ابن الأثير وغيره من المؤرخين . وبالمثل تضيف جديداً إلى ما تذكره كتب التاريخ عن معاهدات البويهيين على نحو ما جاء فى معاهدة لهم مع السامانيين من أنه «لا يُقْبَلُ فى جهة من الجهتين أُبَّاق العساكر ، ولا يمهَّد فى جنبة من الجنبتين للخالع والنافر ، ولا يُحَامَى على مَنْ عصا فشَرد ، وشق العصا وانفرد» . ومن الطريف أن نتعقب ما جاء فى الباب الثانى من العهود للقضاة والولاة والمحتسبين ، وخاصة عهود القضاة ، لنرى هل كانوا يرجعون إلى مصادر الفقه المعروفة العامة ، وهى الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وكأن لا فرق بين الشيعة وأهل السنة حينئذ فىَ القضاء ومصادره ؟ . وفعلاً يؤكد ذلك ما جاء فى الرسالة الأولى من الباب الثانى الخاصة بعهد القاضى عبد الجبار .

وفيها أيضا أن التركة لا تُرَدُّ إلى بيت المال بل يأخذها الأباعد من ذوى الأرحام ، وهو ما أشار إليه المقدسى فى كتابه أحسن التقاسيم من أن البويهيين لم يكونوا يتعرضون للتركات . ويلقانا عهد فى الحِسْبَة نطلع منه على صفات المحتسب وواجباته ومسئولياته . وتلقانا عهود فى معاملة الرعية وفى قسمة الماء فى بعض الأودية ، كما يلقانا باب عن الحجيج والمصالح والثغور . وفى الباب السادس رسالتان هما الخامسة والسادسة كُتبتا بمناسبة نشوب ثورة فى قزوين بين الشيعة والسنة ، ونرى الصاحب يدعو فيهما إلى أن تحل الألفة والوئام بين الطائفتين دون نصرة إحداهما على الأخرى . وفى ذلك ما يدل على أن البويهيين لم يتحيَّزوا إلى مذهبهم الشيعى فى أنحاء دولتهم حفظاً للأمن وصيانة له . وطبيعى أن نحسَّ فى بعض الرسائل بأن كاتبها من المعتزلة ، فقد كان الصاحب كما قدمنا معتزليّاً ، وفى الباب السابع عشر رسالتان صريحتان فى أن الصاحب كان يبعث دعاة له أحياناً يدعون الناس إلى الدخول فى نحلة الاعتزال . ومن قوله فى إحداهما : «كان هذا البلد من البلاد المستغلقة على أهل عدل الله وتوحيده ، والتصديق بوعده ووعيده ، هذا وفى فقهائه وفور ، وفى الفضل به ظهور ، وقد أعان الله على بثِّ كلمة الحق ، وسمعَ الأكثرُ على لين ورفق » . وربما رأى أن الاعتزال باب للتشيع ، وكانا متآخيين حينئذ ، فعمل على نشره لينتشر من ورائه التشيع مبتغاه . وفى الرسائل – من حين إلى آخر – ما يدل على نزعته الشيعية وخاصة حين يكتب برسائله إلى بعض الأشراف العلويين . وتلقانا فى الباب التاسع عشر رسالة هى عهد لعلوى ولىَ النقابة بين الذرية الطيبة ، وفيها ما يدل على أن النقيب هو الذى كان يحكم بين العلويين ، وأنه كان لهم قضاء مستقل فى الدولة ، وأنه كان ينتسب إليهم دخلاء ينتحلون النسبة ، ويأمر النقيب بتعقبهم وإشهار أمرهم ، وفى الرسالة أيضاً ما يدل على كثرة الأموال التى كان يقدمها البويهيون للعلويين .

وعلى هذا النحو لرسائل الصاحب المنشورة قيمة تاريخية كبيرة ، وأيضاً لها قيمة أدبية كبيرة ، لأنها المجموعة الوحيدة التى وصلتنا عن كتَّاب البويهيين فى القرن الرابع الهجرى ، وهى دائماً تبتدىء بالتحميد والتمجيد للنبى ﷺ أو بالدعاء . ويُعْقب الصاحب هذا البدء بذكر أميره الذى يكتب عنه مكتفياً بلقبه المشهور الذى خلعه عليه الخليفة ، وقد يذكر كلمة الحضرة السامية أو الحضرة الشريفة . وإذا كانت الرسالة فى فتح عظيم أطال فى الدعاء تنويها بالفتح . والرسائل كلها مكتوبة بأسلوب ابن العميد الذى يقوم على السجع والبديع ، ويروى معاصروه طُرَفاً كثيرة عن ميله للسجع وإيثاره ، حتى زعموا أن ابن العميد قال : خرج ابن عباد من عندنا من الرىِّ متوجهاً إلى أصفهان وطريقه رامين :

فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح لا لشيء إلا ليكتب إلينا : «كتابى هذا من النّوبهار ، يوم السبت فى نصف النهار» . وقالوا إن سجعة اضطرته إلى عَزْل قاضى مدينة قُمْ ، فقد كان فى حضرته ، فقال له : أيها القاضى بقم ، وأراد أن يكمل السجعة ، فأعياه إكمالها ، فقال : قد عزلناك فَقُمْ . ولعل هاتين النادرتين جميعاً من وضع خصمه أبى حيان ، وفى تكلفه للسجع يقول : «كان كلفه بالسجع فى الكلام والقول عند الجد والهزل يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البلاد . . قلت لابن المسيّبى : أين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ قال : يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة تنحلّ بموقعها عُروة الملك ، ويضطرب بها حَبْل الدولة ، ويُحْتاج من أجلها إلى غُرْم ثقيل ، وكلفةٍ صعبة ، وتجشُّم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخفّ عليه أن يُفْرج عنها ويُخليها ، بل يأتى بها ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها» . وكل هذه مبالغات فإن من يرجع إلى الرسائل المنشورة يجد الصاحب يترك نفسه على سجيتها ، فإن واتاه السجع مضى فيه ، وإن لم يواته استخدم أسلوب الازدواج ، وإن كان ذلك لا يأتى إلا نادراً ، فالصورة العامة لرسائله هى السجع والبديع والتفنن فى استخدامها تفننا يدل على مهارة واسعة ، حتى غدا ذلك كأنه طبع من طباعه وسجية من سجاياه . وأول ما يلقانا فى رسائله رسالته التى وصف فيها انتصار جيوش مؤيد الدولة على جيوش أخيه فخر الدولة وحليفه قابوس بن وشمكير ، ومقطعها الأول يجرى على هذا النمط :

«أحسنُ نعم الله تعالى غُرَراً وأَوْضاحاً ، وأَبْيَنُها فَلَقاً وصباحاً ، وأُولاها إذا تُصُفِّحَتِ المواهب أخذا بحظ السابق ، وأَوْلاها إذا اتُّبِّعت المنائح فوزاً بالعز الشاهق ، وأحراها بأن تُثْنى عليها ألسنة الأيام والليالى ، وتُثْنَى إليها أعناق المحامد والمعالى ، نعمةٌ صادفتْ حمداً وشكراً . وجمعت فتحاً ونَصراً ، ونظمت نُجْحاً وقهراً ، واستذلَّت ممتطياً للجحود لاهياً عن غَوْره ، مُسْتَشْرياً فى الغموط عادياً لطَوْره . وتلك النعمة عند مولانا الملك السيد إذ عَضَد الدولة ، وتوَّج المِلَّة ، وحرس الأمّة ، وزحزح الغُمَّة ، ورَفَدَ الخلافة ، وبَسَط العدل والرَّأفة ، وطهَّر البلاد ، وعمر الحج والجهاد ، وساس الجمهور ، وسدَّ الثغور ، فشهدتْ فتوحه بأنه مؤيَّد من عند الله ، ومحوطُ الملك بيد الله ، لا ينازع رأيَه منازعٌ إلا تُلَّ لجبينه[1] ، وعوجل بقطع وَتينه[2] . ولا يمانع رايتَه ممانع إلا غُلَّتْ يده دون مطلبه ، واقتُطع أمده عن مَهْربه ، ولم يَعِزَّ بالتحصن عليه مارق ، والتمَّع دونه مشاقٌّ مفارق ،

(١) تل لجبينه : صرع على وجهه (٢) الوتين : الشريان الرئيسى للقلب

إلا استولى عفواً على غايات احتياله وأقاصيه ، ومكَّن منه القضاء سَمْحاً فاستُنْزِل عن معاقله وصَياصيه [١] » .

وواضح أنه تمثَّل طريقة أستاذه ابن العميد ، فهو يُعْنَى أشد العناية بانتخاب ألفاظه ، حتى يكون بناء رسالته فى هذا الفتح قوياً سامقاً . ويُعْنَى بأسجاعه ، فهى تتقابل وتتوازن مهما طالت ، كقوله : « وأُولاها إذا تُصُفِّحت المواهب أخذاً بحظ السابق ، وأَوْلاها إذا تُتبِّعت المنائح فوزاً بالعز الشاهق » وكل كلمة فى العبارة الثانية تكاد تتشابك بالأيدى مع قرينتها فى العبارة الأولى . ومثلها السجعة التالية : « وأحراها بأن تُثْنِى عليها ألسنة الأيام والليالى ، وتُثْنَى إليها أعناق المحامد والمعالى » وكأن الكلمات فى العبارتين تتعانق . واستمر فى قراءة الأسجاع الطويلة فى هذا الفصل وفى رسائل الصاحب ، فستجد دائماً هذا التعانق والتشابك بين كلمات السجعات ، وحقًّا ابن العميد بدأ ذلك ولكن الصاحب اتسع فيه سعة شديدة . ولابد أن القارئ لاحظ كثرة استخدامه للتصوير منذ فاتحة المطلع ، فالنعم ذات غُرر وأوضاح كخَيْلِ الحرب الظافرة ، بل هى كالصباح الجميل البهيج ، وتتوالى الأخيلة والصور فى المقطع . ويكثر فيه الجناس مثل غَوْره وطوره ، والأَمَّة والغُمَّة ، وينازع ومنازع ، ويمانع وممانع . ويحاول أن يأتى بغرائب فى الجناس تخلب ألباب السامعين ، فيعمد إلى المغايرة بين كلمتين لا فى بعض الحروف ولكن فى بعض الحركات كما فى « أُولاها ، وأَوْلاها » و « تَثْنِى وتُثْنَى » . وجعلته قدرته على حشد السجعات يُكْثِر من الجمل الاعتراضية فى رسائله على نحو ما يتضح فى مطلع هذا المقطع ، فقد بدأه بمبتدأ هو « أحسن نعم الله » وفصل بينه وبين خبره ، وهو « نعمة صادفت حمداً وشكرا » بنحو ثلاثة أسطر ، ونقده أبو حيان ، وقال إن هذا يُحْدث تعاظلاً فى أساليبه [٢] . وفى رأينا أنه مقبول ما لم يطل الاعتراض طولاً شديداً ، وهو نادر عنده . على أن هذا الجانب فى أساليبه شاع فيما بعد بين كتَّاب العصور التالية وخاصة عند العماد الأصفهانى والقاضى الفاضل . وليس معنى ذلك أن الصاحب وضع مبدأ طول عبارات السجع ، بل هى تطول أحياناً ، وأحياناً تقصر كما فى هذا المقطع نفسه إذ يقول : « نعمة صادفت حمداً وشكراً ، وجمعت فتحاً ونصراً ، ونظمت نُجْحًا وقهراً » . وتكثر هذه السجعات القصيرة فى رسائله الإخوانية ، كقوله فى عزاء ابن عن أبيه ، وكان عالماً نحريراً : « للفجائع اختلاف مواقع ، وللمصائب تباين مراتب ، ومن أشدها لذعاً ، وأعظمها

---

(١) الصياصى : الحصون

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/٦٤

وقعاً ، فجيعة أحرجت صدور قوم مؤمنين ، ومصيبة خصَّت العلم والدين ، لفقد الشيخ المنقطع القرين ، أبى عثمان – رحمه الله ، وأكرم مأواه ، ومثواه فقد كان للإسلام جمالاً ممتداً ، وللدين ركناً مشتداً ، وللعلم شهاباً لا يَخْبو ، وللأدب سَهْماً لا يَنْبو ، يذبُّ عن حق الله القائم ، ولا تأخذه فى الله لومةُ لائم ، عاشَ عظيم الخطر ، ومات جميل الأثر ، التقوى شعاره ، واليقين دِثاره ، وحجج الله مَفْزعه ، وآياتُ الله مرجعه ، فياله مصاباً ما أعظمه على الموحِّدين ، وأسرَّه إلى الملحدين ، أذكرنا فقد الأئمة الأبرار ، وأعلام الأمة الأخيار » .

ويمضى فى مثل هذا السجع القصير موشِّياً له بالجناس ، أهم لون من ألوان البديع كان يستخدمه ، كما نرى فى مثل « مأواه ومثواه » ، و « ممتداً ومشتداً » و « لا يخبو ولا ينبو » و « لومة لائم » . وكان يستخدم معه الطباق من حين إلى حين كما نرى فى مثل « الموحدين والملحدين » . وله تهنئة طريفة ببنت ولدت لبعض أصحابه تمضى على هذه الشاكلة :

« أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء ، وأمِّ الأبناء ، وجالبة الأصْهار ، والأولاد الأطْهار ، والمبشِّرة بإخوة يتناسقون ، نَجباء يتلاحقون :

فلو كان النساءُ كمثل هَذِى لفُضِّلت النساءُ على الرجالِ
وما التأنيثُ لاسم الشمس عَيْبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ (١)

فادَّرِعْ يا سيدى اغتباطاً ، واستأنف نشاطاً ، فالدنيا مؤنثة والرجال يخدمونها ، والذكور يعبدونها . والأرض مؤنثة ومنها خُلقت البريَّة ، وفيها كثرت الذرية . والسماء مؤنثة وقد زُيِّنت بالكواكب ، وحُلِّيت بالنجم الثاقب . والنفس مؤنثة وبها قوام الأبدان ، وملاك الحيوان . والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ، ولا عُرِف الأنام . والجنة مؤنثة وبها وُعد المتقون ، ولها بُعث المرسلون . فهنيئاً هنيئاً ما أُوليت ، وأوزعك الله شكر ما أُعطيت ، وأطال بقاءك ما عُرف النسل والولد ، وما بقى الأمد ، وكما عُمِّر لُبَد » (٢) .

والرسالة مؤلفة من السجع القصير ، ويحلِّيها الصاحب بالجناس من مثل « الأصهار والأطهار » وهو قليل فيها ، وكأنه لم يكن يتأنق فى الرسائل الإخوانية تأنقه فى الرسائل الديوانية الطويلة . وفى الرسالة ظاهرة ينبغى الالتفات إليها ، ونقصد ظاهرة الاحتجاج ، فقد احتج للتهنئة بالبنت – وكان الأسلاف يفضلون الابن عليها – بست

(١) البيتان للمتنبى .

(٢) لبد : نسر ، وفى الأساطير العربية أنه عمر أربعمائة عام

حجج أو ستة أدلة ، وكل دليل لا يقل قوة عن سابقه ، فالدنيا مؤنثة والناس يخدمونها والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية كما جاء فى القرآن « ومنها خلقْناكم » والسماء مؤنثة وروعتها فى كواكبها ونجومها فوق التصوير ، والنفس مؤنثة وهى قوام الإنسان ، والحياة مؤنثة وبدونها يموت الإنسان وتبطل حركته ، والجنة مؤنثة ولها بُعث المرسلون وبها وُعد المتقون . أدلة لاتُنقْض . وكأننا بإزاء مناظرة كلامية فى تفضيل البنت الأنثى على الابن الذكر . يستعين فيها على رأيه بكلِّ ما يستطيع من أدلة وبراهين ، ولا شك أن ذلك جاءه من اعتزاله وعكوفه على كتب المعتزلة يقرأ فى أدلتهم وحوارهم وكيف ينفذون إلى البراهين الساطعة ، مما جعل كتابته تتشح بطرائقهم وجدالهم وتفننهم فى التعليل والتدليل . وهى تتضح فى جدال المنحرفين عن الدولة وفى تعليله العام لأفكاره وتدليله عليها بالأدلة البينة . ومن قوله فى إهداء أُتْرجَّة :

« ما زلت يا سيدى أفكر فى تحفة تجمع أوصاف معشوق وعاشق ، وَتَنْتظم نعوت مشوق وشائق ، حتى ظفرت بأترجَّة كأن لونها لونى وقد مُنيت ببعدك ، وبُليت بصدِّك ، وكأن عَرْفها [1] مستعار من عَرْفك ، وظَرْفها مشتق من ظرفك ، فكأنها بعض من لا أسمِّيه ، وأنا أفديه ، فأنفذتها وقلت :

مولاىَ قد جاءتْك أُتْرُجَّةٌ ... من بعض أخلاقِكَ مخلوقَهْ
ألبسَها صانعُها حُلَّةً ... من سَرَقٍ أصفرَ مسروقه [2]

والرسالة تصور أناقته فى اختيار سجعاته وتوشيتها بالجناس والطباق مجتمعين فى قوله : « معشوق وعاشق » و « مشوق وشائق ».وهى تصور ظرفه ورقة مشاعره . ولم نتوقف عند تصاويره وهى كثيرة فى رسائله الإخوانية والديوانية كقوله فى وصف الورود السوداء فى احمرار ، المعروفة باسم الشقائق ، ووصف الأشجار الخضراء والنارنجات الصفراء :

« قابلتنى شَقائق كالزنوج تجارحت فسالت دماؤها ، وضعفت فبقى ذَماؤها [3] ، وسامتنى أشجار كأن الحور أعارتها أثوابها ، وكستها أبرادها ، وحضرتنى نارنجات ككُرات ذهِّبت أو ثُدِىّ أبكار خُلِّقت [4] » .

وله رسالة لم يُعْنَ فيها بالسجع ، وإنما عُنى بالتصوير وحده ، وهى فى استدعاء صديق لبعض مجالس أنسه ، وتطَّرد على هذا النمط :

« نحن يا سيدى فى مجلس غَنِيٍّ إلا عنك ، شاكرٍ إلا منك ، قد تفتحت فيه عيون

(١) العرف : الرائحة الطيبة .
(٢) السرق : شقق الحرير .
(٣) الذماء : بقية الروح .
(٤) خلقت : طُيِّبتْ .

النرجس ، وتوردت فيه خدود البنفسج ، وفاحت مجامر الأترجّ ، وفُتقت فأْرات[١] النارنج ، وأُنطقت ألسنة العيدان ، وقام خطباء الأوتار ، وهبَّت رياح الأقداح ، ونَفقت[٢] سوق الأنس ، وقام منادى الطرب ، وطلعت كواكب الندماء ، وامتدت سماء النَّدِّ[٣] فبحياتى لما حضرت لنحصل بك فى جنة الخُلْد ، وتتصل الواسطة بالعقد » .

والرسالة مغموسة غَمْساً فى صور وأخيلة متعاقبة ، وكأنما ترك الصاحب نفسه على سجيتها ، فلم يعمد فيها إلى سجع . ولعل فى ذلك ما يرد على من اتهموه بتكلفه للسجع وغرامه به ، حتى لو كلفه ذلك خَللاً فى الملك والدولة أو لو كلفه أهوالاً ثقالاً ما بعدها أهوال ، فقد كان يلجأ إلى الازدواج أحياناً ، بل ربما تخفف من الازدواج والسجع جميعاً كما فى هذه الرسالة . وله رسائل ملؤها المزاح والدعابة . وكانت بديهته حاضرة ، مما جعله يمتاز بحسن الأجوبة وسرعتها فمن ذلك أن ضَرَّابين للنقود من دار الضَّرْب رفعوا إليه رقعة فى مظلمة ووقعوا عليها باسمهم : الضَّرَّابين ، فوقَّع تحتها « فى حديد بارد » . واستمع إلى ابن سمعون الواعظ ببغداد فى أثناء درس له فسأله متخابثا عن قَدْ سَكونيات العلم إذا وقعت قبل التوهم ، يظن أنه بذلك يقطعه عن الكلام ، ولم ينقطع فلما سكت قال له الصاحب : « هذا الذى تقوله بعد التوهم ، وإنما سألتك قبله » ! .

٥

بديع[٤] الزمان ومقاماته

هو أحمد بن الحسين وُلد سنة ٣٥٨ بهمَذان ، ولذلك يقال له الهمذانى ، ولقَّبه معاصروه باسم بديع الزمان إعجاباً بأدبه . وهو من أسرة عربية ، نزلت مسقط رأسه ، وهى أسرة تغلبية مضرية ، ومن قوله فى بعض رسائله : « همذان المولد ، وتَغْلب المورد ، ومُضَر المحتد » فهو ليس فارسى الأصل ، بل هو عربى مضرى تغلبى . وعُنى به أبوه ، فأخذه بالعلم والتعلم منذ نعومة أظفاره ، وألحقه بحلقات العلماء ، وخاصة حلقة أبى الحسين أحمد بن فارس اللغوى المشهور صاحب كتاب المجمل ، وله يقول فى بعض رسائله متلطفاً :

---

(١) فأرة المسك : وعاؤه .

(٢) نفقت : راجت .

(٣) الند : الطيب .

(٤) انظر فى بديع الزمان وترجمته وأخباره اليتيمة ٢٥٦/٤ ومعجم الأدباء ١٦١/٢ ودمية القصر ٣٤٦/٢ وابن خلكان ١٢٧/١ ورسائله مطبوعة قديما ببيروت ومقاماته طبعت مرارا ، وديوانه مطبوع بمصر قديماً وانظر فيه كتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » ص ٢٣٨ وأيضا كتابنا (المقامة) طبع دارالمعارف ص ١٣ وما بعدها

لا تَلُمْنِى على ركاكة عَقْلِى　　أَنْ تيقَّنتَ أننى همَذانى

وكان محبًّا للرحلة ، فلم يكد يبلغ الثانية والعشرين من عمره ، حتى فارق موطنه إلى حضرة الصاحب بن عباد ، وكان – كما مرَّ بنا فى ترجمته – راعياً كبيراً من رُعاة الأدب فى عصره ، بل كان أكبر رعاته ، فانتجعه الشاب بديع الزمان سنة ٣٨٠ ومدحه ببعض أشعاره ، وأعجب به الصاحب لبراعته الأدبية ، وأحضره مجالسه ، ويقال إنه كان يُلْقى عليه بعض الأبيات الفارسية ويطلب إليه نقلها إلى العربية ، فينقلها فى سرعة عجيبة .

ويرحل عن حضرة الصاحب مولِّياً وجهه شَطْرَ جُرْجان ، وينزل بأسرة معروفة بالثراء وتشجيع العلماء والأدباء ، وهى أسرة الإسماعيلية ، ويرعاه منها خاصة أبو سعيد ابن منصور الإسماعيلى ، وظن بعض المعاصرين أنها كانت تعتنق المذهب الإسماعيلى الشيعى ، وهو اتفاق فى الاسم جرَّ إلى هذا الخطأ[1] . ويؤكد ذلك أن ياقوت فى ترجمته له يقول : «إنه كان شديد التعصب لأهل الحديث والسنة» فلم يكن إسماعيليًّا ، ولا كان أيضاً إماميًّا شيعيًّا ، بل كان سنِّياً أَشْعَرِياً .

ولا يمكث فى جُرجان طويلاً ، بل يتركها إلى نَيْسابور موطن أهل السنة عام ٣٨٢ وهناك يصطدم بأبى بكر الخُوارزمى ، وهو اصطدام طبيعى ، فقد كان الخوارزمى شيعيًّا إماميًّا ، وكان يدعو لبنى بويه الشيعة الإماميين فى نيسابور معقل الدولة السامانية السنية ، فانتهز الأدباء فيها فرصة نزول بديع الزمان ببلدتهم ، وعقدوا مناظرة بينه وبين الخوارزمى انتصروا فيها للبديع ، فعَلا صيته ، وتألق نجمه ، إذ كان الخوارزمى يُعَدّ فى الذروة من الكتاب والشعراء لعصره . وتصادف أن توفى سريعاً ، فخلا الجو للبديع ، وطارت شهرته ، ورعاه حينئذ بنوميكال أعيان نيسابور وأدباؤها النابهون . وسرعان ما فارقها سنة ٣٨٣ راحلاً من بلد إلى بلد فى خراسان بينما الجوائز والمكافآت تُغْدَقُ عليه ، حتى إذا بدأت المعارك بين الغزنويين والسامانيين ولَّى وجهه نحو سِجِسْتان وأميرها خلف بن أحمد (٣٤٤ – ٣٩٩ هـ.) وكان أديباً فأعجب ببديع الزمان ، ويقول الباخرزى إنه وصله بألف دينار . وذكر ذلك فى إحدى رسائله . وله فيه خمس مقامات أنشأها فى مديحه وقصائد ورسائل مختلفة .

ويترك سِجستان إلى هَراة بأفغانستان ، ممنِّياً نفسه أن يصبح من حاشية محمود الغزنوى ويلقاه ، وقد أنشدنا له قصيدة فى مديحه على نحو ما مر بنا فى غير هذا الموضع ،

(١) راجع كتاب بديع الزمان الهمذانى لمارون عبود (طبع دار المعارف) ص ١٦ وهو يشك فى اسمه واسم أبيه وعروبته دون دليل .

ويُصْهر إلى سَرِىٍّ من سَراة هَراة يسمَّى الخُشنامى ، وينجب أولاداً ، ويقتنى عَقاراً وضِياعاً . ويكتب إلى أبيه رسالة يستدعيه فيها هو وإخوته وعمه مما يدل على ما صار إليه من ثراء . ويبدو أنه غدت له مكانة كبيرة ، فكان الكبراء يقصدونه لطلب شفاعته عند أولى الأمر ، يقول فى بعض رسائله : «وهؤلاء الصدور ، يرون أن الشمس من قِبَلى تدور» غير أنه لم يلبث أن توفى وهو لا يزال فى الأربعين من عمره سنة ٣٩٨ للهجرة .

وللبديع رسائل كثيرة ، وهى رسائل إخوانية تتناول المديح والاستعطاف والشكر والاعتذار والعزاء والاستمناح وطلب الشراب والهجاء والتقريع ، ومنها ما هو موجَّه إلى الأمراء أو الوزراء أوكبار الموظفين أو شيوخه أو إلى نظرائه من الأدباء أو إلى أهله أو إلى ذوى الوجاهة واليسار . وله من كتاب إلى الأمير أبى نصر الميكالى النيسابورى :

«كتابى – أطال الله بقاء الأمير – وبودِّى أن أكونه ، فأسْعَد به دونه ، ولكن الحريص محروم لو بلغ الرزق فاه . لولاَّه قفاه ، وبعد فإنى فى مفاتحته بين ثقة تَعِد ، ويد ترتعد ، ولِمَ لا يكون ذلك والبحر وإن لم أره ، فقد سمعت خبره ؟ ومن رأى من السيف أثره ؛ فقد رأى أكثره ،وإذ لم أَلْقه ، فلم أجهل إلا خَلْقه ، وما وراء ذلك من تالِد أصلٍ ونَشَبٍ ، وطارف فضل وأدبٍ ، فمعلومٌ تشيد به الدَّفاتر ، والخبر المتواتر ، وتنطق به الأشعار ، كما تختلف عليه الآثار ، والعين أقل الحواسِّ إدْراكاً ، والآذان أكثرها استمساكاً» .

وفى هذه الرسالة القصيرة ما يوضح بعض خصائص سجعه ، وأنه يُعْنَى فيه بتقصير العبارات ، تواتيه فى ذلك ملكة فياضة ، فلا يكاد يمسك بالقلم ويكتب ، حتى تنثال عليه العبارات ، وحتى يخيل إلى الإنسان كأن سيلاً متصلاً من الكلام يجرى ولا ينقطع إلا أن يتوقّف البديع عامداً لينهى الكلام . وتأمَّلْ فى سجع هذه الرسالة فستجده موشى بالجناس الناقص فى مثل : «تَعِد وترتعد» و «أره وخبره» و «أثره وأكثره» و «أَلْقه وخَلْقه» . وهو دائماً يَغْمس رسائله فى الجناس غَمْساً ، تارة يأتى به كاملاً ، وتارة يأتى به ناقصاً ، وهو الأغلب الأكثر ، كقوله فى الأمير خلف بن أحمد فى إحدى رسائله : «لو أن البحر عُدده ، والسحاب يده ، والجبال ذهبه ، لقصرت عما يهبه . بينما المرْءُ فى سِنَة من نومه ، وقصاراه قوتُ يومه ، إذ يُقرَعُ الباب عليه قَرْعاً حَفِيًّا ، ويُسْأل به سؤالاً خَفِيًّا ، ويُعْطَى ألفاً خلفيًّا» . والجناس الناقص واضح فى هذه العبارات المتعاقبة ، وهو يشفعه بكثير من التشبيهات والاستعارات ، ضامًّا دائماً النظير فى الألفاظ إلى نظيره ، وهو ما يسميه البلاغيون بمراعاة النظير كقوله من فصل فى إحدى رسائله :

«أرانى أذكر الشيخ كلما طلعت الشمس أوهبت الريح أو نجم النجم أولمع البرق

أو عرض الغيث أو ضحك الروض . إن للشمس محيَّاه ، وللريح ريَّاه ، وللنجم حِلاه وعُلاه ، وللبرق سناؤه وسناه ، وللغيث يداه ونَداه ، وللروض سجاياه » .

وواضح أنه لما ذكر عنصراً من الطبيعة وهو الشمس أردفه بالريح والنجم والبرق والغيث والروض . والجناسات كثيرة فى القطعة . وبجانب ذلك نراه يكثر من الاقتباس من القرآن ، كما يكثر من نسج الأبيات والشطور فى تضاعيف رسائله . ونراه يجنح كثيراً إلى سَرْد بعض القصص والحكايات القصيرة ضرباً للأمثال كقوله من رسالة :

« فيما يقول الناس من حكاياتهم أن أعرابياً نام ليلاً عن جمله ففقده ، فلما طلع القمر وجده ، فرفع إلى الله يده ، فقال : أشهد لقد أعليته ، وجعلت السماء بيته . ثم نظر إلى القمر فقال : إن الله صوَّرك ونوَّرك ، وعلى البروج دوَّرك ، . . ولئن أهديت إلى قلبى سروراً ، لقد أهدى إليك نوراً . والشيخ ذلك القمر المنير لقد أعلى الله قدره ، وأنفذ بين الجلود واللحوم أمره ، ونظر إليه وإلى الذين يحسدونه ، فجعله فوقهم وجعلهم دونه » .

ويضرب مثلاً لمن يذهب فى البحث بعيداً عن أمنيته ، وهى مَدُّ يده ، بالبخارى الذى ضاع حماره فذهب يبحث عنه فى البلاد النائية ، بينما هو فى مَرْبضِه ، يقول :

« لم يكن مَثلى معه إلا مثل البخارى الذى ضاع حماره وخرج فى طلبه ، حتى عبر نهر جَيْحون بسببه ، يطلبه فى كل مَنْهلة ، وينشده فى كل مرحلة ، وهو لا يجده حتى جاوز خُراسان ، وانتهى إلى طبرستان ، وأتى العراق ، وطاف الأسواق ، فلما لم يجده وأَيِس عاد وقد طالت أسفاره ، ولم يحصِّل حماره ، حتى إذا وصل إلى بلده ، بين أهله وولده ، أحب الله أن يلطف به لطفاً ليعتبر به ، فنظر ذات يوم إلى إصطبله ، فإذا الحمار بسرجه ولجامه ، وحزامه ، قائماً على المَعْلف ينشّ » .

ورسائل البديع خفيفة ورشيقة ، بل لعلها أخف وأرشق رسائل وصلتنا عن عصره وبعد عصره . وجعلته موهبته القصصية التى رأيناها فى رسائله يبتدع فنًّا جديداً ، هو فن المقامة ، وهى حكاية قصيرة تقوم على الحوار بين بطل مقاماته : أبى الفتح الإسكندرى وراوية حكاياته وأقاصيصه عيسى بن هشام . والمعروف أنه أملى أربعين مقامة فى أثناء مقامه بنيسابور ، وأضاف إليها خمساً ، كما أسلفنا ، عند نزوله بخلف بن أحمد أمير سجستان ، ثم أضاف إليها ستا أخرى . والمظنون أنه عرض بنيسابور على طلابه أولاً أحاديث ابن دُرَيْد الأربعين التى احتفظ بها كتاب الأمالى لأبى على القالى ، وهى حكايات قصيرة مليئة بالسجع والغريب ، وبعد أن أنهاها رأى أن يعرض على طلابه ثانياً أربعين مقامة له . ومعنى كلمة مقامة حديث . ولم يجعل مقاماته حكايات متنوعة

الموضوعات ، بل جعلها تدور على موضوع واحد ، هو الكُدْية أو الشحاذة الأدبية ، وكأنه استلهم فيها حديث الجاحظ عن المُكْدين فى أوائل كتابه «البخلاء» وكذلك حديث البيهقى عنهم فى كتابه «المحاسن والمساوى» ويعرض الجاحظ والبيهقى لأساليبهم وحِيلهم فى استخلاص الطعام والدراهم والدنانير من الناس . وكان هؤلاء الأدباء الشحاذون قد لمعت أسماؤهم فى عصر بديع الزمان ، ومرَّ بنا حديث مفصل عنهم وعن شعرائهم فى هذا القسم الخاص بإيران وأيضاً فى القسم الخاص بالعراق . وكل ذلك ألهم بديع الزمان صنع مقاماته ، ونراه فى أولاها يتمثل بأبيات كبير المكْدين أبى دلف الخزرجى ، وقد أنشدناها فى حديثنا السابق عنه ، إذ يقول :

وَيْحَك هذا الزمانُ زورُ فلا يغرنَّك الغَرورُ

ويسمى إحدى مقاماته المقامة الساسانية نسبة إلى هذه الطائفة من المكدين أو الأدباء الشحاذين ، إذ كانوا يسمون بالساسانيين نسبة إلى ساسان ، وهو – كما أسلفنا – أمير فارسى هجر إمارته وهام على وجهه محترفاً للكُدْية .

وتنقَّل بديع الزمان بأبى الفتح الإسكندرى بطل مقاماته فى بلدان مختلفة مما دفعه إلى أن يسمى أكثر المقامات بأسماء البلدان التى ألمّ بها وأكثرها بلدان فارسية . وفى أحوال قليلة تسمى باسم الحيوان الذى وصفه فيها مثل المقامة الأسدية نسبة إلى الأسد ، أو باسم الأكلة التى طعمها أبو الفتح مثل المقامة المَضِيرية نسبة إلى طعام المَضيرة ، وهى لحم يطبخ باللبن المضير أى الحامض . وقد تسمى باسم موضوعها مثل الوعظية نسبة إلى الوعظ والإبليسية نسبة إلى إبليس والقريضية نسبة إلى ما فيها من أحكام أدبية على الشعر والشعراء . وسمى مقامة باسم المقامة الجاحظية نسبة إلى الجاحظ ، وهو يقول عنه إنه قليل الاستعارات وينفر من الغريب والكلام المصنوع ، ولعله يقصد الكلام المسجوع الملئ بالجناس وما إليه من المحسنات البديعية . وتخلو المقامات الخمس المتصلة بخلف بن أحمد من الكُدْية ، إذ هى مديح خالص له . أما بقية المقامات فكما قدمنا تدور على الكدية أو الشحاذة الأدبية عن طريق التفاصح البيانى وما ينصبه أبو الفتح من حِيل وشباك لسلب أموال الناس . وفى تضاعيف ذلك يعرض البديع مجتمعه بكل ما فيه من مساجد وحمامات ومارستانات وحوانيت ومطاعِم وحانات وموائد وما يتصل بها من الأوانى فى بيوت الأغنياء والفقراء . ويعرض فى المقامة النيسابورية صورة لفساد القضاة والقضاء فى بعض البلدان . وقد حمل فى المقامة المارستانية حملة عنيفة على المعتزلة ، لأنه كما قدمنا كان أشعريًّا ، وكانت

الخصومة مستعرة فى زمنه بين الأشعرية والمعتزلة . ونحن نسوق له إحدى مقاماته ، ولتكن المقامة البصرية نسبة إلى البصرة فى العراق ، وهى تجرى على هذا النمط :

«حدَّثنا عيسى بن هشام قال : دخلت البصرة وأنا من سِنِّى فى فَتاء (شباب) ومن الزِّى فى حِبَر ووِشاء (ثوب مطرز) ومن الغِنى فى بَقَر وشاء (غنم) فأتيت المِرْبَد (سوق البصرة) فى رفقة تأخذهم العيون ومشينا غير بعيد إلى بعض تلك المتنزَّهات ، فى تلك المتوجَّهَات ، وملكتنا أرضٌ فحللْناها ، وعَمَدْنا لِقداح اللَّهو فأجلْناها ، مطَّرحين للحشمة إذ لم يكن فينا ، إلا مِنَّا ، فما كان بأسرع من ارتداد الطَّرْف ، حتَى عنَّ (ظهر) لنا سواد (رجل) تَخْفضه وِهاد ، وترفعه نِجاد (مرتفعات) وعلمنا أنه يهمُّ بنا ، فأتْلَعْنا (مددنا أعناقنا) له حتى أدَّاه إلينا سيره ولَقِينا بتحية الإسلام ، ورددنا عليه مقتضى السلام ، ثم أجال طَرْفه فينا وقال : يا قوم ما منكم إلا مَنْ يلحظنى شَزْراً (بمؤخر عينه) ويوسعنى حَزْراً (تخمينا) وما ينبئكم عنى ، أصدق منى . أنا رجل من أهل الإسكندرية ، من الثغور الأموية ، قد وطَّأ (مهد) لى الفضل كَنفه ، ورحَّب بى عَيْش ، ونمانى بيت ثم جعجع بى (أهاننى) الدهر ، وأتلانى (أتبعنى) زغاليل حُمْر الحواصل . . . ونشَرَتْ علينا البِيض (الدراهم) وشَمَسَتْ (نفرت) منا الصُّفْر (الدنانير) وأكلتنا السود (الليالى) وحطَّمتنا الحُمْر (السنوات المجدبة) . . وهذه البصرة ماؤها هَضُوم (مهضم) وفقيرها مهضوم : فكيف بمن :

يطوِّف ما يطوِّف ثم يأوى   إلى زُغْبٍ محدَّدة العيونِ[1]
كَسَاهنَّ البِلى شُعْثاً فتُمْسى   جياعَ النَّابِ ضامرَة البطون[2]

ولقد أصبحن اليوم وسرَّحن (أجلْنَ) الطَّرْف فى حَيٍّ كميْت (يقصد نفسه) وبيت كلا بيت ، وقلَّبْن الأكفَّ على ليت ، ففَضَضْنَ عُقَد الضلوع ، وأفَضْن ماء الدموع ، وتداعَيْن باسم الجوع :

والفَقْرُ فى زمن اللِّئا   مِ لكل ذى كرمٍ علامَهْ
رَغِبَ الكرامُ إلى اللِّئا   م وتلك أشْراطُ القيامه[3]

ولقد اخترتكم يا سادة ، ودلَّتنى عليكم السعادة ، وقلت : قَسَماً ، إن فيهم لدسَما ، فهل من فتى يُعَشِّيهن ، أو يُغَشِّيهن (يكسوهن) وهل من حُرٍّ يُغَدِّيهن أو يُرَدِّيهن (يلبسهن

---

(١) زغب : من الزغب : صغار الريش والشعر (٢) شعثا : مغبرَّة ، كناية عن أن أحدا لا يرعاهم . والكتابة واضحة . (٣) أشراط : علامات

ثياباً) . قال عيسى بن هشام : فوالله ما استأذن على حجاب سمعى كلامٌ رائع أبرع ؛ وأرفع ، وأبدع ، مما سمعت منه . لا جرم أنا استمحنا الأوساط (يريد الأحزمة وما فيها من نقد) ونفضنا الأكمام ، ونحَّينا الجيوب ونُلْته (أعطيته) أنا مُطْرِفى (ثوبى) وأخذت الجماعة إخْذى ، وقلنا له : الحقْ بأطفالك ، فأعرض عنا بعد شكر وفاّه ، ونَشْر (ثناء) ملأ به فاه » .

وواضح ما يمتاز به البديع فى مقاماته من خفة روح وميل إلى الدعابة ، حتى يدخل السرور على سامعيه وترتسم البسمات على شفاههم . ويكثر من إنشاد الشعر فى المقامات ، ومن حَلِّ بعض الأبيات المشهورة ، على نحو ما صنع بقوله : «وأتلانى زغاليل حمر الحواصل» يريد أولاده وأنهم مثل زغاليل قريبة عهد بالولادة ، فحواصلها لا تزال حمراء خالية من الريش ، والصورة استعارها من الحطيئة حين حبسه عمر بن الخطاب ، فتوجه إليه يستعطفه لأولاده قائلاً :

ماذا تقولُ لأفراخٍ بِذى مَرَخٍ زُغْبِ الحَواصل لا ماءٌ ولا شجرُ[1]

وكانت للبديع موهبة قصصية رائعة ، غير أنه لم يستغلها فى مقاماته بالمقدار الذى كان يُظَنّ ، إذ لم يضع فى ذهنه صنع قصص وحكايات ، إنما الذى وضعه وجعله نصب عينيه أن يتخذ من حوار المقامة القصير بين عيسى بن هشام وأبى الفتح وسيلة لحشد عبارات مسجوعة طريفة تتحفظها الناشئة . وجاراه الحريرى وغيره فى صنع هذه الأقاصيص القصيرة البلاغية ، وعدُّوها أروع صور النثر وأبلغه ، غير حافلين بعمل قصص طويلة أو حتى قصص قصيرة متنوعة . وبدأ البديع فوضع هذه الأقاصيص القصيرة أو هذه المقامات فى إطار السجع ، وتبعه خالفوه . وهو يضيف إلى السجع — كما رأينا فى رسائله — ألوان البديع من الأخيلة والتصاوير ومن الجناس ومراعاة النظير ، وألهاه الحوار القصصى عن المبالغة فى ذلك . ولا ريب فى أن سجعه فى مقاماته — كرسائله — سجع رشيق ، لما يمتاز به من قِصَر ومن حسن انتخاب لألفاظه . وقد يتخلل بعض مقاماته بالشعر ، كما قد يحشد فيها ببعض ألفاظ غريبة ، على نحو ما نقرأ فى المقامات : الحمدانية والموصلية والقردية . وربما دفعه إلى ذلك مقصد تعليمى ، وهو مقصد تأثر فيه بأحاديث ابن دريد المفرطة فى الغرابة . غير أن ذلك إنما يأتى فى المقامات التى سميناها وفى الحين البعيد بعد الحين ، بحيث لا تُعَدُّ عيباً فى أساليبه التى تطبعها — كما قلنا — الرشاقة ، وأيضاً الخفة والعذوبة وروح الفكاهة المرحة المحببة لكل إنسان .

(١) ذو مرخ : موضع بنجد

وحرى بنا أن نشير إلى ما ذكرناه فى كتابنا المقامة من أن المقامة الإبليسية لبديع الزمان هى التى أوحت لابن شهيد الأندلسى وأبى العلاء المعرى رحلتهما فيما وراء الطبيعة ، فإن بديع الزمان تصور فى مقامته عيسى بن هشام يلتقى بإبليس فى واد من وديان الجن ، إذ ضلَّت منه إبل فخرج يطلبها ، حتى نزل فى واد حافل بالأشجار والأنهار ، وبينما هو ينظر من حواليه إذ رأى شيخاً جالساً فسلَّم عليه وردَّ السلام ، وسأله ابن هشام هل تروى من أشعار العرب شيئاً ؟ قال نعم وأنشده بعض أشعارهم ، وعرض عليه أن ينشده من شعره وهشَّ له ابن هشام ، فأنشده قصيدة لجرير ، وعجب ابن هشام من انتحاله لها ، ويدور بينهما حوار يقول له فيه إبليس «ما أحَدٌ من الشعراء إلا ومعهُ معين منا ، وأنا أمليت على جرير هذه القصيدة ، وأنا الشيخ أبومُرَّة». ويغيب عنه ، ويجد عيسى بن هشام نفسه وحيداً . وقد استوحى ابن شهيد هذه المقامة فى رسالته «التوابع والزوابع» أى الجن والشياطين ، وهو فيها يَلْقَى شياطين الشعراء فى وادى الجن ، وكلما لقى شيطاناً لشاعر أنشده من شعر صاحبه ، ثم أنشده من شعره ، فيبدى إعجابه به ويجيزه اعترافاً بروعة شعره ، ولقى شياطين الكتاب كما لقى شياطين الشعراء ، وعرض عليهم بعض رسائله ، ولقى شيطان بديع الزمان الذى سمَّاه « زبدة الحقب » ، ويحاول أن يعرض عليه بعض عباراته النثرية التى يحاكيه فيها ، ويعترف له زبدة الحقب بحسن بلاغته ، ويجيزه على إبداعه . والصلة قوية بين هذا العمل لابن شهيد وبين المقامة الإبليسية ، فهما جميعاً يتخذان لقاء شياطين الشعراء فى وادى الجن موضوعاً لهما ، ويَلْقَى ابن شهيد شيطان بديع الزمان مما يؤكد صلته بآثاره ، وأنه يعارض مقامته الإبليسية بتوابعه وزوابعه . وتجادل الباحثون طويلاً هل ابن شهيد هو الذى ألهم أبا العلاء رسالة الغفران وما صَوَّر فيها من رحلة وراء الطبيعة يوم البعث وعلى الصراط وفى الجنة ، أو أن أبا العلاء هو الذى ألهم ابن شهيد رحلته وراء الطبيعة فى وادى الجن ؟ . ولعل فيما ذكرناه ما يبطل هذا النزاع والجدال ، فإن بديع الزمان هو الذى استغلَّ لأول مرة الحديث عن وديان الجن وشياطين الشعراء فى مقامته الإبليسية ، ثم جاء بعده ابن شهيد وأبو العلاء المعرى فى القرن الخامس الهجرى ، فألف كل منهما رحلة فيما وراء الطبيعة ، ويتضح أثر البديع بقوة فى ابن شهيد لأنه التقى مباشرة مع البديع فى وادى الجن ، أما أبو العلاء فاستقل برحلته عن هذا الوادى ، واتخذ لها مضموناً أشمل وأبعد وأوسع .

خاتمة

١

تحدثنا عن الجزيرة العربية فى القسم الأول من هذا الجزء الخاص بتاريخ الأدب العربى فيها وفى العراق وإيران فى عصر الدول والإمارات الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث ، وبدأنا حديثنا عن الجزيرة العربية بعرض التاريخ السياسى لأقاليمها حينئذ ، وهى الحجاز ونَجْد واليمن وحَضْرَمَوت وظَفار وعُمان والبَحْرين ، وفصلنا القول فى إمارتى مكة والمدينة وما كان من دخول الحجاز فى حكم الدولة العثمانية . وصورنا تحركات القبائل فى نجد وتكوينها لإمارات متعددة فى شرقى الجزيرة وظهور آل فضل وآل مِرا فى بوادى الشام ثم ظهور آل سعود فى نجد . وعرضنا دول اليمن المتعاصرة فى زَبيد وصَنْعاء وصَعدة وعَدن ودخولها فى حكم الأيوبيين ثم الرسوليين فالطاهريين، فغلبة الدولة الزيدية عليها . وتتداول الدول اليمنية حَضرمَوْت ، وكذلك ظفار إلى أن تبعت عُمان نهائيا . وكان الخوارج فى عمان يتخذون « نَزْوَى » فى الداخل حاضرة لهم بينما استقلت عنهم عمان والثغور على الخليج العربى قرونا متطاولة حتى غلبوا عليها فى القرن العاشر الهجرى . وسيطر القرامطة على البحرين فى أوائل العصر ، وخلفتهم عليها دول متعاقبة أهمها الدولتان العيُونية ودولة بنى عصفور ، واستقلت عن البحرين قطر وجزيرة أوال (البحرين الحالية) وضمت الدولة السعودية إليها الأحساء والقَطيف منذ أكثر من قرن .

وكان مجتمع الجزيرة طوال العصر يتألف من بدو وحَضر ، وظلت نجد بدوية إلا قليلا فى بعض القرى وبعض العواصم التى اتخذتها إماراتهم . وكان ينزل اليمن أحباش كثيرون ، بينما نزل فى مدن الخليج وثغوره كثير من أهل إيران والهند وسواحل إفريقيا . وعرفت اليمن وعمان والبحرين الزراعة واعتمدت عليها مما أهَّل لشئ بها من الحضارة ، واشتهرت اليمن بكثرة الجوارى والغناء . وعرفت الجزيرة بجانب المذاهب السنية الأربعة المشهورة : مذهب أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل مذاهب الشيعة : الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية وكانت « نَزْوى » بعمان مركزا للخوارج الإباضية من قديم ومنها شاع مذهبهم فى حضَرموت . وما ينتصف القرن الثانى عشر الهجرى حتى يعتنق محمد بن سعود أمير الدِّرْعية

الدعوة الوهابية السلفية ويضع يده فى يد محمد ابن عبد الوهاب لنشرها فى الجزيرة ، وهى نداء يدعو إلى اتباع الحنابلة من أهل السنة . ويلقانا كثير من كبار المتصوفة فى مكة واليمن وحضرموت ، وكان النساك متشردين فى كل مكان .

وكان يجرى فى كل بلاد الجزيرة جدول كبير من جداول الثقافة العربية بجميع علومها وفنونها ، حتى فى قرى نجد وقد تحولت – منذ ظهور محمد بن عبد الوهاب – إلى دار كبيرة لدراسة كتبه وكتب إماميه : أحمد بن حنبل وابن تيمية . وكانت مكة والمدينة أشبه بجامعتين كبيرتين ، بما كان فيهما من العلماء والأدباء ، وبما كان يفد عليهما سنويا من أدباء العالم العربى وعلمائه ، وخاصة من كان يقيم بهما منهم مجاوراً سنوات طوالا . وكانت الحركة العلمية والأدبية ناشطة طوال العصر فى اليمن وحضرموت وعمان والبحرين ، ونشط معها البحث فى علوم الأوائل وعلم الملاحة البحرية خاصة على نحو ما هو معروف عن ابن ماجد العمانى . وفى كل أقاليم الجزيرة ومدنها نشطت علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد ، وكثر تأليف المعاجم والكتب والدراسات البلاغية والنقدية ، وبالمثل نشطت علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام وكثر العلماء فى كل الأقاليم ، وكثر ما أنتجوه من الكتب والمصنفات .

وكان الشعر يجرى على كل لسان فى أقاليم الجزيرة ، وأخذت العامية تزاحم الفصحى فى نجد واليمن وحضرموت وعمان والبحرين منذ القرن السادس الهجرى ، ومع مرور الزمن شاع معها شعر حُمَيْنى فى اليمن وحضرموت وشعر نبطى فى بقية الأقاليم ، غير أن سيل الشعر الفصيح ظل قويا فيها جميعا ، وقد ترجم الباخرزى لمجموعة كبيرة من شعراء نجد والحجاز واليمن فى القرن الخامس الهجرى وترجم العماد الأصبهانى لطائفة من شعراء بنى عُقَيل فى الموصل وشعراء بنى مَزْيد فى الحِلَّة وأيضا لطائفة من شعراء الحجاز واليمن فى القرن السادس . وتلقانا بعده فى كتب مختلفة تراجم لشعر الجزيرة فى حقب العصر التالية ، غير ما طُبع ونشر من دواوين النابهين من الشعراء . ويكثر شعراء المديح وفى مقدمتهم القاسم بن هُتَيْمل اليمنى وأحمد بن سعيد الخُروصى السِّتالى العُمانى وعلى بن مقرب العُيونى البَحْرانى وعبد الصمد بن عبد الله باكثير الحَضْرمى ، كما يكثر شعراء المراثى من أمثال التهامى المكى وجعفر الخطى البَحْرانى ، وشعراء الفخر والهجاء من أمثال نشوان بن سعيد الحميرى اليمنى وسليمان النبهانى العُمانى .

وتتكاثر فى الجزيرة طوائف الشعراء ، ونلتقى منهم بشعراء الدعوة الإسماعيلية وفى طليعتهم ابن القمّ والسلطان الخطّاب وعُمارة اليمنى ، وبشعراء الدعوة الزيدية من أمثال يحيى

ابن يوسف النشو بمكة وموسى بن يحيي بَهْران وعلى بن محمد العنسى فى اليمن ، وبشعراء الخوارج من أمثال أبي إسحق الحضرمى الإباضى وابن الهُبَيْنى اليمنى . ونلتقى بشعراء الدعوة الوهابية السلفية ، وفى مقدمتهم محمد بن إسماعيل الحسنى الصَّنعانى اليمنى وابن مشرف الأحسائى ، وبشعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال عبد الرحيم البُرَعى اليمنى وعبد الرحمن العَيْدَرُوس الحضرمى . وجميعهم رُسمت شخصياتهم واتجاهاتهم الشعرية .

ولم تكن نجد تعنى بالكتابة قبل ظهور محمد بن عبدالوهاب ، أما بعد ظهوره فقد أخذت الكتابة تنمو مع الدعوة نموا واسعا . وكان فى مكة والمدينة كتَّاب إنشاء من قديم ، وكثرت بهما الإجازات العلمية وتقاريظ الكتب . وكانت الكتابة مزدهرة فى اليمن طوال العصر ، وظلت ناشطة فى حضرموت وعمان والبحرين . وتحتفظ الكتب برسائل متبادلة بين أمراء مكة وسلاطين مصر المماليك . وكانت الرسائل الديوانية ناشطة فى اليمن منذ زمن الدولة الصليحية فى القرن الخامس . وتحتفظ الكتب التاريخية ببعض رسائل متبادلة بين الدولة الرسولية وسلاطين المماليك فى مصر ، وكذلك برسائل متبادلة بين الأئمة الزيديين المتأخرين وبين أئمة الخوارج فى عمان ، و بالمثل بين الأئمة الأخيرين وعمالهم . وتكثر الرسائل الشخصية ويتحول بعضها إلى رسائل أدبية جيدة . ويكثر الوعظ . وتلقانا محاورات ورسائل فكاهية ومقامات أدبية متنوعة .

٢

وفى القسم الثانى من هذا الجزء تحدثنا عن العراق ، وبدأنا حديثنا عنه بتاريخه السياسى وبيان الدول التى تعاقبت على حكمه ، وهى الدولة البويهية ، ويليها الدولة السلجوقية ، ويسترد الخلفاء منها فى منتصف القرن السادس الهجرى صولجان الحكم ، ويقضى التتار بقيادة هولاكو على حكمهم وخلافتهم فى منتصف القرن السابع . وتتعاقب على العراق وبغداد دولتان تتاريتان : دولة الإيلخانيين ودولة التيموريين ثم دولة التركمان ، ويظل العراق فى قبضتها إلى أن استولت عليه الدولة الصفوية الإيرانية ، وسرعان ما استخلصته منها الدولة العثمانية . وكان المجتمع فى بغداد يتألف من ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية مترفة . وطبقة وسطى تحظى بشىء من سعة العيش ، وطبقة دنيا هى طبقة العامة ، وكانت تتجرَّع الضنك والبؤس ، فتحوَّل كثيرون منها إلى عيَّارين ولصوص ينهبون بغداد من سنة إلى أخرى مستشعرين – فيما يبدو – فكرة العدالة الاجتماعية . وشاع فى العراق المذهب الشيعى الإمامى الاثنا عشرى ، وكان بجواره مذهب شيعى مارق هو مذهب النُّصَيْرية ،

ومذهب شيعى معتدل هو مذهب الزيدية . وكانت موجة الزهد والتصوف حادَّة طوال العصر ، وتزخر كتب التراجم بأسماء الزهاد والمتصوفة وطرقهم وخاصة طريقتى الجيلانى والرفاعى وما شاع بعدهما من طريقتى النقشبندية والبكطاشية .

وظلت الحركة العلمية فى بغداد ناشطة وكذلك الشأن فى العراق عامة إذ عُنى بها البويهيون والسلاجقة ، وخاصة وزيرهم نظام الملك مؤسس جامعة النظامية ببغداد ، وتتكاثر المدارس ، ويؤسس الخليفة المستنصر ببغداد جامعته المستنصرية . وكانت المساجد مدارس كبرى يستمع فيها الناس للعلماء فى كل فن بحيث تصبح الثقافة غذاء شعبيا عاما ، مما أحدث رواجا هائلا فى الوراقة ونشر الكتب على نحو ما يصور ذلك ابن النديم فى كتابه « الفهرست » . وتظل هناك بقية لحركة الترجمة ، وتنشط الحركتان الفلسفية والعلمية حتى لتصبح الفلسفة وما يتصل بها من علوم الأوائل من مدارك العامة ، كما تدل على ذلك رسائل إخوان الصفا . وتتكاثر الندوات الفكرية فى بغداد ويتكاثر المتفلسفة ، وخاصة قبل الغزو التتارى ، وتظل منهم بقية فى الحقب التالية . وتنشط فى العصر الكتابات الفلسفية والطبية والعلمية والجغرافية ، كما تنشط البحوث اللغوية وشروح الشعر ، وتنفذ بغداد فى النحو إلى مدرسة جديدة هى المدرسة البغدادية . ويتسع النشاط فى الدراسات البلاغية وما يتصل بها من البديعيات ، وبالمثل فى الدراسات النقدية وخاصة حول المتنبى وشعره . ويُعْنَى صفى الدين الحِلِّى بدراسة الموشحات والأشكال الشعرية المستحدثة والشعر العامى . وتنشط بغداد والعراق فى دراسات القراءات والتفسير والحديث النبوى والفقه وعلم الكلام ، كما تنشط الكتابة فى التاريخ العام والخاص وفى تراجم العلماء من كل صنف .

ويتكاثر الشعراء فى العراق وتتوالى موجاتهم على نحو ما يلقانا فى اليتيمة وتتمتها والدمية والخريدة وما تلاها من كتب التراجم ، وينظمون فى الرباعيات والموشحات ، ويفسحون فى أشعارهم لصور كثيرة من التعقيدات حتى فى المحسنات البديعية . ويلقانا مع كل دولة بل فى كل مكان شعراء المديح ومن أعلامهم الأفذاذ المتنبى أكبر شعراء العصر ، وسبط ابن التعاويذى ، وصفى الدين الحِلِّى . ونلتقى بكثيرين من شعراء المراثى والهجاء والشكوى من أمثال السَّرِىّ الَّرفاء ، وابن القطان . ويكثر شعراء الشيعة ، وفى مقدمتهم الشريف الرضى ، ومهيار ، وابن أبى الحديد .

ونلتقى بطوائف كثيرة من الشعراء ، وأول من نلتقى بهم شعراء الغزل ، وقد أذاعوا فيه حنينا وشوقا وظمأ للقاء محبوباتهم لا ينتهى ، مما أعدَّ لظهور ضرب من الشعر الوجدانى عند ابن المعلم والحاجرى والتَّلعْفَرِىّ . ويتغنَّى للطبقة المترفة شعراء اللهو والمجون من أمثال

ابن سُكَّرة ، وابن الحجاج ، بينما يتغنى للشعب ومشاعره الدينية شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية من أمثال ابن السراج البغدادى ، والمرتضى الشَّهْرَزُورِىّ ، والصَّرْصَرِىّ . ويلقانا أصحاب الشعر الفلسفى والتعليمى من أمثال ابن الشِّبل البغدادى وابن الهبَّارية ، كما يلقانا شعر شعبى عامى كثير وقفنا عند فنونه ، وأيضا شعراء شعبيون من أمثال أبى الأحنف العُكْبرى .

ويتنوع النثر فى العصر ، فكان هناك النثر الفلسفى والنثر العلمى والمناظرات وخطابة الوعظ والقصص وكتب الأدب التهذيبى والرسائل الشخصية . وتكثر الكتابات الديوانية ونلتقى بأبى إسحق الصابىء والعلاء بن الموصلايا وضياء الدين بن الأثير . ويلقانا من أعلام النثر أبو حيان التوحيدى بأسلوبه المتموج بطرائف الفكر ، وابن مسكويه بنظرياته الأخلاقية الملتحم فيها الفكر الأجنبى بالفكر الإسلامى العربى مع حسن الأداء ، والحريرى بمقاماته الرائعة التى خلبت ألباب معاصريه وخالفيه حتى العصر الحديث .

٣

وفى القسم الثالث من هذا الجزء تحدثنا عن إيران ، وبدأنا حديثنا ببيان الدول المتقابلة بها ، وهى الدولة السامانية ، والدولة البويهية ، والدولة الزيارية ، والدولة الغزنوية ، ثم تحدثنا عن الدول التى تعاقبت عليها منذ أواسط القرن الخامس الهجرى ، وهى دولة السلاجقة ، والدولة الخوارزمية ، والدولة التتارية الإيلخانية ، والدولة التيمورية ، والدولة الصفوية ، وما تلاها من الدول . وكان مجتمع إيران يتكون من ثلاث طبقات : طبقة أرستقراطية مترفة ، وطبقة متوسطة تعيش فى غير قليل من اليسار ، وطبقة دنيا هى طبقة العامة . ونشط الشيعة فى نشر عقيدتهم، وفى مقدمتهم الزيدية الذين أقاموا لهم فى القرن الثالث دولة فى طبرستان غير أنها لم تمكث طويلا . ومنذ قبض البويهيون على زمام الأمور بإيران نشط الإماميون فى نشر عقيدتهم ، ومازالوا ناشطين حتى تولى الصفويون مقاليد الحكم فى أواخر القرن التاسع الهجرى فجعلوا المذهب الإمامى المذهب الرسمى لإيران . وكان نشاط الإسماعيليين كبيرا طوال القرنين الخامس والسادس الهجريين إلى أن قضى عليهم التتار نهائيا فى منتصف القرن السابع الهجرى . وكانت تعم فى إيران موجة زهد وتصوف ، وحدث انفصام بين الصوفية والفقهاء ، وسرعان ما رأب الصدع أبو نصر السراج ، والقشيرى ، والغزالى .

وظلت الحركة العلمية طوال العصر ناشطة ، وخاصة فى القرون الأولى ، بفضل رعاية الحكام والأمراء لها ، فكانوا يبنون المدارس ويرصدون الرواتب للعلماء والطلاب ، وعُنوا بالمكتبات . وأقبل جميع أفراد الشعب على العلوم ، حتى النساء ، وأخذوا يفردون كتبا لشرح المصطلحات فى العلوم والفنون . ونشطت نشاطا عظيما دراسة الفلسفة وعلوم الأوائل ، ويكفى مثلا لهذا النشاط جهود ابن سينا والبيرونى ، مما أهل لنهضة العلوم الرياضية والفلكية والطبيعية والجغرافية . وتكاثر وضع المعاجم ، وازدهرت المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية . ونشط التأليف فى التفسير كما نشط التأليف فى الحديث النبوى ، وفى الفقه ، وفى علم الكلام وخاصة فى المذهبين : الأشعرى والماتريدى . وتنوعت الكتابة التاريخية بين كتب تتناول التاريخ العام أو تاريخ بعض البلدان وكتب تتناول التراجم : تراجم الشعراء والعلماء فى كل فن .

ويزدهر الشعر العربى بإيران فى القرون الرابع والخامس والسادس للهجرة ، بدليل المجلدات الضخمة التى شغلها فى اليتيمة وتتمتها وفى الدمية والخريدة . ومعروف أن أول كتاب صنف عن الشعر الفارسى وشعرائه كتاب عوفى فى القرن السابع الهجرى . ونفس الشعر الإيرانى صيغ صياغة على أنماط الشعر العربى ، وتناولَ نفس موضوعاته ، وشاع فيه مثله زخرف البديع ومحسناته . وقد ظل الشعر العربى حيًّا فى إيران حتى القرن التاسع على الأقل . ويتكاثر شعراء المديح وفى مقدمتهم على بن عبد العزيز الجرجانى والطغرائى والأَرَّجانى ، وبالمثل شعراء المراثى من أمثال أبى الحسن على بن أحمد الجوهرى الجرجانى ، وشعراء الفخر والهجاء والشكوى من أمثال أبى بكر الخوارزمى ، والأبِيوَرْدىّ .

وتلقانا بإيران طوائف كثيرة من الشعراء ، وأول من نلقاهم شعراء الغزل وفى مقدمتهم أبو الفرج بن هندو ، وأبو الفضل الميكالى . ويليهم شعراء اللهو والمجون من أمثال أبى بكر القُهُسْتانى ، وأبى الحسن الباخرزى ، وشعراء الزهد والتصوف من أمثال القُشَيرى ، ويحيى السُّهْرَوَرْدِىّ ، وشعراء الفلسفة والحكمة والأمثال وفى مقدمتهم أبو الفضل السكرى المَرْوَزِىّ ، وأبو الفتح البُسْتى ، وشعراء شعبيون مختلفون من أمثال أبى دُلَف الخزرجى .

وينشط النثر ، ويظهر فيه قصص صوفى كثير وقصص فلسفى بديع ، ويتكاثر كتاب الرسائل إذ تكثر الدول والإمارات ويصبح لكل إمارة ولكل دولة ديوان ، ويشتهر فى كل دولة كاتب مجيد من أمثال قابوس بن وَشْمكير والعُتْبِىّ ورشيد الدين الوطواط ، ومن أنبه كتاب إيران فى العصر على توالى حقبه ابن العميد الذى أرسى قواعد الكتابة على ركنين

أساسيين من السجع والمحسنات البديعية ، وأوفى الصاحب بن عباد بالكتابة بعده على الغاية التى كانت تنتظرها من التجويد والتنميق . وينشئ بديع الزمان الهمذانى لأول مرة فى تاريخ الأدب العربى مقاماته المشهورة . وهو بحق يُعَدُّ أَبْرَعَ كتَّاب إيران الذين ظهروا فى عصر الدول والإمارات غير منازَع ولا مدافَعٍ .

فهرس الموضوعات

صفحة

مقدمة .... ٥ – ٨

القسم الأول : الجزيرة العربية .... ٩ – ٢٣٠

الفصل الأول : السياسة والمجتمع .... ١١ – ٥١

١ – أقاليم ودول وإمارات : الحجاز ، نجد ،

اليمن ، حضرموت و ظفار ، عمان ، البحرين ١١

٢ – المجتمع ٣٤

٣ – التشيع ٤٠

٤ – الخوارج : الإباضية ٤٤

٥ – الدعوة الوهابية السلفية ٤٦

٦ – الزهد والتصوف ٤٨

الفصل الثانى : الثقافة .... ٥٢ – ٨٧

١ – الحركة العلمية ٥٢

٢ – علوم الأوائل ، علم الملاحة البحرية ٥٧

٣ – علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد ٦٢

٤ – علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام ٧٢

٥ – التاريخ ٨٤

الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء .... ٨٨ – ١٤٣

١ – الشعر على كل لسان ٨٨

٢ – كثرة الشعراء ٩٢

٣ – شعراء المديح : القاسم بن هتيمل ، أحمد بن سعيد الخروصى

الستالى ، على بن المقرب العيونى ، عبد الصمد بن عبد الله باكثير ١١٠

٤ – شعراء المراثى : التهامى ، جعفر الخطى ١٢٦

٥ – شعراء الفخر والهجاء : نشوان بن سعيد الحميرى ، سليمان النبهانى ١٣٥

صفحة

الفصل الرابع : .... ١٤٤ – ٢٠٠

١ – شعراء الدعوة الإسماعيلية :

ابن القِمّ ، السلطان الخطاب ، عمارة اليمنى ١٤٤

٢ – شعراء الدعوة الزيدية :

يحيى بن يوسف النَّشْو ، موسى بن يحيى بهران ، على بن محمد العنسى ١٥٧

٣ – شعراء الخوارج : أبو إسحق الحضرمى ، ابن الهبينى ١٧١

٤ – شعراء الدعوة الوهابية السلفية :

محمد بن إسماعيل الحسنى الصنعانى ، ابن مشرف الأحسائى ١٨٠

٥ – شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية :

عبد الرحيم البرعى ، عبد الرحمن العيدروس ١٨٧

الفصل الخامس : النثر وأنواعه .... ٢٠١ – ٢٣٠

١ – تنوع الكتابة ٢٠١

٢ – رسائل ديوانية ٢٠٦

٣ – رسائل شخصية ٢١٤

٤ – مواعظ وخطب دينية ٢٢١

٥ – محاورات ورسائل فكاهية ومقامات ٢٢٦

القسم الثانى : العراق .... ٢٣١ – ٤٧٨

الفصل الأول : السياسة والمجتمع .... ٢٣٣ – ٢٧٥

١ – البويهيون والسلاجقة والخلفاء العباسيون ٢٣٣

٢ – الدول : المغولية ، والتركمانية ، والصفوية ، والعثمانية ٢٤١

٣ – المجتمع ٢٥١

٤ – التشيع ٢٦٣

٥ – الزهد والتصوف ٢٦٩

الفصل الثانى : الثقافة .... ٢٧٦ – ٣٢٢

١ – الحركة العلمية ٢٧٦

٢ – علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة ٢٨٢

٣ – علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد ٢٩٢

٤ – علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام ٣٠٥

صفحة

٥ – التاريخ ٣١٨

الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء .... ٣٢٣ – ٣٨١

١ – كثرة الشعراء ٣٢٣

٢ – رباعيات وتعقيدات وموشحات ٣٢٦

٣ – شعراء المديح : المتنبى ، سبط ابن التعاويذى ، صفى الدين الحلى ٣٣٦

٤ – شعراء المراثى والهجاء والشكوى : السرى الرفاء ، ابن القطان البغدادى ٣٥٩

٥ – شعراء التشيع : الشريف الرضى ، مهيار ، ابن أبى الحديد ٣٦٨

الفصل الرابع : **طوائف من الشعراء** .... ٣٨٢ – ٤٢٩

١ – شعراء الغزل : ابن المعلم ، الحاجرى ، التلعفرى ٣٨٢

٢ – شعراء اللهو والمجون : ابن سكرة ، ابن الحجاج ٣٩٦

٣ – شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية : ابن السراج البغدادى ، المرتضى
الشهرزورى ، الصَّرْصرى ٤٠٥

٤ – شعراء الفلسفة والشعر التعليمى : ابن الشبل البغدادى ، ابن الهّباريَّة ٤١٦

٥ – شعراء شعبيون : الأحنف العكبرى ٤٢٣

الفصل الخامس : النثر وكتَّابه .... ٤٣٠ – ٤٧٨

١ – تنوع النثر ٤٣٠

٢ – كتاب الرسائل الديوانية : أبو إسحاق الصابىء ، العلاء بن الموصلايا
ضياء الدين بن الأثير ٤٤٠

٣ – أبو حيان التوحيدى ٤٥٣

٤ – ابن مسكويه ٤٦٥

٥ – الحريرى ٤٧٢

القسم الثالث : **إيران** .... ٤٧٩ – ٦٧٣

الفصل الأول : السياسة والمجتمع .... ٤٨١ – ٥٢٠

١ – دول : متقابلة : الدولة السامانية ، الدولة البويهية ، الدولة الزيارية ،
الدولة الغزنوية ٤٨١

٢ – دول متعاقبة : دولة السلاجقة ، الدولة الخوارزمية ، الدولة المغولية
الإيلخانية ، الدولة المغولية التيمورية وماتلاها من الدول ٤٩١

٣ – المجتمع ٤٩٨

٤ – التشيع ٥٠٧

صفحة

٥ – الزهد والتصوف ٥١٤

الفصل الثانى : الثقافة .... ٥٢١ – ٥٦١

١ – الحركة العلمية ٥٢١

٢ – علوم الأوائل : تفلسف ومشاركة ٥٢٦

٣ – علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد ٥٣٤

٤ – علوم التفسير والحديث والفقه والكلام ٥٤٧

٥ – التاريخ ٥٥٧

الفصل الثالث : نشاط الشعر والشعراء .... ٥٦٢ – ٦٠٣

١ – الشعر العربى على كل لسان ٥٦٢

٢ – كثرة الشعراء ٥٦٨

٣ – شعراء المديح : على بن عبد العزيز الجرجانى ، الطغرائى ، الأرجانى ٥٧٥

٤ – شعراء المراثى : أبو الحسن على بن أحمد الجوهرى الجرجانى ٥٨٩

٥ – شعراء الهجاء والفخر والشكوى : أبو بكر الخوارزمى ، الأبيوردى ٥٩٤

الفصل الرابع : طوائف من الشعراء .... ٦٠٤ – ٦٤٠

١ – شعراء الغزل : أبو الفرج بن هندو ، أبو الفضل الميكالى ٦٠٤

٢ – شعراء اللهو والمجون : أبو بكر القهستانى ، أبو الحسن الباخرزى ٦١٠

٣ – شعراء الزهد والتصوف ، عبد الكريم القشيرى ، يحيى السهروردى ٦١٧

٤ – شعراء الحكمة والفلسفة : أبو الفضل السكرى المروزى . أبو الفتح البستى ٦٢٧

٥ – شعراء شعبيون : أبو دلف الخزرجى : مسعر بن مهلهل ٦٣٥

الفصل الخامس : النثر وكتابه .... ٦٤١ – ٦٧٣

١ – تنوع الكتابة ٦٤١

٢ – كتاب الرسائل : قابوس بن وشمكير ، أبو النصر العتبى ، رشيد الدين الوطواط ٦٤٨

٣ – ابن العميد ٦٥٥

٤ – الصاحب بن عباد ٦٥٨

٥ – بديع الزمان ومقاماته ٦٦٦

خاتمة .... ٦٧٤ – ٦٨٠